

عالم الفكر

● الرحلة العربية في الخط الهندي
● رحلة الأديب خليل
● الرحلة في أدب أندريه جيل
● الرحلة في القصة الفلسطينية
● العدد الرابع • يناير - فبراير ١٩٨٢
المجلد الثامن عشر

العدد

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٨٣
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص. ب ١٩٣

المحتويات

أدب الرحلات

التمهيد	بقلم مستشار التحرير
الرحلة العربية في المحيط الهندي	الدكتور صلاح الدين الشامي
رحلات جليل	الدكتور نور شريف
الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندلسه جيد	الدكتور نادية محمود عبد الله
الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر	الدكتور جنت خالد غلزي

...

من الشرق والغرب

الخط العربي بين الفن والتاريخ	الدكتور محمود حلمي
الشخصية من المنظور الفيزيولوجي	الدكتور حلمي السيد بشاي

...

شخصيات وآراء

عبد الحميد بن هدوقة والرواية الجزائرية	الدكتور السيد عطيه أبو النجا
--	------------------------------

...

صدر حديثاً

السلوك والتطور	تأليف جان بياجيه
	عرض وتحليل الدكتور سليمان الحصري

تمهيد

« السبب الوحيد لشقاء الانسان هو أنه لا يعرف
كيف يستقر هادئاً في حجرته » ياسكال

أرنولد فان جنب Arnold Van Gennep واحد من علماء الاثنولوجيا والفولكلور الفرنسيين الذين عاشوا في الربع الأخير من القرن الماضي والنصف الأول من هذا القرن (١٨٧٣ - ١٩٥٧) ونالوا شهرة عريضة وتركوا بصماتهم الواضحة على الدراسات الاثنوبولوجية والفولكلورية في الخارج ، ولكنه لم يحظ بكثير من اهتمام الدارسين في العالم العربي. وفيما عدا دراسة لي قمت بها منذ وقت طويل عن « الموت والشعائر الجنائزية في مصر » استرشدت فيها بنظريته وآرائه في تفسير تلك الشعائر لم يكده أحد يهتم به وكتاباته بقدر ما أعرف على الأقل . وأغلب الظن أن الذين يشيرون الى اسمه في كتاباتهم لم يقرأوا أيا من كتبه رغم أن بعضها مترجم الى كثير من اللغات .

أدب الرحلات

في عام ١٩٠٩ نشر فان جنب كتاباً أحدث دويًا بين علماء الاجتماع والاثنولوجيا والفولكلور في فرنسا ، ونعني به كتاب « شعائر المرور » أو Rites de الانتقال « وذلك على الرغم من أن فان جنب

نفسه لم يكن في الأصل أستاذا جامعا ، وإنما اشتغل موظفا حكوميا لبعض الوقت ، ثم عمل في بعض المنظمات والمؤسسات الثقافية الفرنسية في فترات أخرى ، كما قام بالتدريس لفترات قصيرة في عدد من الجامعات غير الفرنسية وبخاصة في نيوشاتل واكسفورد وكيمبردج . وقد خصص كتابه لدراسة موضوع طريف هو « رحلة الحياة » أو على الأصح المراحل التي يمر بها الفرد أثناء هذه الرحلة والشعائر والطقوس والممارسات التي تصاحب الانتقال من مرحلة لأخرى ، كما هو الحال مثلا في الشعائر والطقوس الخاصة بالولادة (باعتبار الولادة عملية انتقال من رحم الأم الى هذا العالم بالنسبة للطفل الوليد ، وعملية انتقال من دور الشخص المتزوج الى دور الأب أو الأم بالنسبة للوالدين) وكذلك الشعائر المتعلقة بالمراهقة والزواج والوفاة . فهذه كلها مراحل هامة وفاصلة في حياة الفرد ، وبخاصة في المجتمعات التي تُعرف اصطلاحا باسم المجتمعات (البدائية) هي تنقل فيها من مكانة اجتماعية معينة لمكانة أخرى مختلفة ، ويحتل بمقتضى الممارسات التي يخضع لها مركزا ووضع اجتماعيا متميزا عن الوضع الذي كان يشغله من قبل ، بحيث تلقى عليه التزامات وواجبات ومسؤوليات تختلف عن تلك التي كان يلتزم بها في المرحلة السابقة .

وتعتبر الوفاة ذاتها بداية للمرحلة الأخيرة في رحلة الحياة الدنيا ، تمهيدا للدخول الى عالم آخر وحياة أخرى ومجتمع مختلف ، هو مجتمع الأسلاف الذي يعتبر لدى كثير من الشعوب امتدادا طبيعيا لمجتمع الأحياء . ويصاحب هذا الانتقال من مرحلة لأخرى نسق من الشعائر والطقوس التي تهدف الى تسهيل انفصال الفرد ، او على الأصح انتزاعه من المرحلة السابقة وإحاقه بالمرحلة الجديدة ودمجه في المجتمع الجديد .

هذا معناه أن الانتقال أو المرور من مرحلة لأخرى يستغرق بعض الوقت ويتم حسب مايقول فان جنب، على ثلاث خطوات متكاملة : في الخطوة الأولى يفصل الفرد عن بيئته القديمة وعن مستواه الاجتماعي القديم ، ويكون ذلك عن طريق ممارسة شعائر خاصة يطلق عليها اسم شعائر الانفصال Rites de Separation وهذا الانفصال تبدأ الخطوة الثانية وهي عبارة عن فترة زمنية يختلف طولها من مجتمع لآخر ويكون الفرد فيها في « حالة محايدة » أو « وضع محايد » ولا يتمتع أثناءها بأية مكانة اجتماعية محددة بالذات ويخضع لكثير من القيود على علاقاته الاجتماعية ، وكثيرا ما يحرم الاتصال بغيره من الناس الاحسب شروط وقواعد يجددها المجتمع ، ولذا تعرف هذه الفترة بالفترة الهامشية ، كما تعرف الشعائر والطقوس والقيود التي تمارس عليه باسم الشعائر الهامشية Rites de Marge وذلك على اعتبار أن الفرد يعيش أثناء تلك الفترة على هامش المجتمع والحياة الاجتماعية . ثم تأتي الخطوة الثالثة التي يتم بها ادخال الفرد الى بيئة الجديدة والى المستوى الاجتماعي الجديد عن

طريق ممارسة شعائر خاصة يطلق عليها فان جنب اسم شعائر الدخول أو شعائر الاندماج في المجتمع Rites d'agrégation

وقد اعتمد فان جنب في بناء نظرية على المعلومات الاثنوجرافية الكثيرة التي كانت متوفرة في ذلك الحين عن عدد كبير من المجتمعات والقبائل (البداية) . ولكنه لم يكتف بمقارنة هذه المعلومات أو تصنيفها وتحليلها وإنما كان يحاول طيلة الوقت أن يصل إلى تفسير اجتماعي مقبول لمعنى تلك الشعائر والطقوس ووظيفتها الاجتماعية ومدى إمكان الاستفادة منها في فهم وتفسير عمليات الحياة الكبرى ، أو كما يقول «فهم وتفسير» طبيعة الحياة « ذاتها وما تتميز به من استمرار رغم كل التحولات والتغيرات الظاهرية . فشعائر المرور أو شعائر الانتقال ليست في آخر الأمر الأشعائر وطقوسا وممارسات ترمز إلى الموت ثم العودة إلى الحياة من جديد . وانفصال الفرد من مجتمعه أو بيئته الأصلية ومركزه الاجتماعي المحدد هو نوع من الموت الذي تعقبه فترة هامشية قبل أن يولد ذلك الفرد من جديد ، أو تعود إليه الحياة في شكل جديد يتمثل في المكانة الجديدة التي يحتلها والالتزامات والواجبات والحقوق الجديدة التي تناط به . إنها قصة تجديد الحياة ذاتها ، أو أنها نوع من التمثيل الرمزي للموت والولادة الجديدة ، وتجديد الحيوية التي تكمن في المجتمع والتي يحتاج إليها كل تجمع انساني حتى يمكنه الاستمرار في الوجود .

من بين هذه المراحل الثلاث اهتم فان جنب اهتماما خاصا بالمرحلة الوسطى أو الهامشية التي هي في جوهرها حركة أو نقلة أو (رحلة) بين حالين من الثبات والاستقرار . وقد أبرز ما يكتنف هذه (الرحلة) من مخاطر وشدائد وأهوال يعاني منها الفرد في المحل الأول كنتيجة مباشرة لعدم انتمائه إلى أي (جماعة) محددة واضحة المعالم ، وعدم تمتعه بمركز اجتماعي معين ، وعدم قيامه بوظيفة أو دور اجتماعي معلوم . ولكن في الوقت ذاته يكون هذا الفرد نفسه مصدر خطر وشر وأذى للآخرين ، ولذا لا يكاد الناس يقربونه إلا في ظروف معينة وحسب قواعد وإجراءات محددة ، وبذلك فإنه يعتبر (تابو) في نظر المجتمع . فهو لا يخضع لقوانين المجتمع وتقاليد المعارف عليها والتي تسرى على بقية أعضائه المجتمع في حياتهم اليومية العادية ، أو كما يقول صولون كيمبول Solon Kimball في مقاله عن فان جنب في « الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية » أن الفرد في هذه المرحلة الهامشية يكون خارج دائرة التحكم المؤلف ، ولذا فإن من مصلحة المجتمع ككل فضلا عن مصلحة الفرد ذاته أن تنتهي هذه المرحلة عن طريق العمل على دخول الفرد إلى المرحلة الأخيرة واندماجه في وسطه الجديد وممارسته بالتالي للدور الاجتماعي الذي يتلاءم مع ذلك الوسط ومكانته الخاصة فيه . وقد حرص فان جنب على أن يعتبر صحة هذه النظرية فيما بعد بتطبيقها على المجتمع الأوروبي المتقدم الحديث وبخاصة المجتمع الفرنسي . وشغله هذا الموضوع ما يزيد على ربع قرن وكانت النتيجة هي ظهور مؤلفه الضخم عن

الفولكلور الفرنسي *Manuel de Folklore Francais Contemporain* وقد صدر من هذا المؤلف حتى موت صاحبه ثلاثة أجزاء في تسعة مجلدات ، يهمنها منها الجزء الاول الذي يقع في مجلدين بعنوان « من المهد الى اللحد *Du berceau à la Tombe* » ففي هذين المجلدين يتابع فان جنب (رحلة) الفرد خلال الحياة والمراحل التي يمر بها ، وبخاصة في الريف الفرنسي ، وشعائر المرور التي تصاحب هذه النقلة من مرحلة لأخرى . ولكنه يتم على أية حال في بقية مجلدات الكتاب بدراسة تغيرات الحياة بمظاهرها المختلفة . فالحياة كلها رحلة أو عملية حركة وتغير تتقلب أثناءها كل الظواهر بين الحياة والموت والعودة الى الحياة مرة أخرى في شكل جديد . وهذه على أية حال (نغمة أساسية) تناولها بالعرض والدراسة كثير من الكتاب والانثربولوجيين بالذات قبل فان جنب . ويدور حولها عدد من الكتب الهامة مثل كتاب سير جيمس فريزر « الغصن الذهبي » (راجع مقدمتنا للترجمة العربية) . ولكن فان جنب لم يكتف بالوصف أو التفسير التاريخي ، وإنما وضع نظرية انثربولوجية متكاملة في ذلك . فالإنسان جزء من الطبيعة وما يصدق على الطبيعة يصدق على الفرد . وثمة مبدأ واحد يحكم تفسير الطبيعة بفصولها الأربعة ، وتغير حياة الفرد وانتقاله من حالة لأخرى خلال (رحلة) الحياة ، كما يحكم الطقوس والشعائر التي تصاحب هذه التغيرات . وليس المهم هنا ما يحتوي الشعائر والطقوس ، وإنما المهم هو التشابه في بنائها رغم كل ما قد يكون هناك من اختلافات في العناصر والمكونات . ولكن على الرغم من كلامه عن (بناء) نسق الشعائر فإنه كان يركز تركيزاً قوياً وواضحاً على خاصة التغير أكثر مما كان يتم بحالة الثبات والسكون . ومن هنا كان اهتمامه بالمرحلة (الهامشية) التي هي في جوهرها مرحلة وانتقال و(رحلة) بكل ما يصاحب هذه (الرحلة) من متاعب وخطار وأحوال .

والواقع أن مدخل فان جنب لدراسة « شعائر المرور » كان عن طريق فحص المعلومات الانثروبوجرافية المتعلقة بالاجراءات والمراسيم التي يتبعها (البدائيون) وبخاصة سكان استراليا الاصليون أثناء الرحلة والسفر والانتقال من مكان لآخر عبر الغابات والادغال الموحشة ، وما يتعرض له المسافر أثناء ذلك من أخطار ، والاحتياطات التي يتخذها هو نفسه والجماعة التي ينتمي اليها لتأمين سلامته . فهناك أولاً الترتيبات الكثيرة المعقدة المتعلقة بالاعداد للرحلة والتي تتمثل ليس فقط في اختيار نوع المتاع الذي سوف يحمله معه ، بل وايضاً نوع الطعام والشراب الذي يجب عليه تناوله ، وما يسبق ذلك كله من استشارة التنبيين ورجال الدين لتحديد الوقت الملائم للقيام بالرحلة عن طريق رصد النجوم ومواقعها أو غير ذلك من الوسائل التي تؤلف جزءاً هاماً من النسق الديني والسحري لدى معظم القبائل (البدائية) . ثم هناك الرسائل والهدايا التي سوف يحملها المسافر معه ، والنصائح التي يتزود بها ، ثم هناك أخيراً خروج الجماعة لتوديعه حتى حدود المجتمع المكانية ، والطقوس الدينية التي يتم بها ذلك

التوديع وبخاصة البكاء المتبادل ساعة الفراق . وينظر فان جنب الى هذه الممارسات من الناحية الشعائرية البحتة ويعتبرها رموزا تشير الى انفصال المسافر عن الجماعة التي يتنقى إليها ، وشعور المجتمع بالألم لفقدان أحد أعضائه ، ومن هنا يطلق فان جنب على هذه المرحلة اسم مرحلة الانفصال ، وعلى الاجراءات والترتيبات والممارسات التي تصاحبها اسم شعائر الانفصال ، على ما ذكرنا .

وبخروج المسافر من ديار قبيلته وإبتعاده عن حدودها المكانية تبدأ (الرحلة) الحقيقية التي يقطع المسافر خلالها مسافات طويلة تحت ظروف مناوئة ومعادية ، ويعانى خلالها كثيرا من المتاعب والمشاق من جراء طبيعة البيئة الجغرافية القاسية والتعرض للخطر من الحيوانات المفترسة أو هجمات سكان المناطق التي يمر بها . ويضع هذه المناطق تسكنها أقوام يمارسون قنص الرؤوس ويهاجمون الشخص الغريب دون التأكد من هويته على اعتبار أن كل غريب مجهول ومصدر للخطر والأذى . ولذا كان لا بد للمسافر نفسه ازاء ذلك من أن يتحوط بمآقد يصيبه وان يكون طيلة الوقت على أهبة الاستعداد ليس فقط للدفاع عن نفسه ودرء الاخطار التي قد تحيق به ولكن أيضا للبدء بالهجوم والاعتداء على كل ما يصادفه ومن يقابله . فهو اذن مصدر خطر لنفسه وللآخرين اثناء الرحلة ، وبذلك تنطبق عليه أهم خصائص (التابو) وهذه هي المرحلة التي يطلق عليها فان جنب اسم المرحلة الهامشية التي تمتد منذ يترك المسافر أرض قبيلته الى أن يصل الى أرض الجماعة او القبيلة التي يقصدها . وأثناء هذه الفترة كلها يفقد المسافر تماما كيانه ومقوماته وشخصيته الاجتماعية والقبلية ويصبح مجرد (فرد) مجهول الأصل والهوية والانتهاى القبلى والاجتماعي . وبذلك يكون دمه حلالا ومباحا للآخرين وذلك في الوقت الذي يستحل هو نفسه دماء هؤلاء الآخرين للدفاع عن نفسه والابقاء والمحافظة على حياته .

ومع ذلك ، فحين يصل المسافر الى حدود موطن الجماعة التي يقصدها فانه لايسمح له بالدخول الى أرض القبيلة ، مباشرة وبخاصة اذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم بها بمثل هذه الزيارة ، وانما يبقى فترة من الزمن على حدود ذلك الموطن قبل أن يؤذن له بالدخول . وأثناء هذه الفترة يوضع المسافر الغريب تحت الملاحظة الدقيقة ، اذ يراقب افراد المجتمع سلوكه من بُعد حتى يتأكدوا من حسن نواياه . وأنه لن يكون مصدر خطر أو تهديد للمجتمع ، فيخرج ممثلون عن الجماعة لاستقباله ، وتمارس بعض الشعائر والطقوس التي تختلف من قبيلة لأخرى ولكنها ترمز كلها في آخر الأمر الى استعداد تلك الجماعة لقبوله بينهم ، اذ يتبادلون الهدايا معه ويشاركون جميعا في تناول الطعام أو الشراب من اناء واحد ممايعنى قيام علاقة جديدة من (الأخوة الاجتماعية) بينهم وبذلك يتم اندماج الوافد الجديد في المجتمع .

ومع أن فان جنب يهتم في كتابه « شعائر المرور » بالمجتمعات البدائية فإن نظريته تصدق على ما يحدث في المجتمع الحديث فيما يتعلق بأمور الرحلة والسفر ، وإن كان التمييز بين تلك المراحل الثلاث وما يرتبط من شعائر بكل مرحلة لم يعد على نفس الدرجة من الوضوح التي نجدها في المجتمعات (البدائية) . فهناك أولا الاستعداد للرحلة بكل ما يستلزمه ذلك من ترتيبات معقدة يدخل فيها رسم خط السير والمناطق التي ينوى المسافر زيارتها وترتيب المواعيد بدقة والحصول على التأشيرات اللازمة وحجز تذاكر السفر وحجز الفنادق وما إلى ذلك ، وهي كلها (شعائر) تعتبر شروطا هامة للبدء في الرحلة و (الانفصال) ولومؤقتا عن المجتمع . ثم تأتي « المرحلة الهامشية » التي تتمثل في الرحلة ذاتها والتي لا تخلو من احتمال التعرض للأخطار - كما أن المسافر يخضع أثناءها - وبخاصة الرحلات الطويلة لقيود وإجراءات تختلف عن تلك التي يخضع لها في حياته العادية مثل مواعيد الطعام بل وألوان الطعام ذاته . كما أنه يتحتم عليه أن يراعى بعض القواعد الخاصة بتوفير الأمان والسلامة له ولغيره من المسافرين ، ثم تأتي في آخر الأمر مرحلة وشعائر الاندماج التي تتمثل في أبسط مظاهرها في (شعائر) وإجراءات الجوازات والجمارك حين يصل إلى (المجتمع الجديد) وذلك قبل أن يؤذن له بالدخول ويمنح حق الإقامة . فالمحتوى اذن يختلف عما يحدث في المجتمعات البدائية ولكن الأساس واحد أو (البناء) متماثل رغم كل الفوارق في المستويات الحضارية والثقافية .

وعلى الرغم من كل ما قاله فان جنب عن الرحلات ، سواء في ذلك الرحلات عبر المكان كما تتمثل في الانتقال من قبيلة لأخرى ، أو من مجتمع لآخر أو الرحلات عبر الزمان كما تتمثل في مراحل العمر ودورة الحياة وتقلبات الظواهر الكونية والطبيعية فإن كتابه لا يدخل في أدب الرحلات . وعلى أى حال فإن أرنولد فان جنب يشأه في ذلك شأن كل علماء المدرسة الفرنسية في القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، لم يقم بأية رحلة علمية أو دراسة ميدانية وإن كان ذلك لم يمنع هؤلاء العلماء من أن يصوغوا نظريات احتلت مكانة مرموقة في الفكر الاجتماعي ، معتمدين في ذلك على المعلومات الانثوجرافية ، التي قام بجمعها الرحالة والمبشرون . والغريب في الأمر أن علماء الانثروبولوجيا الذين يعتبرون الدراسة الميدانية في المجتمعات البدائية عنصرا جوهريا في البحث الانثروبولوجي يتميزون به عن غيرهم من المتخصصين في العلوم الانسانية والاجتماعية والذين تحملهم بحوثهم على هذا الأساس إلى مناطق بعيدة نائية في العالم ، لا يهتمون بتسجيل رحلاتهم ويقتنعون بدراسة وتحليل وتفسير الأنساق الاجتماعية والأنماط الثقافية في تلك المجتمعات ، وغالبا ماتأني كتاباتهم على درجة عالية من التجريد الذي يكاد يقطع الصلة بينها وبين الواقع المشاهد للموس . وحتى في الحالات التي يعرض فيها الباحث الانثروبولوجي لبعض ذكرياته اثناء الدراسة الحقلية فإنه يفعل ذلك في الغالب لكي يبين نوع

الصعوبات التي يلقاها الباحث الأنثروبولوجي أثناء الدراسة ، والطريقة التي يمكنه أن يذلل بها الصعوبات ، أي أن اهتمامه بهذه الذكريات هو اهتمام (منهجي) إن صح هذا التعبير . ومن هنا فإن الكتابات الأنثروبولوجية التي تعتمد على البحث الميداني والدراسة الحقلية لا تعتبر هي أيضا من أدب الرحلات بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإن كانت هناك بعض الاستثناءات بغير شك .

وأحد تلك الاستثناءات الهامة هو كتاب « المناطق المدارية الحزينة Tristes Tropiques » (١٩٥٥) أو « الأفاق الحزينة » كما يعرف في الكتابات العربية : وهو نوع من السيرة الذاتية لعالم الأنثروبولوجيا الفرنسي الشهير كلود ليفي ستروس Claude Levi — Strauss عن طريق وصف الرحلات التي قام بها . ومن المفارقات أن ليفي ستروس يلتزم - فيما يتعلق بالدراسة الحقلية بأصول المهنة التي تقتضى من الباحث الأنثروبولوجي أن يعيش بصفة مستمرة في مجتمع الدراسة لمدة سنة كاملة على الأقل . ومعظم الباحثين أمضوا عامين كاملين ، بل أن الأستاذ برونيسلاف مالمينوفسكى أمضى في جزر التروبر أربع سنوات حتى يمكنه التغلغل الى أعماق نظمهم الاجتماعية وأنماطهم الثقافية . أما ليفي ستروس فانه لم يكن يعضى في أي مجتمع من المجتمعات التي زارها سوى أسابيع قليلة . وهو على أية حال يعترف صراحة في مطلع كتابه بكراهيته للرحلات ونفوره من السفر إذ يقول :

« أنى أمقت السفر والمستكشفين . ومع ذلك فاني أعترم أن أعرض هنا قصة رحلات

الدراسية . ولقد اقتضى اتخاذ هذا القرار منى وقتا طويلا . فلقد انقضت خمس عشرة سنة منذ تركت البرازيل لأخر مرة ، وضعت خلاها خططا كثيرة لهذا العمل الذي بين أيدي القراء ، ولكن في كل مرة كان يداخلني شيء من الحجل ويتأبى بعض الاشتمزاز بماكان يمنعني عن أن أبدأ العمل . وكثيرا ما كنت أسائل نفسي عن السبب الذي يحدوني أن أعرض بالتفصيل لكل تلك الظروف العابرة والأحداث النافذة التي مررت بها . فالمخاطرة لاتؤلف عنصرا جوهريا في العمل الأنثروبولوجي . وإنما هي بالأحرى أحد تلك المعوقات التي لايمكن تجنبها ، والتي تصرف الباحث العالم عن عمله المجدى المفيد وتسبب في ضياع كثير من الوقت بغير طائل . فهناك تلك الساعات الطويلة من الملل والتبلد التي تقضي على حين يخفى الاخباريون والمرشدون ، وهناك فترات الجوع والتعب وربما المرض ، وهناك دائما آلاف الأعمال النافذة الرتيبة الكثيرة التي تلتهم الأيام بغير جدوى أو هدف ، وتجعل الحياة المثيرة في قلب الغابات البكر شيئا أقرب الى الخدمة العسكرية . . . والواقع أن الجهد والمال اللذين ينفقان من أجل الوصول الى موضوع البحث والدراسة لن يضيفا أية قيمة الى مهنة الأنثروبولوجي ، ويجب أن ننظر اليهما من الناحية السلبية البحتة

فالقواقع والحقائق التي نبحث عنها في تلك المناطق البعيدة النائية لن يكون لها أية أهمية الاحين نفصلها عن كل تلك الشواوب والتفانيات . فقد يتحمل الباحث مشقة شهور من السفر والارهاق والملل القاتل لكي يسجل (في ايام قليلة او حتى في ساعات محدودة) احدى الاساطير التي لم تكن معروفة من قبل ، أو قاعدة جديدة من قواعد الزواج ، او قائمة كاملة من أساء الافراد والعشائر ، ولكن هل يستحق هذا من الباحث عناء تناول القلم لكي يدون بعض الشلرات الواهية من الذاكرة وبعض الذكريات الشاحبة على النحو التالي : « في الساعة الخامسة والنصف صباحا دخلنا ميناء ريسيف وسط صيحات طيور النورس العالية ، بينما كان أسطول كامل من القوارب المحملة بالفواكه المدارية يقترب ويتجمع حول الباخرة » ومع ذلك فان هذا النوع من السرد يحظى بدرجة عالية من القبول الذي لا يستطيع أن أفهمه . فالأمازون والتبت وافرقتا نملا الآن المكتبات في شكل كتب الرحلات ووصف الحملات العسكرية ومجموعات الصور التي تهدف كلها الى التأثير في القارئ ، لدرجة أن يصبح من المستحيل عليه أن يعرف القيمة الحقيقية للبيانات والمعلومات التي أمامه . وبدلا من أن تستثير هذه الأعمال ملكة النقد لدى القارئ نجده يطالب بالمزيد من تلك التفاهات الضحلة ويتلع كميات هائلة منها . لقد أصبح الاستكشاف الآن نوعا من التجارة التي تهدف ليس الى اظهار بعض الحقائق التي كانت مجهولة من قبل ، وذلك عن طريق البحث والدراسة الطويلة المضنية ، بقدر ما يهدف الى قطع مسافات شاسعة من الارض وتجميع عدد ضخم من الشرائع والصور المتحركة التي يستحسن ان تكون ملونة حتى تجذب اكبر عدد من المستمعين الى المحاضرات ولأطول فترة ممكنة . . . »

ورأي ليفي ستروس فيه قدر كبير من الصحة والصدق بغير شك . فالملامح على العموم أن أدب الرحلات قد تراجعت الى حد كبير عما كان عليه في العصور السابقة وحتى اوائل هذا القرن ، وذلك على الرغم من أن العصر الحالي يعتبر بحق عصر الرحلة والسفر نظرا للامكانيات والتسهيلات الهائلة في هذا المجال ، بحيث أصبح السفر جزءا من الحياة العادية للرجل العادي يعكس ماكانت عليه الأوضاع في الماضي . فالرحالة الأوائل القدامى كانوا من أدباء وفنانيين ومؤرخين وجغرافيين ومكتشفين ومبشرين ولذا جاءت كتاباتهم في الاغلب سجلا واثيا ودقيقا وعميقا عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التي زاروها ومظاهر سلوكهم وعوائدهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية ، وتقويعا لانجازاتهم في مختلف ميادين الثقافة ، ولم تكن مجرد سرد وصفي لتفاصيل الرحلة والأحداث العابرة التي مرت بهم اثناء ذلك ، وهذا يصدق على المؤرخين والجغرافيين اليونانيين مثل هيرودوت وسترابون وبلاوتنياس ،

مثلاً يصدق على الكثير من الرحالة العرب والمسلمين الذين تركوا لنا دراسات عميقة تكشف عن درجة عالية من القدرة على الملاحظة الدقيقة والتحليل ، كما هو الحال في رحلات ابن فضلان مثلاً ، أو كتاب البيروني « تحقيق مآللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » كما يصدق على كثير من كتب الرحلات التي تركها لنا الأوروبيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتي سجلوا فيها ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن حياة عدد من الشعوب (البدائية) التي زاروها ، وإن لم تحل تلك الكتابات من التحيز للثقافة الأوروبية والحضارة المسيحية ، فضلاً عن اغراق بعضها في التخيلات والمبالغات والافتراء والاحكام غير الدقيقة ، ولكن بعض هذه الكتابات كانت تلتزم الجد والواقع في الوصف والتحليل مثلاً فعل أندريو باتل Andrew Battel مثلاً عن سكان الكونجو ، أو مآكته القسيس اليسوعي البرتغالي جيرمو لوبو Jerome Lobo عن الاحباش في كتابه « رحلات بنكرتون » الذي ترجمه دكتور جونسون في اوائل القرن التاسع عشر الى الانجليزية ، ويقول عنه انه « أفلح بطريقته البسيطة الخالية من التكلف في أن يصف الاشياء كما رآها وأن يصور الطبيعة من واقع الحياة ذاتها كما انه يعتمد على حواسه وليس على خياله » . بل ان بعض هؤلاء الرحالة والمبشرين كانوا يعتقدون كثيراً من المقارنات بين ثقافات الشعوب البدائية والثقافات والحضارات القديمة العريقة مثلاً فعل الأب لافيتو في مقارنته بين عقائد وعادات بعض قبائل الهندو الحمر من ناحية ومعتقدات وتقاليد اليهود والمسيحيين الأوائل واهالي اسبرطة وكريت والمصريين القدماء من الناحية الاخرى ، أو مثلاً فعل الرحالة الفرنسي دولا كريكانيير De la Crequiniere في محاولة تبين أوجه الشبه بين عادات الهندو والتقاليد اليهودية واليونانية والرومانية ، وذلك بغية الوصول الى فهم أفضل للأشعار المقدسة والكتاب الكلاسيكيين ، وهكذا (انظر في ذلك الفصل الرابع من ترجمتنا لكتاب الاستاذ ايفانز بريتشارد : الانثروبولوجيا الاجتماعية) . ولسنا نهدف هنا الى الكلام بالتفصيل عن كتب الرحلات خلال مختلف العصور ، إنما هدفنا هو أن نبين كيف أن كثيراً من هذه الكتب كان يزخر بالمعلومات الدقيقة عن المناطق التي زارها الرحالة والشعوب التي اقاموا فيها ، وأن هذه الكتب افلحت في أن تجذب اليها القراء نظراً لابتعادها عن أسلوب العرض العلمي الجاف رغم التزامها بالدقة والامانة بقدر الامكان ، الى جانب ما فيها من عنصر الخلق والابداع الذي تخلو منه الكتب العلمية ، بل ان بعض كتب الرحلات وجد من الاقبال والرواج ما لم تلقه بعض روائع الاعمال الادبية ، وخير مثال لذلك الاديب الشاعر جوتو الذي يقال ان رحلته الشهيرة الى ايطاليا جذبت من القراء أضعاف ما جذبه أى كتاب أو مسرحية أو رواية أخرى من اعماله ، بما في ذلك آلام فرتو وفاوست . ولا يزال أدب الرحلات يؤلف فرعاً من أهم فروع الكتابة في الآداب الغربية رغم انه يصعب العثور الآن على ما يماثل في العمق والروعة واتساع الأفق وشمول النظرة كتب الرحلات التي أشرنا الى بعضها هنا ، أو تلك التي سوف يرد ذكرها في الدراسات التي

يضمها هذا العدد . وما يؤسف له أيضا أن التقليد العربي القديم الذي كان يعطى كثيرا من الاهتمام بأدب الرحلات لم يستمر ، بحيث يصعب القول ان هناك ما يمكن تسميته بحق بأدب الرحلات في الكتابات العربية المعاصرة .

وبعض المسئولة عن تخلف أدب الرحلات في الوقت الحالى تقع على التغيرات التى طرأت مؤخرا على « ميتافيزيقيا السفر » . وهذا مصطلح استخدمه لأول مرة بول فوسيل Paul Fossel في كتاب حديث ظهر في أواخر عام ١٩٨٢ بعنوان Abroad . فالثورة التكنولوجية والالكترونية الحديثة والتطورات التى طرأت على أساليب الاتصال ساعدت على ظهور « المسافر او السائح المستقر » الذى يمكنه أن يتعرف عن طريق الصور التى تنقلها اليه الاقمار الصناعية من كل أنحاء العالم على مختلف الثقافات والشعوب والبيئات ، مما يخلق لديه في آخر الأمر إحساسا كاذبا وخادعا بأنه من أكبر الرحالة عبر الزمان والمكان ، مع أنه لم يتحول عن مكانه . وساعدت وسائل المواصلات الحديثة السريعة الفخمة والمرجحة ، وبخاصة الطائرات الضخمة التى تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت على اختزال تلك المرحلة الهامشية ، وحرمان المسافر من تجربة الرحلة الحقيقية بكل ما فيها من عمق وما يصاحبها من إثارة وأخطار ، واستبدلت بها الراحة والرفاهية اللتين تخلفان في المسافر شعورا غريبا يطلق عليه لانس مورو Lance Morrow اسم (الفراغ الهامس) وأدت كل هذه التطورات الى أن يصبح دور المسافر سلبيًا الى حد كبير ، ويختلف تماما عن إيجابية الرحالة القديم أو حتى المسافر في المجتمعات البدائية ، فثمة الآن أجهزة ومؤسسات متخصصة تتولى عنه كل شؤون الرحلة . بحيث يمكن القول ان المسافر الآن (لا يقوم) في الحقيقة بالرحلة وإنما يتم (إرساله) من مكان لآخر بواسطة (النبوة) هى الطائرة التى تقله من بلد لآخر ، مثلما يتم إرسال الخطابات والرسائل والمغلفات من مكتب لآخر في المؤسسات الكبرى عن طريق الانابيب المخصصة لذلك . وتبلغ هذه السلبية مداها حين يشترك المسافر في تلك الرحلات الجماعية التى أصبحت إحدى سمات العصر ، فيجد نفسه ينتقل بين أماكن لم يكن له يدنى اختيارها ويتحرك بطريقة آلية ضمن جماعة لا يوجد بينه وبينهم أى رابطة حقيقية ، ويستمتع الى شروح وتعليقات سريعة وضحلة لاتتيح له الفرصة للتفكير أو التعمق في الدراسة ومحاولة الفهم ، وكل هذا معناه في آخر الأمر أن (الرحالة) بالمعنى القديم الذى يشير الى التميز والفردية والأصالة أخذ في الاختفاء بسرعة لكي يحل مكانه (المسافر) أو (السائح) الذى يسلم أموره الى غيره ، ويرى الاماكن بعيون غيره ويفهم الثقافات بأفكار غيره ويصدر الأحكام على الشعوب بأراء غيره ، وهذا كله لايساعد على ازدهار أدب الرحلات بالمعنى المتعارف عليه . ولكن هذا يعني أيضا أن على علماء الانثربولوجيا والفولكلور إعادة النظر فيما قاله ارنولد فان جنب عن « شعائر المرور » .

تمهيد

تمثل الرحلة ، سواء كانت برية أو بحرية في المفهوم العام ، انجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة واسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر . ويتأتى هذا الانجاز من أجل هدف معين ، ومحاول هذا الهدف ارادة الانسان وحركة الحياة على الارض بشكل مباشر أو غير مباشر .

وقد تكون الرحلة هواية ، تشبع حاجة في نفس الانسان وترضيه ، وقد تكون الرحلة احترافا يخدم حاجة الانسان ويشبعه . ولكنها تكون - في الحالتين - استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محدودة تدعو بكل اللامح للتحرك والانتقال من مكان الى مكان آخر . بمعنى أن من شأن دوافع معينة أن تدعو الانسان الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحة ، لكي يخترق حاجز المسافة ، ولكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الاغتراب وصولا الى غاية مباشرة أو تحقيقا لهدف معين .

الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في نهضة المعرفة الجغرافية

مهلاح الدين الشاهي

رئيس قسم الجغرافيا - جامعة صنعاء

ومن أجل اختراق حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر . ومن أجل بلوغ الرحلة في البر أو في البحر أقصى ما تصبو اليه ، كان الاجتهاد الانساني الذي أسفر عن تهيئة الوسيلة أو الوسائل المتنوعة لحساب التحرك والانتقال . وصحيح أنه ربما جد الانسان في السير على قدمين حيناً لاتمام رحلة ما وبلوغه غايته منها ،

ولكن الصحيح أيضا أنه سخر كل الوسائل الأخرى التي أبتدعها وأحسن تشغيلها ، لكي توسع دائرة انتشاره وتطويع ارادة التحرك ، ولكي تسعف اهتمامه بالرحلة وجني ثمراتها ، لحساب حركة الحياة ، على الصعيد المحلي أو على الصعيد الاقليمي أو على الصعيد العالمي .

ومن غير الدخول في تفاصيل كثيرة ، ينبغي أن نذكر كيف أن المدنيات العتيقة والعريقة التي ترعرعت في أحضان الزراعة ، وصنعت أسباب الاستقرار واطلقت العنان للإبداع الانساني من وراء كل الحواجز والدوافع التي دعت - بل والحت - الى تنظيم وتحريك وتوجيه الرحلة وجني ثمراتها . كما ينبغي أن نلفظ - بالضرورة - أيضا الى دور هذه المدنيات الايجابية ، في مجالات تهيئة وتطوير وسائل الانتقال في البر أو في البحر على حد سواء .

وهكذا نتبين كيف اطلقت العنان للرحلة ، حددت لها أهدافها ، وكيف سيرتها وأحسنست استخدامها في الاتجاه الصحيح . ومن ثم كان ذلك كله من وراء الانفتاح والتفتح في وقت واحد . والمقصود من الانفتاح خلق قنوات الاتصال المباشر وغير المباشر بين أوطان المدنيات العريقة . أما التفتح فمعناه توسيع دائرة الرؤية واستشعار المصلحة المشتركة لحركة الحياة في اطار وحدة الارض ووحدة الناس على الارض . هذا ، ولقد كان هذا الانفتاح وهذا التفتح المبكر ، من وراء رؤية جغرافية كاشفة ، ولقد انتفعت المعرفة الجغرافية بهذه الرؤية الكاشفة انتفاعا حقيقيا . وصحيح أن الرحلة التي اصطنعت ابعاد هذا الانفتاح والتفتح قد أغرقت حركة الحياة وثمرات الرؤية الجغرافية لبعض الوقت في بحر الخيال الاسطوري من غير واعي . ولكن الصحيح أيضا أنها بصرت ورشدت مع مضي الوقت - ارادة الكشف الجغرافي وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية على الارض في كل وقت .

وهكذا ندرك كيف غدت الرحلة في البر أو الرحلة في البحر العين المبصرة ، التي قادت الاجتهاد - الجغرافي . وكثيرا ما أسفرت الرحلة عن نجاحات حقيقية حققت أهداف الاجتهاد الجغرافي وسيرته في الاتجاه الصحيح لحساب وحدة حركة الحياة على الارض .

ونحن - على كل حال - لانزعم أو ندعي أن المعرفة الجغرافية كانت حافزا من وراء الرحلة وتحريكها في ذلك الوقت القديم . بل لاندعي أو لانزعم أن المعرفة الجغرافية كانت هدفا أو غاية مباشرة نظمت من أجلها الرحلة في البر أو في البحر . ولكن الذي ندعيه ونؤكد عليه حقا ، هو أن المصلحة المشتركة ، قد جمعت - من غير قصد مباشر ، بين هدف كل أو أي رحلة من جانب ، وهدف الرؤية المشتركة ،

الجغرافية من جانب آخر . ويعني ذلك الجمع بين هذين الهدفين شكلا من أشكال الانتفاع المتبادل فيما بينهما .

ونستطيع أن نقول أنه في الوقت الذي كان حصاد الاجتهاد الجغرافي فيه عينا مبصرة ، ترشد الرحلة ، أو عصا تنوكا عليها في البر أو البحر . كانت الرحلة مجالا رحبا ومشعبا يشهد الاجتهاد الجغرافي وينشطه وتوسعفه برؤية كاشفة تنفعه . هذا ، وينبغي أن نؤكد على أن الرحلة البرية أو الرحلة البحرية - سواء كانت فردية أو جماعية - كانت في المقام الأول انجازا من أجل التجارة . وصحيح أن بعض الرحلات قد نظمت في شكل ما لمطاردة أو لردع العدوان ، ولكن الصحيح أيضا أن معظم الرحلات قد نظمت وسيرت ومولت من أجل أغراض اقتصادية بحتة . ويبدو أن تنوع حاجات الحياة واقتتاد بعضها في أوطان المدنيات العريقة قد حفزت المغامرين للقيام بالرحلة في البر تارة وفي البحر تارة أخرى . ولقد تحمل هؤلاء المغامرون مسؤولية الرحلة ومشقة الاغتراب والبذخ والعودة في خدمة الوساطة التجارية .

وفي هذا البحث ، نود أن نلقي الضوء على الاجتهاد العربي الجسور المغامر على متن السفينة في المحيط الهندي ، وسوف نتابع تحرك الرحلة البحرية العربية وانجازاتها الحقيقية . ومن ثم نبين مدى اسهام هذا الاجتهاد الجسور في تجسيد الرؤية الجغرافية وترشيدها على المدى الطويل .

الاجتهاد العربي والمغامرة البحرية

لكي نحدد بداية هذا الاجتهاد المغامر في البحر - على وجه التحديد - يجب أن نذكر متى كان ازدهارها وتفتح وغو بعض المدنيات العتيقة والعريقة في وادي النيل الأدنى - مصر - وفي سهل الرافدين - العراق - وفي أنحاء كثيرة من حوض البحر المتوسط في جانب ، ومتى كان ازدهار وتفتح وعمو المدنيات العتيقة والعريقة في شبه القارة الهندية من جانب آخر . كما يجب أن نذكر معنى وماهية العلاقة التي تأتت لكي يتبادل المنافع فيما بينهما . ومن ثم ينبغي أن ندرك كيف كان ذلك كله بكل أبعاده وموجباته المادية والروحية من وراء دعوة صريحة حفزت أو دفعت لفرقا نشيطا من سكان المنطقة لكي يقوم بنهضة قنوات الانصال فيما بينها وخدمة أشبه ما تكون بالوساطة حضاريا واقتصاديا وتجاريا بين هذه المدنيات العريقة .

ولقد رشح موقع جزيرة العرب الجغرافي وامتداد البحر الاحمر والخليج العربي على المحور العام من

الجنوب الى الشمال فريقا نشيطا من العرب للاستجابة لهذه الدعوة . وتولي هذا الفريق بكل المهارة اداء وتعمل المسؤولة في خدمة قنوات الاتصال الحضاري والاقتصادي والتجاري في مقابل أرباح مادية وثمرات حضارية .

وما من شك في أن نضج هذه الفريق العربي النشيط الذي عاش في جنوب الجزيرة العربية نضجا حضاريا مبكرا ، قد أزر مغامراته في البحر وأيد اهتمامه بالعمل التجاري والوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط . وهناك أكثر من دليل في صفحات التاريخ على ذلك . بل هناك سباق ممتاز يحكي نشاط الرحلة البحرية العربية ، ويصور نجاح الفريق العربي النشيط سواء وهو يمارس الرحلة البحرية في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر ، أو وهو يمارس الرحلة البرية عبر جزيرة العرب ذاتها .

وصحيح أن انتصارات الاسكندر الأكبر ، قد ألهمت حماس الاهتمام بتجارة البحار الجنوبية التي وضع غرب جنوب الجزيرة العربية دعائمها الاولى . وصحيح أن عناصر غير عربية - مصرية ويونانية - قد ظهرت في البحر الأحمر والخليج العربي ، واشتركت في رحلات التجارة البحرية على وجه الخصوص ، ولكن الصحيح ، بل المؤكد أن عرب جنوب الجزيرة (أهل اليمن الكبير) كان لهم فضل السبق على مدى وقت طويل . بل لقد احتفظت الرحلة البحرية لهم بمكانة مرموقة أو بدور الريادة والتفوق في تجارة البحار الجنوبية .

وليس من قبيل الزعم أو الادعاء أن نؤكد على أن عرب جنوب الجزيرة العربية قد وضعوا في هذه الرحلة المبكرة بعض أسس وقواعد وأصول هامة وحيوية في مسألة التجارة الدولية وحركة الاقتصاد العالمي ، وليس من قبيل الزعم أو الادعاء مرة أخرى ، أن نؤكد أن عرب جنوب الجزيرة العربية قد تولوا في هذه المرحلة المبكرة متفردين مهمة الممارسة العلمية لرحلات بحرية منتظمة في عرض المحيط . ولقد وضعت هذه الرحلات هؤلاء الرواد في خدمة التجارة والاحتكاك التجاري والحضاري بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط .

هذا ولقد تولى عرب جنوب الجزيرة العربية هذه المهمة بكل المسئولية على المدى الطويل ، وربما كانت البداية مبكرة ومبكرة جدا وقبل الميلاد بعدد كبير من القرون . وربما كان التغير المناخي وتضاعد حالة الجفاف وما اقترن بها من شح وتقدير في جزيرة العرب من بين أهم الدوافع الفعالة التي دفعت الفريق العربي النشيط لاحتراف الملاحة البحرية والعمل في خدمة الرحلة البحرية والاغتراب لحساب التجارة . وهناك من يقدر بداية هذه المهمة ترجع الى حوالى الألف الخامس قبل الميلاد .

ومن غير استغراق في جدل موضوعي حول هذا التقدير ، ينبغي ان ندرك كيف تسلت نتائج هذه المهمة والقيام بها وجنى ثمرات الرحلة البحرية والاغتراب الى نسيج الواقع الحضاري والواقع الاقتصادي والواقع الاجتماعي لكل دولة من الدول التي ازدهرت واكتسبت السمعة والمكانة في مساحات معينة من ارض اليمن الكبير . كما لا ينبغي ان نفكر او نستنكر الريادة العربية في ركوب البحر والمغامرة الجسورة في المحيط الهندي اوفى الاغتراب في مساحات من عالم المحيط الهندي (١)

ومن الطبيعي ان نتصور كيف بدأ تعامل البحارة من اهل اليمن الكبير مع البحر وكيف اشتغلوا بالوساطة التجارية بداية في أحضان البحر الاحمر . وهناك اكثر من دليل على أنه كان المدرسة التي اكتسبت فيها الخبرات والمهارات التي هيأت للانسان العربي اليمنى النشيط ازاء دوره . بل وهناك مواقع كثيرة في أحضان مرافئ متتجة ، قد شهدت هذه البدايات المبكرة كما احتوت عمليات بناء ومجهيز السفن التي اسعفت الرحلة البحرية العربية وخدمت اهدافها .

ومن الجائز ان نتصور كيف شارك البحارة العرب فريق آخر من غير اهل اليمن (من مصر والشام واليونان) في ملاحه البحر الاحمر (٢) . ومن الجائز ان نتصور كيف كان التنافس وكيف كان التعاون حتى جنى هذا الفريق المختلط من اهل اليمن ومن غير اهل اليمن ثمرات ركوب البحر والرحلة البحرية في البحر الاحمر . ولكن الذي ينبغي ان نؤكد عليه بالفعل ، هو تفرد البحارة من اهل الجنوب العربي يتجاوز باب المندب . ومن ثم بدأ الاجتهاد العربي الذي افلح في اختراق حاجز المسافة في اتجاه الشرق وانتظام الرحلة العربية في احضان المحيط الهندي . وتحمل بالضرورة معنى الانفتاح العربي على عالم المحيط الهندي وما بنى عليه من ريادة في حركة التجارة على مستوى قيم من المستويات الدولية في ذلك الوقت القديم .

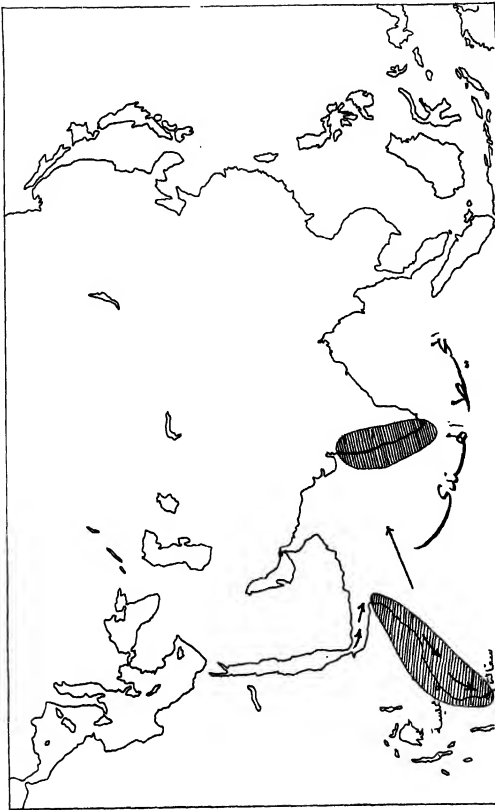
الرحلة العربية في المحيط الهندي

اختراق حاجز المسافة بين اقطار متباعدة وانتظام الرحلة البحرية في المحيط الهندي في ذلك الوقت المبكر قد يعنى الريادة في المغامرة البحرية ، وامتلاك الوسيلة والخبرة التي شدت أزر هذه المخاطرة ، اسلمتها زمام التعامل التجاري والوساطة التجارية بين اقطار واقوام في احضان البحار الجنوبية واقطار

(١) سبيتر موسكالي المرجع السابق ص ١٩٧

(٢) القاضي الاسلام والفكر الجغرافي العربي القاهرة ١٩٧٩

والفكر الجغرافي سيرة وسيرة القاهرة ١٩٨٠



(١) الحضور العربي المنقشر - الرحلة الأولى - (تجارب السائح)

واقوام في احضان البحر المتوسط ثم هويعى ايضا ضربا من ضروب الافتتاح الاقتصادى الذى خلعم التكامل بين الاقطار ، وصعد قيمة وأهمية المصالح المتبادلة بينها في اطار الدائرة التى استوعبت ثمرات هذه الوساطة التجارية .

وفى اعتقاد أي باحث منصف أن اختراق حاجز المسافة وانتظام الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندى تعنى بالضرورة التفتح الجغرافى واتساع دائرة الرؤية الجغرافية . والتفتح الجغرافى الذى تعنيه لايعنى اقل من معاينة ورؤية كاشفة للارض التى تمر بها او التى تنتهى إليها الرحلة ، كما لايعنى ايضا اقل من معايشة وتعامل كاشف للناس والاقوام الذين محتوهم هذه الأرض ، والرحلة البحرية العربية في المحيط الهندى لايمكن ان تحقق اقل من ذلك ، بل لعلها رسخت استشعار الاختلافات والفروقات بين الارض والاقوام وهى تنتقل في طريقها لأداء المهمة المنوطة بها .

هذا وامان شك في ان هذا التفتح الجغرافى الذى كان ثمرة من ثمرات الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندى قد بصر أورشد أو صحح مساراتها واتجاهاتها . بل لعله اسعفها من حين الى حين آخر وهى توسع مدى انتشار الحضور العربى والتعامل التجارى على الصعيد الآسيوى بصفة خاصة وهل ننكر ان اكتشاف أو معرفة حركة الرياح الموسمية الصيفية وهى جنوبية وغربية ، والرياح الموسمية الشتوية وهى شمالية شرقية هو من قبيل التفتح الجغرافى ؟ وهل يمكن ان ننكر بذلك قيمة او أهمية هذا التفتح الجغرافى الذى اصطنع نقطة تحول حاسمة واطلق العنان للرحلة البحرية العربية وحقق الافتتاح الاقتصادى الذى اسفر عن شكل او عن صورة مبكرة من صور التجارة الدولية ؟

صحيح أن البحارة العرب قد امسكوا عن ذكر معظم التفاصيل عن رحلاتهم البحرية المغامرة في عرض المحيط الهندى ، وصحيح انهم احتفظوا لأنفسهم بكثير من اسرار معرفتهم الجغرافية . ولم يفرطوا في تصوير رؤيتهم الجغرافية تخوفا من منافسة دخيلة عليهم من بحارة مغامرين من غير العرب . ولكن الصحيح ايضا انهم روجوا القصص الخرافية وشحنوها بالخيال المخيف الذى حسب الرعب والفرع على امل تخويف كل من تسول له نفسه اقتحام المحيط الهندى والمغامرة فيه والاشتراك في اداء الدور الاقتصادى الذى اشبعهم ربها وكسبا وامطرهم ذهباً وفضة .

ولا ينبغي ان نستنكر السكوت عن حسن تصوير الرؤية الجغرافية او ان نستنكر أغراق الرؤية الجغرافية في الخرافة والخيال . بل ولا ينبغي ان ننصور السكوت جهلا بقيمة هذه الرؤية الجغرافية وما تعبر عنه . ولكن الذى نؤكد عليه هو أن السكوت كان وسيلتهم الى تحجب هذه الرؤية ، وان حجب

الرؤية الجغرافية امر ضرورى دعت اليه ارادة الاحتكار الاقتصادى ورفض المنافسة بصفة عامة . وموقف البحارة العرب في المحيط الهندى يعيد الى الازهان موقف البحارة الفينيقيين الذى تكتسبوا اسرار البحر وحجبوا رؤيتهم الجغرافية من اجل درء خطر المنافسة الاقتصادية -

وحجب اخبار الرحلة البحرية او اغراقها في خضم الرواية الاسطورية ، وتكتم اسرار البحر والحركة في انحاءه قد افلح على كل حال في منع البحارة من غير الجنوب العربى على مدى مرحلة طويلة ، من اقتحام المحيط الهندى واستخدامه ، وهناك ما يؤكده على ان البحارة اليونان والرومان قد حاولوا على مدى فترة طويلة جمع المعلومات عن المحيط الهندى طلبا للملاحه فيه ، وكسر احتكار الرحلة البحرية العربية ، وتفرد البحارة العرب بشمرات الوساطة التجارية .

هذا ، وكان من شأن الرحلة البحرية العربية التى انطلقت من موانئ متعددة في جنوب جزيرة العرب ، ان تصل في نهاية المطاف الى شبه القارة الهندية . وينبغى ان نتصور هول ومشقة هذه الرحلة البحرية التى كانت تضرب في محيط واسع ، كما ينبغى ان نتصور كيف كانت المعرفة الجغرافية مطلوبة لكي تكون في معية الرحلة البحرية ترشدها وتسدد خطاها على الطريق ، بل ومن غير هذا الترشيح ، تكون الرحلة في مسارها الذى يضرب في عرض البحر في ضلال مبين .

ولكى تتحقق هذه الرحلة البحرية العربية ، ولكى تفلح في اداء مهمتها دائما وصولا الى شبه القارة الهندية وعودة منها ، احسن البحارة من الجنوب استخدام المعرفة الجغرافية التى جمعت أوصلها رؤية جغرافية متكررة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . بمعنى ان اقتحام المحيط الهندى ومغامرة الرحلة البحرية لم تبدأ بـ بداية ناجحة ومطمئنة الا من بعد ان اكتسبت تجربة وخبرة . وهل تبني مثل هذه التجربة والخبرة على حصاد معرفة جغرافية وتصور صحيح لطبيعة العلاقة بين اليابس والماء ، في انحاء القطاع الرحب من المحيط الممتد بين الجبهة الافريقية والجبهة الآسيوية .

هذا وكان من شأن هذه الرحلة البحرية في الذهاب والاياب ، ان تمر بتجربة الرحلة البحرية الساحلية وتجربة الرحلة البحرية في عرض المحيط . وفي كل تجربة من هاتين التجريبتين برهن البحارة العرب على كفاءة وخبرة حقيقية في ركوب البحر وحسن توجيه السفينة وانجاح الرحلة . بل وكادت ان تمثل هذه الرحلة البحرية شكلا من اشكال التحرك المنتظم في مواسم معينة وعلى خطوط سير محددة .

وتحرك الرحلة البحرية الذى بدأ من موانئ جنوب جزيرة العرب ، قد اعتمد على الملاحه الساحلية . ، وكان من شأن السفينة ان تتحرك بهذا السطح الاfrیقی وصولا الى هدفها المرحلى . .

كما كان من شأنها ان تتجاوز القرن الافريقى ، وان تتقدم جنوبا صوب ساحل شرق افريقية على امتداد الجبهة الطويلة بين موقع بمبسة وموقع سفالة (٣) . بمعنى أنها رحلة بحرية لازمت خط الساحل الافريقى وتثبتت به فلم تبعد منه كثيرا وكأنها تخشى أن تفصل في عرض البحر .

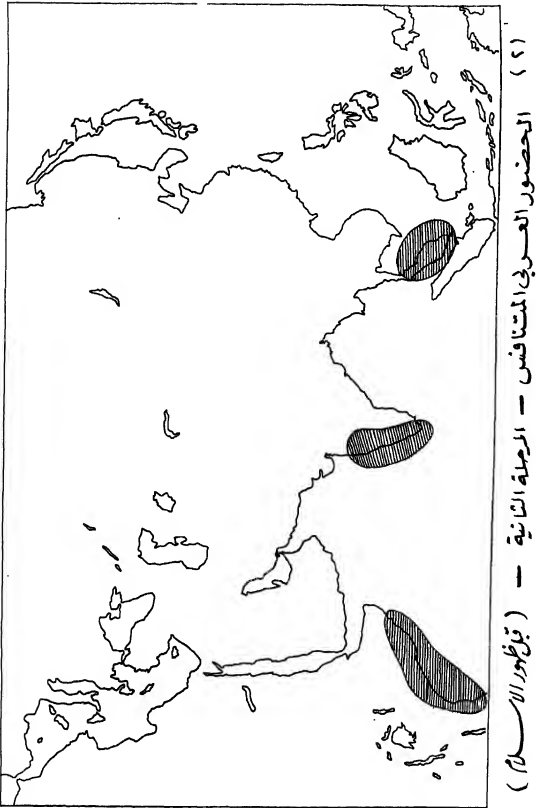
والوصول الى هذا الهدف المرحلي كان المقصود منه وضع السفن في المكان الانسب لاقتحام المحيط ، في الوقت المناسب . وربما تنفلت السفن آنذاك من مرفأ الى مرفأ آخر على امتداد الجبهة الافريقية الشرقية وتقدمت جنوبا بكل الحيلة والحذر ، وكان من الطبيعى ان تتسكع - السفينة - وأن تتحسس سبيلها ، قبل ان تنتخب المرفأ أو المرافء الافضل والانسب ، وفي احضان هذه المرافء المنتخبة ، أقيمت أو جهزت الميناء أو الموانئ التى تنتهى عندها الرحلة بعد ملاحه ساحلية طويلة ومضنية . وفي هذه الموانئ كانت السفن تلتقط أنفاسها وتنتهى لاقتحام المحيط واستئناف الرحلة في عرض البحر الى شبة القارة الهندية .

والانتماء المرحلى من الرحلة بحداء الساحل الافريقى ، وانتخاب المرفأ أو المرافء وتجهيز الميناء او الموانئ وحيازتها وتشغيلها ، يعنى حضورا عربيا مباشرا ومقمتا على الساحل الافريقى ، ومن الجائز أن ندرك أن أو أن تنصور كيف استقبل هذا الحضور العربى المقيم على الجبهة الافريقية البحر بلهفة واصرار ، لكى نستكمل الرحلة البحرية وتحقق أهدافها الاقتصادية ، ومن الجائز ، ايضا أن ندرك أن أو أن تنصور كيف استدبر هذا الحضور العربى القيم العمق الافريقى في ظهور الساحل الافريقى بحذر واشفاق ، لكى يتجنب الانغماس في حركة حياة بدائية لا تخدم او لا تحقق اهداف الرحلة البحرية الحقيقي . ولكن المؤكد من بعد ذلك كله ان هذا الحضور العربى المقيم على الجبهة الافريقية في احضان الموانئ كان حضورا إيجابيا الى حد بعيد ، عندما تثبتت بالارض وعاش الناس واشترك وقاد مسيرة حركة الحياة اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا .

ولقد خدم هذا الحضور العربى النشط المغترب التفتح الجغرافى في نفس الوقت الذى قاد فيه مسيرة الانفتاح الاقتصادى وحركة التجارة . وصحيح ان التوغل العربى من الموانئ ومراكز التجارة على الساحل الافريقى الى القلب الافريقى الهاصد على سطح الهضاب الشرقية كان توغلا حذرا وبطيئا الى حد كبير (٤) ولكن الصحيح ايضا ان هذا الحضور العربى المبكر على الجبهة الافريقية والتوغل المتأني

(٣) Huzzin S . A . S . : Arabis and the far East , Cairo 1942

(٤) ميهيتر موسكالي الحفارات السامية القديمة ترجمة د / بطرب بكر صفحة ١٩٢ - ١٩٣



الى الظهير ، قد عايش الأرض وعاش الناس . ثم قص عنها وروى (٥) ومن ثم كانت رواياتهم مصدرا مبكرا وأصيلا ، لكثير من أوجه المعرفة الجغرافية على الصعيد الأفريقي الاستوائى .

والتقاط الانفاس الذى اسفر عن حضور عربى مغترب على الجبهة الافريقية طور العلاقة المباشرة بين هذا الحضور العربى بكل تطلعاتهم والناس الافارقة بكل بساطتهم (٦) وقد ادى ذلك بكل تأكيد الى اختلاط وتزاوج حتى تسربت دماء عربية كثيرة . وكانت الافريقيات أرحاما لأجيال كثيرة فى عروقها دماء عربية تتكلم لغة الأمهات . ولقد تشبث هذا الحضور العربى المغترب بالارض وجعل منها رأس جسر للتحرك العربى البحرى الى الجبهة الاسيوية .

ومن الميناء او من الموانئ التى اتخذت شكل او وظيفة المركز التجارى Trade Post على الجبهة الافريقية بدا الشوط الثانى من الرحلة البحرية العربية وفى هذا الشوط اقتحمت الخبرة البحرية العربية عرض البحر وكان الاقتحام اقتحاما جسورا وهادفا . وينبغى ان نتصور كيف كان هذا الهدف بين أهم العوامل التى صرفت الحضور العربى المغترب على الجبهة الافريقية عن التوغل فى الظهير الافريقى . كما ينبغى أن ندرك ايضا ، كيف امتلك الحضور العربى المغترب السفن من النوع الذى اسعف هذا الاقتحام على مواجهة الاخطار التى يمكن ان تسفر عنها غلبة البحر فى بعض الاحيان .

هذا ، ولقد شدد الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الصيفية أزر هذا الاقتحام البحرى العربى . الجسور ووجهت مسيرة الرحلة البحرية فى اتجاه مباشر الى شبه القارة الهندية ، وصحيح أن الرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية قد يسرت امر العودة وإياب الرحلة البحرية الى موانئ الجبهة الافريقية ، ولكن المؤكد أن توقيت رحلة الذهاب فى الصيف وتوقيت رحلة الاياب فى الشتاء يكشف بما لا يدع مجالا للشك عن صدق المعرفة الجغرافية بحركة الرياح الموسمية ، كما يكشف أيضا عن حسن استخدام هذه الرياح واستغلالها لحساب الرحلة البحرية فى عرض المحيط الهندى ولقد فتحت شبه القارة الهندية التى احتوت وجودا هنديا متحضرا صدها بكل الترحيب وحسن التعامل لاستقبال الرحلة العربية وترقب وصولها فى مراقبتها . ومن الجائز ان نتصور كيف كان التحضر الهندى من أهم العوامل التى كانت من وراء حسن استقبال الرحلة العربية . ولكن بيد وأن وضع شبه القارة الهندية من وجهة النظر الطبيعية ، قد فرض على الحياة فيها ان تستقبل البحر وان تظل من خلاله على العالم وان

(٥) جراد على : المصطلح لى تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ بيروت ١٩٦٨ ص ١٧٠ - ١٧٥

(٦) Kamarer , A : Mer rouge depuis l'antiquité le caire 1929 1935

يطل العالم من خلاله عليها (٧) ويقدّر هفة الرحلة البحرية على الوصول الى شبه القارة الهندية والتعامل معها كانت في المقابل هفة شبه القارة الهندية على وصول هذه الرحلة واستمرارها .

ومن الجائز ان ندرك كيف انتخبت الهند الموانئ الأنسب وكيف جهزت الموانئ الافضل لاستقبال البحر وحركة الاقتصاد فيه ، وهذا معناه ان الحضور العربي الوافد مع الرحلة البحرية قد تخفف من عمليات انتخاب الموانئ او تجهيزها ، ومعناه ايضا ان الحضور العربي قد انكب على أداء مهمته الاقتصادية . وجرى العرف على ان تصل الرحلة البحرية العربية وقد حملت السفن منتجات متنوعة من انتاج مدنات حوض البحر المتوسط ومن انتاج الجبهة الافريقية ، فتبادل عليه وتعود محملة بحمولة متنوعة من منتجات الهند وتوابلها على وجه الخصوص .

واستخدام الموانئ الهندية على ساحل ملبار التي احسنت استقبال الرحلة البحرية العربية ، وحرص هذه الرحلة على الذهاب اليها والعودة منها بشكل منتظم في كل عام لا ينفي ولا يتعارض مع حضور عربي مغترب اقام في هذه الموانئ . وصحيح ان هذا الحضور العربي المغترب قد شارك الحضور الهندي في حركة الحياة والجانب الاقتصادي منها على وجه الخصوص . ولكن الصحيح ايضا ان هذا الحضور العربي المغترب على الارض الهندية قد أكد ذاته حضاري ر تصاديا واجتماعيا ، وهو يعطى ويأخذ ، او وهو يتعامل ويتعايش .

وهكذا كان الحضور العربي المغترب الوافد الى الجبهة الاسيوية ، حضورا إيجابيا وفعالا . ولقد عايش الارض لأنه عاش في أحضانها وعرف خصائصها الطبيعية . كما عايش الناس وتعامل معهم واختلط بهم وشاركهم مشاكة فعالة في مسيرة الحياة ، بمعنى انه كان حضورا نشيطا في الاخذ والعطاء على حد سواء .

ويتجلى نشاط وإيجابية هذا الحضور العربي على ثلاثة محاور محددة . وعلى المحور الاول قدم انجازات رائدة خدمت الانفتاح الاقتصادي وحركة التجارة الدولية . ولعلنا لا ننكر انه وضع بدايات دعائم بعض اهم الضوابط الحاكمة لحركة التعامل التجاري بين الامم والشعوب . وعلى المحور الثاني أحسن هذا الحضور دوره الذي شحذ الاحتكاك الحضاري وثما نتاجه واثاره لحساب الانسان ، ولقد اصطنع قنوات اتصال غير مباشرين المدنات المختلفة ، وحقق شكلا مفيدا من اشكال الانفتاح والفتتح الحضاري . وعلى المحور الثالث نور هذا الحضور العربي البصيرة الجغرافية . وزودها برصيد

(٧) مثل ميناء سفلة أقصى ما وصل اليه الانتشار العربي الذي قاد الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي . وتقع في موقع ما على ساحل موزبيق قرب بير

مناسب من المعرفة الجغرافية رغم التكنم الشديد الذى اعتمد فى اخفاء أهم وأخطر الحقائق الجغرافية .

وفى اعتقادى - على كل حال - ان هذا الحضور العربى المغربى على الارض الآسيوية ، كان العين المبصرة التى أطل بها الاجتهاد الجغرافى القديم لدى اهم المدنات القديمة فى حوض البحر المتوسط على عالم المحيط الهندى . ولقد أعطى هذا الحضور العربى بدوره للاجتهاد الجغرافى القديم فى شبه القارة الهندية فرصته لكى يتعرف على الواقع الجغرافى فى انحاء جزيرة العرب وشرق افريقية وحوض البحر المتوسط .

الحضور العربى المغربى والمعرفة الجغرافية

كان الحضور العربى فيما وراء الارض العربية - جزيرة العرب - فى الغالب اغترابا لبعض الوقت بمعنى انه مهما طابت الحياة فى المهجر وتحققت الأرباح وتداخل هذا الحضور فى البنية الاقتصادية كان التثبيت بالعودة الى الوطن أو الوطن أملا يراود المغربى العامل فى حقل التجارة وخدمة الرحلة البحرية العربية . ومع ذلك ينبغى أن نؤكد على أن هذا الحضور المغربى كان حضورا متجددا على المدى الطويل . لأن الرحلة البحرية لم تتوقف ولم تنكاسل ، بل لقد جددت الاجيال دائما شباب وحيوية ونشاط هذا الحضور فى المهجر ، وحافظت على حمل الاءباء وكفلت الصلة العرقية والحضارية بين المغربى والموطن فى الجنوب العربى بشكل منتظم .

ولا تعارض ابدا بين آباب المغرب بعد بعض الوقت من المهجر على الصعيد الافريقى او على الصعيد الآسيوى من ناحية ، وتجدد واستمرار الحضور العربى المغربى فى المهجر من ناحية اخرى . ذلك ان هناك دائما من الاجيال من حل مكان المغربى العائد وحمل عنه العبء . بمعنى ان الحضور العربى مارس شكلا من اشكال الاستيطان فى المهجر . ولأنه حافظ دائما على قنوات الاتصال مع الوطن الام ، فيمكن ان ندرک كيف وسع هذا النمط من الاستيطان دائرة انتشاره وكيف تداخلت حركة الحياة فى الجنوب العربى والمهجر تداخلا يلفت النظر الى حد كبير .

ومن غير ان نفتقد العلاقة بين الرحلة البحرية العربية والحضور العربى المغربى ، ومن غير ان نقلل من شأن التداخل بين حركة الحياة فى الجنوب العربى وحركة الحياة فى المهجر الذى احتوى الحضور العربى المغربى ينبغى ان نلفظ الى مسألة الرؤية الجغرافية ، وكيف تحققت فى البر والبحر على حد

سواء . وما من شك في ان انتشار هذا الحضور العربي المغترب وحرصه على العلاقات بينه وبين الجنوب العربي كان من وراء تجمع أوصال الرؤية الجغرافية الشاملة لعالم المحيط الهندي . ولقد وضعت هذه الرؤية الجغرافية المجمعمة الاجتهاد العربي في مواجهة استشعار مصالغ مشتركة وتداخل حركة الحياة ، حتى كادت أن تتجسد في رؤيتهم معاني وحدة الأرض ووحدة الناس على الأرض . وهذا في حد ذاته انجاز مفيد لأنه يطلق الفكر الجغرافي من الاقليم الضيق المحدود الى منطق العالمية الفضفاض .

هذا ويمكن ان نتابع عطاء الحضور العربي المغترب والرحلة البحرية للمعرفة الجغرافية على مراحل متميزة ومتكاملة في وقت واحد ، بمعنى ان الرحلة البحرية التي لم تتوقف على المدى الطويل منذ اقتحمت باب المندب وخليج عدن وتحوّلت في عرض المحيط الهندي قد حافظت على استمرارية الحضور العربي المغترب وعلى علاقاته بالموطن الام . وكفلت استمرارية العطاء للمعرفة الجغرافية ، ولأن الاستمرار كان على المدى الطويل فان التمييز بين الرحلة البحرية والحضور العربي المغترب وما قد أعطته للمعرفة الجغرافية ، في كل الرحلة امر منطقي خضع بالضرورة لكل المتغيرات البشرية ومابنى عليها من ضوابط حكمت الظروف التي عملت في ظلها او بموجبه هذه الرحلة في تلك المراحل .

والمرحلة الاولى كانت مبكرة وقديمة . ولقد شهدت هذه المرحلة في القرون السابقة للميلاد الرحلة البحرية العربية وما أسفر عنها من حضور عربي مغترب . ويشوب معرفتنا بالرحلة وبالحضور العربي المغترب في هذه المرحلة الشيء الكثير من الغموض والابهام . ويبدو ان هذا الغموض كان متعمدا ولعل عرب جنوب الجزيرة قد اثروا اشاعة هذا الغموض الى حد اغراق اخبار رحلاتهم البحرية الناجحة وما بنى عليها من نتائج اقتصادية مثيرة في خضم الخيال والاهام والسرد الاسطوري . وكان هذا الغموض المتعمد كان مقصودا من أجل ستر الحقيقة بكل ابعادها والتخفي والتنمية والتعمية تحوفا على المصالح اكثر من أى شيء آخر .

هذا ومن الجائز ان نفتقد الوسيلة او القدرة على تحديد بداية واضحة لهذه المرحلة العتيقة وكيف ادت الرحلة البحرية العربية دورها الوظيفي الاقتصادي ، وكيف وضعت جذور الحضور العربي المغترب في المهجر . ولكن المؤكد ان هذه الرحلة قد افلحت في أدائها بالفعل لحساب حركة الحياة في الجنوب العربي وفي المهجر على حد سواء . بل لقد انجزت الانجاز الافضل لحساب حركة الاقتصاد والتجارة بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط ، وهناك اكثر من دليل على ان الملاحين التجار (غير العرب) العاملين في البحر الاحمر كانوا يتربصون بكل لفة وصول هذه الرحلة البحرية من بعد أن تفرغ من أداء مهمتها ، طلبا للسلع والمنتجات التي تعود بها من شبه القارة الهندية .

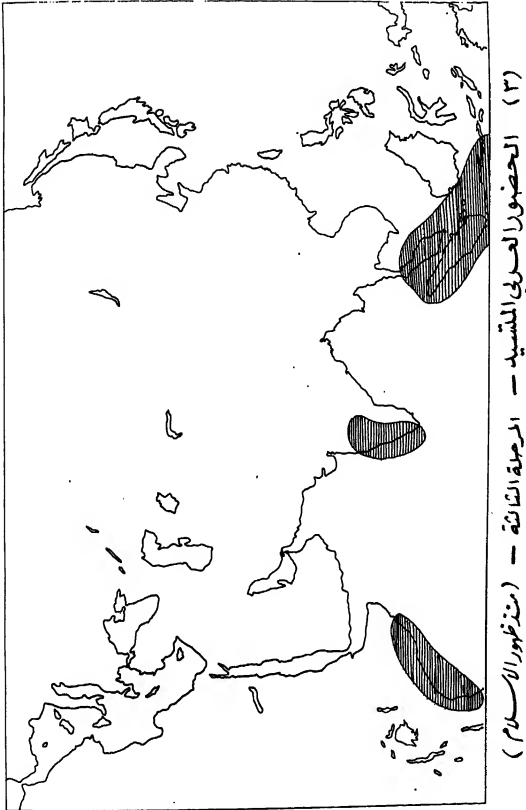
وصحيح أن عرب جنوب الجزيرة الذين واجهوا التحدي الطبيعي المعلن في مواطنهم ضد إرادة الحياة (٨) وقد اتجه فريق منهم إلى البحر فرارا من هذا التحدي . وصحيح أيضا أن هذا الفريق المغامر قد اكتسب الخبرة في ركوب البحر وصناعة السفن البحرية للعمل في أعالي البحار في أحضان البحر الأحمر . وصحيح مرة أخرى أنهم قد شاركوا غيرهم من بحارة الشعوب المتمدينة الأخرى (من مصر والشام واليونان والرومان) في تصعيد أو تكثيف حركة الملاحة في حوض البحر الأحمر . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن تكون العوامل والمتغيرات التي قسمت الفريق المختلط العامل في الملاحة في البحر الأحمر قسمين هما قسم ضم البحارة العرب في جانب وقسم آخر ضم البحارة غير العرب في جانب آخر .

وكان من شأن القسم الأول الذي ضم البحارة من جنوب الجزيرة أن غامر وأبحر بالسفن لارتداد المحيط الهندي . وسجل ذلك لهم الريادة فيه لحساب حركة الاقتصاد العالمي في ذلك الوقت المبكر . أما القسم الآخر فلقد حبسه الجبن والخوف والجهل بالواقع الجغرافي في أحضان البحر الأحمر وسجل التاريخ لهم كيف أنهم لم يتجاوزوا باب المندب أبداً إلى خليج عدن . وصحيح أن التعامل بين هذين القسمين أو الفريقين كان مشمرا ومفيدا ، وأسفر عن سيمفونية من أعظم سيمفونيات المصالح المشتركة . ولكن الصحيح أيضا أن فريق البحارة العرب اصحاب الريادة في المحيط الهندي ، قد احتفظ بسر رحلاته البحرية وبكل المعرفة الجغرافية التي يسرت أمر هذه الرحلات أو التي اسفرت عنها هذه الرحلات ، وضنوا بها وحجبوها عن الفريق الآخر .

وهكذا ضمن البحارة من عرب جنوب الجزيرة لرحلاتهم البحرية في المحيط الهندي ولتعاملمهم التجاري مع بعض الأقطار في عالم المحيط الهندي جوا مناسبا من غير منافسة من أي نوع ، كما كفل ذلك كله حضورا عربيا رائد ومنفردا مغتربا قرونا كثيرة في المهجر على صعيد الأرض الآسيوية والأفريقية . وفي الوقت الذي أمنت فيه هذه الرحلات علاقات الحضور العربي المغترب مع الجنوب العربي ، أمن الحضور العربي المغترب مصالح وحاجات هذه الرحلات البحرية في المحيط الهندي .

وكان هذا الحضور العربي المغترب من خلال الرحلات البحرية على استعداد مستمر لتلبية حاجة أو متطلبات الأسواق في أقطار حوض البحر المتوسط ، كما كان هذا الحضور العربي المغترب على استعداد أيضا لتقديم كل خبراته الحضارية التي صقلها ونماها وطورها الاحتكاك الحضاري المستمر مع الأقوام في

(٨) في الوقت الذي كان الصعود من السهل الساحلي إلى وسط الهضاب في شرق أفريقيا يحمل لوب مشقة التضرس والبررة كان مستوى الناس على هذه الهضاب من حيث الاتجاج والاستهلاك لا يفرق بالضرورة من أجل التعامل التجاري المستمر معهم .



عالم المحيط الهندي . ولكن الشيء الوحيد الذي تشبث به هذا الحضور العربي المغترب ورفض التفریط فيه ، هو معرفته عن الواقع الجغرافي في عالم المحيط الهندي كما اخفى وتستر على كل المعلومات التي دللت لهم تشغيل الرحلات البحرية فيه .

وعن استعداد الحضور العربي المغترب الرائد في عالم المحيط الهندي لتلبية حاجة الاسواق نذكر انهم قدموا كل انواع السلع وفي مقدمتها التوابل الى مصر واليونان والشام وروما . وكم شهدت بعض الموانئ في القطاع الجنوبي من البحر الاحمر عمليات التبادل بين التجار من اهل وبنى الاقوام في عالم البحر المتوسط من جانب ، والتجار من عرب جنوب الجزيرة من جانب آخر ، كما شهدت الطريق البرية من مارب والجوف في اتجاه الشمال وصولا الى موقع مركز التجارة القديم عند غرة حركة مطمئنة لنقل سلع منتجات الشرق التي حملتها الرحلة البحرية العربية المنتظمة بعد جولة طويلة ومضنية في المحيط الهندي .

وعن دور الحضور العربي المغترب الرائد في عالم المحيط الهندي لحساب الاحتكاك الحضاري نذكر انهم احسنوا الانتفاع بحسبهم الحضاري في الاخذ والعطاء ، وفي انجاز الاضافات الحضارية لحساب حركة الحياة . ونذكر لهم كيف انهم افلحوا في نقل اشجار القطن على سبيل المثال من موطنها في شبه القارة الهندية ، لكي يثاق غرسها في مساحات على الصعيد الافريقي ، كما نذكر عنهم ايضا انهم افلحوا في نقل صور كاملة من أهم الانجازات الحضارية الهندية لكي يطلع عليها ويتنفع بها اهل واقوام المدن القديمة في عالم البحر المتوسط ، وصور كاملة من أهم الانجازات الحضارية في المدن القديمة في عالم البحر المتوسط لكي يطلع عليها ويتنفع بها اهل واقوام شبه القارة الهندية .

هذا ولم يكن من شأن هذه الرحلة التي سجلت فيها الرحلة البحرية زيادة الحضور العربي المغترب ان تنتهي إلا في الوقت الذي فك فيه الاجتهاد الروماني طلاس المعرفة الجغرافية بالمحيط الهندي . ولقد تأنى للاجتهاد اليوناني ان يفعل ذلك في حوالى القرن السابق لميلاد المسيح معتمدا على نفسه . وليس في المصادر التاريخية ما يبينه بالكيفية التي انجحت الاجتهاد الروماني في دخول المحيط الهندي واجتيازه ، ولكن الذي نؤكد عليه هو ان الملاحين العرب لم يفرطوا ابدا في معرفتهم الجغرافية طوعا أو كرها^(٩).

ولئن كان الاجتهاد الروماني قد انهى المرحلة الطويلة التي عملت فيها الرحلة البحرية في جوف خال من المنافسة فإنه قد فتح الباب على مصر اعياه لكي تبدأ الرحلة البحرية غير العربية في المحيط الهندي .

(٩) شملت المباشرة الاعتلاط والصامل . ومع ذلك فنبني ان تصور الفاصل الحضاري الكبيرين المغتربين العرب والاربيين ، وكيف تحسست المباشرة متاعب ومشكلات هذا الفاصل .

وهذا معناه بداية المنافسة الحقيقية في وقت تصاعدت فيه الحاجة وزاد الطلب على منتجات وسلع من شبه القارة الهندية . ومعناه ايضا فتح قنوات الاتصال المباشر لحركة التجارة بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط ، ومعناه في نهاية الامر ظهور اجيال جديدة غير عربية تعمل في حقل الوساطة التجارية ونجني ثمرة الانجاز الرومانى بصفة عامة .

وهكذا بدأت الرحلة الثانية التى شهدت الرحلة البحرية العربية والرحلة البحرية غير العربية جنباً الى جنب وهما تعملان لحساب حركة التجارة مع عالم المحيط الهندي . ومن الجائز أن تسجل هذه المرحلة بداية المنافسة بين الرحلة البحرية العربية والرحلة البحرية غير العربية ، ولكن وزن الحضور العربى المغترب في مراكز التجارة كان بالضرورة في عون الرحلة العربية في نصرها وشد أزرها في هذه المنافسة . ومن ثم كانت كفتها الأرجح في ميدان الوساطة التجارية وتؤكد قصة هذه المنافسة على ان حجم الطلب على حصاد هذه الرحلات كان كبيراً ومتزايد الى الحد الذى حال دون وصول هذه المنافسة الى إنهاء أو توقف أى من هاتين الرحلتين .

وصحيح ان الاقتحام الرومانى وتحمل المخاطرة في المحيط الهندي قد كسر طوق احتكار الرحلة البحرية العربية كحركة التجارة والوساطة ، وصحيح ايضا ان الرحلة البحرية غير العربية قد اطلقت العنان للمنافسة في المحيط الهندي ، وجابت هذه المنافسة زيادة الطلب على المنتجات والسلع من عالم المحيط الهندي . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ان ذلك التحول الجديد قد انهى تفرد الحضور العربى المغترب بالمعرفة الجغرافية عن المحيط الهندي .

وانهاء تفرد الحضور العربى واشترائك حضور غير عربى معه في منافسة معناه رفع الحظر الذى كان مفروضاً على غير العناصر العربية . . ورفع الحظر بهذه الصورة لايغنى انسحاب الحضور العربى من الميدان . بل ولا يعنى فتور همه الاجتهاد العربى في خدمة الشكل البسيط من التجارة الدولية او انخفاض معدلات ادائه الوظيفى . وتؤكد كل الحقائق التى اسفرت عنها هذه المنافسة في المحيط الهندي عن انفراج في الغموض الذى ستر أو حجب الحقائق الجغرافية . كما تصور هذه الحقائق كيف تحول الحضور العربى المغترب من حضور رائد متفرد امسك بزمام الاحتكار تجارياً وحضارياً الى حضور متسيد امسك بزمام التفوق .

وهكذا انتهكت الرحلة العربية في أداء دورها في المحيط الهندي ومن وراثتها الحضور العربى المغترب الراسخ في مستوطناته . وربما كانت المنافسة بينها وبين الرحلة البحرية غير العربية مسئولة عن توسيع

دائرة الابحار في المحيط الهندي ، وعن تكثيف الاجتهاد الاقتصادي مع العملاء في العالم الآسيوي .
ولقد تجاوزت الرحلة العربية شبه القارة الهندية بكل تأكيد وامتد مسيرتها المنتظمة الى الملايو ومجموعة
الجزر في جنوب شرق آسيا .

وينبغي أن ندرك كيف أن الحضور العربي المغترب في عالم المحيط الهندي لم يتضرر بالرحلة البحرية
غير العربية ولا بالحضور غير العربي . بل وينبغي أن ندرك أيضا كيف احتفظ هذا الحضور العربي
المغترب بزمام التفوق وهو يشد أزرها الرحلة البحرية العربية ويحفي ثمرات اجتهادها . والأهم من ذلك
كله هو تصاعد نشاط هذا الحضور العربي المغترب تصاعدا حفز الرحلة البحرية العربية حتى وسعت
دائرة نشاطها وانتشارها في انحاء المحيط الهندي . وادى ذلك الى رحلات بحرية عربية ناجحة في شرق
آسيا . وانفتح الباب على مصراعيه لكي تتقابل هذه الرحلات مع الرحلات البحرية الصينية (١٠) .

وهذا معناه افتتاح الحضور العربي المغترب على مدى أكثر اتساعا في هذه المرحلة بداية من القرن
الاول الميلادي . ومعناه أيضا تصعيد وتكثيف حصاد الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي
اقتصاديا وحضاريا . بل وينبغي أن نتصور كيف كان ذلك كله من وراء النتائج التالية :

١ - توسيع دائر انتشار الحضور العربي المغترب واستيطانه في انحاء وأقطار من عالم المحيط الهندي .

ب - تأكيد ودعم مكانة العمل العربي في حقل الوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر
المتوسط .

ج - تهيئة الاتصال والانفتاح بين عالم المحيط الهندي وعالم شرق آسيا والصين على وجه الخصوص ،
وفي ضوء هذه النتائج يجب أن نستشعر كيف ازداد تثبت الحضور العربي المغترب بالارض في كثير من
المواقع المنتخبة في جنوب شرق آسيا . ولما هذا في المرحلة السابقة الى الاختلاط ومصاهرة السكان
المحليين ، لكي يدعم هذا التثبيت ويشد أزرها ويقوى ساعده . وهذا معناه ترسيخ سيادة الحضور
العربي المغترب على الجبهة الآسيوية وعلى الجبهة الافريقية على حد سواء . بل لقد مضى هذا الترسيع
في طريقه الصحيح لكي تتخذ بعض مراكز التجارة شكل الدولة التي اصبح للحضور العربي المغترب
فيها سلطانا سياسيا قويا وحاكما .

(١٠) حافظ الحضور العربي على وجوده دائما . وأدت العلاقة التي نشأت بين الأفرقة الى شكل من أشكال الاستقرار والاستمرار على الجبهة الافريقية .

وهذا الوضع الذى اسفر عن سلطان سياسى للحضور العربى المغترب فى المهجر أسفر عن اضافة تمثلت فى صياغة عمق استراتيجى سياسى على صعيد واسع فى احضان عالم المحيط الهندى . ومن الجائز ان نستشعر معنى العمق الاستراتيجى السياسى على هذا الصعيد ، وكيف أمن الحضور العربى المغترب وحافظ على تسيدته الاقتصادى والحضارى . ومن الجائز ان نستشعر ايضا العلاقة بين هذا العمق الاستراتيجى السياسى على هذا الصعيد والسلطان السياسى للدويلات فى جنوب جزيرة العرب . ولكن المؤكد ان هذا العمق الاستراتيجى السياسى فى المهجر قد أمن وأزر الوجود السياسى لدويلات الجنوب العربى لانه كان عمقا قويا ومستقرا ، ولانشك فى ان السلطة فى هذا العمق الاستراتيجى السياسى لم تنضرب ابدا فى هذه المرحلة التى شهدت تقلبات الاحوال وكل التغيرات التى تعرضت لها السلطة فى الجنوب العربى (١١)

وبهذا المنطق ينبغى ان نتصور كيف كانت الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى من وراء حضور عربى بمعنى مغترب أكثر استقرارا وأكثر امنا وأكثر فاعلية حضاريا وسياسيا واقتصاديا من الوجود العربى اليمنى الاصيل فى الجنوب العربى . بل ولم يفلح الاجتهاد الرومانى ولا الرحلة البحرية غير العربية التى نافست الرحلة العربية فى زعزعة الحضور العربى المتسيد أو زحزحته عن مكانته فى خدمة حركة التجارة الدولية المحدودة آنذاك . وهناك أكثر من دليل على ان هذا الحضور العربى المغترب قد افلح بكل تأكيد فى احتكار الحجم الاكبر من تجارة الذهب والمر والبخور وخشب الزين وغيرها من منتجات عالم المحيط الهندى . وحافظ هذا الاحتكار على حيوية العمل فى الموانئ العربية على ساحل الجنوب العربى وابقاها فى المكانة المرموقة وهى تلعب دورها الوسيط فى عمليات التبادل التجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط (١٢) .

هذا ، ويبدو ان الصراعات داخل الامبراطورية الرومانية على السلطة ، قد اضعفت فاعلية المنافسة التى تعرضت لها الرحلة العربية البحرية فى المحيط الهندى الى حد كبير ، كما كان ابتعاد الحضور العربى المغترب النشط والمتسيد فى مراكزه التجارية ودويلاته فى حوض المحيط الهندى عن الصراعات التى شهدتها الارض العربية فى احضان الوطن الام فى الجنوب العربى ، من وراء التفرع الكامل والمطمئن للأداء الوظيفى الذى كرست من اجله الرحلة البحرية لحساب التجارة الدولية .

(١١) وضع السلاسل الجبلية الورمة التى تطوق شبه القارة الهندية ، هو الذى يخلق حركته للاتصال مع العالم الاسيوى لها رواها ، بل لقد دعا حركة الحركة النشطة الناهضة بالفتح الحضارى لاستقبال البحر والتجارة وسيلة لأمم قوتت الاتصال فى العالم بالحاربي .

(١٢) التحدى الطبيعى للامن ضد اعادة حركة الحياة فى جنوب الجزيرة هو التحدى الحضارى . وكما حلت التكتل الجبلية المنتشرة على اوسع مدى الانسان مشكلة تجهيز المدرجات وسبيلاتها اقتصادا لارادة الحياة وزراعة المحاصيل . ثم باقى التحدى الخاص كفى تدعيم الحياة الطر من سنة الى سنة اخرى الى تعرض حركة الحياة وصالحها الى تقلبات الزيادة والتناقص فى كم للانتاج الزراعى السنوى .

ومهما يكن من أمر فإن هذه المرحلة من مراحل العمل البحري الملاحي في المحيط الهندي لا تسجل انفتاحا صريحا يفتح او يكشف عما يتجسد في المعرفة في المحيط الهندي والاقطار التي تعاملت معها الرحلة العربية او الرحلة غير العربية . وصحيح ان دائرة الرؤية الجغرافية قد اتسعت ، وصحيح ان عناصر غير عربية قد اشتركت في هذه الرؤية الجغرافية والاحاطة بها . ولكن الصحيح ايضا ان اطراف المعرفة الجغرافية التي تكشف قد اغرقت بقصد أحيانا ومن غير قصد أحيانا أخرى في خضم السياق الاسطوري للخرافة حتى شوهت وجه الحقائق الجغرافية الى أبعد الحدود .

وفي اعتقادي ان اخفاء الحقائق التي تتجسد وتوسع دائرة المعرفة الجغرافية قلنا - كان متعمدا في بعض الاحيان ، ذلك ان الاخفاء والتشويه سواء من جانب الاجتهاد العربي او من جانب الاجتهاد غير العربي كان مطلوبا بكل الاحاح حماية للمصالح الذاتية بين المنافسة في المحيط في الهندي . ومع ذلك فلا ينبغي ان ننقل من حجم المعرفة التي تسربت لكي تكون اضافة الى الرصيد الجغرافي المعروف في ذلك الوقت ، ولان المعرفة الجغرافية في هذه المرحلة كانت امانة في عنق الجغرافيين المسيحيين الذين طأوعوا هوى الكنيسة ، فاهم قد اغرقوها كما اغرقوا معظم التراث الجغرافي في ضلال كبير وهذا معناه ان المعرفة الجغرافية لم تنضج فقط بالاضفاء والتستر والتشويه من جانب الاجتهاد العربي بل تضمرت ايضا بموجب الكنيسة والجغرافيين المسيحيين من المعرفة الجغرافية . (١٣)

ومع ظهور الاسلام وانتصاره على صعيد الارض الآسيوية ، كانت كل التغيرات التي أسفرت عن نقطة تحول خطيرة في مسيرة حركة الحياة بصفة عامة . وربما اسفر التحول عن انتهاء مرحلة وبداية مرحلة أخرى من المراحل التي ادت فيه الرحلة البحرية العربية دورها الوظيفي في المحيط الهندي ، ولكن يبقى السؤال الذي نسأل فيه عن دور هذه الرحلة في خدمة المعرفة الجغرافية .

وصحيح ان التحول الذي أدى اليه الاسلام قد تسبب في التغيير الى ما هو افضل اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا وسياسيا على الصعيد العالمي ، ولكن الصحيح ايضا ان انتصار الاسلام الحاسم على كل الجبهات قد كبح جماح الاجتهاد الروماني واحبط سعيه وانتشاره في المحيط الهندي . وكان ذلك اشبه مايكون بالا نسحاب من ميدان المنافسة فيه ومن ثم انفردت الرحلة البحرية العربية مرة أخرى

(١٣) من خلال وجود دة اكرم على الصعيد الافريقي - وهي دولة قامت على اكتاف حضارة سبلان - تعرف الوقت الذي تلت فيه اشجار الفطن وكيف انها غرست في حقول من ارض دولة مري في حوض النيل الاوسط . ويدران انتاج هذه الحبوب كان مهما الى الحد الذي دعا الى تسجيل عملية تجريبها عندما دارت - الحرب العروس بين الكسوم وميري على عهد الملك عبرواتا (راجع للكتاب : المراتب السودانية دراسة في الجغرافيا التاريخية للآلاف كتاب القاهرة ١٩٦٢)

بالعمل في هذا الميدان . وكان عليها ان تكون على مستوى المسؤولية في ظل اوضاع جديدة تشد أزرها وهي تؤيد دورها المرموق والمتسدد في خدمة حركة التجارة الدولية بين الشرق والغرب .

وهكذا ، ينبغي ان نتصور كيف أحدث الاسلام أوضاعا جديدة تماما على الصعيد المحلي وعلى الصعيد الاقليمي وعلى الصعيد العالمي في وقت واحد ، وكيف دعت هذه الاوضاع الجديدة الى بداية مرحلة جديدة من المراحل التي عملت فيها الرحلة البحرية في المحيط الهندي لحساب التجارة الدولية . اما الاوضاع الجديدة فهي وليدة انتشار الاسلام انتشارا واسعا النطاق وممارسة دوره كدين ودولة بعد الانتصار الساحق على دولتي الفرس والروم . من ثم كانت دولة الاسلام المظفرة على الصعيد الآسيوي والافريقي في موقع ممتاز اكسبها سلطة ومكانة الدولة الاعظم في مجتمع الدول آنذاك سياسيا واقتصاديا وحضاريا .

هذا ، ولقد ترتب على وجود دولة الاسلام الكبرى نتائج كثيرة اثرت بشكل مباشر او غير مباشر على حركة الحياة ، ليس في اطارها السياسي فحسب ، بل في كل المعروف من الارض فيما وراء حدودها وسلطانها الحاكم . ونذكر من هذه النتائج اشاعة الأمن في ربوعها وسيادة النظام الذي أمن حركة الحياة . ونذكر منها ايضا تهية الاجواء العامة لاحتكاك حضارى هادىء وبناء بين الاقوام التي انخرطت في بنائها البشرى وحددت النمو الحضارى والاقتصادى والاجتماعى في الامصار والاقطار التي تجمعت أوصالها في كيانها المادى والروحى .

وصحيح ان دولة الاسلام الكبرى لم تهتم ببسط سلطانها السياسى على المحيط الهندي ، ولم تحتفظ فيه باسطول بحرى حرى يفرض ذلك السلطان الحاكم . ولكن الصحيح ان هبة هذه الدولة قد اشاعت فيه جوا من الأمن والامان وأمنت الملاحة العاملة في انحاء . وما من شك في ان الرحلة البحرية قد انتفعت بجو الامان فيه الى حد كبير . بل ولقد استثمر هذا الامان ايضا الحضور العربى المغترب على الجبهتين الافريقية والآسيوية . بمعنى ان هذه المرحلة التي عاشت فيه حركة الحياة على المعروف من الارض تحت مظلة الأمن والامان الاسلامى قد شهدت وسجلت نشاطا بحريا متصاعدا في المحيط الهندي لحساب التجارة الدولية . كما عاش الحضور العربى المغترب الازدهار والعز والمكانة المرموقة في مستوطناتهم الافريقية والآسيوية .

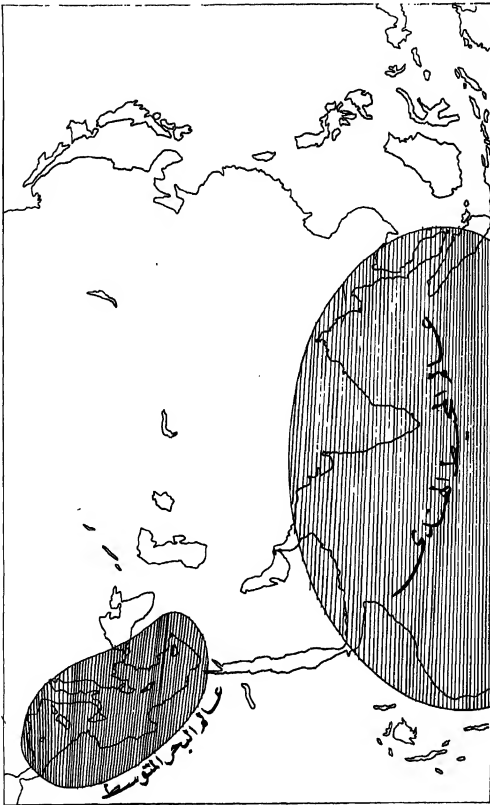
هذا ويبدو ان وزن دولة الاسلام التي هيمنت اعتبارا من القرن الثامن الميلادى على البحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج العربى . ومرور التجارة فيها بين الشرق والغرب قد حقق لها الانتفاع بمزايا

الموقع الجغرافي الحاكم وأحيط في نفس الوقت أى منافسة واجهت الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي . كما ان عدم وضوح الرؤية الجغرافية بشأن وضع وامتداد الارض الافريقية وامكان الدوران من حولها والتحرك من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهندي قد اغلقت باب المنافسة بالفعل في مياه المحيط الهندي . ومن ثم اطلق هذا الوضع الجديد العنان للرحلة البحرية العربية لكي تتوصل وتحول وتبهر ومن منفردة على المحيط الهندي ، ولكي تعيد للحضور العربي المغترب المتفرد في الرحلة السابقة لميلاد المسيح سيرته الاولى .

- ومع ذلك ، فينبغي ان نميز بين تفرد الحضور العربي والرحلة العربية البحرية ، بناء على جهالة وعدم معرفة غيرهم بالمحيط الهندي وعلى التخوف من الابحار والمخاطرة فيه ، وتفرد الحضور - العربي والرحلة العربية البحرية ، بناء على عجز حقيقي ابطل مفعول المنافسة الاوروبية وشل فاعليتها . وهذا معناه ان تفرد الحضور العربي قد بنى على استبعاد الاجتهاد البحري غير العربي عن الابحار والملاحة في المحيط الهندي . ومعناه ايضا ان مكانة الوجود الاسلامي وهيبته المرموقة قد اوقفت منافسة الرحلة البحرية غير العربية للرحلة البحرية العربية ، من غير ان يصدر حظرا وتحذيرا ، أو من غير أن تحمّض حربا معلنة او غير معلنة ضد الاجتهاد الاوروبي .

- وهكذا نصر الاسلام الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي وشد أزرها . كما أسبغت عليها هبة الاسلام ومكانته في مجتمع الدول على صعيد العالم المعروف آنذاك وأطمئنانا مطلقا على الطريق في المحيط الهندي . ومن ثم كان على الرحلة البحرية العربية ان تواصل اداء مهمتها لحساب هيمنة اقتصادية على حركة التجارة في المحيط الهندي وإن تصعد نشاطها في خدمة تجارة دولية تزداد معدلاتها وتنمو غوا مستمرا بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط وأوروبا .

- وفي هذه المرحلة من القرن الثامن الى القرن الخامس عشر الميلادي ، شهد المحيط الهندي وشهدت مستوطنات الحضور العربي على الجبهتين الافريقية والاوروبية اقصى درجات الاجتهاد العربي في الرحلة البحرية . بل ولقد اوشك الحضور العربي بعد ان هيمن او سيطر على المحيط الهندي ان يكون حضورا كاملا ومتسيدا في وقت واحد . وحمل هذا الحضور العربي امانة العمل البناء في خدمة التجارة والوساطة التجارية . وتولى في الوقت نفسه مهمة الدعوة الى الله ونشر الاسلام على صعيد الارض التي تعامل معها تجاريا وعلى صعيد المهجر في آسيا وافريقية . ومن ثم رسخ هذا الحضور العربي المغترب وجوده في المهجر ترسيخا سياسيا وحضاريا واجتماعيا .



(3)

- وكان فيض هذه الرحلة البحرية العربية الغزيرة ونجاحها الباهر في دنيا التجارة الدولية اضافة هامة ورئيسية لحساب الاسلام والمسلمين . بل لقد عزز هذا الفيض المشرر مكانة دولة الاسلام اقتصاديا ، حيث امسكت بزماء حركة التجارة الدولية وجنت ارباح كل تجارة العبور او المرور بين الشرق والغرب . بمعنى انه قد تحقق اعظم مثل للارتفاع المتبادل بين هبة دولة الاسلام التي اشاعت الامن والامان من جانب ونشاط حضور عربي اسلامي مجتهد انكب على اداء دوره في خدمة التجارة الدولية من جانب آخر .

- ولقد سجل الاجتهاد العربي المتطور في هذه المرحلة ، انجازات هامة ومثمرة لحساب عملية الملاحة البحرية ، وتأمين السفر البحري . وكانت اهم هذه الانجازات التي طورت تجهيز وبناء تشغيل السفينة مبنية على ابداع في متخصص اسفرت عنه خبرة وتجارب المدى الطويل في احضان المحيط الهندي . وكان بعضها الآخر وليد الانفتاح والاحتكاك الحضاري مع العاملين من سكان شرق وجنوب شرق آسيا في الملاحة البحرية . وصحيح ان دولة الاسلام قد جنت ثمرات هذه الانجازات . ولكن الصحيح ان بعض ثمرات هذه الانجازات كانت لحساب حركة الحياة في العالم بصفة عامة .

- وهكذا لا ينبغي ان ننكر دور الحضور العربي في المحيط الهندي وهو يجتهد او هو بنجز ليس لحسابه الشخصي فقط بل لحساب الاسلام ودولة الاسلام والعالم المعروف انذاك ايضا ، وما من شك في ان الاغتراب وحياة الحضور العربي اليقظ في المهجر قد تشبثت بالصلة بينها وبين الوطن الام في الجنوب العربي . كما انها حافظت على صلاتها الطيبة بالوطن الكبير الذي ضم عالم الاسلام كله على الصعيدين الافريقي والآسيوي .

- وحضور عربي مغترب نشيط اتصل سعيه وكلل بالنجاح على المدى الطويل ، ورحلة بحرية مثمرة في انحاء المحيط الهندي لا يمكن ان نقلل من شأن رؤيتها الجغرافية الواسعة التي احسنت وعاشت في المكان وعاشت وتعاملت مع الانسان في ارجائه . ولا ينبغي - على كل حال - ان نتصور ان هذه الرؤية الجغرافية ، لم تحقق اضافة مفيدة الى المعرفة الجغرافية لمجرد ان الحضور العربي المغترب قد كتم هذه المعرفة وقر في مجالات الاعراب عنها ، تحسبا لخطر المنافسة على مصالحه الاقتصادية الخاصة والعامة . بل لا ينبغي ان نقلل او نهون من شأن بعض جوانب المعرفة الجغرافية ، التي كشفت الرواية او القصة عنها . واغرقها في معظم الاحيان بقصد او من غير قصد في سياق السرد الاسطوري والخيال . وما من شك في ان تسرب بعض جوانب المعرفة الجغرافية ، قد وضع بدايات مبكرة مهدت ورشدت حركة الكشف الجغرافية الكبرى اعتبارا من القرن الخامس عشر الميلادي .

- وهناك مثل كاشف لمعنى ترشيد حركة الكشف الجغرافية نضربه لأولي الألباب ، لعلهم يعرفون ويقتنعون ، والمثل الذي أعنيه بالفعل ، هو الكاشف عن معرفة الحضور العربي المغترب في جنوب غرب آسيا ، معرفة مؤكدة بالأرض الجنوبية التي عرفت فيما بعد باستراليا . وكانت هذه المعرفة التي تسربت من بين شفاهم في سياق الرواية أو القصة كفيلة باعلام صريح عن أرض مجهولة في موقعها الجغرافي القصصي في نصف الكرة الجنوبي . ولقد أصبح هذا الاعلام وحده ، الصيحة التي نادى بعض المغامرين وحزبتهم للكشف عن هذه الأرض ، ولادخالها في اطار المعروف من الأرض على الصعيد العالمي .

- وصحيح ان هذا الاعلام الصريح كان من قبيل الشائعات التي روج لها وحدث عنها الحضور العربي المغترب ، وصحيح ان هذه الشائعات لم تضع الانسان الباحث عن المعرفة الجغرافية في مواجهة مباشرة وواضحة مع الحقيقة الجغرافية ، ولكن الصحيح ايضا ان هذا الاعلام وتلك الشائعات قد حددت بداية الطريق بالفعل التي شهدت مسيرة الاجتهاد الاوروبي الباحث عن الأرض الجنوبية المجهولة Terra Incognite في جنوب آسيا .

- ونذكر في هذا المجال كيف استخلص ماركو بولو في سنة ١٢٩٥ معلومات من افواه التجار العرب تحكي وتقص عن وجود هذه الأرض الجنوبية المجهولة . ولقد اورد ماركو بولو وهو في طريق عودته من رحلته في الصين وأثناء مروره ببعض الجزر والمستوطنات التي احتوت الحضور العربي المغترب في جنوب شرق آسيا ذكر جزيرة جاوه الكبرى . واكد على وجودها وكيف انها تقع جنوب جزيرة جاوه ، وانها اكبر جزر العالم واعظمها مساحة (١٤)

- ومن خلال الرواية التي استمع اليها ماركو بولو ، اشارة الى علاقة التجار العرب في مستوطناتهم في جنوب شرق آسيا بسواحل جزيرة جاوه الكبرى الشمالية ، وذكر انها قد احتوت مخازن التوابل والمنتجات المتنوعة التي تخصصوا في الاتجار فيها ونقلها على سفن الرحلة البحرية العربية . ومن ثم نعتبر ما اوردته ماركو بولو أول اعلام صريح عن هذه الأرض الجنوبية لفت نظر الباحثين عن اضافة لحساب المعرفة الجغرافية .

- وما من شك في ان بهائم Behaim الذي صمم وأعد كرة نورمبرج في سنة ١٤٩٢ قد انتفع بهذا

الاعلام الصريح . ولقد تضمنت هذه الكرة التي صورت اوجسدت توزيع اليابس والماء امتدادا أرضيا عبر عن الارض المجهولة في جنوب المحيط الهندي . وتكرر هذا التصوير او التجسيد مرة اخرى على الكرة التي صنعها هنت لينوكس في عام ١٥١١ ، على الخريطة التي رسمت تحت رعاية هنري الثاني ملك فرنسا في عام ١٥٣٦ ومن ثم نستطيع ان نتصور كيف اطلق العنان للرحلة الاوروبية بعد ذلك للكشف الجغرافي عن حقيقة هذه الارض المجهولة .

- هذا ، وينبغي ان ندرك كيف وصلت الرحلة البحرية العربية بشكل منتظم الى هذه الارض المجهولة ، لكي تنتفع وتستخدم المخازن التي امتلكوها . والوصول الى المخازن على ساحل الارض الجنوبية المجهولة (جافة الكبرى) معناه ان علاقة ما قد تأتت بين الحضور العربي المغترب في جنوب آسيا وهذه الارض . وفي اعتقادي ان هذا الحضور العربي المغترب انقسم قسمين من حيث العلاقة بهذه الارض . القسم الاول ضم اولئك الذين عاشوا في شكل من اشكال الاستغفار في حراسة المخازن والمحافظة على محتوياتها . اما القسم الآخر فلقد ضم أولئك الذين سيروا الرحلة المنتظمة من وإلى مواقع المخازن على ساحل تلك الارض الجنوبية المجهولة .

- ومهما يكن من أمر فان تكتم اخبار هذه العلاقة بين الرحلة البحرية العربية وساحل استراليا الشمالى لبعض الوقت أهم دليل لا يضل ولا يضلل على اهتمام العربي المغترب وصاحب المصلحة في تجارة المحيط الهندي بتوسيع دائرة معرفتهم الجغرافية والانطواء عليها وعدم التفريط فيها ، ويبدو ان عدم التفريط في المعرفة الجغرافية الذي نعينه كان امرا مطلقا ، والا فكيف نفسر خلو التراث الذي اسفر عنه الاجتهاد الجغرافي الاسلامي من حشد أو عرض صور من الرؤية الجغرافية في انحاء المحيط الهندي .



- وبهذا المنطق ، نتبين كيف افلخت الرحلة البحرية العربية في ارتياد المحيط الهندي ، وكيف اوصلت هذه المهمة من غير انقطاع . كما تبين ايضا كيف افلح الاجتهاد العربي الذي نظم هذه الرحلة وانتفع بها ، في تكتم المعرفة الجغرافية بالمحيط الهندي في كل المراحل المتوالية التي شهدت انتظام الملاحه العربية فيه . ومع ذلك فلقد تسربت بعض هذه المعرفة الجغرافية من خلال الروايات والقصص التي سجلت المغامرة البحرية العربية .

- وفي المرة الثانية كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح نقطة انطلاق جديدة لكى يتسلل الاجتهاد الاوروي الى المحيط الهندى . وأحيا هذا التسلل الانتفاع ببعض المعرفة الجغرافية التى كانت قد تجمعت كحصاء للاجتهاد الرومانى البحرى . وما من شك فى ان هذا التسلل الاوروي قد مهد للاقتحام الكاسح فى المحيط الهندى اعتبارا من القرن السادس عشر ، وانه كان على غير ارادة الحضور العربى المغرب ولغير مصلحته التى تضررت كثيرا .

- هذا ، ولم تتغير الاوضاع التى دعت الى التستر على الرؤية الجغرافية فى المحيط الهندى وعالم المحيط الهندى الا بعد الكشف الجغرافى عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولقد تبنى الاقتحام الاوروي ارادة الكشف الجغرافى عن المحيط الهندى . وصحيح ان معرفة الحضور العربى الجغرافية عن عالم المحيط الهندى قد رشدت حركة الكشوف الجغرافية التى قادها الاجتهاد الجغرافى الاوروي . ولكن الصحيح أيضا ان الاضافات التى اسفرت عنها هذه الحركة كانت ثمرة مفيدة للمعرفة الجغرافية ونقطة بداية للحركة الامبريالية الأوروبية .

« إن أدب السخرية كالمرآة يكتشف فيها الناظرون عادة وجوه الآخرين لا وجوههم . ولعل في هذا تفسير للقبول الذي يلقاه هذا النوع من الأدب في العالم ، وفيه تفسير أيضا لقلة من يجد فيه مثارا لغضبهم » .

هكذا قال جوناثان سويت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) Jonathan Swift أعظم كاتب ساخر أنجبته إنجلترا في تاريخ أدبها الطويل . وقد يكمن فيها قاله « سويت » عن تأثير أدب السخرية المميز على القارئ السر في استمتاع القراء على مر العصور بكتابات السخرة - فما زال « سويت » إلى اليوم ، وبعد مرور أكثر من قرنين من الزمان على وفاته موضع اهتمام الباحثين والدارسين والقراء على السواء ، وما زال صدق كتاباته يسمع في بقاع الأرض الواسعة . فأينما وجدت الحروب والظلم والاستغلال والفساد والتفاق على المستوى السياسي العام ، والغرور والوضاعة والجحود والجشع والحقاقة على المستوى الفردي ، فستظل كتاباته محفظة بحيويتها وعصريتها ، وطالما كان الإنسان يعيش تحت وطأة القوى المدمرة التي تنذر بفناء الجنس البشرى فسيجد القارئ في أدب « سويت » الأفكار والمشاعر التي تمجيش في صدره ، والتي تتلخص في الاشتمزاز والغضب من السلوك اللاأخلاقى . فلا غرابة إذن في أن كتاب رحلات جليفر (Gullivers Travels (١٧٢٦ ، وهو

رحلات جليفر

نور شريف

أشهر مؤلفات « سوفيت » قد أصبح كتابا عالميا ترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ، كما ترجم الى ثمانية وعشرين لغة من لغات الاتحاد السوفيتي .

كان « سوفيت » عالميا في تفكيره رغم اتجاهاته المحدودة . فكانت ميوله الدينية والسياسية محافظة ، ومع ذلك فقد تسببت كتاباته في كثير من الاحراج للكنيسة الانجليزية وللحزب « المحافظ » ، وكانت شعبيته عظيمة في ايرلندا ، حيث ولد ومات ، ودافع عن قضاياها ضد انجلترا ، حتى أصبح « الوطني الايرلندي » الوحيد في القرن الثامن عشر الذي استطاع أن يوحد بين صفوف الايرلنديين ، ولكنه أراد أن يعتبر سيذا انجليزيا ورفيقا للسياسيين والحكام الانجليز ، والواقع اننا لا نستطيع أن نقيد « سوفيت » الاديب بحزبية ضيقة أو بوطنية محدودة ، إنه من الخالدين الذين لا وطن لهم ولا عصر .

لم يكن أدبيا انشغل برؤياه ومشاكله الفنية بحيث عاش بعيدا عن المجتمع وصراعاته . بل كان من الأديباء والفنانيين الذين ساهموا مساهمة فعلية في الحياة العامة ، فجاء ابداعه في الكتابة ثمرة لتجاربه العملية . وقد بدأ في شبابه ككاتب ذى قدرة فائقة على السخرية من تناول الانسان للدين والعلم والمعرفة وتشويهها . ثم استعان بشعره ونثره الساخر في عمله الرسمي كمستول عن الاعلام في وزارة « المحافظين » ولجأ الى قلمه كأداة لانجاز سياسة الحزب الحاكم الذي انتمى اليه . وتأثرت كتاباته في هذه المرحلة من حياته بالاتجاهات السياسية والحزبية .

ولحسن الحظ وجد « سوفيت » نفسه فيما بعد بعيدا عن العمل السياسي ومعزولا عنه ، فسنتحت له فرصة الملاحظة والتأمل واستعادة الذكريات وتسجيل التجربة على نحو أكثر موضوعية وشمولية ، وهنا انطلق كما يجب ان ينطلق الأديب ، وأطلق العنان لخياله الابداعي ، وأصبح سيد مادته وليس عبدا لاهتمامات خارج العمل الادبي نفسه . فكتب للأجيال القادمة ، وتناول فيها أخلاقية وإنسانية بقوة ونفثة مكتنه من محطيم حدود الزمان والمكان . فجاء أدبه أثرا خالدا للروح الانسانية والفكر الانساني .

ورحلات جليفر من نتاج هذه الظروف المواتية .



ولد « سوفيت » عام ١٦٦٧ من أبوين انجليزيين في ايرلندا ، وأمضى هناك الجزء الأكبر من حياته . وتلقى دراسته في كلية « ترينيتي » Trinity في « دبلن » ولكنه اكتسب معرفته الواسعة من مكتبة « مور بارك » Moor Park في « صاري » Surrey حيث عاش بضع سنوات كسكرتير لـ « سير وليام تمبل » Sir William Temple وهو سياسي متقاعد ذو اهتمامات ثقافية . وفي عام

١٦٩٥ أصبح من رجال الدين ، ثم انتقل عند وفاة « سيروليم » عام ١٦٩٩ الى أبروشيت في إيرلندا التي اتخذها مقرا دائما له . وفي تسعينات القرن السابع عشر كان « سوفيت » قد كتب مؤلفين هامين نشرا عام ١٧٠٤ هما :

معركة الكتب **Battle of the Books** وهو اسهام مرح في الجدل القائم وقتئذ حول الأدبين المعاصر الحديث والكللاسيكي القديم ، وهو موضوع شغل بال الكثيرين في انجلترا وفرنسا في القرن السابع عشر ، وكتاب قصة برميل * **A Tale of a Tub** وهو مؤلف وصفه « سوفيت » بأنه تعريض بسوء استخدام الانسان للمعرفة والدين الى درجة قضت على قيمتهما . وقد أكسبه هذا المؤلفان اعجاب رؤسائه في الكنيسة الايرلندية أيام كانت الموهبة الأدبية والفكرية جوازا للوصول الى أعلى المراكز في الدولة . ففكرته الكنيسة بهام خاصة في انجلترا عند حكومة « الأحرار » **Whigs** أولا ، ثم عند حكومة المحافظين « **Tories** التي انضم اليها فيما بعد . وقد أصبح ذا نفوذ كبير في لندن اثناء حكم « المحافظين » من عام ١٧١٠ حتى وفاة الملكة « آن » عام ١٧١٤ . ولكنه عاد الى « دبلن » كاسقف كاتدرائية « سانت باتريك » عند سقوط حكومة « المحافظين » وبذلك انتهت المرحلة الأولى في حياته السياسية .

كانت السنوات الاربع من عام ١٧١٠ الى عام ١٧١٤ أهم فترة في تجربة « سوفيت » السياسية . وليس أدل على عمق الاثر الذي تركته في حياته وفكره من رآئته الادبية - رحلات جليفر . وقد كتب باستفاضة ومن وجهة نظره الشخصية عن تلك الفترة الحاسمة في تاريخ انجلترا ، معبرا عن آماله وخاوفه وأفكاره الى صديقة العمر « استيلا » في يومياته لاستيلا **Journal to Stella** . وكانت لندن آنذاك في حالة من الغليان السياسي بسقوط وزارة « الأحرار » بزعامه « جدلفن **Godolphin** وحلول وزارة « هارلي **Harley** و« سنجين **St John** » المحافظة » محلها ، وذلك على أثر الانتخابات العامة التي اسفرت عن حصول « المحافظين » على أغلبية ساحقة وسيطرتهم الكاملة على مجلس العموم ، وكانت الدعوة الى السلام مع فرنسا ، التي كانت في حرب مع انجلترا وحليفاتها منذ بداية حكم الملكة « آن » عام ١٧٠٢ ، على وشك النجاح . في هذه الاثناء كان « سوفيت » على اتصال دائم بعدد كبير من السياسيين الناقمين على الأوضاع السائدة . وسرعان ما طلب « هارلي » رئيس الوزارة مقابلته ، ووعده بمساندة الكنيسة الايرلندية ، وهي المهمة التي سبق أن أخفق « سوفيت » في انجازها مع حكومة « الأحرار » ، وكان فشله أحد الاسباب العديدة التي خلذت أمله في الحزب الذي عمل

« يشرح « سوفيت » معنى العنوان في المقدمة ، ليقول انما عادته التجارة ، عندما يهاجم حوت السفينة ، اللقا برميل في البحر الى الهام الهوت ليشغل من السفينة واحدة « سوفيت » كتب لتلميذ اللقا من مهاجمة لقاظ الضفد في الكنيسة والحكومة .

معه ودافع عن سياسته . فانصرف عن « الاحرار » ، وهاجم دوق « موريبورو Duke of Marlborough » الذي شن الحرب ضد فرنسا وأصبح من اعداء حكومة « المحافظين » الجديدة التي رحبت به لأهمية الدور الذي يستطيع ان يلعبه بقلمه . فعمل كرئيس تحرير لصحيفة « الممتحن The Examiner » التي كانت تهدف الى تعبئة الرأي العام في صف « المحافظين » ، وأصبح « سوفيت » كاتب الحزب الرئيسى ومستشاره الادبى . وعندما تحركت الحكومة في نهاية الامر لانهاء الحرب بتوقيع معاهدة « أترخت Utrecht » ألف كتيباً بعنوان سلوك الحلفاء **The Conduct of the Allies** وهو من أقوى حجج العصر السياسية وأكثرها شعبية . ساند فيه سياسة الحكومة « المحافظة » في سبيل معاهدة السلم مع فرنسا . وكافاته حكومة « هارلى » على خدماته بتعيينه أسقفاً لكاتدرائية « سانت بارتريك » وهو مركز اعتبره « سوفيت » عن حق أقل بكثير مما يستحقه بعد الجهود الذي بذله في تأييده الحكومة .

وموت الملكة « آن » وتولى جورج الاول (من اسرة « هانوفر Hanover) عرش انجلترا سقطت حكومة المحافظين ، وفقد سوفيت بعوده « الاحرار » الأمل في مركز رفيع في الدولة . فعل أثير فرار « بلنجبروك Bolingbroke » الى فرنسا وسجن اكسفورد Oxford في قلعة لندن (وهما من وزارة المحافظين السابقة) اضطر سوفيت الى الإقامة في اسقفية في دبلن . وباستثناء زيارتين قصيرتين لاصدقائه في انجلترا بقى حتى آخر أيامه في ايرلندا التي اعتبرها منفى سياسياً وفكرياً ، وان كان لم يكف عن نشاطه في ايرلندا ، بل بدأت المرحلة الثانية لنفوذ السياسى في عشرينات القرن الثامن عشر ، عندما ناصر الشعب الايرلندى في مطالبه ، ودافع عن البرلمان الايرلندى ضد وزارة الاحرار تحت رئاسة « روبرت وولبول Robert Walpole » في انجلترا . واصبح معبود الشعب الايرلندى الذي اطلق عليه اسم « الوطنى الايرلندى » و « الاسقف العظيم » . ويحكى أنه عندما أراد وولبول أن يلقى القبض على سوفيت في ايرلندا ، نصحه اعدائه بأنه لن يستطيع ذلك إلا إذا أرسل جيشاً من عشرة آلاف جندي للقيام بتلك المهمة ، لأن الايرلنديين سيقطعون وولبول لإربا في شوارع دبلن . ولا تعنينا هذه المرحلة الثانية في حياة الكاتب السياسية ، والتي جاء كتاب رحلات جليفر ثمرتها لها .

إنهار عالم سوفيت من حوله عام ١٧١٤ ، وانسحب من الحياة العامة شاعراً بالهزيمة والفشل والاحباط . وبعد فترة من الاكتئاب الغامر والاحساس بأنه « سوف يموت في منفاه (في دبلن) مثل الفأر المسموم في حجره » ، لم يلبث أن عادت اليه حيويته وثقته بالنفس ، وأصبح كما سبق أن كان « الأسقف الفطن » والرفيق المتحضر في مجتمع ايرلندا المتأخر . غير أنه مرت سنوات قبل ان يستعيد

الطاقة الفائقة اللازمة للعمل الإبداعي، وانتقل بعدها الى مرحلة من الانتاج الادبي يختلف عما سبقه من حيث عمق التفكير وروعة الأداء ، ولع في السنين ما بين عامي ١٧٢٠ و ١٧٢٩ ليس ككاتب ذي اهتمامات واسعة ومهارة في الجدل المنشور والفكر الساخر فحسب ، وإنما ككاتب ادبي ينتمي الى عالم أرحب ، وأخذ ينمي صداقات جديدة في ايرلندا ، كما أخذ يرأسل اصدقاءه القدامى في انجلترا ، وبدأ نجمه يتألق مرة أخرى ، وظهر في أوج عظمتة كمؤلف رسائل درابير (١٧٤٢) **Drapiers Letters** ورحلات جليفر (١٧٢٦) واقترح متواضع (١٧٢٩) **A Modest Proposal** التي هاجم فيها سياسة انجلترا نحو ايرلندا هجوما عنيفا ساخرا .

وبرز كشخصية مرحلة مميزة في المجتمع الايرلندي حتى وصل إعجاب الشعب به وحهم له الى حد العبادة . وعلمنا إذا أردنا أن نعطي صورة صادقة لهذه الشخصية الادبية البارزة في مجتمع القرن الثامن عشر أن نشير الى نواحي سوفيت المتعددة ، حتى نستطيع أن نقيم عملا مركبا مثل رحلات جليفر تقريبا كاملا . فلم يكن سوفيت مجرد كاتب سياسي يتأمل في سخريه أخطاء الانسان ونقاط ضعفه ، وإنما كان أيضا مفكرا متقفا جالس عشاء وكتاب عصره ، وإنسانا رقيقا حنوناً كما هو واضح من خطابه وقصائده التي كتبها لصديقه / استيللا / .

ويتضح مما سبق أن الفترة التي كتب فيها /سوفيت / رحلات جليفر كانت من اغنى فترات حياته وأخصبها ، تمتع خلالها بقدرة إبداعية فائقة ونشاط فكري ثري . ولا بد أن تؤكد هذه الحقيقة لكثرة ما كتب عن حالة سوفيت العقلية عندما أنتج رائعته الادبية ، وبالذات الجزء الأخير منها ، أي رحلة جليفر الى بلاد « الهوينهمز » **Avoyage to the Country of the Houynhnms** فقد مال النقاد ، بسبب ما اعتبروه تشاؤما قائما في نظرتهم الى الانسان ، ما لوا الى الاعتقاد بأن سوفيت كان قد فقد قواه العقلية وأصيب بلوثة جنون .



كتب سوفيت جزءا كبيرا من رحلة جليفر الأولى وبعض أجزاء من رحلته الثالثة عام ١٧١٤ ، وكان هدفه السخري بروح مرحة خفيفة من التحذلق في مجالات المعرفة المختلفة ، بما في ذلك المجال العلمي . وعندما صدم في طموحه السياسي ونفي الى « دبلن » ترك فكرة الرحلات جانباً مدة من الزمن الى أن انقضت عنه الفتامة التي أملت به واستعاد قدرته على الكتابة . وبدأت فكرة الرحلات

تراوده مرة أخرى . ورغم أنه لم يحمل معه المؤلف كاملاً للنشر إلى إنجلترا حتى عام ١٧٢٦ ، إلا أنه واضح من رسائله أنه كان مشغولاً عام ١٧٢١ في إضافة الجديد إلى ما سبق أن كتبه وفي تحريره ومراجعته . وقد اعتمد في كتابة رحلات جليفر على قراءات عديدة كلاسيكية وحديثة . ولكنه أجرى تغييرات كبيرة في كل ما استعاره من سالفه ، وحوّره في اتجاهات تلك الاستعارات لتخدم روح الفكاهة والمهدف الساخر اللذين اشتهر بهما . وعندما بدأ كتاب الرحلات يأخذ شكله النهائي أدخل في نسيجه إشارات إلى السياسة المعاصرة واهتمامات « الجمعية الملكية »^(١) **Royal Society** .

كما بدت له في مناقشاتها وتقاريرها . فجاء المؤلف حصيلة غنية لقراءات وتجارب واحد من أعظم العقول المثقفة في القرن الثامن عشر .

وكتاب رحلات جليفر من أنضج مؤلفات سويت وأكثرها عمقا وتفكيراً ، كما أنه غاية في التركيب العاطفي ، وإن كان ظاهره يوحى بالبساطة . ويلتقي القاريء في هذا الانتاج الأدبي بجميع نواحي مؤلفه التي عبر عنها في كتاباته من خلال أقنعتة الساخرة المتعددة التي أخفى وراءها شخصيته الحقيقية . ومن أمثاله شخصيات « الاسقف » و « درابير » **Drapier** و « بيكر ستاف » **Biekerstaf** التي يتحدث سويت متكرراً على لسانها معلناً عن رأيه ، إما بروح الجدبة الساخرة التي اشتهر بها سيرفانتس « **Cervantes** ، أو بروح الكوميديا الضاحكة التي تميز بها رابيليه **Rabelais** . ففي الرحلات يتجسد الرجل أماناً في جميع أبعاده وأمزجته وردود أفعاله المتغيرة المتقلبة التي نعرفها في الانسان النابض بالحياة . وفوق كل هذا يكشف الكتاب عن تلك الروح المرحية المأساوية التي لا نجدها إلا في عظماء الرجال .

ورحلات جليفر إلى حد ما عمل أدبي مأساوي . أو على وجه التحديد أنه أقرب إلى المأساوية من أي عمل أدبي آخر ظهر في القرن الثامن عشر . وتكمن المأساة في نظر سويت في اللا عقلانية التي تسود حياة الانسان في جميع تصرفاته وسلوكه . فقد بنى سويت ، وهو ابن العصر « الأغسطي » أو عصر « العقل » ، كما عرف به ذلك القرن ، بني عقيدته على « العقل » وقيّمته الأساسية في السلوك البشري ، وثار عندما افتقده في صميم الانسان . ورحلات جليفر تعبير عن غضب الكاتب من حماقات ورذائل الانسان ، وعن شعوره الغامر بقصور الانسان المأساوي .

١ - القام جمعية علمية في إنجلترا واشهر جمعية من نوعها في العالم . بدأت عام ١٦٤٥ باجتماعات اسبوعية للعلماء في لندن . وفي عام ١٦٦٠ انشئت رسمياً بموافقة الملك « تشارلز الثاني » .



جوناثان سويفت (بلسم دقيقتيقيمه)

ومع ذلك فالكتاب روعة من روائع الادب الهزلي ، ومن الخطأ اعتباره نتاج ياس قاتم . فرغم أن الغضب والاحتقار والاشمئزاز أساس جميع كتابات سويفت الساخرة ، الا انه كتبها تحت تأثير اعتقاده الراسخ بأن رؤية الذات ومعرفتها على حقيقتها ستؤدي في نهاية الأمر الى السلوك السليم . وكان هدفه من كتابة رحلات جليفر ، كما قال هو « اصلاح العالم » مما يوحي بالامل وليس بالتشاؤم . وبما يؤكد هذا ايضا روح الفكاهة المرححة المتوغلة في الرحلات ، التي تنفي ما أصر عليه عدد من النقاد من أنه نتاج عقل مريض على شفا الجنون ، فهذه الروح دليل قاطع على صحة سويفت العقلية والروحية عندما كتب الرحلات . أما مرضه العقل فلم يصب به الا بعد ظهور الكتاب بسبعة عشر عاما .

ويخدم المرح والفكاهة والهزل في رحلات جليفر السخرية ، وهو هدف سويفت الاساسي ،

والسخرية أكثر شراسة من الهزل في هدفها الاخلاقي لأنها تقيس السلوك الانساني بمقارنته بالنموذج المثالي وليس العادى . وترفع أمام ناظر القارىء مرآة تعكس صورة مشوهة مبالغ فيها لحياته ، لا يلبث ، ان كان على قدر من الوعي ، أن يكتشف فيها صورته هو . ويكون وقع الصدمة بمقدار الهوة التى تفصل بين المقاييس الاخلاقية التقليدية وبين السلوك الواقعى .

وكان العصر « الاغسطى » من اكثر العصور ملائمة للأدب الساخر . وساعد الايمان السائد آنذاك بالطبيعة والعقل « في رأى بازى ولى (٢) Basil Willey على انتشاره ، حتى أصبح النصف الاول من القرن الثامن عشر العصر الذهبي لذلك النوع من الأدب . فكلما راقت « الطبيعة » في مجموعها للانسان بدأ هو نفسه قاصرا بالمقارنة وقد آمن العصر بنظام الطبيعة ، وبحث للانسان عن مكان في ذلك النظام الذي تصوره للكون . وأكد عدد من الفلاسفة والمفكرين من أمثال انتوى أشلى كوبرى Anthony Ashley Cooper وشافتنسبرى Shaftesbury طبيعة الانسان الخيرة ، ووصفوه بأنه مخلوق اجتماعى عاقل بطبيعته ، وكانت نظم مجتمعه في نظرهم امتدادا لنظام الكون الالهى . وباختصار فقد وجدوا أن « كل شىء على ما يرام في العالم » وأن عالمنا « على أحسن ما يمكن أن يكون » ووفقا لنظرية عريقة ترجع الى أرسطو ، ساندتها الرواقية والمسيحية ثم أكدها الفيلسوفان ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) Lock ، فان جوهر الانسان هو روحه العاقلة . وحالة « الطبيعة » الحقيقية ، كما قال لوك يحكمها قانون « الطبيعة وهو قانون « العقل » ، ولا تنتظم أمور الانسان الا عندما تطابق النظم الاجتماعية نظرية الطبيعة البشرية الحقة واعتقد المرء في العصر « الاغسطى » أن مثله العقلية المستنيرة قد تحققت وأصبحت المقياس الطبيعى المتبع . ولكن عندما نظر المفكرون والادباء من حولهم تنبهوا الى الفرق الشاسع بين النظرية والتطبيق .

طبق الادباء الساخرون المقاييس « الطبيعية » على الواقع السائد في اوائل القرن الثامن عشر . فوجدوا أن الانسان الذي سبق أن كان روحا خالدة تنشذ الاخلاص ، أو روحا عاقلة تبحث عن الفضيلة ، أصبح ذاتا اقتصادية أو سياسية تتلهف على المال والجاه والسلطة ، وكانت الدوافع المادية ما زالت مخبئة وراء ستار الدين والسياسة في القرن السابع عشر . اما القرن الثامن عشر فقد أزعج الشعار وظهرت الدوافع الاقتصادية والملكية كأقوى باعث للعمل الفردي والجماعى . وجاء ما قاله المفكر هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) Hobbes في طبيعة الانسان ، البدايية المتوحشة المبينة على المنافسة والصراع مطابقا للواقع ، عندما تهالك الأفراد والدول على اقتناء ثروات العالم واستغلالها . ومع ذلك

فقد استمرت المقاييس القديمة موضع الاحترام ، وإن كانت فقدت قيمتها العملية وعاش رجل القرن الثامن عشر طبقا لها ولو نظريا على الأقل . ووجد الشخص الذي تمسك بتلك المقاييس والذي استطاع في نفس الوقت أن يرى الأمور على حقيقتها ، وجد بين يديه مادة غنية للكتابة الساخرة . وكان سوفيت من أئمة هؤلاء الكتاب ، وهو الذي قال عنه ألدوس هاكسل (١٨٩٤ - ١٩٦٢) **Aldous Huxley** انه « لم يستطع أن يغفر للانسان أبدا كونه حيوانا ثدييا فقريا وروحا خالدة معا » .

ورفض سوفيت تعريف الانسان بأنه حيوان « عاقل » وعرفه بأنه « حيوان ذو قدرة على العقل » (٣) **rationalis capax** ولعل في هذا التعريف ردا على « ديكارت » الذي يبدو أنه نسى أن الله قد خلق الانسان في مرتبة أقل من مرتبة الملاك ، وأنه يتمتع بقدرة محدودة من العقل ينظم به عالمه الدنيوي ويرشده الى عالمه الابدى . وفي خطاب كتبه سوفيت الى صديقيه بوب **Pope** وبولنجبروك **Bolingbroke** وضع موقفه من هذا الامر ، فقال « اقول مع ذلك أنني لا أكره الجنس البشري ، بل انكم انتم الآخرون الذين تكرهونه ، لانكم تريدون الانسان حيوانا عاقلا ، وتغضبون لخبية أملككم فيه . أما أنا فلم أقبل ذلك التعريف أبدا ، وفكرت في تعريف آخر خاص بي » . (٤) ويرى سوفيت الى أن الشخص الذي يتخذ موقفا غير واقعي بالنسبة لقدرات الطبيعة البشرية قد ينتهي به الأمر الى كره البشر ، لانه ينتظر من الانسان أن يتعدى حدود طبيعته . أما حب الانسانية فلن يتنابه الغضب عندما يكتشف قصور الانسان وحدوده . ولا يعنى تعريف سوفيت بأن الانسان كائن « قادر على العقل » أن نظرتة سلبية ، وإنما يعنى انه يفرض التزاما أخلاقيا على المرء لاستغلال قدرته الى أقصى طاقته وهو بذلك ليس كاتباً ساخراً فقط ، وإنما هو كاتب أخلاقي صارم في أخلاقياته .

والذي يتألم له سوفيت هو أن الانسان لا يستغل قدراته العقلية أحسن استغلال ، بل أنه يتصرف وكأنه أقل بكثير في مستواه العقلي والخلقي مما أراد الله ، ورأى أن يكتشف حقيقة الانسان وطبيعته من خلال تجاربه الخاصة ومعرفته بسلوك معاصريه . فجاءت الصورة التي رسمها تحفة خالدة تمثل جوهر الانسان الثابت منذ بدء الخليقة .



٣ - خطاب لصديقه الشاعر « بوب » **Pope** ٢٩ سبتمبر ١٧٢٥

٤ - ٢٦-٢٩ نوفمبر ١٧٢٥

المشكلة التي واجهت سوفيت ، والتي تواجه كل أديب ، هو اختيار القالب المناسب للموضوع الذي يتناوله . وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يكتب بأمانة وصدق وحرية إلا إذا اكتشف وسيلة للتتبع تسمح له بأن يعبر عن آرائه وأفكاره دون قيد . ووجد الحل في رحلات جليفر باللجوء الى الحيلة الأدبية المحببة اليه وهي المحاكاة الأدبية الساخرة « Parody » وقرر أن يحاكي أكثر أنواع الأدب شعبية في يومه ، أي أدب الرحلات مثل رحلات دامبير **Dampiers Voyages** وإن يتخذ من شخصية الرحالة وسيلة للتعبير عن تجاربه في المجتمع الانجليزي المعاصر . وما يجدر ذكره انه عندما بدأ سوفيت بجديفة في كتابة رحلات جليفر عام ١٧١٩ كان غريمه دانيال ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١) **Daniel Defoe** الذي كان سوفيت يدعي دائما أنه لا يتذكر اسمه ، كان قد أتحف قراءه برواية روبنصون كروزو (١٧١٩) **Robinson Crusoe** التي تتناول شخصية بحار وجد نفسه مهجورا على جزيرة نائية عاش فيها سنين طويلة دون أن يرى انسانا . وما لا شك فيه أن سوفيت تأثر برواية ديفو ، كما تأثر بكتب الرحلات التي قرأ العديد منها ، وكانت ذات أهمية خاصة في ذلك الوقت . وكانت « الجمعية الملكية » أيضا تبدي اهتماما بالرحلات وتشجع الملاحين على جمع المعلومات عن البلاد النائية التي يزورونها ، ووصف جغرافيتها ومنتجاتها وسلوك سكانها وعقائدهم . وقد جمع سكرتير « الجمعية » ما بين عامي ١٦٩٣ ، ١٧١٢ - مخطوطات المذكرات كتبها ربانة سفن وملاحون وقرصنة ومغامرون . وكان هذا الاتجاه جزءا من البرنامج العلمي الذي وضعه روجر بيكون **Roger Bacon** واتباعه لجمع ملاحظات وأدلة عن العالم الطبيعي . وقد اتبع سوفيت نفس أسلوب تلك المذكرات ، وسجل دقائق كثيرة في رحلات جليفر ، وزود مؤلفه بخرائط مفصلة تعطيه طابع كتب الرحلات الاصلية ، وفي محاكاته لأدب الرحلات بعض الانتقاد ، فقد كان سوفيت نموذجاً لكاتب العصر « الاغسطي » الذي انصب اهتمامه على الصفات المشتركة بين الناس في المجتمع وفي الطبيعة . اما نظرة الكاتب في أدب الرحلات فكثيرا ما كانت مناقضة للنظرة الاغسطية ، فبدأ أهل البلاد والمجتمعات الأخرى للكاتب ليس مختلفين عنه فحسب بل غريبين الاطوار وشاذين ايضا . ولم يخل موقف سوفيت كلية من تلك النظرة المتعالية في شخصية جليفر ، الا أن هدفه الأساسي كان توجيه عناية القارئ داخليا الى الطبيعة البشرية المشتركة أكثر من توجيهها نحو الملاحظات الخارجية والاختلافات السطحية الناجمة عن مصادفات الظروف . بل وأكثر من ذلك فقد أراد أن يرشد القارئ الى تلك المهمة الشاقة التي تلخص في كلمتي « إصرف نفسك » .

وتتسمي رحلات جليفر الى نوع خاص من أدب الرحلات المتصل بتراث الادب والفكر الأوربي ، والذي دفع بعض الكتاب والمفكرين الى خلق رؤى لمجتمعات غريبة ، إما أسطورية وإما مثالية ،

يهدف دراسة الفكر السياسي المعاصر . ومن أمثال تلك المجتمعات « جمهورية » أفلاطون المثالية المبنية على حوار حول مفهوم العدالة ، ودولة « أطلانتس » الإسطورية في تيميبوس **Timaeus** لأفلاطون ، وهي رمز للنظام العالمي ، ويدور فيها نقاش حول العدالة والتقوى والحق ، وأطلانتس الجديدة (١٦٢١) **New Atlantis** حيث يناقش روجر بيكون السعادة الانسانية وامكانية التوصل اليها عن طريق التعاون العلمي ، ^(٥) ويتنتمي الى هذا التراث أيضا المؤلفات التهكمية الساخرة التي تتناول الدول المثالية الخيالية مثل يوتوبيا ^(٦) (أول ما نشر باللاتينية عام ١٥١٦) **Utopia** سير توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) **Sir Thomas More** . وتبع الاهتمام بقصص الرحالة ظهور سلسلة من الرحلات الاوروبية الخرافية مستخدمة الخيال الجامح بأسلوب ساخر وجذلي . وقد يكون مؤلف « لوكيان » حوالي (١٢٠ - ١٨٠ م) **Lucian** باللغة اليونانية بعنوان التاريخ الحقيقي **True History** النموذج الاصيل لهذا الشكل الادبي ، وهناك عدد كبير من المؤلفات مثل دول وامبراطوريات القمر ودول وامبراطوريات الشمس **Les Etats et Empires de la Lune et Les Etats Empires du Soleil** لسيرانودي برجرارك (١٦١٩ - ١٦٥٥) **Cyrano de Bergerac** أكثر ارتباطا بأدب الرحلات ، وتقدم أسلوبا جديدا في استخدام الرحلات الخيالية لمناقشة الافكار الفلسفية المتطرفة أو المواضيع المحرمة .

ورحلات جليفر سلسلة من « الجمهوريات المثالية » ومجموعة من « الرحلات الفلسفية » تتسم تارة بالواقعية وتارة بالخيال المبالغ فيه . والكتاب أيضا رحلة استكشاف ساخرة في خفايا الطبيعة البشرية ، ويكشف عن دخالها من خلال ملاحظات الرحالة «جليفر» ، وعن ظواهرها من خلال النظم السياسية والاجتماعية للبلاد التي يسافر اليها وسلوك سكانها . فأسفار « جليفر » رحلة أو تجربة ذهنية تنتقل بالفارء من حالة الرضا التام المبني على الجهل الذي يتصف به الرجل الانجليزي النمطي ، الى حالة الرفض التام الذي يتبع اكتشاف الحقيقة المؤلمة اللاذعة المخفية وراء الخداع والوهم اللذين كان يعيش فيها .



٥ - لعل اكاديمية « لاجاندي » في رحلات جليفر سخرية و سوليت « من رؤية » ويكون « المقدمة » .

٦ - معنى الكلمة باليونانية القديمة « لاسكان »

شخصية جليفر

« جليفر » الرحالة الذي اختاره سوفيت ليسرد تفاصيل مغامراته الخيالية شخصية مستقلة ، يجب ألا نخلط بينها وبين المؤلف كما حدث مع كثير من النقاد . انها قناع ابتدعه سوفيت لأغراضه الساخرة . وتختلف عن الشخصيات التي اعتدنا أن نراها في « الجمهوريات » المثالية والرحلات الخيالية ، وكلها غريبة عنا لا نعرف شيئا عنها وعن مجتمعاتها وعملها وأماها ومخاوفها وطموحها وحياتها الخاصة ، وكان الكتاب يستخدمون مثل هذه الشخصيات المحايدة الخالية من الارتباطات ليصوروا من خلال أعيانها البريئة المجتمعات التي تستكشفها . أما « جليفر » فهو نموذج للرجل الانجليزي العادي متوسط الحال ماديا ، غير المتميز عقليا ، واسع الحيلة شجاع وان لم يكن بطلا ، صاحب فضائل حمة يتصف بها أهل بلاده ، ولكنه يقع في كثير من الاحيان فريسة لخداع النفس وأنصاف الحقائق التي تدخل على نفسه السكون والطمأنينة . إنه شخصية قريبة الى ذهن القارئ .

ويعطي سوفيت عند أول لقاء بين « جليفر » والقارئ نبذة مختصرة عن حياته لا تزيد عن خمسمائة كلمة يغطي فيها الأعوام التسعة والثلاثين التي عاشها حتى لحظة إبحار السفينة « انتيلوب » من ميناء بريستول في شهر مايو عام ١٦٩٩ ، في أولى الرحلات . ورغم الميل الملحوظ الى الاختصار ، فإن وضوح التفاصيل المتعلقة بحياة « جليفر » والاشارة الى الاماكن التي عرفها ، والتي ما زالت مألوفة حتى اليوم ، تجعل من السهل على القارئ أن يتخيل دقائق أخرى تضيف على الشخصية حياتها الخاصة . ويشبه سوفيت « دانيال ديفو » الى حد كبير في أسلوبه السردى والحيلة الأدبية التي يلجأ اليها لاقتناع القارئ بواقع ما يكتبه . وهذه الحيلة مبنية على الأسلوب التقريرى ذي التفاصيل الدقيقة غير المهمة التي يحرص الكاتب على ذكرها بأمانة لما تركه في القارئ من انطباع بالحقيقة والواقع . فعندما يشير سوفيت الى زواج « جليفر » مثلا لا يكتفي بذكر الواقعة نفسها ، بل يزوجنا باسم زوجته ، واسم والدها ومهنته كقاص ، وموقع متجره في شارع « نيوجيت » مضيفا الى هذه الدقائق التافهة كون الزوجة هي ابنة ابيه الثانية ، ثم المبلغ الذي تسلمه « جليفر » كمهر للعروس وهو أربعمائة جنيه ، ويتجهج « سوفيت » نفس المنهج عندما يشير الى المعاملات المالية الخاصة ب « جليفر » فيقول :

عندما تركت عملي مع مستر بيتش ذهبت لزيارة أُمِّي وبمساعده ومساعدة عمي جون وبعض الأقارب حصلت على أربعين جنيها ، وعلى وعد بثلاثين جنيها أخرى سنويا لتغطية مصاريفي في

« لايدن » وهناك درست الطب لمدة عامين وسبعة أشهر علما مي بأن هذه الدراسة ستكون ذات نفع لي
(في رحلتي .^(٧))

ونلاحظ الدقة في ذكر المدة التي قضاها « جلوفر » في دراسته في لايدن **Leiden** ، وكان من الممكن
ان يقول عامين ونصف أو حوالي عامين ونصف ، ولكنه تعمد ذكر « سبعة أشهر » ليوحي بأننا بصدد
الواقع وليس الخيال .

وتضفي هذه الدقائق صلابة على شخصية « جلوفر » ، فهو كما وصفه سوفيت لا يعيش في فراغ ،
ولمّا له مكانه المحدد في البناء الاجتماعي ، ولا تفقر حياته الى المشاكل العادية والصعاب المهنية
والعلاقات الفردية ، الايجابية منها والسلبية ، مع اصدقائه واعدائه وزوجته وأولاده . فهو رجل في
منتصف العمر من الطبقة المتوسطة يستطيع القارىء أن يفهم تفكيره وتصرفاته وأن يتعاطف أو يختلف
معه . اختار سوفيت هذه الشخصية كأداة لتأمل المجتمع البشري الاوروبي والانجليزي ، وخاصة
مجتمع انجلترا في القرن الثامن عشر الذي تنتمي اليه الشخصية . ونحدد شخصية « جلوفر » أفق
وأساليب السخرية التي تختلف تماما عن السخرية النابعة من شخصية غير واقعية تمجد نفسها وجها لوجه
مع مجتمع غريب عنها .

وإذا كان « جلوفر » لا يمثل الشخصية البسيطة المثالية المحايدة التي تلعب دور - المتفرج الموضوعي ،
فانه في نفس الوقت ليس شخصية واقعية مركبة نفسيا متفاعلة تفاعلا كاملا وعمليا مع عالمها
الخارجي ، فواقعية « جلوفر » تستند الى حد كبير الى كونه شخصية نمطية محايدة لا حد له من
التفاصيل الدقيقة . ولا يلتفت سوفيت الى حياة « جلوفر » الداخلية أو النفسية إلا في حالات قليلة
عندما يهدف الى إثارة بعض المشاعر البشرية المحددة في القارىء . فخداع النفس والأوهام وتحايل
الحقيقة التي تظهر في ردود افعال « جلوفر » لا تشير الى اهتمام سوفيت بتصوير نفسيته ، وإنما هي إشارة
للقارىء الذي عليه أن يكتشف أوجه الشبه بين نفسيته ونفسية « جلوفر » الرجل العادي . « فجلوفر »
الممتلء غرورا بطفولته وهو يتحدث عن بلده الملك « برويد نجانج » **Broddingaag** ^(٨) ، والذي
ينخدع بحلم عندما يسمع عن « الخالدين » ^(٩) ، إنما يمثل نموذجاً عاما لمشاعر البشرية . وليس هناك

٧- الجزء الاول ، الفصل الاول .

٨- الجزء الثاني ، الفصل السادس والسابع

٩- الجزء الثالث ، الفصل العاشر .

مثل واحد لتصرف أو سلوك أو مشاعر تميزه عن باقي جنسه ، بل الشيء الوحيد الذي يميزه هو غرائب الأشياء التي تصادفه في رحلاته . « جليفر » وسيلة يستخدمها الكاتب ليضع العامل البشري المشترك أو « الرجل العادي » الذي يقع بداخلنا جميعا في مواقف غير عادية لمراقبة سلوك الانسان وتصرفاته .

حرص سوفيت اذن على تقديم « جليفر » بدرجة من الواقعية تمكن القارئ من المطابقة بينه وبين نفسه ، الا انها مطابقة محدودة وليست كاملة . والذي يتحكم في درجة المطابقة هو أداة السخرية التي تدفع بالقارئ الى الفصل بين « جليفر » وبينه . فهناك المطابقة والفصل معا . وعند عملية الفصل ، نتيجة لعنصر السخرية ، يجد القارئ نفسه ناقدا لـ « جليفر » وناقدا لذاته في نفس الوقت لمطابقته لـ « جليفر » في بعض نواحي تفكيره وسلوكه .

ولما كان « جليفر » يصور نواحي مختلفة من أوجه البشرية التي تتعدد بتعدد الظروف والمواقف قلما نجد فيه صورة متناسقة مكتملة ، فـ « جليفر » وسط أقزام « ليليبوت Lilliput » يختلف الى حد كبير عن « جليفر » وسط مرمة « بروبينجلند نجانج » ، ومع ذلك لا يجد القارئ مجالا للاعتراض على مثل هذه التناقضات ، ولا يحاول التوفيق بينها في بحثه عن تفسير أعمق للشخصية البشرية المركبة كما يحدث في الحياة الواقعية أو في الرواية المتطورة . فاذا رغبنا أن نحس قراءة رحلات جليفر فعليا أن نرى « جليفر » كما أراد سوفيت أن نراه ، أي كأداة يستخدمها الكاتب ليشوه بها رؤيتنا لأنفسنا وللواقع ، مثل المرأة المعوجة التي تعكس الأشياء على نحو ملتو . ويختبر القارئ من خلالها عددا من التجارب التي اختارها الكاتب لتعريف القارئ بحقيقة نفسه . « فسوفيت » اذن يستخدم شخصية « جليفر » كوسيلة للانتقال بالقارئ بين المواقف الاستكشافية التي يستطيع منها أن يشرف على دوائر الطبيعة البشرية .



(١) رحلة الى ليليبوت A Voyage to Lilliput

وأساس المواقف الاستكشافية هي المواقف التي يجد « جليفر » نفسه فيها ، وتمثل في البلاد التي يزورها أثناء رحلاته ، والتي يعتمد سوفيت في تخيلها على المبالغة المتصورة وتمد هذه البلاد الكاتب بالأداة الأساسية الثانية التي تمكنه من استخدام سلاح السخرية الحاد المدمر . فزيارة « جليفر » لأربع

بلاد مختلفة هي « ليلبيت » بلد الأقزام ، و « برويدنجنج » بلد المردة و « لابوتا » Laputa وجيرانها « بلاد العلوم والسياسة المجردتين » ، وبلد « الهوينومز » التي يحكمها الحصان العاقل ويقطنها « الياهو » الانسان الحيوان ، زيارة « جليفر » لكل من هذه البلاد تواجهه بمواقف لم يسبق له أن مر بها .

وقد اتخذ « سوفيت » أساس سخريته في الرحلتين الأولى والثانية المقارنة بين الحجمين الكبير والصغير . ووجد في فكرة « سلسلة الوجود الهائلة the great chain of being » الهاما لرؤيته للانسان في هاتين الرحلتين ، بالإضافة الى الرحلة الرابعة الى بلد « الهوينومز » ، وكانت الفكرة القائلة بأن الانسان يحتل في الوجود مكانا وسطا من الافكار المألوفة أيام « سوفيت » ، وكان كثير من الناس يعتقدون أن الوجود قد نظم باتقان ودقة على شكل درجات في « سلسلة وجود هائلة » ابتداء من الخالق الذي يتبعه عدد لا يحصى من الكائنات الروحية والذهنية المجردة ، الى الانسان والكائنات الحيوانية والاشكال الميكروسكوبية من الحياة ، حتى تنتهي الى لا شيء . ويشغل الانسان في هذه « السلسلة » وضعاً لا يعرف فيه الراحة ، لأنه يشارك الى درجة محدودة ، الكائنات الذهنية السامية ، في عقلها ، بينما يشارك الى درجة غير محدودة ، الحيوان في غرائزه الحسية . فالانسان « حلقة الوصل » ونقطة الالتقاء بين العقل والحس . وقد استخدم سوفيت صورة الانسان هذه في موقعه الوسط في « سلسلة الوجود الهائلة كوسيلة للفكاهة والتهكم والسخرية . وقد اعتمد في فكرة المقارنة بين صغر حجم « جليفر » بالنسبة الى سكان ليلبيت و « برويد نجنج » ، اعتمد على نظرة الفيلسوف باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) Pascal في قوله : « أين الانسان من الطبيعة ؟ انه الا شيء اذا ما قورن باللا متناهي » ، والكل اذا ما قورن باللا شيء . انه الوسط بين المتناهي واللا متناهي » ويستعير سوفيت فكرة « النسبية » هذه ويحوها لتكون أداة سخرية فعالة . فيكتشف « جليفر » في الرحلتين الأولى والثانية ، عدم تناسبه وسط الظروف المحيطة به . وعندما ينظر الى أقزام « ليلبيت » من علوه الشاهق يدرك انه انسان ثقيل الحربة يفتقر الى الرشاقة ، وإن كان ماردا طيب القلب . أما في « برويد نجنج » فيتجه نظر « جليفر » من موقعه الوسط الى أعلى « سلسلة الوجود » ، وليس الى أسفلها كما حدث في « ليلبيت » ، مكتشفاً سلالة من المردة يبدو هو بالمقارنة بهم قزماً أو لعبة صغيرة كما كان أهل « ليلبيت » بالنسبة اليه .

والتركيز هنا على الحجم الجسدى ، وهى الناحية التى تستحوذ على خيال القارئ الطفل فيجدها مسلية للغاية . وفكرة « النسبية » ليست بجديدة اذ سبق سوفيت اليها آخرون ، وإنما الابتكار يرجع

الى كيفية تنفيذ الفكرة باستخدام التفاصيل الدقيقة الروائية المتعلقة بظروف الموقف . فسواء كان القارئ طفلاً أم بالغاً فإنه يتتبع متلهفاً أهل « ليليت » وهم يحملون المشاكل التي يواجهونها عند اكتشافهم وجود « الرجل الجبل » في بلدهم . فعليهم أن ينقلوه الى وسط المدينة ويحضروا له الطعام ويصنعوا له سريراً . ويجد القارئ تسلياً في وصف حيرة هذه الكائنات الصغيرة التي لا يزيد طولها عن ست بوصات وهم يتفحصون الاشياء التي يعثرون عليها في جيوب « جليفر » المشط وقطع النقود والمنديل والنشوق - دون أن يفهموا ماهيتها - ومن بين هذه الاشياء ساعته التي تبدو لهم كآلة هائلة ، فيقولون في وصفها :

وتدلت من جيبه الايمن سلسلة فضية كبيرة في نهايتها ما يشبه الآلة الكبيرة العجيبة . فطلبنا منه أن يسجل الشئ المعلق بالسلسلة ، والذي بدا كروي الشكل ، نصفه من الفضة ونصفه الآخر من نوع من المعدن الشفاف . ورأينا على الناحية الشفافة أشكالاً مستديرة غريبة اعتقدنا أول الأمر أننا نستطيع أن نلمسها ، ولكن حالت دون ذلك تلك المادة الشفافة وقد رفع هذه الآلة الى آذاننا ، وكان ينبعث منها صوت لا ينقطع مثل صوت طاحونة المياه . واستنتجنا أنها إما حيوان غير معروف ، أو آله الذي يعيده ، ولكننا غمّل الى الرأي الأخير لأنه أكد لنا أنه قلما يفعل شيئاً دون أن يستشيرها وقد سماها الوصي ، وقال انها تشير الى الوقت المحدد لكل فعل في حياته . (١٠)

وتسيطر الناحية الفنية من المغامرات على خيال القارئ ويجد فيها تشويقاً عظيماً . ومنها على سبيل المثال ، طريقة استيلاء « جليفر » على أسطول « بليفسكو » **Blefusco** البلد المعادية لـ « ليليت » ، وسحب السفن وراءه في البحر ، ممسكاً في يد واحدة بالخيط التي ربطها بها ، فبدت قطع الاسطول التي تهدد كيان الأقزام كلعب الاطفال . وهناك مشهد العرض العسكري المقام على سطح منديل « جليفر » المنصوب على أعمدة ، وكان المنديل ساحة رحبية . ويستمتع القارئ بمتابعة الحلول الفنية المبتكرة ، كما يستمتع برؤية ناضرة لعالمنا المألوف ، وكأننا نراه لأول مرة من خلال أعين الطفل البريء الذي لم يفقد بعد بساطته وقدرته على الدهشة ، كما في مشهد الساعة ، ولا تفوت سوفيت فرصة استغلال التناقض في الموقف بين المارد والقزم لاثارة الضحك ، مثلاً يفعل عندما يشير الى الشك الذي يساور « فليمناپ » **Flinnap** عن وجود علاقة غرامية بين زوجته القزم و « جليفر » المارد . ولا شك أن الكاتب يحسن استغلال الامكانيات الكامنة في الموقف الاساسي للتسليية والفكاهة دون أن يهدف إلى أي غرض آخر .

ولكن صغر حجم أهل « ليليت » يؤكد نوعاً آخر من الضلالة وهي الضلالة الاخلاقية التي تبدو في غرور امبراطور « ليليت » . فعندما يراه « جليفر » لأول مرة لا يغيب عنا عبث ذلك الكائن اللعبة ، وقد وقف مختالاً بسيفه في يده وخوذته الذهبية على رأسه ، وكلاهما مرصع بالجواهر الثمينة . ويصف « جليفر » مقابلته الاولى مع الامبراطور ، فيقول عن ذلك الموقف المضحك الساخر :

ولكي أراه عن قرب استلقيت على جانبي حتى أصبح وجهي موازياً لوجهه ، بينما وقف على مسافة ثلاث ياردات فقط مني وعلى أية حال فقد وضعت في قبضة يدي مرات عديدة منذ تلك المواجهة الاولى ، ولذلك فلم أكن مغطى في وصفي له . لقد كانت ملابسه بسيطة مجردة من الحلية ولكنه ارتدى على رأسه خوذة خفيفة من الذهب محلاة بالجواهر وقد أمسك بسيفه في يده ليدافع به عن نفسه خوفاً من أن أفك وثاقي ، وكان المقبض والغرب من الذهب المرصع بالماس .^(١١)

ويتكرر الإحياء بغرور الانسان القزم عندما يسرد « جليفر » سلسلة طويلة من الألقاب التي منحها الامبراطور ، فالسخرية كامنة في التناقض بين فخامة الألقاب وعظمتها وصغر حجم صاحبها . ومن ألقابه التي اختيرت على وزن القاب الملوك والباطرة في العالم الواقعي :

امبراطور « ليليت » الجبار ، هجة ورعب الكون ، الذي تمتد ممتلكاته خمسة آلاف « بلا صتروج » (أي بقطر طوله حوالي اثني عشر ميلاً) حتى اطراف الكرة الأرضية . ملك الملوك ، يامن هو أطول من أبناء البشر^(١٢) ، ومن تصل قدماه الى مركز الارض، ويعلو رأسه فيصطدم بالشمس . يامن يرتعد لمجرد إجماء من رأسه أمراء الكون . لطيف مثل الربيع ، مريح كالصيف ، مثير كالخريف ، ومرعب كالشتاء .^(١٣)

وتبدو سخرية سويفت أكثر وضوحاً عندما تظهر المقارنة بين « ليليت » ومجتمع انجلترا المعاصر ، ومن أشهر مشاهد المقارنة الساخرة الذي تخصص فيه أهل « ليليت » والذي يجد فيه الامبراطور تسلية كبيرة ، مشهد الألعاب البهلوانية ، ويقوم به المتقدمون لوظائف الدولة المرموقة ، وهم يتنافسون عليها

١١ - الجزء الاول ، الفصل الثالث

١٢ - سبق أن أشار « جليفر » الى انه أطول من أبناء شعبه بقدر « نصف طول ظفر الخنصر » .

١٣ - الجزء الاول ، الفصل الثالث

بالرقص على الحبل المشدود محاولين الاحتفاظ بتوازنهم . ويصف « جليفر » هذه اللعبة « البهلوانية » التي يحاول فيها كل لاعب اثبات تفرقه على منافسيه ، فيقول :

أبدى الامراطور في أحد الأيام رغبة في تقديم بعض التسلية لي عن طريق عدد من الاستعراضات الوطنية التي تتفوق فيها الليليت على جميع دول العالم التي عرفتها من حيث المهارة والأبهة . وقد وجدت أعظم تسلية في استعراض الراقصين على الحبل الذي أدوه على خط أبيض رفيع امتد حوالي قدمين وارتفع عن سطح الأرض بحوالي اثني عشر بوصة ولا يؤدي هذه اللعبة الا أولئك المتقدمون للوظائف الهامة والمراكز الرفيعة في البلاط . انهم يتدربون على هذا الفن منذ صغرهم . وهم ليسوا دائما من أصل نبيل أو ذوي تعليم راق . وعندما يشغل مركز خطير في الدولة ، إما بسبب موت من كان يشغل ذلك المركز أو بسبب فضيحة (مما يحدث كثيرا) يلتمس خمسة أو ستة من المتقدمين تسلية الامبراطور والقصر بتقديم رقصة على الحبل . والفاخر الاول الذي لا يهوى الى الارض يرقى الى الوظيفة . وكثيرا ما يصدر الأمر للوزراء الاوائل أنفسهم باستعراض مهارتهم لاقناع الامبراطور بأنهم ما زالوا محتفظين بها . ١٤٩)

ثم ينتقل سويقت الى اللعبة التالية التي لا تؤدي الا في مناسبات خاصة ، ولا يسمح لأحد سوى الامبراطور والامبراطورة ورئيس الوزراء أن يستمتعوا بها . ويلاحظ أن الحركات أكثر تنوعا ، وتوحي حركة « الزحف من تحت العصا » بالرياء والنفاق والخنوع الذي يتطلبه الحاكم لبدء رضاه نحو أصحاب المهارات . وإليك وصفا لهذه التسلية التي تنفرد بها « ليليت » :

يضع الامبراطور على المنضدة ثلاثة خيوط رفيعة طولها ست بوصات : واحد منها ازرق ، والآخر احمر ، والثالث اخضر . وهذه هي الجوائز المقترحة لمن يريد الامبراطور أن يؤثّرهم بحظوته . ويقام الاحتفال في صالة جلالته للمراسم الكبيرة حيث تختبر مهارة المتقدمين على نحو يختلف عن الاختيار السابق ، كما تختلف تماما عن أي شيء رأيته في أية دولة أخرى ، سواء في العالم القديم أو الجديد ، ويمسك الامبراطور بعصا في يده في وضع مواز للأفق ، بينما يتقدم المرشحون الواحد تلو الآخر ، تارة يقفزون من فوق العصا ، وتارة يزحفون من تحتها عدة مرات الى الأمام والى الخلف تبعا لوضع العصا : واحيانا يمسك الامبراطور بطرف واحد بينما يمسك الوزير الاول بالطرف الآخر . واحيانا

يمسك الوزير الأول العصا بمفرده والشخص الذي يؤدي دوره بمهارة أكثر ويستمر في القفز والزحف مدة أطول من غيره يكافأ بالخيوط الأزرق ، ويكافأ من يليه بالخيوط الأحمر ، والذي يليه بالأخضر . وهم يتمنطقون بهذه الخيوط . وقبلها تصادف شخصا عظيما في هذا القصر الا وقد تحلى بهذه الأحزمة . (١٥)

وعندما يتبين أن هذه الخيوط تمثل أعلى الأوسمة (١٦) التي يمنحها ملك إنجلترا للذين يتمتعون بحظوته ، يبدأ القارئ في التساؤل عن أوجه الشبه الأخرى بين ليلبيت والمجتمع الانجليزي المعاصر ، وعن مدى تطابق شخصيات العصر في « ليلبيت » مع الملكة « آن » والملك « جورج الأول » وابنته « أمير ويلز » الذي أصبح فيما بعد « جورج الثاني » ، وشخصية « فليمناب » **Flin-nap** التي تمثل « روبروت وولبول » رئيس الوزراء (او الوزير الاول كما سمي في ذلك الوقت) الذي استمرت رئاسته لوزارة « الاحرار » في عهد « جورج الاول » سنين طويلة ، والذي صورته سوفيت كأكثر الرجال حذقا في الرقص على الحبل لطول بقائه في الحكم . ويتبين للقارئ أيضا أن دولة « بليفيسكو » في حربها مع « ليلبيت » تمثل فرنسا في حربها مع إنجلترا . وفي اشارة سوفيت الى الخدمات التي اداها « جلوفر » لامبراطور « ليلبيت » في حربه مع « بليفيسكو » تذكره بالخدمات التي اداها « سوفيت » نفسه للقصر وللوزارة دون أن يلقى من أيها اعترافا بالجميل ، مما يفسر قول « جلوفر » في نهاية الرحلة الأولى عندما يتأمر البلاط والوزراء ضده : ولذلك قررت ألا أضع ثقتي بعد اليوم في أمير أو وزير .

وان التطابق بين « ليلبيت » وإنجلترا (١٧) اذن واضح من بعض الشخصيات السياسية التي يمكن ان نتعرف عليها من التاريخ ومن بعض تجارب سوفيت عندما كان يعمل قريبا من السياسيين والحكام . ولا شك أنه كان يستنكر حكومة جورج الاول ووزيره ودبلول الذي - اشتهر حكمه بالفساد ، وانه استخدم سحره لكشف النقاب عن الحياة السياسية كما عرفها . ولكن « الرحلة » أعمق بكثير من كونها هجوما عنيفا مبينا على تمهيرة شخصية محضة ، ومحاولة للأخذ بالثأر ممن خذلوا سوفيت في طموحه . ولو كانت كذلك لما ارتفع كتاب رحلات جلوفر الى مصاف الادب العالمي . فهذا المؤلف ، وبالذات الرحلتان الأولى والثانية ، هجوم ساخر على الانسان بوصفه حيوانا سياسيا واجتماعيا .

١٥ - المكان السابق ذكره

١٦ - الأزرق Order of the Thistle الأحمر Order of the Bath

T.P. Lock, The Politics of Gullivers Travels, Oxford, 1980

ورحلة « ليلييت » كغيرها من رحلات « جليفر » ، تُهتَم بالعموميات التي يمكن استخلاصها من الصورة التي قدمها « سويغت » للحياة السياسية في بلد الاقزام التي تكشف عن ثقافة الانسان واقتناره الى المبادئ . وليس هناك من هم أنسب لتصوير هذه الصفات من تلك الكائنات الصغيرة . فضآلتها الجسدية كناية عن اخلاقياتها الضحلة ، ونفاهة اهتماماتها تبرز بوضوح عند مقارنتها بغيرورها وإحساسها الطاعني بأهميتها . وقد وجد سويغت في الحياة السياسية حيث الصراعات على المراكز وعلى التقرب من الحاكم ، وجد فيها مثالا للنشاط البشري الاحق للامبدأى الذي يؤكده السلوك « البهلواني » والذي لا يليق بانسان وهب العقل ليعتمله .

والمهم في اتجاه رحلات جليفر الساخر ليس مضمون السخرية نفسه وانما الشكل الادبي الذي اخذه ، مما جعل رحلة ليلييت أسطورة شعبية يعرفها الصغار والكبار على السواء . ومن العجيب أنها ليست مبنية على حبكة روائية كما في قصة « سندريللا » ، أو على حلم رومانسي كما في القصة « اليوتوبية » ولا على شخصية أساسية مثل شخصية سيرانودي ببرجراك ، وانما هي مبنية على موقف بسيط بدائي مستمد من الاحلام ، ويتعرف عليه القارى بسهولة لكونه جزءا من عالم خياله الجامح . ويتلخص فن سويغت في التناقض بين الواقع والخيال الخرافي المنطلق . فهدفه أن يتخلص القارىء من الاوهام وخداع النفس لمواجهة الحقيقة ، ولكي يصل الى هدفه يستغل سويغت أنجذاب الانسان الطبيعي نحو عالم الخرافة ، فيوهم قارئه بأنه سيرحل معه الى عالم سوف يشبع خياله ورغبته في الهروب من الواقع ، ومع ذلك فانه يحاول اقناع القارىء ، عن طريق الدقة في الوصف ، بأنه في عالم واقعي . فالخلط بين الخيال والواقع في الشكل والأسلوب هو أحد مميزات « سويغت » الساخرة ، ولا يلبث القارىء أن يتمادى في الضحك من المواقف المسلية الفكاهية بين « جليفر » وأهل « ليلييت » حتى يكتشف أن رحلته هي رحلة الى اغوار الحقيقة ، وليست كما تصورها أول رحلة خرافية ، وإن كانت الخرافة هي وسيلة الكشف عن الحقيقة .

ويتلخص موهبة سويغت الفنية في تجسيد الموقف والفكرة في صورة حية . فيرمز الى حزبي المحافظين والاحرار اللذين كانا في صراع محتدم ، يرمز اليهما باسمي « الترامكسانز » **Tramecksans** و « السلا مكسانز » **Slamecksans** او بحزبي « الكموب العالية » **High Heels** و « الكموب المنخفضة » **Low Heels** والاشارة هنا الى وضع سياسي يمتد الى أبعد من الشخصيات التاريخية والطقوس السياسية من « قفز و زحف » الى القضايا السياسية والدينية التي شغلت بال العصر .

كانت هذه القضايا السياسية ^(١٨) غاية في الخطورة . فقد دفع حزب الاحرار انجلترا الى سلسلة من

الحروب التجارية الدامية المكلفة ، اما حزب المحافظين فقد نجح خلال فترة حكمه القصير في توقيع اتفاقية سلام غيرت من معالم اوروبا ومهدت الطريق الى الاستقرار في إنجلترا . ولكن الاوضاع كانت أكثر تعقيدا من ذلك . فكان مؤيدو المحافظين من ملاك الأرض والمحافظين في الدين والاقتصاد وأساليب الزراعة والقيم عامة ، بينما كان الاحرار من المساندين للطبقة التي بنى عليها ثراء المجتمع الانجليزي - أي طبقة التجار البرجوازيين المنشقين عن الكنيسة الانجليزية ، التقدميين في فلسفتهم الاقتصادية والزراعية والتجارية وفي آرائهم في الاخلاق والقيم . وكان الاحرار من أنصار اسرة هانوفر الملكية ، بينما كان المحافظون من أنصار الملك جيمس الثاني الملك المخلوع الذي فر الى فرنسا ، أي اهم كانوا من مساندي القوى التي كانت تهدد الأمة بحرب أهلية . ورغم خطورة هذه القضايا التي كان يتوقف عليها مستقبل إنجلترا ونظام الحكم فيها ، فقد تمعد سويغت أن يظهرها في مظهر تافه عابث . فيقول عن ميل الملك جورج الاول الى حزب الاحرار وعن تردد ولي العهد في اتجاهاته السياسية :

ان الكعب الامبراطوري أكثر انخفاضا عن كعوب أي من أعضاء حاشيته بمقدار « در »^(١٩) على الأقل ونلاحظ أن السمو الامبراطوري وولي العهد يميل الى حد ما الى « أصحاب الكعوب العالية » ، ومن الواضح أن واحدا من كعبيه على الأقل يبدو أكثر ارتفاعا من الآخر ، مما يجعله يخرج في مشيته .^(٢٠)

ويلخص سويغت في هذه الصورة المجسدة للكعوب العالية والمنخفضة « السياسة الحزبية في إنجلترا ومساندة الملك أو مناهضته لها .

أما القضية التي أثارت جدلا طويلا حول المسيحية والانشقاق الديني في إنجلترا ، والتي كانت من القضايا الهامة في عصر سويغت ، فقد رأى أن يصورها بنفس الاسلوب الساخر الذي صور به الخلافات السياسية مقلدا في الظاهر من خطورتها . فحول الصراع الديني المرير بين الكاثوليك والبروتستانت والعداوة بينها الى مشكلة « كسر البضبة » كما سماها ، وتتلخص المشكلة في « هل من الأفضل أن تكسر البضبة من القمة العريضة أم من القاع الضيق » ، وسمى الكاثوليك « اتباع القمة العريضة Big — Endians والبروتستانت « اتباع القاع الضيق Little — Endians . وبهذا تبدو القضية التي قاست منها إنجلترا سنين طويلة والتي أدت الى اضطهاد ديني وحرب أهلية وثورة قلبت

١٩ - وحدة لاسية في « الليبت » اعرفها « سويغت »

٢٠ - الجزء الاول ، الفصل الرابع

نظام الحكم من ملكية الى جمهورية ، تبدو في رحلة « ليليت » سخيفة وتافهة نتيجة للصورة المصغرة العابثة التي تظهر عليها . وتنحصر سخرية سوفيت في السبب العابث الذي قدمه كتفسير للاضطهاد الديني الذي أدى الى موت الآف المواطنين الكاثوليك ، وهو رفض « اتباع القمة العريضة من » الاذعان لكسر بيضهم من القاع الضيق » .

هذه القضايا السياسية والدينية التي اهتز لها كيان الامة بأسرها ، وإن كانت تبدو في « ليليت » من عبث الانسان القزم ، ومثارا للضحك ، الا أنها كانت ذات عواقب وخيمة في انجلترا ، وهنا يظهر للقرءاء الفارق الكبير . بين ليليت وانجلترا على الرغم من أوجه الشبه الواضحة بينهما ، فوجود « جليفر » وسط الاقزام وتصرفاته العاقلة وتسامحه واعتداله يعطى القارئ مقياسا انسانيا يحكم به على أهل ليليت ، كما يعطى أملا في استطاعة الانسان دراسة مشاكله بتفهم وعقل ، وتقديم حلول فعالة تتناسب مع مكانته في « سلسلة الوجود الهائلة » . والواقع ان سوفيت رفع « جليفر » في هذه الرحلة الى مكانة تستحق الاحترام ، وإثني من خلال شخصيته في ليليت على الانسان العادي ، وعلى قدرته على التصرف الحكيم .

ولا يستخدم سوفيت طريقة السخرية المبنية على صلة « العدسة المصغرة » طوال رحلة ليليت . وإنما يلجأ في الفصل السادس الى وسيلة أخرى أساسها فكرة « اليوتوبيا » أى الدولة المثالية الخيالية . وهنا يطرأ تغيير على الدور الذي يلعبه « جليفر » . فبعد ان كان مجرد شخصية عملية تلاحظ ما يدور حولها وتسجله وتتفاعل معه ، يصبح شخصية مثالية تقدمية عائدة من بلد مثالية ، حاملة معها اخبار هذه البلد التي فاقت بلاده في النظم السياسية والتعليم والأخلاق .

وتتحول ليليت الى شكل جديد من اشكال أدب الرحلات « اليوتوبية » وتتناول النواحي التي تبعث على الاعجاب بالانظمة والقوانين والتربية والتقاليد في ليليت ، والتي تفتقر اليها انجلترا . ويلاحظ أن النقد السياسي والاجتماعي والتعليمي الموجه الى انجلترا هو أساسا نقد أخلاقي . فبدلاً من ان تسن ليليت « القوانين » لحماية الملكية الفردية وتثير في الافراد الخوف من القانون وتجبرهم على الاذعان له ، فانها تعمل على تشجيع الناس على الفضيلة ، فالنظم في ليليت تكرم أولئك الذين يمتزمون القانون وتعاقب الخارجين عنه . وتهدف الانظمة والقوانين في الدولة الى اقناع المواطن بأن السلوك الفاضل في متناول الجميع وفيه مصلحة للجميع ، لأنهم يعتقدون أن « كل انسان يستطيع أن يتحل بالصدق والعدل والاعتدال وما اليها من صفات » . وبناء على ذلك فإن حكم البلاد ليس أمراً عسيراً ولا يتطلب

مهارة فائقة . وهذا ما يكتشفه « جليفر » أيضا في « برويد جنجان » ، وهو أن « تناول الشؤون العامة للدولة ليس سرا من أسرار الكون » ، وكل ما هو مطلوب من الحاكم وأعوانه هو « الفضيلة والخلق الطيب والايثار وليس المواهب العقلية » . ولذلك فإن هدف التعليم في ليلبيت هو تكوين المواطن الصالح . ومن أجل هذا يفصل الأطفال عن أهاليهم في المراحل الأولى من حياتهم حتى لا تتساء تربيتهم ، ويلتحقون بمؤسسات الدولة حيث يعيشون حياة بسيطة ويتفادون العادات السيئة ويتدربون على الفضائل . وهذه هي الوسيلة ، كما رأها « سوفيت » ، لغرس « مبادئ الشرف والعدل والشجاعة والتواضع والرأفة والدين وحب الوطن » فيهم ، وهي الفضائل التي من أجلها يضحي المرء بالحب الأسرى .

ويلاحظ القارئ تناقضا في هذا الانتقال المفاجيء من ليلبيت بلد الاقزام الذي يمسد عددا كبيرا من نقائص وعيوب الأنظمة في انجلترا في القرن الثامن عشر ، الى ليلبيت البلد المثالي ، حيث يوجه التعليم والتربية والقوانين الى ترسيخ القيم الاخلاقية . فكيف يصور اقزام « ليلبيت » التفاعلة والوضاعة والفساد والغرور ، وفي نفس الوقت يمثلون مزيجا من الحكمة والعقل والخلق القويم . لا شك أن سوفيت قد تنبه الى هذا التناقض الذي أضعف الشكل الفني للرحلة الأولى ، ولكن سوفيت المفكر تغلب على سوفيت الفنان . وعندما حاول أن يعطي تفسيرا للتناقض ، جاء التفسير واهنا ، وهو أن الأنظمة المثالية والسلوك الشريف والخلق الطيب ، التي وصفها « جليفر » ، ما هي إلا أثر باهت من آثار الماضي التي اندثرت بمرور الزمن عندما تعرض أهل ليلبيت لقوى الفساد .

وتنتهى الرحلة مرة ثانية ، كما بدأت ، بصورة غير مشرفة لأهل ليلبيت « بل ان الصورة تزداد قمامة في الجزء الأخير من الرحلة عندما يتطور الدور الذي يلعبه « جليفر » ، فبعد أن كاد هذا الدور يتلخص في الملاحظة الموضوعية والتعجب من الاقزام الذين يبعثون على التسلية والضحك ، بدأ يأخذ شكلا آخر عندما احتك « جليفر » الطيب الرقيق بأهل ليلبيت » ، وأخذ يلعب دورا فعالا في حياتهم . عندئذ يظهرون على حقيقتهم أى على جانب كبير من الفساد والنفاق والخداع والقسوة والشر ، بينما يبدو « جليفر » ليس أكبر حجما فقط وإنما أعظم خلفا وسلوكا من أهل ليلبيت الذي لا يتناسب صغر حجمهم مع مدى خطورتهم واتساع شرورهم . لقد ساعد « جليفر » الليليتين في حربيهم مع بليفسكو » وأنقذهم من غزو أكيد ، ولكن عندما رفض أن يقضى قضاء تاما على العدو ، أثار غضبهم ، وأصر مستشارو الامبراطور على تقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة . وبعد الحكم عليه بالموت رأوا « تخفيف » الحكم ببقاء عينيه ، وتركه ليموت جوعا ، لأن ذلك سيسهل عليهم التخلص من جثته

الضامرة . عندئذ يقرر « جليفر » الحرب لأن بقاءه فيه خطورة على حياته وقد يعرضه دفاعه عن نفسه لتدمير « ليلبيت » ، وهو لا يرضى لنفسه ذلك الفعل القاسى . فيجمع حاجياته ويهرب أولا الى « بليفيسكو » ثم يبحر على مركب الى انجلترا ، وقد ملأ جيبه بنماذج من حيوانات ليلبيت الصغيرة التى تسبب المآلة واهتماما كبيرين فى انجلترا ، وتؤكد حقيقة الرواية التى يسردها « جليفر » عن رحلته .

وبهذا تنقلب روح الفكاهة فى الرحلة الاولى الى نقد لاذع عندما يتضح أنه على الرغم من عظم حجم « جليفر » فانه لا يملك القوة الكافية لمواجهة وضاعة أهل ليلبيت الاخلاقية فالقوة التى يتمتع بها « جليفر » فى أول الرحلة يكاد لا يعرف لها حدودا ، والصعوبات التى يلاقيها ترجع الى صغروهن الأدوات المتاحة له استعمالها ، فالخيال فى ليلبيت لا تعدو كونها خيوطا ، وجدلوع الاشجار ليست الا عصيا من البوص ، وهناك مشاكل فنية كثيرة تتطلب حولا سريعة . ولكن المشكلة الجادة التى يصعب التغلب عليها هى مشكلة الانسان أو المشكلة الاخلاقية . وعلى الرغم من قوة « جليفر » الجسدية الجارية فهو ضعيف بمقارنته بأهل ليلبيت « فى خداعهم ونفاقهم وخيانتهم وحقدهم وكيدهم وغرورهم وحبههم لسفك الدماء ونكراهم للجميل . فهم وان كانوا يبدون كالدمى ، الا أن نصيبهم من النقااض البشرية عظيم ، وقدرتهم على التدمير شامل . والخطر المحقق بـ « جليفر » اذن لا ينشأ من الظروف المادية المحيطة به وانما ينشأ من الطبيعة الانسانية القاصرة نفسها ، وعلى هذه الطبيعة تتوقف نوعية الحياة .



(٢) رحلة الى بروبدينجناج A Voyage to Brobdingnag

ويصور سويفت فى الرحلة الثانية الى بروبدينجناج بلاد المردة بنفس نسبة التفاوت فى الحجم الذى سبق أن صورته فى الرحلة الأولى ، ولكن بطريقة معكوسة ، فبينما « جليفر » هو المارد وأهل ليلبيت هم الاقزام فى الرحلة الاولى ، يصبح « جليفر » هو القزم وأهل ليلبيت هم المردة فى الرحلة الثانية . وإذا ما استخدمنا صورة « سلسلة الوجود المائلة » فيكون مكان « جليفر » فى أسفل السلسلة « ناظرا الى أعلى ، كما ينظر القزم الى المارد فى الرحلة الثانية ، بينما كان فى الرحلة الاولى فى أعلى « السلسلة » ناظرا الى أسفل ، كما ينظر المارد الى القزم . ويستطيع « جليفر » من علوه ان يلتقط فى نظرة واحدة شاملة

« لليليت ، بأسرها . أما في « برويد نجنانج » حيث ينظر من زاوية ضيقة فانه لا يرى الا جزئيات صغيرة من العالم المحيط به . لقد أصبح « جلنفر » هنا هو القزم « الليليتي » المسل الذي لا أهمية له ، وأهل « برويد نجنانج » هم الكائنات المتفوقة ، ويبدو هذا التفوق أول الأمر على المستوى المادى ، أى انه تفوق فى الحجم ، ولكن فى نهاية الرحلة يبدو التفوق أخلاقيا أيضا ، وهذا هو التفوق الحقيقى .

ويهدف سوفيت منذ أول وهلة الى رسم صورة موضوعية لـ « برويد نجنانج » وأهلها كما بدت لأعين « جلنفر » القزم ، مؤكداً فى كل خطوة بخطوةها التفاوت بين حجمه الصغير والحجم الكبير للأشياء من حوله . فعندما تتطأ قدما « جلنفر » لا يلاحظ بيوتا على الاطلاق لأنها خارج مجال بصره لصغرهما وانخفاضهما . وتنعكس الصورة فى « برويد نجنانج » ولا يكاد القزم « جلنفر » يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة وسط سنابل القمح التى تشبه الغابة فى كثافتها . ويجعل سوفيت حقل القمح مكان أول لقاء بين « جلنفر » والمردة ليؤكد الشبه بين « جلنفر » القزم والحيوان الصغير ، الذى يحاول أن يفر هاربا عندما يشعر بمنجل الفلاحين فى موسم الحصاد . وعندما تراه امرأة الفلاح تعتقد لأول وهلة أنه فأر أو عنكبوت ، فتصرخ وتراجع كما تفعل النساء فى انجلترا « عندما يرين تلك الحيوانات والحشرات .

ويستخدم سوفيت صور الحيوان هذه بكثرة خلال رحلة « برويد نجنانج » ، موعزا الى العلاقة بين « جلنفر » والحيوان ، ولكنه يستخدمها فى أكثر الاحيان ليذكر القارئ بفضالة حجم « جلنفر » ولأثارة الضحك ، وتكرر هذه الصورة الحيوانية فى الرحلة الاخيرة أيضا فى بلد الجياد ، ولكنها تأخذ أبعادا خطيرة . اما فى « برويد نجنانج » « فجلىنفر » الحيوان الصغير لا يثير الاشتزاز . بل أن مظهره وحركاته المسلية تدفع الفلاح الذى يكتشفه الى حمله فى جيبه مسافرا الى انحاء البلاد المختلفة لعرضه على الأهالى مقابل مبلغ من المال ، كما يفعلون فى السيرك .

وتطغى روح الفكاهة على الجزء الأول من رحلة « برويد نجنانج » حيث تكثر المواقف الفكاهية المبنية على فكرة النسبية فى الحجم . ففى أجد المشاهد يكاد الطفل المارد أن يتنلع رأس « جلنفر » ، وفى مشهد آخر يلقى مهرج البلاط القزم « بجلنفر » فى صحن من القشدة حيث يكاد يفرق لولا أنه يجيد السباحة . ويسقط التاج كالتنابل على رأسه ، وتهاجمه حداة ، ويتعثر فى قوقعة ويتعصر فى عظمة نخاع ، ويقع فى أسر قردة تصر على أن تدفع الأكل الى فمه معتقدة أنه أحد أبنائها . ويمتاز المشهد الأخير بروح الفكاهة والمرح التى لا تشوبها سخرية . ومع ذلك ففيه ما يذكر القارئ بأن « جلنفر » يتنمى الى عالم الحيوان . وهذه هى الحقيقة التى لا نستطيع تجاهلها أو الهروب منها فى الرحلة الرابعة . وحتى فى هذه الرحلة الثانية لا يتصور ملك « برويد نجنانج » أول الأمر أن « جلنفر » كائن عاقل .

وتبدو طبيعة « جليفر » الطبية في أول رحلة « برويد نجنج » ، فهو لا يغضب أو يثور عندما يجد نفسه في مواقف حرجة أو في مازق تكاد أن تؤدي بحياته ، بل انه يتقبل كل شيء بصدر رحب وبروح مرحة ، فيتقرب الى كل من حوله ، ويجبونه كما يحب المرء الحيوان الصغير الأليف . وليس هناك أثر لسخرية الكاتب وهو يسرد مغامرات « جليفر » في بلد المردة ، بل انه يميل الى الاعجاب بروحه الخفيفة .

وأقصى ما يصل اليه نقد سوفيت في هذا الجزء من الرحلة الثانية هو التهكم البسيط من هذا الكائن الصغير الذي يحاول أن يعطى لنفسه أهمية لا تتناسب مع حجمه . فحركات « جليفر » وإيماءاته بعد ثعثره في كسرة من الخبز فيها مبالغة مضحكة ويصف « جليفر » الموقف قائلا :

لقد قمت من وقعتي في الحال ، وعندما لا حظت قلق الناس الطيبين من حولي أخذت قبعتي (التي كنت أضعها تحت ذراعي علامة السلوك الحسن ولوحت بها من أعلى رأسي هاتفا ثلاث مرات لأريهم أنه لم ينشئ أي سوء من عثري) - (٢١)

ويبدو « جليفر » بنفس المظهر المضحك الساخر الخفيف عندما يتصارع مع فارين هائلين يهجمان عليه وهونائم . ويظهر غروره عندما نراه يتسم بفخر مشيرا الى الفأر الذي قتله ، والدماء تتساقط من سيفه الصغير . فتنادى سيده خادمتها لتتخلص من الفأر الميت ، وتمسك به الخادمة بملقاط ملقية به من النافذة ، ثم تضع « جليفر » على المنضدة وتمسح الدماء من سيفه الذي يعيده مثل البطل المغوار الى غمده . وغرور « جليفر » كان يبدو طبيعيا لو أن مغامراته كانت وسط أقرانه في الحجم ، ولكنها تبدو مضحكة متى رأيناها من خلال أعين المردة .

ولكن الرحلة الثانية لا تستمر طويلا على مستوى الفكاهة والمرح ، ولا تلبث سخرية سوفيت أن تطفو على السطح من جديد . فيستخدم المردة الطيبين لتوجيه ضربة قوية الى غرور الانسان ، عندما يقدم لأول مرة في الرحلات الشعور بالاشمئزاز من الجسم الأدمي الذي عرف به سوفيت ، والذي يتضاعف الى درجة تجعله يسود الرحلة الرابعة في بلاد « الهوينومز » ولعل في هذا الاشمئزاز ردا على فلاسفة القرن الثامن عشر الذين أعجبوا بجسم الانسان لكماله وابداعه اللذين يتناسبان مع وضعه في نظام الكون . والسؤال الذي يطرحه سوفيت بطريق غير مباشر عندما يصور المردة من خلال عيني « جليفر » هو : « كيف يبدو جسم الانسان للكائنات الأصغر منه بكثير ؟ كيف يبدو للحشرة مثلا ؟

(أى «جليفر») وتوقف الاجابة على السؤال على وجهة النظر ، فالجمال والقيح مسألة نسبية . ويجيب سوفيت على السؤال بالتخاذ وجهة نظر « جليفر » الذي يسمثر لمنظر المردة الذين يرى دقائق أجسامهم كأنه يتفحصها تحت مجهر مكبر. فلون جلدهم مبقع ، ومسامهم كالثقوب الكبيرة ، وشعرهم كالأسلاك المشائكة ، ورائحة أجسامهم تثير الغثيان .. ويبلغ الاستمزاز اشدّه عندما يشارك القارىء نفور « جليفر » من منظر الشجاذين الذين انتشر في أجسامهم السرطان والقمل .. وهذا التركيز على قبح الجسم البشرى يعنى القارىء لنفس النفور والاشمزاز اللذين يشعر بهما « جليفر » عندما يواجه « الياهو » في الرحلة الاخيرة ، وهم رمز للجسد والغرائز . ويلاحظ ان هذا النفور يمثل الحرب التي خاضها سوفيت طوال حياته ضد الجسد ، ويعد واحدا من خصائص كتاباته . وأيا كان التفسير الشخصى لهذه النظرة النافرة ، فالمهم أنه استخدمها استخداما فنيا ناجحا ليكشف بها عن نواحي الانبسان الحيوانية ، المادية منها والمعنوية .

ولا يتطرق سوفيت الى الرمزية فيما يتعلق بالنفور من الجسد في رحلة « برويد نجنانج » ، فاشمزاز « جليفر » ناتج في الواقع عن قصور في زاوية رؤيته لصغر حجمه . وهو لا يستطيع أن يرى الا التفاصيل المكبرة من جسم المارد ، بحيث يرى الجزء وليس الكل ، وبذلك يفوته التناسق في الشكل الكلى وتبدو التفاصيل مشوهة .

وي فشل « جليفر » بنفس الطريقة في تطبيق النظرة الشاملة على أخلاقيات اهل برويد نجنانج » . وكما يفوته شكل « البرويد نجنانجين » الجسدى الكامل ، يفوته أيضا مستواهم الاخلاقى الرفيع . وهنا نتكشف سخرية سوفيت اللادعة في الرحلة الثانية ، ويبدو « جليفر » ضئيل الجسم وضعيف الخلق عندما يتباهى بانجازات بلاده السياسية والتعليمية ونظامها الحزبى الرائع التى يعتبرها ملك « برويد نجنانج » عن حق فاشلة تماما . وفى مشهد ساخر يلخص فيه سوفيت وجهة نظر الملك ، يسك المارد « بجليفر » بين الاتهام والسبابة ويرت عليه بركة مستفسرا بتهكم عن ميوله السياسية ، فيسأله « وهل انت من حزب الاحرار أم حزب « المحافظين » ^(٢٢) وكأنه يلقي سؤاله على حشرة صغيرة .

ولا يبنى سوفيت نقده لمجتمع « جليفر » على المبالغة في مثالية مجتمع « برويد نجنانج » فالردة لا يختلفون عن البشر الا في حجمهم ، وهم مزيج من الخير والشر ومن الحكمة والحماقة ، ويتصفون بالطيبة ولكنهم قساة أيضا في بعض الاحيان . ويستخدم سوفيت صغر حجم « جليفر » ليظهر هذه

الناحية القاسية في سلوكهم وإن كانت غير متعمدة ، وذلك عندما يطوف الفلاح « جلجير » في انحاء البلاد جريا وراء الكسب ، دون مراعاة للارهاق الذي يسببه « لجلجير » الضعيف البنية . ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يوصف مجتمع « برويد نجنانج » عامة بالقسوة المقصودة والشر المعظم المخطط ، كما هو الحال في مجتمع « جلجير » الذي تطور فيه الفساد والروح العدوانية ، حتى بلغت درجة من التعقيد يصعب معها تحليل أو تفهم دوافعها . بل يمتاز أهل « برويد نجنانج » بالبساطة والتواضع والامانة وحسن المعاملة . وأهم من هذا فهم يحبون السلام ويكرهون الحرب ، ولا يسعون إلى المجد الزائف ، وإنما يبتغون الحياة الهادئة غير المعقدة . ويمثل ملكهم الصفات التي يعجب بها سويت : « التفهم الممتاز والعقل والحصافة » ، ويتخذ سويت من هذا الملك المارد حكما للمجتمع الانجليزي والاوروبي الذي يفخر به « جلجير » . ويمثل في ردود أفعاله لكل ما يقوله « جلجير » عند وصفه لأنظمة مجتمعه السياسية والحروب التي يخوضها ، يمثل الحكمة الطبيعية والتجربة الانسانية التي تفوق نظرة « جلجير » المشوهة للأشياء . ويستخدم الملك كمقياس للزيف الاخلاقي الذي يدافع عنه « جلجير » دون وعي ، ومن خلال وجهة نظره العاقلة يبدو « جلجير » قزما في قصوره الخلفي .

وتتضح سخريه سويت تدريجيا في المقابلة بين الملك و « جلجير » ، فعندما يطلب الملك منه تقريراً عن نظام الحكم في بلاده ، وعن السياسة والتعليم وتربية الطفل وسلوك المواطن ، يجيب عليه « جلجير » باعتدال وحماس الوطني الذي يريد أن يظهر أمته في أحسن صورة . ويشاركه القارئ في موقفه أول الأمر ، وينبهر بأسلوبه الخطابي في وصفه لعظمة انجلترا ونظامها الطبقي ودستورها وقوانينها ومجدها الحربي وتاريخها العريق ، في هذه الاثناء يترك الملك العنان « لجلجير » دون أن يقطع عليه حديثه . ويلاحظ القارئ صمت الملك الذي ينصت باهتمام وتركيز وتفكير ، وبعد قليل بداخله الشك في صحة وجهة نظر « جلجير » ، وهو شك مبني على العقل والتفكير المتزن ، ثم يبدأ الملك في التساؤل ، ويطرح السؤال تلو الآخر دون هوادة ، وهنا يتقلب الوضع ويغلب على « جلجير » الصمت ، بينما تبدو أسئلة الملك ثاقبة نفاذة . وبدلاً من ثناء « جلجير » المباشر على وطنه يظهر نقد وتحكم وسخريه الملك بطريقة غير مباشرة تتدرج نحو القوة ، الى أن يأتي النقد اللاذع والضربة القاضية في نهاية المشهد عندما ينطق الملك بحكمه بعد أن يكون القارئ قد انتقل بتعاطفه الى وجهة نظر الملك السليمة الصائبة .

والأسئلة البريئة في ظاهرها التي يطرحها الملك على « جلجير » كلها أسئلة « توطيئية » ، أي انها تحوي إشارة الى الجواب ، وهي في جميع الأحوال جواب بالنفي ، وقد رأى سويت أن تبقى أسئلة

الملك المحرجة ذات صبغة عامة تنطبق على كل زمان ومكان دون انتظار إجابة خاصة من « جلغير » ، مما جعل نقد المجتمع في رحلة « بروبند نجنج » ، عاما شاملا أكثر منه معاصرا وإنجليزيا كما هو في رحلة « ليلبيت » ، ومن بين أسئلة الملك : « ماهي الأساليب المستخدمة لتنمية أجسام وعقول شبابتنا الارستقراطي ، وكيف يمضون السنين الأولى من حياتهم التعليمية ؟ » ويعطي هذان السؤالان للقرءاء و « جلغير » معا دفعة الى التفكير جديا في نظام التعليم في أيامهما والحكم عليه بمقاييس رفيعة ، والتساؤل عن مدى نجاح ذلك النظام في اثناء مجتمعا والدور الذي يلعبه في تطور وعي شبابتنا وتنمية فكره وإبداعه وتذوقه للحياة . ويتنقل الملك بعد ذلك الى السؤال عن النظام المتبع في اختيار من يستند اليهم مقاليد الحكم والكفاءات المطلوبة لذلك : « هل يتوقف ذلك الاختيار على مزاج أمير او ملك ؟ او على مبلغ من المال يقدم لسيدة من سيدات البلاط او لرئيس وزراء وهل هم متحررون من الجشع والتحيز والحاجة الى درجة تبعد عنهم اغراء الرشوة او غيرها من السلوك الخبيث ؟ وهل يرقون الى تلك الوظائف على أساس معرفتهم بالأمور الدينية وصلاح حياتهم وقداستها ؟ وي طرح الملك أسئلة مشابهة عن أعضاء مجلس الشعب والأسلوب المتبع في انتخابهم ، والدور الذي تلعبه الرشوة والفساد في ترشيحهم . وتليها أسئلة عن مفهوم العدل وتطبيقه ، وعن الحروب وجيوش المرتزقة ، والصراعات الداخلية في البلاد ويتضح من هذه الاسئلة أننا نستمتع في نفس الوقت بطريق غير مباشر الى مباحاة أحد اقزام « ليلبيت » بعظمة بلاده التي نراها من وجهة نظر ملك « بروبند نجنج » فتبدو صورة للفساد والانحلال ، أما « جلغير » القزم ، جسما وعقلا وخلقا ، فيتمادى في الافتخار دون أن يعي الأثر المروع الذي يتركه على سامعه ، الحاكم العادل الذي يطبق المقاييس الأخلاقية في حكمه . ويسخر « جلغير » من ضيق أفق الملك الذي لا يستطيع أن يفهم عظمة انجلترا ومجدها كما يصورها « جلغير » له . فتكون السخرية المضاعفة هنا في عدم فهم « جلغير » لتعجب الملك مما سمعته أذناه . ويحكم الملك على الاوضاع في انجلترا حكما لاذعا مريرا :

لقد ذهل (الملك) تماما للتقرير التاريخي الذي أعطيته عن أحوالنا خلال القرن الماضي . واعترض عليها قائلا بأنها ليست إلا سلسلة من المؤامرات والتمرد وجرائم القتل والمذابح والثورات والنفي . وكلها من أسوأ آثار الجشع والحزبية والانشقاق والنفاق والغدر والقسوة والحقن والجنون والكراهية والحسد والشهوة والنكاية والطموح .^(٢٣)

وهكذا تتكشف أخلاقيات « جلغير » التي تتناسب مع حجمه « الليليتي » ، ويبدو التطابق بين

حجم الملك المارد وقيمه . ونستنتج من أسئلته « جليفر » أن البديهة والعقل والرحمة هي أصول من الحكم والسياسة ، وأن المؤهلات المطلوبة من المتقدمين لوظائف الحكم في الدولة هي التقوى والصلاح والبسالة والنزاهة والحكمة ، التي تتمثل في ملك « برويد نجنانج » نفسه الذي يجتحر المكاييد السياسية والغدر ، ويمجد المهارة التي تستطيع أن تنتج سنبلتين من القمح أو ورقتين من العشب في نفس التربة التي سبق أن أنتجت واحدة فقط » ، ويستعصي على الملك الطيب الذي يحكم شعبا بسيطا أن يفهم أسباب الحروب والتعصب الديني والصراعات السياسية . فالحكم في « برويد نجنانج » ليس وليد الرغبات والشهوات الشخصية ، ولا يعتمد على أسرار تعرفها القلة ، وإنما أساسه احترام القانون والخلق الفاضل . وتبدو القيم الأخلاقية واضحة في تعليق الملك الساخر على مباهاة « جليفر » ببلاده ونظمها ، وبجيء حكمه شاملا للجنس البشري بأجمعه في قوله :

لا يسعني إلا أن استنتج مما قلته أن أهل بلادك في مجموعهم هم جنس دنيء مقيت من
الخشرات ، بل أنهم أبغض ما سمحت الطبيعة في أي زمن من الأزمنة أن يزحف على وجهه
الأرض . (٢٤)

ولا تنتهي سخرية سوفيت عند هذا الحد ، بل إن الحوار المذكور مع الملك ليس إلا مقدمة لسخرية أكثر حدة مما سبق . لقد جاءت بالفشل المحاولة الأولى التي قام بها « جليفر » ليهزم الملك بعظمة وقوة بلاده . ومع ذلك فلم يظهر « جليفر » نفسه بمظهر كره في هذه المحاولة ، فهو مجرد الشخص المحب لوطنه ، المتحمس له ، الذي يتباهى بما يعتقد أنها إنجازات هائلة . وكما أن الملك في حكمته لا يستطيع أن يعقل اعتزاز « جليفر » ببلاده الوحشية فإن « جليفر » أيضا في جهله لا يستطيع أن يفهم موقف الملك الساخر . وبدلا من أن يلقي « جليفر » اللوم على الملك فإنه يبدو بمظهر الشخص المتسامح العاقل الذي يحاول أن يجد المبررات لموقف الملك ، فيقول في ترفع : « يجب أن نلتصم الأعداء الملك عاش حياة منعزلة عن بقية العالم حددت من معرفته وتفكيره » ، والسخرية هنا من « جليفر » لانه في ادعائه التفهم والتسامح نحو ما يعتبره قصورا في تفكير الملك إنما يكشف عن ضيق أفقه هو .

أما في الحوار التالي مع الملك فيكشف سوفيت عن نقائص خطيرة في « جليفر » تجعله نموذجاً للجنس البشري المدمر البغيض الذي أشار إليه الملك في تعليقه . وتصبح السخرية بذلك لاذعة إلى أبعد الحدود . ويظهر « جليفر » في أصغر حجمه وأقصى دناءته عندما يعرض على الملك هدية ثمينة يعتقد

انه لا يمكن لأحد في قواه العقلية أن يرفضها . وهذه الهدية هي « سر اكتشاف البارود » . يعطي « جلنفر » صورة كثيرة لخطورة هذا الاكتشاف ومدة أثره على البشرية من قتل ودمار . فيجيء رد فعل الملك عكس ما كان منتظرا . ارتاع الملك للتفاصيل الفظيعة التي رواها « جلنفر » ، واعتبره مجردا من الانسانية لانه روج لتلك الافكار المروعة ، وحرم عليه ذكر هذا الموضوع كلية . ولكن « جلنفر » يفشل في فهم وجهة نظر الملك ، ويأخذ في السخرية منه ، الى ان تنعكس السخرية على « جلنفر » نفسه ، فيعتبر رفض الملك لهديته « الثعينة » ذليلا واضحا على « علمه المحدود » . ومبادئه القاصرة ونظراته الضيقة . ويكمن التهكم هنا في أن قصور مبادئ « جلنفر » هي التي أعمته عن الحقيقة ، حقيقة لا انسانيته ، وحقيقة انسانية الملك . ونلمس في الاقتباس التالي فزع الملك الواضح من الأساليب الفتاكة التي تستخدمها أوروبا ، والتي تجعل الانسان وحشا ضاريا :

لقد ارتاع الملك للوصف الذي قدمته لتلك الآلات الفظيعة ، وللاقتراح الذي عرضته عليه . لقد تعجب كيف تستطيع حشرة عاجزة ذئبة مثل (هكذا كان تعبيره) أن تفكر بهذا الأسلوب الوحشي كأنه شيء عادي ، دون أن تبدي أي تأثير على الاطلاق لمشاهد الدم والحرايب التي رسمتها كنتاج طبيعي لتلك الآلات المدمرة . . . أما من ناحيته هوفقد صرح مؤكدا أن الاكتشافات الجديدة في الفن والطبيعة هي أكثر الأشياء التي تدخل عليه السرور ، ومع ذلك فهو يفضل أن يفقد نصف مملكته من أن يشارك في مثل ذلك السر الذي أمرني ألا أعود الى ذكره أبدا ، لو كنت أحرص على حياتي . (٢٥)

لقد نجح سويت في أسلوبه الساخر في هذا الجزء من الرحلة الثانية في تأكيد لا وعي « جلنفر » الساذج وثقته العمياء بنفسه وآرائه . « فجلفير » في غمرة غروره في غفلة عن الأثر السيء الذي يتركه في حديثه على الملك ، وعن الصورة المروعة التي تحطمه كلية في نظر كل من الملك والقارئ اللذين يريان من خلال عيني الملك المارد العاقل الحكيم ، وبذلك يصبح « جلنفر » الممثل الشرس للانسانية فاسدة قاسية . والى جانب السخرية المتضمنة في موقف « جلنفر » من الملك ، هناك السخرية المتضمنة أيضا في حجم « جلنفر » المثير للضحك بمقارنته بخجم الملك . فغرور « جلنفر » كما هو الحال مع أهل « ليلبيت » يتنافى مع حجمه وخطابته وشأخه ، وخاصة عندما نتذكر أن الملك يستطيع أن يحتويه بين أصبعي الإبهام والسبابة .

وربما بدا للبعض أن سويت حين ينظر الى « جلنفر » من علوشاهق ، أي من مستوى نظر المارد ،

يريد أن يفصل بين القارئ وبين الجنس البشري بأكمله . ولكن الواقع في هذه الرحلة غير ذلك ، لأن أهل « برويد نجنج » وهم أيضا ممثلون للبشرية بما فيها من عيوب وعجاسن . فالملك كائن ذكي وعاقِل وفاصل ، وتمثل أخلاقياته أحسن ما في الإنسان من إيجابيات ، ومع ذلك فهو ليس نموذجاً مثالياً فوق مستوى البشر . ولا يجيد القارئ صمودية في تطابق وجهة نظره مع وجهة نظر الملك والعدول عن وجهة نظر « جليفر » « الليليتي » . وقد توصل سوفيت في هذه الرحلة إلى الفصل بين طرفي النقيض في الإنسان : الطرف الديني الشرير والطرف العاقل الذي يجيد الحكم على الأشياء . وعن طريق التقابل بين الطرفين المجسدين في « جليفر » والملك نرى كلاهما على حقيقته ، وندين الناحية الشريرة ونتقبل الناحية الفاضلة .

أن رحلة « برويد نجنج » هجوم عنيف على سلوك ودوافع الإنسان الجنونية ، ودفاع عن السلوك الأخلاقي في جميع نواحي الحياة ، ومع ذلك فلا يشعر القارئ أن سوفيت يلقنه درساً أخلاقياً أو موعظة ، لأنه يستخدم جميع أساليب الفنان الحق . فهو يضع نصب عينيه طوال الرحلة المقابلة التي بدأها بين الحجمين الكبير والصغير ، كما يستخدم التصوير الواقعي الدقيق إلى جانب الخيال الحارق ، ولا يبالغ في تصوير المردة البسطاء الذين يعيشون على سجيئتهم ويتحلون بالصفقات الانسانية . وفي جميع الاحوال يلجأ « سوفيت » إلى الصورة المرئية المجسدة التي تضمن نقطة القارئ . وتروق كتابته على مستوى الفكاهة والفكر الجاد معا ، وهي مزيج متعادل من السخرية الناعمة في مظهرها واللاذعة في باطنها .

وعندما يعود « جليفر » إلى بلاده بعد نهاية رحلة « برويد نجنج » يتصرف وكأنه عائد مرة ثانية إلى ليلبيت . فتعوده على المردة يجعل من الصعب عليه أن يرى أهله في حجمهم الحقيقي ، بل يبدوون بالمقارنة مجردة « برويد نجنج » كالأقزام . ويؤكد سوفيت هذه الصورة بتصرفات « جليفر » التي تبعث على الضحك ، والتي تثير في أهله الشكوك حول قواه العقلية . وهذا موقف يتكرر في نهاية الرحلة الأخيرة أيضا ، ويتضمن إلى جانب الفكاهة سخرية موجهة إلى أهل وطنه . ويقول « جليفر » في وصفه لعودته إلى إنجلترا :

وبينا كنت أسير في الطريق لاحظت صغر حجم البيوت والأشجار والماشية والناس ، فخيّل إلى أنني في « ليلبيت » وكنت أخشى أن أدهس كل مسافر قابلته في الطريق ، مما عرضني مرة أو مرتين للضرب بسبب وقاحتي .

وعندما وصلت الى منزلى ، الذي اضطرت أن استفسر عنه ، فتح أحد الخدم الباب ، فانحنيت لادخل (كما تفعل الأوزة) خشية من أن يصطدم رأسى بالباب . وخرجت زوجتى لمعانقتى ، ولكننى انحنيت الى مستوى أقل من مستوى ركبتيها ، اعتقاداً منى أننى ان لم أفعل ذلك لما استطاعت أن تصل الى مستوى فمى . وركعت ابنتى لتطلب بركتى ، ولكننى لم استطع أن أراها الى أن نهضت . وكل ذلك لأننى تعودت لمدة طويلة أن أقف ورأسى وعينائى الى أعلى على مستوى ستين قدماً . ثم اقتربت لأرفعها بيد واحدة وضعتها حول خصرها . ونظرت الى أسفل الى الخدم ، والى واحد أو اثنين من الاصدقاء الذين كانوا فى المنزل ، وكأنهم أقزام وأنا مارء . وبالاختصار فقد تصرفت على نحو يدعو للغرابة الى درجة أنهم كانوا جميعاً من رأى القبطان عندما قابلنى لأول مرة ، واعتقدوا أننى فقدت عقلى . وانا أذكر كل هذا كمثل للأنف الذى تركه العادة والتعصب فى حياتنا . . (٢٦)

وهكذا يبدو أن « جليفر » فى هذا التصرف قد أخذ يشعر بالهوة التى تفصله عن ذويه نتيجة لتجاربه الشخصية فى رحلاته . لقد بدأ ينظر الى أهله كما نظر الملك اليه . اننا نظرة المارد الى القزم .



٣ - رحلة الى « لايوتا » و « بلنباربى » و « جليدبريب » و « لجناج » - *A Voyage to Laputa, Balnibarbi, Glubbdubdrib and Luggnagg* .

هناك ما يشير فى نهاية الرحلة الثانية الى أن « جليفر » بدأ يرى الأشياء من وجهة نظر أهل « بروبى نجناج » الذين سبق أن انتقدهم وسخر منهم . وكان من أسباب انتقاده اهتمامهم الناحية الفكرية المجردة والبحث العلمى النظرى ، فقد انصب اهتمامهم على ما هو عمل ومفيد فى الحياة اليومية العادية ، وطبقوا دراساتهم للرياضيات تطبيقاً عملياً مستفيدين منها فى تطوير الزراعة والميكانيكا . ولم يستطع « جليفر » طوال بقائه فى « بروبى نجناج » أن يقرب الى أذهان أهلها الأفكار المجردة . واعتبر فشله فى هذا نقصاً فى تكوينهم العقل ، ومن الواضح من تعاطف سوفيت مع أهل « بروبى نجناج » وسخريته من « جليفر » أنه لم يكن يجبل الاتجاه العلمى النظرى الذى أعجب به « جليفر » ومال اليه عصره . ولم

يؤمن سوفيت بأن كثيرا من المزايا العملية قد تعقب اكتشاف نظريات علمية تبدو لأول وهلة عويصة للرجل العادي . وكان في رأيه أن هدف العلم والتكنولوجيا يجب أن يكون أولا وآخرا الفائدة التي تعود على الانسان . انها بدئية لا يمكن انكارها . وفي الرحلة الثالثة يسخر سوفيت من بلاد فشلت في الاعتراف بتلك البدئية ، ويكشف عما لا بد أن يحدث في مجتمع أطلق فيه العنان للاتجاه النظري البحت .

وعلى الرغم من أن سخرية سوفيت موجهة في هذه الرحلة الى المواقف والأنظمة المعاصرة ، وإلى السياسيين ورجال العلم ومطوري الزراعة والمخترعين والمكتشفين ، الا أنها ليست موجهة الى أشخاص أو سياسة بالذات ، كما هو الحال في رحلة « ليليت » فالسخرية أكثر شمولاً منها في الرحلة الأولى ، وقد صويت الى السعي المحموم وراء كل جديد ، والافتقار الى ماهو عملي وما يمل به العقل ، وإلى الفوضى السائدة في القيم ، وقد أدخل « سوفيت » في هذه الرحلة كل ما تبقى من مادة لم يجد لها مكانا في الرحلات الأخرى مما يفسر التفكك البنائي الملحوظ . بعكس الوحدة الحركية والطابع المميز للرحلات الأخرى ، ومع ذلك فهناك على الأقل موضوع واحد مشترك ، وهو سوء استعمال الانسان لعقله ، والواضح في الاتجاه الى الفصل بين العلم واحتياجات الانسان .

ولم يكن « سوفيت » متبحرا في العلم ، ولكنه لم يكن جاهلا به تماما . لقد قرأ في العلوم المعاصرة . وتطورها ، وكان على معرفة بديكارت ونيوتن ، كما كان متتبعا لتقارير ومناقشات « الجمعية الملكية » . والشيء الذي راعه في مجال العلم هو غلو كثير من العلماء والباحثين في غرورهم وتعاليمهم ، وفي اعتقادهم بتفوقهم على الفرد العادي ، وتغاديرهم في أبحاث لا علاقة لها بواقع الحياة . ففلاسفة « الجزيرة الطائرة » تائهون في تجريدات الرياضيات والموسيقى والفلك ، وبدلاً من أن تتبع الرياضيات الأشكال الطبيعية للأشياء ، فقد شكل « اللايوتون » الأشياء لتتفق مع الرياضيات . فقدموا غذاءهم من طيور وحيوان على موائدهم بأشكال هندسية ، وأعجبوا بالنساء لا لجمالهن وإنما للتشابه بين أجسامهن وبين أشكال معينة . وطبقوا أسلوبا رياضيا معقدا في حياة الملابس ، فجاءت غير متناسقة مع مقاييس أجسامهم . ومن الأدلة التي تشير الى بعد سكان هذه الجزيرة عن الواقع موقفهم من زوجاتهم وعدم شعورهم بالغيرة عليهن على الاطلاق ، فزوجاتهم أمام أعينهم ، ومع ذلك لا يلاحظون شيئا مريباً في سلوكهن . ويرمز « سوفيت » الى الرجل الذي يحيا حياته منقطعاً عن العالم المادي بصورة انسان ذي عين مصوبة الى داخله والعين الأخرى الى السماء . ويقدم وصفاً لسلوك ومظهر هؤلاء الرجال العجبيين ومعهم مرافقوهم الذين سماهم « سوفيت » « بالمنهين » ومهمة « المنهين » تنبيه الباحث الى مالا يسمعه ومالا يراه يخفق قربة منفوخة تحوي حبات من الغول عند شفثته

وأذنيه . لسمع ويتكلم عندما يخاطبه أحد ، ويحكي « جليفر عن عجائب سكان جزيرة « لا پوتا »
قائلا :

وكانت رؤوسهم جميعا منحنية إما الى اليمين واما الى اليسار واحدى اعينهم متجهة الى الداخل والآخرى متجهة مباشرة الى كبد السماء . وكانت ملابسهم الخارجية مزينة بأشكال من الشمس والأقمار والنجوم ، المتداخلة مع أشكال أخرى لآلات موسيقية مثل الكمان والفولت والقيثارة والبوق والهارسيكورد وغيرها من آلات موسيقية نعرفها في أوروبا . ولأحظت هنا وهناك كثيرا من الأشخاص في زي الخدم يحملون في أيديهم قرنا منفوخا مثبتة في طرف عصي قصيرة ، وتحوي القرب كمية من حبات الفول الجاف أو الحصى الصغيرة الحجم . وكانوا يخفقون هذه القرب من آن لآخر قريبا من أفواه وأذان الواقفين بجانبهم . ولم أفهم دلالة هذا التصرف أول الأمر . ولكن اتضح لي أن هؤلاء الأشخاص منهمكون في تأمل عميق الى درجة أنهم لا يستطيعون الكلام ولا الا ستماع الى حديث الغير دون أن ينبههم أحد الى ذلك بللمسة خفيفة على أعضاء حديقهم وسمعهم . وهذا هو سر احتفاظ من تسمح لهم ظروفهم المادية بـ (منه) كخادم في الأسرة . وهم لا يخرجون أو يقومون بزيارة اطلاقا الا ومعهم « المنبه » . (٢٧)

ويلاحظ في الفقرة السابقة بساطة أسلوب « سويفت » المباشر ووضوح الصورة التي تعبر عن الفكرة . فالجهاز عنده ليس حلية وإنما هو أسلوب التفكير والفهم . وفي الرحلتين الأولى والثانية يجسد رؤيته للأشياء في صورة « نسبية الحجم » وتظهر الفكرة على نحو مبسط أساسه تكبير الصورة أو تصغيرها . وهذا أمر مستساغ لأن الأفكار التي يريد أن ينقلها الى القارئ تتفق مع مثل ذلك التجسيد . أما في الرحلتين الثالثة والرابعة فعملية التجسيد أكثر تعقيدا ، وعلى « سويفت » أن يظهر براعته في إبراز الفكرة المجردة بالوضوح الحسي ووقعه . وترجع الصعوبة هنا الى انه لا يمكن أن يرمز الى الصفات الذهنية والفكرية والمقاييس العقلية بالصورة « الكمية » أي بالحجمين الكبير والصغير ، فكيف يصور العالم الباحث الذي يخلق بفكره بعيدا عن الأرض وعن كل ما هو مادي ، وكيف ينقل الى القارئ أسلوب حياته غير الطبيعية ؟ لم ير « جليفر » في رحلاته العديدة جنسا من البشر في مثل غرابة أهل « لا پوتا » الذين يكرسون كل جهودهم لأبحاث عابثة في محاولة « لغز خيوط العنكبوت » و « استخراج أشعة الشمس من الخيار » و « تليين الرخام لصنع وسائل صغيرة لحفظ الدبابيس » و « استخراج الحريز الملون من الذباب » ، واكتشاف طريقة « للبناء من أعلى الى أسفل » . ومع ذلك

نجاح سوفيت في تجسيد هذه النظرة العجيبة للأمور التي تفصل بين عقل الانسان وجسمه . فالى جانب الأمثلة التي يذكرها سوفيت ليقرب الى الاذهان حماقة هؤلاء « العلماء الباحثين » وبعدهم عن الواقع في تجاربهم ، يستخدم صورة « المنبه » الساخرة التي تجسد فكرة الهوة الشاسعة بين « عقل » « أهل » لا بوتا « وحواسهم » .

« والجزيرة الطائرة » ، وهو معنى كلمة « لا بوتا » ، ليست مجرد مجاز للعلم ، وانما هي أيضا صورة لما يحدث عندما تتركز السلطة السياسية في أيدي مجموعة من الناس غير العاملين الميالين الى التجربة والعفوية ، والبعيدون في اهتماماتهم وتفكيرهم عن احتياجات البشر الأولية . وتبدو مآسي وخطورة هذا النوع من الحكم عندما يزور « جليفر » « بالنباري » التي تحكمها « لا بوتا » فيقول في وصفه :

كان الناس في الشوارع ، وكان مظهرهم شاردا ، ونظراتهم شاخصة ، واجسامهم مغطاة باسمال بالية . ومررنا من أحد أبواب المدينة ومشينا حوالي ثلاثة أميال في الريف حيث رأينا عددا من الفلاحين يعملون في الأرض ، ادوات مختلفة . ولكنني لم استطع أن اعرف ماذا كانوا يفعلون . كما انني لم ألاحظ ما يدل على احتمال وجود قمح أو حشائش بالرغم من أن التربة كانت تبدو ممتازة . (٢٨)

ان « لا بوتا » محكومة بمجموعة من الأشخاص الطائشين الذين يحكمون بمقاييس علمية مجردة ، ولا يأبهون بالمقاييس الأخلاقية ويوجب الانسان نحو أخيه الانسان ، فالجزيرة الطائرة عديمة الصلة بالبلاد التي يحكمونها ويستغلونها . ويشير « سوفيت » هنا بالذات الى حكم انجلترا الظالم لايرلندا . وقد جعل موقع « لا بوتا » الجغرافي ، باعتبارها جزيرة طائرة ، موقف قوة ، فهي تستطيع ، كما يقول جليفر « أن تحجب الشمس وتمنع المطر عن البلاد التي تقع في ظلها متى أرادت أن تنزل بها عقابا . وفي امكانها أن تحطم كل محاولة للمعارضة في البلاد التي تقع تحت سيطرتها بمجرد أن تهبط عليها بثقلها فتسحقها سحقا . ولا يسع القارىء الا أن يقارن بين هذا الحكم المستبد وحكم ملك « هرويد نجانج » الحكيم المستنير :

وهناك نتائج أخرى خطيرة لدولة العلم النظري المجرد . فتركيز القوة والسلطة كما هما مركزان في « لا بوتا » يؤدي الى الطغيان والخوف . وتصبح الدولة المجردة ، كما صورها سوفيت ، هي الدولة البوليسية . لقد استحوذ على أهل « لا بوتا » حلم خرافي ، حلم القوة التي لا تعرف حدودا . ومن

الممكن أن يتصور القارىء ما الذي يحدث عندما تتركز السلطة المطلقة في أيدي حكام عديمي المسؤولية كالاطفال ، لايسألون عن تصرفاتهم ولا يحاسبون عليها ، بينما يستمدون قوتهم السياسية من العلم الحديث ، وكان سوفيت على وعي عام بإمكانيات الاكتشافات العلمية الحديثة والقوة التي تحملها في طياتها . ولكنه أيقن ان العلم بدون العقل والأخلاق لا يؤدي الى ما فيه خير للانسانية . بل انه يصبح قوة مدمرة فتاكة . وقد اكتشف ببصيرته اللمحة اننا هنا لأول مرة بصدد وضع في منتهى الخطورة ، وهو طغيان غامر يستمد قوته من العلم وليس من الجهل كما سبق في التاريخ ، وبذلك تنتهي سخرية « سوفيت » بعكس الموقف الذي بدأ به . فيصبح العلم النظري المجرد تطبيقا عمليا يخدم أهواء أصحاب السلطة . هذه هي ثمار جنون الانسان وغروره الذي دفع به الى وضع ثقته المطلقة في العقل واعطائه قدرات خارج حدود طاقته ، التي توحى بأنه يستطيع أن يبني دولة مثلية على أساس مبادئ لا علاقة لها بالقيم الانسانية والأخلاق .

وقد تنبأ « سوفيت » في هذه الرحلة بمشكلة لم تنتبه اليها إلا أخيرا . وأوصى في سخريته من العلم الحديث بسؤال يشغل بال الكثيرين في عصرنا الحالي هو : ما الذي فعلناه بانتصارنا بعد أن وصلنا الى القمر وانتصرنا على الطبيعة ؟ لم يؤمن « سوفيت » باستطاعة الانسان ان يصل الى القمر وسخر من الفكرة ، وكان في ذلك غمطا . ولكنه كان محقا فيما قاله عن الفصل بين العلم والقيم الاخلاقية الذي يؤدي الى الدمار . واعتقاده بأن العلاقة بين العلم الحديث والأخلاق معدومة هو السر في عدم اطمئنانه الى العلم الحديث في عصره .

وموقف « جليفر » في هذه الرحلة هو موقف الرجل العاقل المتزن الذي يتعجب مما يراه . وهو يلعب دور المتفرج الذي يلاحظ ويسجل تصرفات من حوله دون أن يتفاعل معهم أو يتأثر بأحلامهم وأوهامهم . ويحتفظ باتزان وتفكيره السليم في الجزء الأكبر من الرحلة الثالثة حيث تغلب روح الفكاهة على سخرية الكاتب ، فلا يشارك « جليفر » أهل « لابوتا » و « وبالنباري » حماقتهم ، بل تبقى قدماء ثابتين في الارض بعيدا عن عالم الآخرين الخرفاني ، وفي نفس الوقت لا تمس القاريء سخرية سوفيت فتفقده احترامه لنفسه ، بل يقف هو الآخر خارج نطاق ذلك العالم المصاب بلوثة الجنون . ولكن لا تلبث السخرية أن تأخذ لونا أكثر قتامة وشكلا أكثر عمقا . ويدخل القاريء مع « جليفر » من جديد عالم الاوهام وخداع النفس في الرحلة الى « لجناج » .

يبني سوفيت سخريته مرة أخرى في هذه الرحلة على موقف خيالي خرافي . و « لجناج » هي بلاد الـ

« سترلدر برجز » Struldbuggs أي الخالدين ، الذين يشكلون نسبة صغيرة من سكان تلك البلاد . وكما هو الحال في جميع رحلات « جليفر » يصور الكاتب الفكرة المجردة وهي فكرة الخلود هنا ، في صورة مجسدة ملموسة . و « الخالدون » يولدون ببقعة حمراء مميزة فوق العين اليسرى ، وتتحول هذه البقعة في مراحل متأخرة الى اللون الأخضر ، ثم الأزرق وفي نهاية الأمر الى الأسود . وعندما يسمع « جليفر » عن هؤلاء « الخالدين » يسيطر عليه حلم الخلود الواهم الذي يجد فيه سعادة وحكمة لا حدود لها . وهنا تتجه السخرية في نهاية الرحلة الثالثة اتجاهها جديدا ، فبعد أن كانت تتجه الى انتقاد المجتمع ، وحقائق السلوك التقليدي ، والعلاقات بين الناس ، والحكم والسياسة والحرب والتعليم والقانون ، أصبح هدفها الآن الأوهام التي تسيطر على بني البشر . فالحلم الخرافي المتعلق بفكرة الخلود يصعب مقاومته . والقلعة هي التي تستطيع أن تستسلم لفكرة الموت ، اما الغالبية فتحلم بالابتدية وتنمناها ويمثل « جليفر » حلم الغالبية . ولكن الأسلوب الخطابي الذي يستخدمه عندما يشير الى السعادة الملازمة للخلود ، كما يعتقد ، ينبه القارئ الى سخرية الكاتب من أوهام « جليفر » ، ويبدو تحكم الكاتب في مغالاة « جليفر » في الحماس لتلك الفئة الغريبة من الناس التي يتصور انها وصلت الى قمة السعادة ، فيقول :

صحبت في نشوة ، يالها من أمة سعيدة ، أمة تسنح فيها لكل طفل فرصة الخلود . يالهم من سعداء ، أولئك الذين يستمتعون بأمثلة حية للفضيلة الغابرة ، ويمجدون من حولهم أساتذة على استعداد لتلقيهم بحكمة العصور السابقة . يالها من سعادة ليس بعدها سعادة حياة معشر الـ « سترلبرجز » المتمازين الذين يولدون معفين من تلك الكارثة التي تشارك فيها البشرية جمعاء متحررين في أذهانهم من وطأة كآبة النفس التي يسببها الخوف الأزلي من الموت . (٢٩)

وهنا يبتسم الرجل الذي تحدث الى « جليفر » من « الخالدين » ابتسامة المجرب المشفق على سذاجة سامعه ، ويأخذ في وصف حياة الـ « سترلدر برجز » كما هي في الواقع وليس كما تصورها « جليفر » . فيقول انهم يعيشون حياة طبيعية حتى سن الثلاثين ، ثم يبدو عليهم الاغتمام حتى سن الثمانين ، وعندئذ تظهر عليهم ليس مجرد حكايات وضعف المسنين عامة ، وانما صفات اخرى تنشأ من « المصير المريع » أي الحياة الأبدية - التي تنتظرهم . فهم لا يتصفون بالعناد فقط وضيق الخلق والطمع والاكتئاب والغرور والثروة . وانما يتصفون بفقدان المشاعر الطبيعية نحو الآخرين ، ويمسحون صغار السن على ملذاتهم ، كما يمسحون الموتى على تحررهم من حياة أصبحت كريمة إليهم . انهم يتذكرون

بشكل غير دقيق الاشياء المتعلقة بشبابهم وكهولتهم فقط . أما أولئك الذين هم أسعد حظا فلا يتذكرون شيئا على الاطلاق . وفي سن الثمانين يعتبرون من الأموات في نظر القانون . وفي سن التسعين يفقدون حواسهم وتستمر أمراضهم . ويحرمهم فقدان الذاكرة من سلوى القراءة . وبانذار لغة الأكبر سنا منهم يصبحون غرباء وسط اهلهم . وبهذا يعيشون في وحدة ازلية قاتلة « ويوجه مظهر « الخالدين » المحزن المربع الضربة القاضية لأوهامنا .

وفي هذا الجزء من الرحلة ، الذي شهد بقوة سوفيت التصويرية ينجح الكاتب في اقناع القارئ بقبول فكرة الفناء بتصوير ملازمانها من الشيخوخة بكل تفاصيلها المأساوية مجسدة في الـ « سترلبرج » المحنوسين ، الذين حرموا ملذات الحياة ونعمة الموت . وتبدو تعاساتهم واجباطهم في الوصف التالي :

ان الحسد والرغبات العقيمة هي أقوى المشاعر التي تسيطر عليهم . ولكن الاشياء التي يبدو أنهم يوجهون ضدها مشاعر الحسد أساسا هي رذائل الأصغر سنا ، وموت الأكبر سنا . فعندما يتأملون الأول يجدون أنفسهم منقطعين عن أى احتمال للمتعة وعندما يرون جنازة يندبون ويتبرمون لأن غيرهم رحلوا الى مأوى للراحة لا أمل لهم فيه أبدا . (٣٠)

ويهاب الناس الموت في جميع البلاد ما عدا « لجناج » حيث يذكرهم « الخالدون » بواقع الحياة ومصير الانسان . اما « جليفر » فيتححر الى حد ما من أوهامه ويستيقظ من احلامه ، ويتعلم أن الحياة تجربة صعبة وجادة ، وان الانسان محدود في امكانياته وقدراته ، وأن البشر هم دائما البشر لن يطرا عليهم تغير ، ولا أمل للهروب من رذائلنا وتفاهاتنا . وينتهي « جليفر » بقوله « لقد كنت غاية في الخجل من الرؤى الممتعة التي شكلتها ، وأيقنت انه ما من طاغ يستطيع ان يخترع مبتة بشعة تمنعني من أن ألقى بنفسى بمنتهى الرضا هربا من تلك الحياة . ويقصد هنا حياة الشيخوخة المجسدة في « الخالدين » ولكن حياة « السترايد برجز » كما وصفها « سوفيت » فيها الكثير من سلوك الانسان العادي ونقاؤه ، حتى قبل أن يصل الى مرحلة الشيخوخة . ومهما تميز الإنسان فانه ما زال بشرا . وبهذا فان الرحلة الى « لايتوتا » التي بدأت وسط أناس نافهين عن واقع الحياة ، تنتهى بمواجهة حقيقة الوجود البشرى ، وتكشف عن قتامة لم يسبق لها مثيل في الرحلات السابقة . ومن ثم فهي تمهد الطريق للرحلة الأخيرة الى بلاد « الهوينز » . و (الياهو) .

ومن ناحية اخرى فان الرحلة الثالثة ، فيها عدا الجزء الأخير منها ، تتصف بروح الفكاهة والمرح ،

فما يفسر لنا السبب الذي دعا سوفيت الى وضعها في المكان الثالث من الرحلات وقبل الرحلة الأخيرة بالذات . فعلى الرغم من أن سوفيت كتب الرحلة الرابعة قبل الثالثة فقد فضل أن تأخذ رحلة « لايتوتا » الترتيب الثالث رغبة منه في إعطاء القارئ مهلة يلتقط فيها أنفاسه ، ويستمتع فيها بشيء من المرح قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة في اتجاه الظلام المحيط بالرحلة الرابعة التي لا أثر فيها للمرح المتوغل بشكل ملحوظ في جميع الرحلات السابقة ، وفي الثالثة منها بالذات .

وقد يكون هناك سبب آخر دفع « سوفيت » الى الترتيب الحالي للرحلتين الثالثة والرابعة ، وهو أن صورة « الهوينهم » ، الحصان الانسان ، « والياهو » الانسان الحيوان ، تتطلب خيالاً خارقاً ، يعكس أقزام ومردة « ليليت » و « برويد نجنج » الذين هم كائنات بشرية يمكن أن يتصورهم القارئ دون صعوبة . ولكن يسهل « سوفيت » على القارئ قبول « الهوينهم » و « الياهو » البعيدين عن التصديق ، فقد سبقها بكائنات لا تقل عنها غرابة في الرحلة الثالثة . وحتى تعود القارئ على أهل « لايتوتا » وأطوارهم يستطيع أن يستسلم دون مقاومة لخيال بلاد الجياد العاقلة الناطقة . ويمكن اعتبار الرحلة الرابعة أيضاً تمتة لسابقتها التي أبدى فيها الانسان رغبته الملحة في الحياة ، والتي وضع الكاتب خلالها سؤالاً نفاذاً وهو : وما هي الظروف التي يمكن فيها للانسان ان يقبل الحياة ، وما هي نوعية الحياة التي يريدونها ؟



٤ - رحلة الى بلاد الهوينهمز *A Voyage to the Houyhnhnms*

يبدو سوفيت في أوج عظمته كأديب ساخر في الرحلة الأخيرة الى بلاد « الهوينهمز » التي هاجمها النقاد بعنف لأنهم أساموا فهم معناها ، وكان « تاكرأي » (١٨١١ - ١٨٦٣) *Thackeray* الروائي الفكتوري الشهير ، واحداً من أولئك الذين أغضبتهم الرحلة الى درجة انه نصح مستمعائه من السيدات ، في محاضرة ألقاها عن سوفيت في لندن « بالامتناع عن قراءتها لأن سوفيت كما وصفه ، رجل فاجر تماماً ، يائس ، مجنون ، وعواطفه وحشية ، وقوته التي يتباهى بها وضعية . وهو وصمة للحيوان كما يستحق أن يكون فعلاً . والجهل أحسن بكثير من « العقل » الذي يتشدد به » . ويصف « تاكرأي » الأسلوب الذي يستخدمه سوفيت في هذه الرحلة بأنه أسلوب « الياهو » الذي يسخر منه سوفيت نفسه . ويستمر في القول انه وحش مريع يصرخ ويزجر ضد الانسانية . . قلدر في ألفاظه ، قلدر في فكره ، ساخط ، هائج بذىء » . وتدل كلمات « تاكرأي » الحانقة أن هذه الرحلة قد صدمته صدمة قوية وأثارتها الى أقصى الحدود . وهذا في الواقع هو التأثير الذي تركته الرحلة على كثير من القراء

لأنها تصيبهم في كبريائهم كبشر . فالسخرية هنا لم تعد مجرد هجوم على سلوك الانسان المعاصر وحياته الاجتماعية ونظمة السياسية ، وانما هي أكثر شمولاً ، وتتناول جشع الانسان ودنائه وكبريائه وأوهامه وتصرفاته الحمقاء في كل زمان ومكان .

ولا شك أن أثر الصدمة يرجع الى صورتى « الهوينهم » (الحصان العاقل الناطق) « والياهو » Yahoo (الانسان الحيوان) اللتين يقارن بهما « جلغير » الانسان واساس المقارنة في هذه الرحلة يختلف تماماً عنه في رحلة « برويد نجنج » . فمهما قيل عن الهوة التي تفصل بين « جلغير » وملك « برويد نجنج » في السلوكيات والاخلاقيات فإن المقارنة ما زالت بين صورتين من الجنس البشرى ، أى أن احتمال وصول « جلغير » الى مستوى أهل « برويد نجنج » العقلاء ليس مرفوضاً تماماً ، بينما هذا الاحتمال غير وارد على الاطلاق في الرحلة الرابعة ، لأن « الهوينهم » ينتمون الى جنس مختلف كلية عن الجنس البشرى . وبذلك « فجلغير » لا ينتمى الى « الهوينهم » لا من قريب ولا من بعيد ، ولو انه يحاول دون جدوى أن يصل الى مستواهم الرفيع . ويقضى سوفيت اذن على الاعتقاد الراسخ الذي بنى الانسان على اساسه نظريته المتعالية ، وهو الاعتقاد بأنه الكائن الوحيد العاقل ، لأنه ذهب العقل ويدور في رحلة « برويد نجنج » ان الأمل ما زال قائماً في وصول « جلغير » بمجهوده الى ما وصل اليه الملك بسجنه . ولكن في بلاد « الهوينهم » يجد « جلغير » نفسه مضطراً الى التخلّى عما ادعاه من الخلق والعقل اللذين تحلى بهما « الهوينهم » وقد سبق ان لمح سوفيت الى القرابة بين « جلغير » و « الياهو » في المغامرة مع القرد الذي اختطف « جلغير » وعامله كوليده ، ويوحى هذا الحدث الفكاهى في الرحلة الثانية بحيرة « جلغير » في الرحلة الرابعة من حقيقة ذاته ، وبالكابوس الذي يعيش فيه حتى عودته الى اهله تاركا بلاد « الهوينهم » وراءه وعلى ذلك فان قرد « برويد نجنج » الى جانب الصور الهوائية الاخرى ، هى اشارة الى صورة « الياهو » المتطورة في الرحلة الأخيرة .

وقد بنى سوفيت الرحلة الرابعة ، كما بنى الرحلتين الأولى والثانية ، على موقف خيالى خرافى قدم فيه « جلغير » في وضع وسط بين نقيضين . ففى « ليليت » و « برويد نجنج » نرى جلغير بين المارد والقزم ، وفي الرحلة الأخيرة نراه بين « العقل » و « الحس » المجسدين في « الهوينهم » و « الياهو » .

فبعد أن استولى القراصنة على سفينة « جلغير » واجبروه على تركها ، وجد نفسه في بلاد ذات مساحات شاسعة مزروعة قمحا وشعيراً ، وهذه ملاحظة لا يفهم القارئ كنهها الا فيما بعد عندما يعلم ان الجياد العاقلة هم من سكان هذه البلاد . اما اول ما يقع عليه نظر « جلغير » فهم « الياهو »

وهي حيوانات قبيحة مفززة غطى أجزاء من أجسامها شعر كثيف ، بينما كشفت أجزاء أخرى عن جلد أسمر ، ولم يكن لها ذيل ، وكانت مخالبها طويلة مما ساعدها على تسلق الأشجار في خفة السنجاب . وقد شعر « جليفر » بنفور قوى عندما اقترب منه أحد هذه الحيوانات ، وحذق في وجهه ، ورفع إحدى رجليه الأماميتين نحوه ، ففصره « جليفر » بمسطح سيفه . عندئذ صاح الحيوان بصوت عال ، وجمع من حوله أربعين حيوانا من جنسه أخذوا في العويل ولوي وجوهمهم ، وبدأ بعضهم يترجعجون على أغصان شجرة وقف « جليفر » تحتها مدافعا عن نفسه ، ورموه بوابل من الخرازات أجسامهم القلوة حتى كاد أن يفتنق . وفجأة تفرق الجميع ، وظهر حصان يمشى بتؤدة إلى أن وصل بالقرب من « جليفر » ، فظهر الحصان إليه متعجبا ، وفحص يديه وقدميه . ثم حاول « جليفر » أن يدلل الحصان ، ولكنه هز رأسه ، ورفع عنه يد « جليفر » بقدمه ، وأخذ في الصهيل بلغة غريبة . عندئذ حضر حصان آخر وحيا الأول باحترام ودخل ، كما يبدو ، في مناقشة طويلة معه عن شخص « جليفر » وبدأ يفحص يديه وملابسه . وكان سلوكها هادئا رقيقا يدل على تفكير منظم عاقل إلى درجة جعلت « جليفر » يعتقد أنها سحرة في مظهر جيد . وقد دفع سلوكها « جليفر » إلى الاعتقاد بأنحكام هذه البلاد لا بد أن يكونوا ذوى عقول فوق المستوى العادى بمراحل . ويجد الحصانان نفسيهما في حيرة من أمر « جليفر » كما يجد هو نفسه في حيرة من أمرهما أيضا . ويتجلب سويقت القارىء بهذا الموقف الغريب وتلك الكائنات العجيبة ، ويستمر في القراءة ليكتشف السر وراءها .

يبدو من هذه المقدمة أن سويقت لجأ مرة أخرى في بنائه الساخر إلى استخدام حلم أو خرافة يشترك في تصويره الناس جميعا . عدد لا يحصى من « الكائنات الشعبية وحواديت » الأطفال التي تتناول الحيوانات المتكلمة العاقلة . وهناك « حكايات » أخرى خرافية ، وإن كانت أقل شيوعا من النوع الأول ، تتناول فكرة الإنسان الحيوان ، ولكن سويقت كما تعودنا شكل الموقف الفولكلورى الأصلى ليتناسب مع أهدافه الخاصة . ففي الحكاية الشعبية أو « حدوتة » الأطفال يلعب الحيوان المتكلم دور المداخن للأنسان الذي يطرى عليه لسبب أو لآخر ، أويؤدى دور الواعظ الذى يعلق على سلوكياته . وفى بعض « الحكايات » يرافق الحيوان سيده الإنسان في مغامرة سحرية . أما « الهوينومز » فهي من ابداع سويقت الساخر ، ويستخدمهم على نحو مبتكر ، ليس كأداة للثناء على الإنسان ، وإنما كوسيلة لمواجهة الإنسان بحقيقته وبسخر الصورة المتعالية التي رسمها لنفسه . أي أن هدف سويقت هو أن يصدم الإنسان بواقعه .

و « الهوينومز » كائنات لا علاقة لها بالخيال الا في مظهرها الخارجى ، وهى مخلوقات تبعث على الاعجاب في تلاؤمها التام مع العالم الطبيعى . انها هادئة لطيفة عاقلة متزنة في أسلوب حياتها

وسلوكتها ، صادقة لا تتحدث الا عن الشيء الكائن . فهي لا تعرف الكذب ولا تحوى لفتها كلمة بمعنى « الكذب » ، وانما تعبر عنها ب « الشيء غير الكائن » . والفضيلة بالنسبة « للهوينومز » هي المعرفة وأساس تفكيرهم العقل والمنطق ، أى أن تفكيرهم مطابق لتفكير الفلاسفة .

وبلادهم تشبه الى حد كبير الكمال الذى تصوره افلاطون في « جمهوريته » المثالية التى يحكمها الفلاسفة ، فالسياسة بمعناها المعاصر لا وجود لها ، لأن المواطنين منظّمون يقومون بدورهم بمسئولية تامة ، ويرون ما يجب عمله ويؤدونه . والحروب القائمة على المنافسات والمصالح المادية معدومة ، ويعيش « الهوينومز » حياة بسيطة يساهم فيها كل فرد من أفراد المجتمع ، ولا يعرفون النقود أو المعاملات المالية أو المصالح الشخصية . وبما أن حياتهم على الفطرة ، فهم يجهلون فنون الطب والجدل والخطابة . ولا يهابون الموت ولا يجنون على موتاهم . ويعتبرون الأرض التى يتنعمون اليها هي أهمهم الأولى . أما الزواج فهو غير مبنى على الرغبة الشخصية وانما على العقل . ولا مكان للحب والعاطفة الجالحة في حياة هذه الكائنات العاقلة . انهم يعيشون أزواجاً في بيوتهم الخاصة ، ولكنهم ينفصلون عن الأسرة عند الضرورة ، ويساعدون الآخرين عند الحاجة ، الى درجة انهم يتبادلون الأطفال في سبيل المجموعة . ولا يحبون اولادهم أو يظهرون نحوهم عاطفة الامومة والأبوة كما نعرفها . وانما يراعونهم في سبيل المصلحة العامة .

« والطبيعة » هي المقياس الذي اتخذه « الهوينومز » لحياتهم ، وهذا ما يشير اليه اسمهم كما شرحه « جليفر » ، فمعنى كلمة « هوينومز » هو « كمال الطبيعة » وهي تعبر عن مثل أعلى بكثير مما يصبو اليه الانسان في لحظاته الروحية والعقلية ، وهي مثل كان يعتز بها معاصرو « سوفيت » الاغسطيون بالذات .

أما طرف النقيض الآخر فهو ممثل في صورة « الياهو » وهو أقوى رمز ورد في أي عمل من اعمال سوفيت . و « الياهو » نقيض العقل ، أي انه يرمز الى العنصر الحيواني في الانسان ، تلك الناحية غير المستنيرة ، غير المتطورة ، اللا عاقلة في الجنس البشري . انه يجسد اذن الغريزة التي يشترك فيها الحيوان والانسان معا . ويشعر « جليفر » بامتياز لا حد له عندما يرى « الياهو » القبيح ظاهراً وباطناً . فشكله الظاهر ما هو الا انعكاس لأخلاقياته المنكرة الكريمة . انه جشع ، حائق ، حسود ، غيور ، مغرور ، بليد ، عبد للشهوة ولغريزة التملك ، خائف كركياً وعقلياً وعاطفياً . انه أسير طبيعته الفاسدة وشهوائته . وعلاقته ببني جنسه علاقة عدائية لأن رغباته لا تعرف الاعتدال . ويحكى « سيد » « الهوينومز » عن تصرفات معشر « الياهو »^(٣١) فيقول : ان الجشع يبلغ بخمسة منهم الى

حد المشاجرة العنيفة حول غذاء يكفي خمسين « ياهوا » . فيكادون يقتلون بعضهم البعض لولا افتقارهم إلى الاختراعات الحديثة المدمرة التي سبق أن وصفها « جليفر » للملك « برويد نجانج » . ويصف « السيد » كيف يحفرون الأرض بمخالبهم بحثاً عن الأحجار الملونة ، ويحملونها إلى « زريتهم » حيث يجيئونها بعيداً عن الأنظار . وإذا ضاعت منهم يكادون أي يموتوا حزناً عليها . وهناك شراب يتناولونه مصنوع من عصير نبات مسكر ، وعلى أثر تناولهم إياه يتعاقبون أحياناً ويتشاجرون أحياناً أخرى ، ويولولون ويضحكون ويثرثرون ويتطرحون ويتعثرن ويتهاوون إلى الأرض حيث ينامون وسط القذارة . وصورة « الياهو » تلك الكائنات التي لا تعرف لها حدوداً طبيعية ولا تستطيع أن تتحكم في طبيعتها الفاسدة ، هذه الصورة مثل ناضج لأدب « سوفيت » الساخر الذي يجمع في آن واحد بين السخرية من الصفات الجسدية والخلقية .

وهذه المقارنة بين « الهوينومز » و « الياهو » ، لا بين العقل والحسن المجردين ليست مقارنة بين نوعين مختلفين من البشر فلا يرمز « الهوينوم » أو « الياهو » إلى الإنسان على الإطلاق . وإنما الذي يرمز إليه هو « جليفر » الذي يشارك لسوء طالع في طبيعة كل من « الهوينوم » و « الياهو » طرفي النقيض . والحيلة التي يلجأ إليها « سوفيت » في هذه الرحلة هي الفصل بين العنصرين الأساسيين اللذين يتحدان في الإنسان ذي الطبيعة « الثنائية » حتى يتمكن « جليفر » من أن يتأمل كلا منهما في جوهره .

ولما كان « جليفر » حلقة الوصل التي تجمع بين النقيضين فقد وجد نفسه في وضع يسمح له بأن يكون حكماً بينهما . ويبدو حكمه منذ أول وهلة في نفوره من « الياهو » وانكار قرابته لهم ، وانجذابه نحو « الهوينومز » . وادعائه القرابة لهم . وتكمن سخرية سوفيت في نظرة كل من « الياهو » و « الهوينومز » فيبينا لا نجد « جليفر » أي وجه شبه بينه وبين « الياهو » يرى « الهوينومز » ذلك الشبه واضحاً ، بل أنهم يندهشون عندما يبدي « جليفر » ما يدل على العقل والقدرة على الكلام مثلهم ، فهو بالنسبة إليهم ليس إلا « ياهوا » وللتأكد من ذلك يضع بعض « الهوينومز » « جليفر » جنباً إلى جنب مع ثلاثة من « الياهو » للمقارنة . وتكون الصدمة المروعة عندما تنجلي الحقيقة « لجليفر » شيئاً فشيئاً . ويصف المشهد فيقول :

وبعد دخولي مباشرة وقف الفرس منتصباً من على حصيرته واقترب مني . وبعد أن تمعن في بدي وجهي نظر إلي نظرة احتقار . ثم التفت إلى الحصان ، وسمعت كلمة « ياهو » تنكر مراراً بينهما ، وهي كلمة لم أفهم معناها آنذاك ولكن لم ألبث أن عرفته ، فأصابني شعور بالخرزي والعار الأزلي . وقد قادني الحصان إلى مكان كالفناء . وعندما دخلنا

رأيت ثلاثة من تلك المخلوقات المقيتة . . . وهم يأكلون بعض الجذور ولحوم الحيوانات ، اكتشفت فيها بعد انها لحوم حير وكلاب أو لحم بقرة ماتت في حادث او على أثر مرض ، وقد التفت حول اعناقهم حبال قوية عقدت الى عامود خشبي . وأمسكوا غذاءهم بمخالب اقدامهم الأمامية ، واخذوا يمزقونه بأسنانهم . (٣٧)

ويكتشف « جليفر » التطابق بينه وبين « الياهو » فيقول :

لا أستطيع أن أصف ارتياحي ودهشتي عندما تبينت في هذا الحيوان البغيض جسم انسان كامل . كان الوجه بلا شك مسطحا وعريضا . والأنف مفرطحا ، والشفتان سميكتين ، والفم عريضا . ولكن هذه اختلافات تشترك فيها جميع الأمم المتوحشة . . . أما قدما « الياهو » الأماميتان فلا تختلفان عن يدي اذا ما استثنينا طول الاطراف وخشونة راحة اليد وكثافة الشعر على ظهرها . وكان هناك نفس الشبه والاختلاف بين أقدامنا ، التي كنت أعرفها جيدا ، وان كانت الجياد تمهلها لا خفتائها تحت الحذاء والجورب ، كان التماثل واحدا في كل جزء من أجزاء أجسامنا باستثناء كثافة الشعر ولون البشرة اللذين سبق أن أشرت اليهما . (٣٨)

- والشيء الذي تعجبت له الجياد هي ملابس « جليفر » التي جعلته يبدو مختلفا عن « الياهو » ، وكانت تمهل انه يستطيع ان يخلعها متى أراد . أما « جليفر » فقد حمد ربه على جهل « الهوينوهمز » الذي حال دون مطابقتهم « جليفر » بالياهو » تماما . ولكن لم يلبث أن اكتشفوا سر هذه الملابس ذات يوم عندما دخل حصان على « جليفر » فوجده نائما وقد خلع ملابسه ولم يستطع « سيد » « الهوينوهمز » أن يفهم الحكمة في فكرة الملابس ، والدافع الذي يدعو أي مخلوق الى اخفاء بعض اجزاء جسمه الذي وهبته الطبيعة اياه . ومع ذلك فقد سمح « السيد » « جليفر » أن يحتفظ ببعض ملابسه عندما أخذ يفحصه من جديد . وفي هذه المرة وجد « جليفر » مطابقا تماما « للياهو » رغم بشرته الناعمة البيضاء وشعره القصير واقتارحه الى المخالب الطويلة ، وعادته في المشي منتصبا على رجليه الخلفيتين ، وهي عادة اعتبرها « الهوينهم » نوعا من التصنيع والتكلف . وتتأكد هذه المطابقة في مشهد « جليفر » وهو يستحم في النهر . وتراه أنى « ياهو » شابة فيثير فيها رغبة شهوانية باعتباره واحدا من أبناء جنسها . وتقفز الى النهر وتعانقه بعنف ، ولا يستطيع أن يتخلص منها الا عندما ينقذه واحد من خدم

« الهوينهمز » . وبعد هذه التجربة يصبح من المستحيل أن ينكر « جليفر » حقيقته « الياهووية » أو أن يخفيها .

ومع ذلك فقد اعترف « الهوينهمز » بأن هناك اختلافا بين « جليفر » و « الياهو » وأساسه مظاهر العقل التي تبدو عليه والتي جعلته أحد خوارق الطبيعة . ولكن هذا الاختلاف يزيد من نفور « الهوينهمز » منه بدلا من أن يقربه منهم . فهم يرفضون ادعاءه العقل مؤكدين أن ما يتمتع به « جليفر » هو مجرد « مظهر » العقل الذي يرجع إلى قدرته على « محاكاة » المخلوق العاقل . وهذا يجعل « جليفر » في نظرهم أحط من « الياهو » لأن مظهر العقل فيه ليس إلا « زيفا وخداعا » . ويشرح « جليفر » ما يعنيه « سيد » الهوينهمز فيقول على لسانه :

عندما يدعي مخلوق العقل ، وييدي في نفس الوقت القدرة على سلوك في مثل تلك الجسامة ، فانه يخشى أن افساد هبة العقل قد يكون أسوأ من البهيمية نفسها . ويبدو أنه كان على يقين من أننا نمتلك ، بدلا من العقل . صفات شكلت على نحو يزيد من ضرورتنا الطبيعية . (٣٤)

بدأ « جليفر » بالاعجاب « بالهوينهمز » ثم انتقل بعدئذ إلى قبول حكمهم عليه وعلى بني البشر عامة ، ولم يعد يطبق النظر إلى نفسه فيقول :

إذا ما تصادف أن رأيت انعكاس صورتني في بحيرة أو في نهر ، أدت وجهي في انزعاج ، شاعرا بالبغض نحو شخصي . انني أحتمل مظهر « الياهو » العادي أكثر مما أحتمل مظهري . (٣٥)

وبذلك أصبح « الهوينهمز » المثل الأعلى لـ « جليفر » رغم رفضهم المطلق له . ونراه في نهاية الرحلة منبؤا ومعزولا تماما ، فلا هو يريد أن ينتهي إلى « الياهو » ولا يقبل « الهوينهمز » انتباه اليهم . ومع ذلك كان يسعى إلى عقلانية « الهوينهمز » وحكمتهم الفطرية البسيطة معتقدا في النهاية أنه بلغ مأربه . ولكن سوفيت ينكر إمكانية ذلك بوضعه في موقف ساخر فضل « جليفر » فيه رائحة حصانته وحديثها على صحبة زوجته وأولاده ، فبدأ وكأنه فقد عقله . ويصف « جليفر » عودته إلى وطنه وأسرته وما شعر به من اشمزاز في قوله :

٣٤ - الجزء الرابع ، الفصل الخامس

٣٥ - الجزء الرابع ، الفصل السادس

لقد قابلتني زوجتي وأسرتي بدهشة وفرح عظيمين ، لأنهم كانوا يعتقدون انني قد مت . ولكن يجب أن أعترف أن مظهرهم ملأني بالكراهة والاشمئزاز والاحتقار وبالذات عندما فكرت في القرابة التي تربطني بهم . وقد أجبرت نفسي ، منذ ان نفيت من بلاد « الهوينومز » على تحمل شكل « الياهو » والحديث مع « دون بدرودي منديز » الا ان ذاكرتي وخيالي سيطرت عليهما فضائل وآراء « الهوينومز » ، تلك الكائنات السامية ، وحينها بدأت أفكر انني ، بزواجي من واحدة من جنس « الياهو » ، قد اصبحت أبا لعدد أكبر منهم ، شعرت بالعار والضياع والارتياح . (٣٦)

عندما دخلت الى المنزل عانقتني زوجتي وقبلتني ولما كنت قد نسيت لمسة ذلك الحيوان المقيت ، بعد تلك السنين الطويلة ، أغمى علي مدة ساعة تقريبا ، والآن قد مرت خمس سنوات منذ عودتي الأخيرة الى انجلترا . ولم أستطع خلال السنة الاولى تحمل وجود زوجتي وأولادي بالقرب مني ، فلم أكن أطيق رائحتهم ولا أن أراهم وهم يأكلون في نفس الحجرة . وحتى هذه الساعة فانهم لا يجرأون على وضع أيديهم على خيزي أو أن يشربوا من نفس الفنجان . ولم أستطع أن أسمع لأحد منهم ان يمسه يدي . وقد اشترت بأول مبلغ وفرته حصانين احتفظ بهما في اسطبل جميل . واعتبر « سايسهما » احب شخص الي من بعدهما ، لانني اشعر بانتعاش نفسي عندما أشم رائحة الاسطبل التي تعلق به ويفهمني حصاني الى حد كبير . وانا اتحدث اليهما مالا يقل عن اربع ساعات يوميا . وهما يجهلان السرج واللجام ، ويعيشان معي في ود عظيم ، ومع بعضهما في صداقة تامة . (٣٧)

ويبدو من هذه الفقرة ان سوفيت قد بدأ يوجه سخريته نحو « جليفر » وان كان عدد من النقاد قد فشل في ادراك ذلك ، وأصروا على المطابقة بين « جليفر » والمؤلف . ولكن القارئ المقصر لا يفوته التهكم البارع في نهاية الكتاب عندما يتأمل « سوفيت » غرور « جليفر » الذي يعتقد أنه تخلص من الرذائل التي التصقت ببني البشر الذين ينتمي اليهم « جليفر » في الواقع مهما انكر ذلك الانثناء . ويظهر تعالي « جليفر » على جنسه الذي لا مبرر له في قوله :

ان اعادة الوفاق بيني وبين جنس « الياهو » عامة قد لا يكون صعبا الى درجة كبيرة ، لو انهم اكتفوا بتلك الرذائل والحماقات التي خولتها لهم الطبيعة . وانا لا استثار عندما تقع عينا

على محام أو نشال بكباشي أو إحمق أو لورد أو مقامر أو سياسي أو قواد أو طبيب أو شاهد أو غاو أو وكيل أو خائن وما إلى ذلك . فهم جزء من طبيعة الأشياء . ولكن صبري ينفذ تماما عندما أرى كتلة مشوهة من المرض العقلي والجسدي نكبت بالغرور ولا يمكن أن يتبادر إلى ذهني كيف يتناقض الجمع بين ذلك الحيوان وتلك الرذيلة . (٣٨)

وتكمن سخرية هذا الموقف في كون « جليفر » نفسه مثالا لكائن ابتلى بالغرور . لقد سافر إلى العديد من بلاد العالم ، وواجه مخاطر لا حصر لها ، ولكنه لم يتعلم شيئا من تجربته . إن الرحلات التي قام بها كانت إلى أغوار الطبيعة البشرية ، وكانت أخطر مغامراته هي المغامرة الأخيرة التي أثبتت ضعفه تجاه الحقيقة التي اكتشفها عن نفسه وعن بني جنسه ، والتي أدت إلى فقدانه الواضح لأنسانيته في تنكزه لأسرته . وانتهى به الأمر إلى الوقوع فريسة لتلك الرذيلة التي طالما سخر منها في الرحلات السابقة ، وهي الغرور البادئ في اعتقاده أنه قد بلغ أقصى درجات العقل والحكمة كما وجدها في « الهوينومز » . ويظهر تعاليه في الفقرة التالية عندما يشير إلى العدوى التي بدأت تتسرب إليه مرة ثانية نتيجة احتكاكه ببني جنسه الذين فقدوا الأمل في إصلاحهم . وما كان يجب أن يحاول ذلك ، بل أن مجرد المحاولة دليل على بدء نفثي « الياهووية » فيه ، لأنها تعني أنه عاد إلى الأوهام التي لا تتفق مع العقل . ويقول « جليفر » في خطابه إلى قريبه « سمبسون » :

يجب أن اعترف أنه منذ عودتي من رحلتي الأخيرة ظهرت في من جديد بعض مظاهر الفساد الناتجة عن طبيعتي « الياهووية » نتيجة اتصال ببعض أفراد جنسكم ، وخاصة أفراد أسرتي ، وهو ما لم يكن منه مفر . والا ما فكرت في ذلك المشروع الجنوني الذي يهدف إلى إصلاح جنس « الياهو » في هذه المملكة . ولكنني قد عدلت الآن وإلى الأبد عن أمثال تلك الخطط الخيالية . (٣٩)

ويجب أن نتساءل هنا ما الذي كان سوفيت يعنيه من فكرة « العقلانية » التي سعى إليها « جليفر » ، وظن أنه نجح في سعيه ؟ هل كان سوفيت يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتوصل إلى درجة « العقلانية » التي جسدها في « الهوينومز » ؟ وهل هذا مثل يحتذى ؟ يبدو من الرحلة الرابعة أن « العقلانية » بمقارنتها بيهيمية « الياهو » هي فعلا مثالا يحتذى . ولكن هل كان سوفيت يريد أن يصبح « جليفر » تحسيدا للعقل المجرد مثل « الهوينومز » ؟ لقد ظن كثير من نقاد سوفيت الأوائل أن هذا كان هدفا من

كتابة الرحلات . ولكن بعض النقاد فيها بعد رأوا أن المثل الأعلى ليس في تناول اليد ، بل انهم ذهبوا الى أبعد من ذلك . وقالوا ان سوفيت كان يقصد توجيه سحرته الى العقل المجرد وعقلانية جمهورية « الهوينومز » المثالية . ولذلك أكدوا ضرورة الفصل بين « جليفر » المبهور « بالهوينومز » وبين سوفيت الذي يسخر من انبهار « جليفر » وسعيه الى المستحيل .

لا شك أن الجياد كما صورها سوفيت في رحلة « الهوينومز » هي حيوانات نبيلة جميلة في مظهرها وحركتها وسلوكها . وحياتها البسيطة بعيدة عن الادعاء والتكلف ، فهي اذن من صميم « الطبيعة » المتناسقة . ولكن ليست هذه هي الحقيقة بأكملها ، وهناك نواح اخرى يجب أن ندخلها في الاعتبار اذا ما أردنا ان تكون صورة كاملة صادقة لحياة تلك الكائنات الغريبة . وأول هذه الحقائق أن « الهوينومز » ليسوا من البشر ، وبذلك فلا يمكن أن نأخذ حياتهم كمثال أعلى للإنسان . والحقيقة الثانية أن حياتهم العقلانية محدودة وتفتقر الى الحيوية . فحديثهم محدود واهتماماتهم محدودة وموقفهم من الحياة محدود ، يتقبلون المصائب بصدر رحب ، ويأكلون وينامون باعتدال ، ويؤمنون بالحبة للجميع كمثال أعلى ، ومن ثم فليس هناك علاقات شخصية قوية أو أفضليات بين الاصدقاء والاسر ، وينظم الاصدقاء الزواج في المجتمع باعتباره ضرورة بالنسبة للكائن العاقل » ، ويحب الزوج زوجته واطفاله كما يجب غيرهم من أفراد المجتمع لا أكثر ولا أقل . وينظرون الى الجنس كناية من نواحي الحياة الطبيعية ، ولكن هدفه ، مثل جميع الغرائز الاخرى ، عملي محض ، وهو انجاب الاطفال فقط ، اما لغتهم وفنونهم وعلومهم فكلها تؤدي مهمة عملية مقصورة على ضروريات الحياة الاجتماعية الهادئة المتناسقة . وهم لا يعرفون الغيرة او العاطفة الفياضة او المشاجرة أو السخط او الاستياء ، ويعيشون حياة قبلية منعزلة عن العالم .

هذه الحياة التي أعجب بها « جليفر » كل الاعجاب هي أيضا صورة للحياة المثالية كما تصورها معاصرو « سوفيت » الذين آمنوا بالعقل ، والطبيعة وقد رسم سوفيت هذه الصورة على نحو يوحى بأنه هو نفسه يعتبرها مثالا ايجابيا اذا ما قورنت بصورته السلبية الساخرة « للياهوز » . ولكن سحرته سوفيت لم تكن أبداً يمثل هذه البساطة البنية على المقارنة المباشرة ، بل هي دائما مركبة ومصاغة في أسلوب غير مباشر . واذا ما أمعنا النظر في حياة « الهوينومز » فسنجد لها قصرة وسلبية الى درجة ليسوا فضلاء بالمعنى الايجابي . وافتقارهم الى العاطفة يجعل فضيلتهم ليست انتصارا للعقل والاعتدال على النزعات والاغراء . وانما يجعلها نتيجة مناعة طبيعية ضد الشهوة والغريزة ، بل ضد الحياة والحيوية . فهم لا يعرفون الغرائز الجنسية والملاذات الحسية والعاطفة الانسانية العميقة ، والرغبات والخوف وحتى الافكار . ومعنى هذا أنهم ، وان كانوا لا ينحدرون الى حضيض البهيمية ، الا أنهم في نفس الوقت لا

يرتقون الى السمو والمجد . ولعل مقال ف . ر . ليفيز **F.R. Leavis** الناقد المعاصر المشهور ، بعنوان « سخرية سوفيت » هو أول اشارة الى موقف سوفيت السلبي بالنسبة « للهوينوهمز » أصحاب العقل ، والى سخريته من مثالية « جليفر » الذي وجد في الجياد العاقلة تجسيدا لايامه بالعقل . ومنذ ظهور ذلك المقال وقارئ « سوفيت » يحاول أن يصل الى كنه سخريته في هذه الرحلة غير مكتف بالسخرية الظاهرة المباشرة الموجهة ضد « الباهوز » . يقول « ليفيز » في مقاله مؤكدا القصور الملحوظ في « الهوينوهمز » العقلانيين :

يس « الهوينوهمز » بطبيعة الحال ، العقل والصدق والطبيعة ، وكلها ايجابيات « اغسطية » وكان سوفيت جادا الى أقصى حد في مناشدته اتباع هذه الايجابيات أصحاب العقل ، ولكن « الباهوز » هم المخلوقات التي تنبض بالحياة . وكان سيد « جليفر » « الهوينوهمز » يعتقد أن الحيوان العاقل يكتفى بالطبيعة والعقل كمرشد له في حياته ، ولكن الطبيعة والعقل كما يكشف عنها « جليفر » يتصفان بسلبية غريبة والحيوانات العاقلة تفتقر الى كل ما هو في حاجة الى الارشاد . (٤٠)

وقد تنبه القراء والنقاد منذ ظهور مقال « ليفيز » الى صفة التركيب والاسلوب غير المباشر في سخرية « سوفيت » . ولم يعد قارئ الرحلة الاخيرة يرى في « الهوينوهمز » مثلاً أعلى يحتذى فتقول كاثلين وليامز **Kathleen Williams** ان « الهوينوهمز » لا يبدو للقارئ كائنات تستوجب الاعجاب بهم يثيرون الضحك احيانا بل والنفور أيضا ، ونشعر بالاشمزاز من تفاني « جليفر » في حبهم « (٤١) » . وعندما نستمع الى مناقشات مجلس « الهوينوهمز » التي تدور حول مصير « جليفر » و« الباهوز » نصطدم بحقيقة ذلك الجنس الذي يخلو من أية مشاعر انسانية دافئة . ويتبين من نظرتهم للأشياء تصور حياة العقل وحده ويتفق هذا التفسير الحديث لسخرية « سوفيت » من « الهوينوهمز » مع أسلوبه المعروف في السخرية ورفضه الدائم اعطاء القارئ أهدافا ايجابية واضحة لا لبس فيها . فسخريته تسبب للقارئ كثيرا من القلق والازعاج . انها ليست من النوع المدمر فحسب ، وانما تبثت على التفكير والتأمل .

The Irony of Swift, Scrutiny, 'March 1934. ١٠

Kathleen Williams, 'Gullivers Voyage to the Houyhnhnms' A Journal of English Literary History xv 111, Decer., ١٩٥١
تمثل للنقد الحديث من الرحلة الرابعة .

وعند وضع « الهوينومز » داخل اطار العصر « الاغسطى » نجد ان السخرية موجهة الى نظرة الاستنكار السائدة في عصر « سوفيت » نحو المشاعر والعواطف القوية التي وضعت تحت امرة العقل . فلم يكن للمشاعر مكان على الاطلاق في بحثهم عن الحقيقة . ولكن « سوفيت » كان يعلم جيدا ان القضاء على المشاعر او السيطرة عليها عن طريق العقل مستحيلة بسبب طبيعة الانسان « الثنائية » وبالكشف عن مخاطر الفصل بين العقل والعواطف كما في « الهوينومز » و « الياهو » وبالحكم على الاول بالفضيلة والثانية بالرديلة ، وضع أصبعه على نقطة ضعف خطيرة في فلسفة عصره . وبهذا جاءت الرحلة الرابعة نقدا « للاغسطية » .

وقد تكون السخرية موجهة ضد سوفيت نفسه ، وهو الذى استولت عليه فكرة جمال العقل كما هو واضح من الرحلات السابقة التى يسخر فيها من كل ممن يفتقر الى العقل ، سواء أكان « جليفر » أو سكان البلاد التى يزورها . ولكن « سوفيت » كان متفهما لطبيعة الانسان وقدراته بما يكفى ليدرك ان الانسان لن يصل أبدا الى الحلم الذى يسيطر فيه العقل على الحياة . لقد وجد تسلية في بناء نموذج للمجتمع البشرى مفترضا انه يمكن اقناع الانسان ان يتصرف تصرفا عاقلا ، ولكنه لم يستطع ان يستمر في حلمه طويلا دون أن يتأكد من فشل الانسان وسخف الحلم . والحلم مبنى على نظام ديموقراطى كامل ، ولكن لا تلبث أن تتطور الديمقراطية الى دكتاتورية يطغى فيها العقل . ويتبدد الحلم من أول لحظة بسبب وجود « الياهو » الفوضويين الذين يتحدثون نظام وتناسق الحلم الخرافى .

ويعلم سوفيت جيدا أن الانسان لن يفلح في تجسيد حلم الانسان العقلانى ، وانه اذا اعتقد أن ذلك ممكن يكون قد وقع فريسة لغروره وأوهامه . ويصبح هدفا لسخرية « سوفيت » ، وهذا ما يحدث فعلا في الرحلة الرابعة .

ونحن هنا اذن بصدد الفكرة الأساسية في الرحلات وهى موقع الانسان الوسط في سلسلة الوجود الماثلة ، وغرور الانسان لادعائه العقلانية التى هى من صفات الكائنات السامية التى خلقت في مرتبة أعلى من مرتبة الانسان ، وهبوطه من ناحية أخرى الى مستوى الحيوان الذى هو أقل بكثير من مستواه الطبيعى . وفى صورتى « الهوينومز » و « الياهو » والفصل التام بينهما يكمن السبب الذى دعا نقاد « سوفيت » الاوائل الى تأكيد سلبيته وتشاؤمه . ولكننا نستطيع ان نكتشف في هذه السلبية ، الواضحة في افتقار « الهوينومز » و « الياهو » الى دفء العاطفة والحب الانسانى ، نستطيع ان نكتشف فيها اشارة الى الصفات الانسانية الايجابية التى يؤمن بها « سوفيت » وان كانت هذه الصفات غير موجودة في تلك الكائنات المجردة ، السامية منها والحيوانية ، الا انها تظهر من آن لآخر في مخلوقات

أخرى في الرحلات : في « جليفر » نفسه في الرحلة الاولى ، وفي الملك ومربية جليفر « جلمد لكنتش Glumdalitch » الطفلة الخنون في الرحلة الثانية ، وفي الفرس « الهوينومز » التي تحب جليفر وتحزن على فراقه وفي « دن بدرودي منديز » وبان السفينة التي تنقذ « جليفر » ، والذي يعامله بانسانية غامرة وتفهم عطوف في الرحلة الرابعة . ويؤكد وجود الشخصيات ما قاله سوفيت عن موقفه من البشرية جمعاء ، فرغم كراهيته للجنس البشري الا انه يحب الأفراد ، وقد عبر عن هذا الموقف لصديقه « بوب » فقال « لقد كرهت دائما جميع الأمم والمهن والمجتمعات وحبى كله للأفراد . فانا أكره ، على سبيل المثال - معشر المحامين ، ولكنني أحب المستشار فلان والقاضي علان . . وينطبق هذا أيضا على الأطباء (ولن أتحدث عن مهني) والجنود والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين وغيرهم . ولكنني أكره وأمقت أساسا ذلك الحيوان المسمى بالانسان ، وان كنت أحب من كل قلبي حون وبيتر وتوماس » . وقد وجد سوفيت في أصدقائه من يستحق حبه وإخلاصه ، ومنهم صديقه « اربثنت Arbutnot » الذي قال عنه سوفيت انه لو كان هناك عشرة من أمثاله لما رأى ضرورة لرحلة جليفر ، ولأشعل في الكتاب النار .

ولقد تأثر سوفيت ، باعتباره من رجال الكنيسة المسيحية ، بصورة الانسان الذي يحمل الخطيئة والشر في طياته ، وهي الصورة التي بدت واضحة في مواقفه وانعكست في الرحلات . ولم يعتقد في يوم من الايام في امكانية تغيير الطبيعة البشرية الثابتة ، ومع ذلك فقد حاول ، كما يقول متهكما على نفسه ، في غمرة من الغرور وفي لحظة من الحماسة والجنون أن يحرك الانسان « ويغضبه » ليتخلى عن رذائله . فهدفه من كتابة رحلات جليفر كما قال ، هو « اغضاب العالم وليس تسليته » .



ان رحلات جليفر هو انتاج سوفيت الانسان الذي جمع بين صفات « الباهو » و « الهوينومز » فالغضب والغيظ والحدة والعنف والكراهة التي عبر عنها « سوفيت » كلها من صفات « الباهو » ولكنه وجهها ضد اسوأ الرذائل ، لأنه أراد الانسان ان يكون كائنا فاضلا وليس مجموعة مشوهة من الشرور . و « سوفيت » الكاتب الاخلاقي لا يسعه الا أن يثور ويزجر ويكشر عن أنيابه ، لأنه يود أن يكون الانسان انسانا وليس حيوانا . فالرحلات اذن نتاج عواطف قوية ايجابية وسلبية معا . ورغم محاولاته الايجابية في الاصلاح كان موقتا ان الفضل سواء مع الافراد او الجماعات ، وقدر لها ، لان السخرية وهي الاداة التي استخدمها « سوفيت » كالمرآة يكتشف فيها الناظرون عادة وجوه الآخرين لا

وجوهم . ومع ذلك فقد استمر « سوفيت » في المحاولة لشعوره الداخلى بالحاجة للاستمرار ، وللمتعة التى استمدها من الكتابة الساخرة نفسها .

وهنا نجد أنفسنا ازاء الناحية العقلية والادبية والجمالية التى تقرب « سوفيت » من « الهوينومز » فرحلات جليفر هي انتاج روح متقدة وعقل متيقظ تستمتعان الى اقصى الحدود بالنشاط الذهني . لقد وجد « سوفيت » متعة حقا في عملية الابداع وفي سخريته المركبة المدمرة وتحكمه المتمكن الماهر فيها . فالتهمك الساخر ليس مجرد معركة محتدمة ضد الرذيلة والشر ، وانما هي أيضا لعبة مسلية متحضرة توحى بالعقل المتنبه والوعي الاخلاقي . ولا شك أن « سوفيت » قد شعر بالاستمتاع الفني والذهني ، كما يشعر به القارئ في اقصى لحظات التوتر والشدة والغضب في سخرية الرحلات . فطبيعة التهمك الساخر هي تلقين الدرس الاخلاقي بأسلوب ممتع جذاب . وتجاهل عنصر التسلية والمتعة في هذا الأدب ومايويحي به من مستوى رفيع من التحضر ، تجاهل هذا يؤدي الى نظرة مبسطة غير وافية خادعة لعمل مركب عميق الأثر .

ولعلنا نستطيع أن نلخص هاتين الناحيتين الأساسيتين في الرحلات التلقينية الاخلاقية والفنية الجمالية في قصة رواها صديق للناقد صموئيل هولت منك **Samuel Holt Monk** قال انه صدم أحد معارفه صدمة قوية عندما أخبره انه . . ضحك كثيرا عندما قرأ رحلات جليفر ثانية . وعلق قائلا « وماذا كان يجب أن أفعله ؟ هل كان يجب أن أصوب مسدسا نحو رأسي ؟ لا . شك ان « سوفيت » نفسه كان يوافق على رد فعل الصديق الذي ضحك ولم ينتحر ، فهذان هما الاحتمالان الوحيدان أمام قارئ الرحلات . ولولا عنصر الفكاهة والمرح الكامن في التهمك الساخر للجبأ القارئ ومع « سوفيت » الى الاكتئاب وربما الى الانتحار على اثر كشف النقاب عن الصورة القاتمة للطبيعة البشرية في الرحلات . ففي « سوفيت » الساخر المتحضر هو الذي يضمن لنا العقل والاعتزان .

وبهذا يتطور القارئ في فهمه وتقييمه لرحلات جليفر في كل قراءة جديدة هذه التحفة الادبية ، متدرجا نحو نظرة الى الحياة والأدب اشمل واعم . والتدرج هو من التسلية المجردة التي يجدها الطفل في الرحلات ، الى الاهتمام بالنقد الاخلاقي الموجه الى سلوك الانسان السياسي والاجتماعي والفردى الذي يبيده القارئ البالغ ، الى الاستمتاع الذهني بالناحية الجمالية والفنية الذي يشعر به القارئ المتحضر المثقف المهف الحس . وفي هذا التطور دليل على الثروة الكامنة في واحد من اعمق وارفع واروع الامثلة الادبية في التهمك الساخر .

بعض المراجع الرئيسية

- 1 — Herbert Davis, Jonathan Swift : Essays on his satire and other Studies, V.U.P, 1946
- 2 — Bonamy Dobree , English Literature in the Early Eighteenth century, Oxford 1959
- 3 — Denis Donoghue , in Jonathan Swift : a critical Introduction C.U.P. 1969
- 4 — (edit) Jonathan (swift : a critical anthology , penguin , 1971
- 5 — A . E . Dyson , Essays , Studies , Swift the Matamorposis of Iron 1958
- 6 — Irvin Ehrenpreis, The Personality of Jonathan Swift, Methuen 1958.
- 7 — F . R . Leavis , scrutiny , The Irony of swift march 1934
- 8 — F . P . Lock , The politics of Gullivers travels, Oxford , 1980 .
- 9 — Samuel Monk , sewanee review , The Pride of Lemuel Gulliver, L X 111, 1955.
- 10 — George Orwell Politics V. Literature : an Examination of Gullivers Travels, 1964, reprinted in Sonid orwell and Jan Angus (edits) The Collected Essays, Journalism and Letters of George orwell, Vol 4, 1968.
- 11 — Ricardo Dulntano, Swift : An Introduction, O. U. P. 1955
- 12 — Ernest Lee Tuveson, Swift : A collection of Critical Essays, Preutice Hall, 1964
- 13 — David Ward, Jouthan Swift : An Introductory Essay.
- 14 — Basil Willey Eighteenth century Background, London 1946.
- 15 — Kathleen William, Jouthan Swift and the age of compromise, University Kansas Press 1958.

يتميز أندريه جيد بتحرره العقلي ويميله الشديد الى التجربة ، كما يعرف برغبته العارمة في ارتياد المجالات الجديدة التي تخرج عن نطاق المؤلف . لذلك تبدولنا شخصيته دائمة التفتح والتعطش الى كل ما هو جديد وفريد . من ثم يمكن اعتبار مؤلفاته الأدبية الزاخرة بالحياة الجياشة بحشا دائيا ومحاولة متصلة لكشف الأسرار واكتناه الغايات التي تتأثر على طريق الحقيقة . كما أن مؤلفاته - لا شك - بحث أصيل عن ذاتيته خلال هذا الوجود .

لاجرم أن يدعوا هذا الباحث عن الأفاق الجديدة الى الرحلة كوسيلة من الوسائل الناجعة لتجاوز حياتنا الأليغة وتحقيق الانفصال عن عالم الأسرة وما يمثله من قيود وأعباء . ولا شك أن المؤلف يدرك أن كل انفصال أو قطيعة يتضمن عواقب وخيمة وآثارا بالغة الخطورة ، إلا أنه على الرغم من ذلك يتحمل مسئولية هذه القطيعة مع الأسرة والبيئة والثقافة والعقيدة ، الأمر الذي سوف يترك في مؤلفاته آثارا من الصعب أن تمحى أو تختفي في وقت قريب .

وعلى النقيض من كاتب مثل « موريس باريس » الذي يؤمن بأن انسلاخ الشباب عن بيئته يحوله الى ضرب من « الحيوانات الصغيرة التي لا مأوى لها » يعتقد أندريه جيد أن قضية الانسلاخ ودور الرحلة في تعميق جذوره من

الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد

ناديه محمود عبدالله

أستاذ مساعد الأدب الفرنسي المعاصر
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الأمور الحيوية بالنسبة للإنسان ، إذ أنه يذهب الى أن كل رسوخ هولون من التقوقع والجمود ، وأن كل استقرار هو تفاعلة وانحدار . فالرحلة بالنسبة لآندريه جيد هي علامة قوة وشباب . ويجدر بنا في نظره ، أن نقاوم كل القوى الغاشمة التي تحاول أن تستعبدنا ، وذلك بمحاولة التأقلم المستمر عن طريق الإنسلاخ الدائم . ولقد استخدم الكاتب في مؤلفه « صراع شجر اللبلاب » ألفاظ علم النبات للدلالة على أن الغرس الطيب هو عادة ذلك الغرس الذي زرع في أماكن عدة .

كما كتب آندريه جيد في دراسته حول موريس باريس « بصدد الرحلة :

« لقد سمحت لنفسى أن أنصح الآخرين بالرحلة ، بل فعلت أكثر من ذلك : لقد دفعت وأجبرت الآخرين على الرحيل ، وهناك من الناس من لم يمر قط ولكنه التقى بي في بلاد بالغة البعد ، ومن الناس من أجلسه في القطار ، ومن صاحبه في سفره بل لقد فعلت أكثر من ذلك ، إذ أني كتبت كتابا كاملا يتسم بالجرأة المدبرة تمجيذا لجمال الرحلة . »

انطلاقا من هذا التصريح ، سوف نستخرج مبادئ نقيم عليها تصورنا لهذه الدراسة :

أ - أن آندريه جيد لا يكتفي بتأييد الرحلة فحسب ، انطلاقا من قناعته الذاتية ، وإنما هو يبحث الآخرين كذلك على الارتحال .

ب - انه يشرع في تحرير أدب كامل عن الرحلات يستلهم فيه اما ذكريات رحلات حقيقية واما رحلات خيالية أو رحلات تقوم على تقليد كتابات الآخرين : مثل كتاب ألف ليلة وليلة .

إن آندريه جيد مغامر جرى متفائل يسعى الى الاندماج في الحياة عن طريق اكتشاف عالمه الخاص في تفاعله مع عوالم الآخرين مدفوعا في ذلك برغبته في تحقيق قدره . ولما كانت حدود عالمه هي حدود العالم قاطبة ، فإن السعي الى الرحلة يصبح لديه سعيا حقيقيا وراء المعرفة والاكتشاف ، كما يصبح انغماسا كاملا عبر الزمان والمكان لما يمثله الكون بالنسبة له ، من وحدة متكاملة يصعب فصل عراها .

ولكن ما هي رمزية الرحلة ؟ أليست ، قبل كل شيء ، ضربا من الهروب من الذات ؟ ان الرحلة ، في بعض الأحيان ، لا يمكن أن تتم الا في قلب الوجود . كما أن هدفها قد يكون البحث عن

الحقيقة أو السكينة والسلام ، كما قد يكون بحثا عن الخلود ، وفي أحيان أخرى ، سعيًا وراء اكتشاف مركز روحي .

وبالنسبة لهذه الحالة الأخيرة ، يمكن للرحلة أن تأخذ طابع التدرج الروحي ، وأن تظهر إلى العيان في صورة انتقال حول محور للعالم ، كما هو الحال في رحلة الأسراء للنبي محمد أو رحلة دانتي . ورحلات أخرى مثل رحلات يوليس وهرقل أو مينيلاس يمكن تفسيرها على أساس أنها بحث ذو طابع نفسي أو صوفي .

إن الرحلة تعبر عامة عن رغبة عميقة في التغيير الداخلي تنشأ متوازنة مع الحاجة إلى تجارب جديدة أكثر من تعبيرها ، في الواقع ، عن تغيير مكاني .

وهذا هو يقين « يونج » على الأقل ، الذي تعبر الرحلة لديه عن عدم الرضا الواعي أو اللاواعي للفرد . وهو احساس يدفع الإنسان إلى البحث عن اكتشاف آفاق جديدة ، كما يتساءل « يونج » إذا لم يكن كل مطمح إلى الرحلة هو رمز إلى « السعي وراء » « الأم المفقودة » . إلا أن المحلل النفسي « سيرلو » يعتقد ، على العكس من تصور « يونج » ، أن الرحلة تعبر بالأحرى عن الهروب من الأم . على كل حال إن هذا موضوع يثير كثيرا من الجدل ولم يدل فيه بعد بالرأي القاطع .

كما تعبر الرحلة ، وفقا لبعض التفسيرات المعاصرة ، عن الرغبة في الرجوع إلى المصدر أي إلى حالة اللاوعي ؛ من ثم تكون الرحلة ضربا من التعبير عن حاجة الإنسان إلى التبرير ، إلا أننا لسنا نعرف إذا كان المقصود بهذا التبرير هو لون من الحماية الذاتية أو العقاب الذاتي !

أندريه جيد رحالة

يتميز هذا الكاتب ، كما أشرنا إلى ذلك ، بحساسية دينية وعاطفية عميقة . لذلك نراه تواقا إلى مد أفافه إلى ما لانهاية . ولقد دفعه حبه الشديد للرحلة ومتعتها الكبيرة التي يحظى بها . من ثم قام بتمجيد أرض « أفريقيا الغائنة » هذه الأرض المضيئة التي تعدنا بكثير من الأحاسيس النادرة . ولقد دفعه شغفه العظيم هذا بالرحلة إلى تجاوز الأخلاقيات التقليدية لوطنه وإلى اعلان أسفه على رفض الفرنسي

مراجعة أفكاره وتصورات القبلية تجاه العادات والتقاليد الأجنبية ، كما يدفعه يقينه الراسخ بدور الرحلة في اكتشاف الآخرين الى تقديم نفسه كوسيط متطوع يقود الآخرين أو الراغبين منهم الى « الطرقات المقدسة » التي يعرفها جيدا نظرا لما عقده فيها من أواصر عديدة ومتينة . انه يجعل من نفسه إن صح هذا التعبير « خلية اتصال » من أجل أصدقائه وخلاته الذين يلجأون اليه حينما تدفعهم الرغبة الى التعرف على « فضائل » الأرض الأفريقية .

لا غرابة إذن أن يكون أثره عظيما على كثير من الأدباء ؛ ونود أن نذكر منهم بوجه خلص « بيير لويس » PIERRE LOUYS و« فرنسيس جام » FRANCIS JAMMES و« فالي لاربو » VALERY LARBAUD . ولقد تبعه هذا الأخير الى كثير من المدن الجزائرية ومدن المغرب العربي ، الأمر الذي دعم لديه تقديره الكبير واعجابه العظيم بمؤلف « الأغذية الأرضية » . كما تبع أندريه جيد ، من جهة أخرى ، في نزعه الى التنقل والترحال عدد كبير من الفنانين ، الأمر الذي نسج علاقات قوية وحركة تبادل حميم بين فرنسا والبلاد الأجنبية .

ان أندريه جيد ، هذا الرحالة الابدي ، لا يكف قط عن إثارة دهشتنا وإعجابنا ، فهو دائب الحركة والتنقل لا يكاد يستقر في مكان . وبحلوله ان يشير الى هذه السمة بقوله في « مفكرته اليومية » بأن « الاسكندر الأكبر لم يكن يتقدم نحو الاراضي الجديدة كرحالة وإنما كغازي يبحث عن حدود العالم » . ان الاستقرار في مكان محدد يذكر كاتبنا بركوند المستنقعات . لذلك نراه سريع الحركة ، لا يطيل الاقامة في مكان واحد . ولقد دفعه حبه للترحال بين البلاد الأجنبية الى التجوال المستمر ، مما دفع بعض أصدقائه ، خاصة « آدمون جالو » بوصف عادته هذه بالنزعة الى « الهجرة » أو هوس « التجوال على الطرق العامة » .

وبكفينا أن نصف « مفكرة » جيد لنجد الدلائل القاطعة والمذهلة على نزعة الترحال هذه . ويمكن تقسيم رحلات الكاتب بين فترتين جد متميزتين :

أولا : ما تعارف النقاد على تسميته بالمرحلة الأفريقية ، بين ١٨٩٣ و ١٩٠٣ ، وهي فترة الرحلات الأفريقية ؛

ثانيا : الفترة الممتدة من ١٩٠٣ الى ١٩٥١ التي يزور خلالها على التوالي إيطاليا ، تركيا ، المغرب ،

تونس ، الكونغو ، تشاد ، الجزائر ، جزيرة سان لويس ، الاتحاد السوفيتي ، اتحاد غرب أفريقيا ، مصر ، اليونان - وغيرها . . . وهو يعود على بعض هذه البلدان أكثر من مرة ، خاصة شمال أفريقيا . وليس من شك في أن أرض أفريقيا ، بوجه خاص ، هي التي تفتنه وتبهه . من ثم نراه يسعى إلى استنفاد كل امكانياتها والتعرف على « بدائية » الطبايع والعادات الأفريقية :

لا شيء يساوي حقاً في الأدب ، كما يدون الكاتب في مفكرته ، أكثر مما تعلمنا إياه الحياة .

لقد استطاع جيد أن يوازن بين وصف البيئات الأجنبية وحركة استبطانها ؛ ومن هنا قدرته الخارقة على تحويل انطباعاته وملاحظاتة إلى عمل بالغ الذاتية ، وهو الأمر الذي جعل من « رحلات » الكاتب شهادة إنسانية حية يندرج من خلالها وصف العالم الخارجي تحت ظلال الإدراك الأنطولوجي .

وفي الواقع ، لا تعد زيارة الكاتب لأفريقيا أو بالأحرى اختياره لهذه القارة مجرد صدفة ، فلقد تلقى جيد دعوتين في هذا الصدد : أما الدعوة الأولى فلقد وجهها إليه ابن خالته « جورج بوشيه » الذي عرض عليه رحلة علمية إلى أيسلندا ، والثانية فلقد عرض عليه من قبل صديقه « بول - ألبر لورانس » الذي دعاه إلى جولة فنية في أفريقيا . وبعد تردد طويل ، عيّل الكاتب إلى قبول الدعوة الأخيرة . على هذا النحو يبحر أندريه جيد إلى أفريقيا خلال شهر أكتوبر ١٨٩٣ في صحبة « بول - ألبر لورانس » . أمكننا أن نتخيل ما كان قد آل إليه حال أندريه جيد إذا قبل الرحلة إلى أيسلندا . أو بالأحرى إذا لم يكن قد ذاق متعة السفر إلى القارة السوداء ؟

إن عرضاً سريعاً للرحلات الست التي قام بها الكاتب إلى شمال أفريقيا بين عام ١٨٩٣ وعام ١٩٠٣ سوف توضح لنا جيداً تعلق الكاتب الشديد بهذه القطعة المفضلة من الأرض :

١ - في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٨٩٣ يرحل أندريه جيد إلى مدينة « بيسكره » بالجزائر صحبة بول - ألبر لورانس ، ويقيم فيها حتى نهاية يناير ١٨٩٤ . ويبلغ إعجابه بهذه المدينة حداً كبيراً للدرجة أنه يعاود زيارتها أكثر من عشر مرات . لقد وصل إليها مريضاً للدرجة أنه أحس بأن - حياته في خطر . ولقد دفعه الخوف من الخطيئة إلى البقاء على وفائه لحبه الطاهر الذي ربطه طويلاً بأبنة خاله « مادلين روندو » ومع ذلك ، فإن سفره إلى شمال أفريقيا كان لأسباب أخرى ، أو على الأقل ، هذا هو ما يقوله لنا في كتابه « إذا لم تمت حبة الغلال » :

« أجل ، يكتب في مؤلفه كنت أنا وبول عاقدين العزم عند رحيلنا . . . وإذا طلب مني كيف استطاع بول ، الذي تلقى - لا شك - تنشئة خلقية ، ولكنها تنشئة كاثوليكية وليست متزمنة ، في وسط فنانين وإثارة مستمرة من قبل الرسامين وثماذجهم ، أن يبقى بعد سن الثالثة والعشرين عفيفا ، أجب بأن أقول هنا حكايتي وليست حكايته وأن هذه الحالة شائعة أكثر مما نعتقد (. . .) واني لا تذكر أنه في عادتتنا قبل الرحيل كنا نتدافع نحو مثل أعلى من التوازن والكمال والصحة » .

٢ - في شهر فبراير ١٨٩٤ يرحل أندريه جيد الى تونس ومنها الى الجزائر مرة أخرى حيث يقابل في بداية عام ١٨٩٥ إسكارا وايلد ولورد ألفريد دوجلاس . ومرة أخرى تعد هذا الإقامة بالنسبة له إقامة « فردوسية » ، يعود منها سليما معافى ومتحررا من كل النواحي الجسدية والأخلاقية خاصة بعد أن كشفت عنه حجب نفسه ، كما يقول « مفاجئات الواحة المتأججة » . ولا شك انه وجد هنا طريقه بعد أن فشلت تجاربه الجسدية مع المرأة ونجحت نوازعه المربية مع مرشده الشاب .

ولدى عودته الى فرنسا يتزوج أندريه جيد من « مادلين روندو » في الثامن من اكتوبر ١٨٩٥ . وهو الزواج الذي يقوم على أوهاهم كل من الطرفين .

٣ - وفي فبراير ١٨٩٦ يرحل العروسان الى شمال افريقيا لقضاء شهر العسل . ويمكثان شهرين متتاليين بين تونس والجزائر . وخلال هذه الرحلة سوف ينفجر التناقض القائم في نفسية الكاتب بين المتطلعين للذين يتنازعانها : فهو من جهة لا يستطيع أن يسيطر على هذا « الجزء من كيانه » الذي يدفعه الى تذوق كل أنواع الملذات ابتداء مما هو أكثرها بشاعة في نظر البشرية ، ومن جهة أخرى يشعر بتأنيب الضمير تجاه زوجته التي يدفعها كرها منه لا طوعا نحو الأماكن التي تجلت له فيها « غوايته » الافريقية ، ولا شك أن هذا التمزق الذي يجذبه لديه فوضى الانطباعات الحسية والرغبة في السيطرة على النفس بالإضافة الى تأنيب المجتمع الصامت وضغط الضمير المتبرم سوف يساعد على خلق شخصية « اللا أخلاقي » لديه ، وهي الشخصية التي يقدمها لنا وهي تسعى الى تحقيق لون من التوازن الغريب بين الاحتفاظ بطهارة العلاقة الزوجية واضفاء الشرعية على كل أنواع الملذات الأخرى ، وسوف تطبع هذه الازمة حياته ومؤلفاته بطابعها الحاد المتوتر .

٤ - في أبريل ١٨٩٩ يذهب جيد الى مدينة القنطرة بالجزائر حيث يقضي شهرا كاملا . وسوف يسجل الكاتب خلال هذه الإقامة أدنى اهتماماته وأقلها شأنا ، كما سوف يتابع تسجيل خلجاته الداخلية بطريقة

مستمرة . على هذا النحو يعمل على خلق الجو الروحي الذي تنمو فيه أحلامه وأوهامه . ووفقا لمنهج الكاتب الثابت ، نراه يقيم ادراكه للعالم الخارجي على أدق خلجاته النفسية وفي شبه اتحاد كامل مع أعماق وأصدق مكونات وجدانه .

٥ - وفي ديسمبر ١٩٠٠ تقود أندريه جيد رحلته الأفريقية الخامسة الى قطاع بسكرة - توفرت . كذلك تعد هذه الرحلة خامس رحلاته الى واحة بسكرة التي تمثل بالنسبة اليه مرفأ سلام وسكنية كما تمثل مصدر للذة ونعيم . وسوف يترجم فيها بعد افتتاحه العظيم وانبهاره الشديد الناعمين عن صدمة الالتقاء بين روحه وهذه الأرض الساحرة . فهو لن يكتفي بوصف المظاهر الخارجية للبلد من مشاهد وآثار وأناس وأزياء وطنية فحسب ، وإنما يسعى كذلك الى النفاذ الى قوار الأشياء يقينا منه بأن رجل البيئة المحلية الذي يزور كوخه وخيمته انسان مثله يتمتع بطريقته الخاصة في المعاش ، كما يتميز بنمط حياته وأفكاره ومعتقداته وقيمه . من ثم يستطيع أندريه جيد تحويل أحاسيسه وانطباعاته الى عمل فني وزياراته وجولاته الى رحلات فنية .

٦ - وأخيرا يحاول أندريه جيد خلال خريف ١٩٠٣ أن يدفع الحمول الذي ينتابه منذ مدة ، وذلك بالشروع في رحلة سادسة الى شمال أفريقيا . وهو يجوب هذه المرة الجزائر بلا هدف واضح ، ومرة أخرى تقع بسكرة في مسار رحلته . وسوف يسجل بدقة كل انطباعاته ويعد صفحات مفكرته ، وأهم ما يعنى بوصفه الاحداث التي تؤثر في حواسه ووجدانه . الا أنه لن يحول هذه الاحداث الى نسيج روائي الا فيما بعد . ومن الواضح أن الأرض الأفريقية لا تمثل بالنسبة للكاتب مجرد اطار عابر ، إذ أنها امتزجت لديه بمعاناة حقيقية كما ارتبطت بحالته النفسية المتغيرة .

ولقد أوضح لنا أندريه جيد في « مفكرته اليومية » بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٣٥ الأسباب التي تدفعه الى البحث عن « المكان الآخر » .

« ان الذي يشكل جاذبية وفننة المكان الآخر ، وهو ما نسميه البرانية ، وليس مرتبطا بكون الطبيعة أكثر جمالا ولكنه يعود الى أن - كل شيء يبدو لنا جديدا ، وأنه يفاجئنا ويتجلى لنا ظريفا في ثوب من البكارة . انها ليست « الاوراق » « الاعرض » بقدر ما هو « الشذى الذي لم يختبر بعد » .

ان البحث عن « البرانية » يتحول لدى جيد الى اكتشاف لعالم غريب . ولقد كتب في هذا الصدد :

« لا استطيع مقارنة البرانية » أفضل من مقارنتها بملكة سبا التي تأتى الى جوار سليمان فتقرع عليه ألغازا . »

ان تعطش الكاتب الى المغامرات والحرية والاحلام يؤكد لديه رغبة الهروب من بلده « كوفرفيل » . ولربما كان ينزع ، لا شعوريا ، الى الهروب من ذاته والمطالبة بشريعة وضعه كغريب . ولا شك أن رمزية الغريب تعني ، هنا ، حالة من حالات ضياع النفس أو فقدان جانب من جوانبها الضالة أو التي تندمج بعد في هويتنا الشخصية .

ويبدو أن افريقيا وحدها هي التي استطاعت أن تنسى جيد حالة العزلة التي عانى منها في « كوفرفيل » ، والتي مكنته من استغلال كل طاقاته الكامنة وامكانياته الراكدة . ان التعرف على افريقيا يتيح له تحقيق الانتقال العنيف من ايقاع حياة جامدة « لا يحدث فيها شيء » ، الى حالة من التحرر الذي يصل اليه بفضل اصراره وعناده ، وسوف تظل تجربته الجنسية الاولى مرتبطة بشمال افريقيا حيث استطاع أن يصل الى ذروة النشوة الحسية وقمة لذة المغامرة واكتشاف الذات عبر الآخر . وسوف تطبع هذه التجربة معظم مؤلفاته . ولا شك أن جيد سوف يظل دائما آمينا مع نفسه ، ذلك أنه لن ينسى أبدا البحث عن ذاته في كل مشهد أو منظر يحظى برؤيته كأنما هو يسعى ، في نهاية الامر ، الى اكتشاف لغزه أو سره الخاص . ألم يكتب لنا ، في هذا المعنى ، في « مذكرات رحلة في منطقة بريطانيا » ؟ :

« لقد كان يبدو لي أن المشهد الطبيعي لم يكن الا اسقاطا لذاتي المتباعدة فيه ، إلا جزءا نابضا من كيان - أو بالأحرى لما كنت لا أشعر بنفسى الا من خلاله ، كنت أعتقد بأنني مركزه » .

في هذه الاحوال يمكننا أن نعتبر أن أية رواية يقدمها لنا جيد لرحلة من رحلاته تمثل انعكاسا لرغبته اللاشعورية ولربما ، فيها يخص شمال أفريقيا ، تعبر بطريقة غير مباشرة عن ميوله الجنسية المكبوتة .

إلا أننا نميل الى الاعتقاد ، في أعقاب الشاعر بودلير ، أن جيد ينظر الى الرحلة نظرتة الى ضرب من الشوق العاطفي الذي يؤدي الى خلق العمل الفني ، في هذه الحالة تصبح روايته نصا فرويديا حقيقيا يترجم تسامي غرائزه بواسطة تسامي عملية الخلق الفني . ولا شك أننا هنا أمام حالة من النشوة العقلية التي تنتج عن عملية التحرر التي يحققها انجاز العمل الفني الذي يعبر في هذا الصدد عن فحص منهجي للذات .

يبدوان جيد يبحث خلال رحلاته وجولاته العديدة في افريقيا عن الطابع المحل من خلال حياة الجماعات وتحرركاتها المكثفة . ونرى أن الحضارة الاسلامية هي التي تسود في مؤلفاته ، وذلك في صورة

لوحات للمساجد ومآذنها ، - وللعادات والتقاليد المحلية . ويحاول جيد أن يرى كل شيء في إطار الاسلام بحيث تصبح كل المدن الشرقية بالنسبة اليه سابعة في « لون فجر اسلامي ، وذات مآذن خيالية شاهقة » .

أو كما يقول هو عن أجواء هذه المدن : « كانت المآذن المدينية تمزق السحاب وكانت هذه المآذن شاهقة الى درجة أن السحب كانت تظل عالقة بها ، كما لو أنها رايات من اللهب . »

وفي مكان آخر نراه متأثرا أمام هذه المآذن التي ينطلق منها دعاء المؤذنين الى درجة أنه يكتب في « رحلة أوريان » :

« كانت نغمات هذا الدعاء مذهشة الى درجة أننا بقينا بلا حراك ، في حالة من النشوى . »

ويذهب جيد في إعجابه بدعاء المؤذنين الى حد الاعتقاد بأن الاهازيج الحادثة التي تصحبه يصعب تجاوزها ، وهو الأمر الذي يدفعه الى تكرار إعجابه في عبارات مؤثرة ، جميلة الجرس والإيقاع . انه يقول في « رحلة اوريان » :

« ولكن ، عبر فجر ما زال بعد ناديا ، لم تكن تصدر الا بعض المهمات المجهولة التي كانت تضع في فراغ الفضاء . وفجأة ينطلق مع بزوغ الشمس نشيد من مثذنة ، النشيد الأول نحو الشمس الصاعدة ، نشيد مؤثر وعجيب كدنا نبكى تأثرا به . كان الصوت يرسل ذبذبات حادة . وتفجر دعاء ثم دعاء ، واخذت المساجد تستيقظ مترغمة عند التقائها بأول - شعاع من أشعة الشمس . . وكان المؤذنون يتجاوبون في الفجر كما لو أنهم طيور القُتر . »

اننا هنا ، لا شك بصدد فنان موسيقي ، وليس أمام كاتب واصف للطبيعة ، - يعبر عن نفسه ! ويتميز ولع جيد بالحضارات الأخرى المغايرة للحضارة الأوروبية الصناعية بالاهتمام كذلك بالتفاصيل والسماط المحلية المميزة . من ثم نراه يعنى بوصف رقصات الدراويش وصيحاتهم ، ولا يفوته ان يصور لنا انطباعاته في هذا الصدد .

ولا يسعنا في هذا المقام الا الاعجاب بقدرة الكاتب الفائقة على تصوير أدق الخلجات وأكثر اللحظات الانسانية قربا من الاتحاد بالمطلق والذوبان فيه .

لقد قضى جيد ، على هذا النحو ، عشر سنوات من الرحيل والانتقال عبر شمال افريقيا ملتهما فيها بنظراته كل ما يلتقى به من مشاهد طبيعية ومن حيوانات ونباتات محلية ومستمتعا بركة الجو ودفء الشمس . ولا شك أن ذلك كله كان له بالغ الأثر في توجيه صدمة سيكولوجية له نتيجة اللقاء المفاجيء بين روحه وهذه الأرض الفريدة . لا غرابة إذن أن تصبح افريقيا ، من الآن فصاعدا جزءا لا يتجزأ من عالم أندريه جيد . لقد أصبحت انعكاسا لقدرة و امرأة لمغامراته واكتشافه وفشله أحيانا . ان هذه القارة ، التي تغوص على هذا النحر في قرار كيانه ، تصبح علامة دالة على مؤلفه الأدبي الذي يصيح ، ضمن هذا التصور ، مؤشرا دقيقا لمشاغله واهتماماته الشخصية .

على كل حال ، لقد حاول جيد في كتابه « اذا لم تمت حية الغلة » أن يبرر وضعه البقاء نظرة فاحصة الى الوراء على فترة العشر سنوات هذه التي قضاهها في افريقيا . لقد كشف القناع عن نفسه بصراحة لا تحتفل الرياء حينها أوضح أنه يفضل سيطرة الدفعات الغريزية للحياة على هيمنة الضمير والحس الخلقى . الا أنه يبدو أن الكاتب يحاول هنا في الواقع اضافة طابع انساني على صورته وذلك بتحديد هاهنا بعدا خياليا وضربا من الكثافة والعمق ونوعا من التسلسل المنطقي .

لقد كانت الرحلة الافريقية فرصة خلاص وتحرر بالنسبة لأندريه جيد وذلك بالقدر الذي استطاع فيه أن يتخلص من تربيته الخلقية المتزمتة وأن يحقق نوعا من الارضاء والاشباع النادر لحواسه المرهقة . ألم يقل لنا ، في « الاغلبية الارضية » بأن « كل لحظة من حياتنا لا تعوض أساسا » . ان الانطلاقة الافريقية قد حققت لأندريه جيد مجموعة كاملة من الملذات التي حققت لجسده وروحه التضرع والتائق والانطلاق . لقد كتب لنا في هذا الصدد « أندريه روفير » احد مؤرخى حياة أندريه جيد عام ١٩٢٧ :

« ان جيد في دفعته الحسية ، يتجاوز حدود العادة مدفوعا بحوية جسدية وسفستة عاص توحى بأن خطيئته لم تبلغ بعد حد الكفاية . انه في حاجة الى كل الثمرات المحرمة حتى يعصبرها بلذة وتلذذ . »

يميل جيد ، كما نرى ، الى الاستمتاع بأحاسيسه الآتية ، ويجنح الى تلقى متع « الروائح والألوان والاصوات » في كل لحظة كما لو أنها تنبعث من الطبيعة بفضل قوة حلولية . من هنا اعتقاد الكاتب بالطابع الخير للطبيعة وطيبة كل الثمار التي تقدمها للانسان ، مدفوعا في ذلك بقوة حسية لا تقاوم . ولا

يحاول جيد أن يتجنب دعاء الطبيعة ، بل على العكس ينغمس فيها نشوانا وجذلانا متغنيا بكل أعمالها البديعة كالشفق وفنتة الصحراء وشدو العصافير والسحر ونسيم الليل وغير ذلك . . ولا شك أن ذلك كله يغمره في نوع من السكر الحسي الذي يتأرجح بين البراءة والخبث .

وليس من شك في أنه لم يفهم الاسلام حق فهمه . خاصة أنه يضع كل انطلاقاته الشخصية في « الاغذية الارضية » تحت راية الحضارة الاسلامية . فالاسلام لا يعرف هذه - « النشوى الحسية » التي يحاول جيد أن يتذرع بوجودها فيه ، اذ أنها أقرب الى المتعة الطبيعية التي كانت تتميز بها العقائد الوثنية . ان جيد يحلم في الواقع بالخلاص من تربيته الدينية المتزمتة التي تلقاها في فرنسا ويحلم بالتالي بجنة وهمية لا مكان فيها لقانون أو الزام خلقي . ولا شك أنه وجد في مدينة بسكره جنة أحلامه ، الامر الذي يبرر هذه الرحلات المتعددة التي قام بها الى هذه الواحة الجزائرية .

لا جدال في أن نزعة التنقل والترحال في افريقيا قد احدثت تغييرا كبيرا في نفسية الكاتب سواء في سلوكه أو مفاهيمه الفكرية والفنية ، ويبدو واضحا أن الكاتب قد اهتم ، خلال جولاته العديدة ، بالآداب الشرقية . غير أن تعلقه لهذه الآداب ظل في أغلب الاحيان سطحيا ، الامر الذي يتضح لنابسهولة حينما يميل الى وصف العالم الشرقي فتكثر أخطاؤه ويبدو جليا سوء فهمه وتعرض تفسيراته . وفي الواقع . لم يقدم له من الشرق أكثر من بعض المواد الضرورية لتأكيد وبلوقة مفاهيمه الفنية الجديدة التي كان يطمح اليها . ومن ثم تظهر لنا نزعته الى « البرانية » في صورة اتجاه الى عنصر شاعري بالغ الخصوصية ، والى مصدر عظيم وهائل من مصادر الانفعالات الجمالية والاخلاقية . لا عجب اذن ان تكون هذه الفترة ، التي قضاها جيد في الترحال والتنقل بين ربوع شمال افريقيا باللغة الالهية بالنسبة لفهم كثير من القضايا التي تعالجها مؤلفاته الادبية وعلى رأسها كتابه : « اذا لم تحت حبة الغلة » على كل حال ان هذه الفترة تتميز بطابعها العملي والتجريبي الذي يضيف على رحلات أندريه جيد قيمة موضوعية أساسية .



بالنسبة لرحلات الكاتب الأخرى ، فهي لا تمثل - بالرغم من تعددها - نفس الالهية التي تحتلها رحلاته الى شمال افريقيا . وتستغرق هذه الرحلات مدة طويلة تمتد من عام ١٩٠٣ الى عام ١٩٥١ ، وعلينا الآن أن نتتبع الكاتب في جولاته الأخيرة هذه .

تعتبر الفترة الواقعة بين ١٩٠٣ و ١٩١٢ فترة هادئة الى حد كبير ، اذ يكرس فيها أندريه جيد معظم

وقته لتحرير « مفكرته اليومية » التي كان قد بدأ في تحريرها منذ عام ١٨٨٩ وكذلك مؤلفه « الباب الضيق » الذي نشره عام ١٩٠٩ .

ولقد قام الكاتب خلال هذه الفترة برحلات عديدة داخل فرنسا تتخللها فترات إقامة في منطقة نورمانديا . كما يساهم بفعالية ملحوظة في تأسيس مجلة الدراسات الأدبية : « المجلة الجديدة الفرنسية » (N.R.F.) وابتداء من عام ١٩١٢ نراه يبدأ من جديد في التنقل والترحال .

يلذهب أندريه جيد ، خلال عام ١٩١٢ ، الى إيطاليا ، بينما هو في الواقع كان ينوى ، في الأصل ، الذهاب الى تونس ثم الجزائر حيث كان يتوقع اللحاق بآندريه - بنيامين كونستان . وهو فعلا يأخذ القطار الى مارسيليا في ٢ مارس بنية الابحار الى تونس يوم ٤ مارس . الا أنه لأسباب ستظل غامضة ، سوف يغير رأيه في آخر لحظة ويأخذ القطار الى إيطاليا حيث ينوى الإقامة في مدينة فلورنسا ، ويوضح لنا ذلك جيد في مفكرته قائلا :

« لم أذهب الى تونس . اننى اتخلى عن تونس وأسرع الى فلورنسا خشية سوء الجو وبسبب عدم الصبر . »

ولكننا نتساءل لماذا هذا التغير المفاجيء ؟ ولماذا لم يُجنس سوء الجو من قبل ؟ وأخيرا لماذا هذا القلق وفقدان الصبر ؟ يا ترى ماذا دار في خلد الكاتب خلال هذين اليومين بين ٢ و ٤ مارس حتى يغير مشروعه الاول ؟ ان الغموض يحيم تماما على هذا الموضوع .

بعد انقضاء عامين على زيارة إيطاليا ، يتوجه الكاتب الى تركيا حيث يقضى شهورا في زيارة مدنها الرئيسية مثل القسطنطينية وبروس وكارا - هيسار وقونية وغيرها . ومرة أخرى نراه يسجل في دفاتره كل انطباعاته التي سرعان ما يقوم بتنميتها وتفخيمها خياله المتدفق السخي ، وسوف ينتج عن ذلك كتاب جميل اسمه « العتبة التركية » **LA MARCHE TURQUE** يكتظ بالملاحظات النفسية البالغة الصراحة . وهو ، في الواقع . لم يعجب بأى شيء في تركيا . ولقد كتب ذلك صراحة في أول مايو ١٩١٤ :

« أيا قرن الذهب أيها البوسفور ، يا شاطئ سيكوتارى وأشجار أيوب ! اننى لا أستطيع أن أهب قلبى الى أجل منظر في العالم اذا لم أحب الشعب الذي يقطنه . »

من الواضح أن أندريه جيد لا يستطيع أن يصف شعبا من غير أن يرتبط به عاطفيا ، وهو لم يعجب بالأتراك ولم يحبهم ، وكثيرا ما يخط قلمه كلمة « قبيح » التي تتكرر أكثر من مرة . انه يقول مثلا عن الأتراك : « الشعب قبيح ، انه الرغبة التي خلفتها الحضارات » وهو يرى أن إلباس التركي قبيح كذلك ، ويعتقد أن ذلك يتلاءم مع أرض الاناضول التي تثير حفيظته وامتعاضه . ويدفعه هذا الامتناع الى كيل النعوت القبيحة الى سكان هذه المنطقة والى تحقير الحضارة التركية التي لا يرى فيها أى قدر من الاصاله والابتكار . وليس من شك في أنه يبالغ كثيرا حين يقول :

« أتعجب ببعض العمارة أو بظاهر مسجد ما ؟ حينئذ سرعان ما نعلم انها من صنع الألبان أو الفرس . كل شيء أتى الى هنا بالقوة الغاشمة ، وقوة المال . فلم ينبثق أى شيء من التربة ولا نثر على شيء أصلى تحت هذه الرغبة الكثيفة التي أحدثتها - الاحتكاك الطويل لكل هذه الاجناس والاحداث والمعتقدات والحضارات . »

ويمكن تفسير هذا التحيز الواضح ضد تركيا على أساس أن الرؤية الاولى لشمال افريقيا كانت لدى أندريه جيد بمثابة النموذج المثالي للآطار الشرقي ، ولربما يكون الكاتب قد حاول أن يجد في تركيا نشوته الافريقية فأسقط في يده حينما وقع على وحشة المنظر وسوء طالع الوجوه الكالحة التي قابلته في هذا البلد . على كل حال ، اذا كانت قوئيه تعد بمثابة مدبنة القيروان ، الا أنه شتان بين هذه المدينة ومدينة القيروان أو حتى واحة بسكرة . ولقد دون في مفكرته في هذا الصدد :

« بفضل موقعها بالنسبة للجبل القريب والسهل ، تذكرنا قوئيه بشدة بواحة بسكرة . ولكن كم تعد هذه الجبال أقل روعة ، شكلا ولونا ، من جبال « خادو الأحمر » ، وكم هو أقل جمالا من الصحراء هذا السهل ، وكم هي أجمل أشجار النخيل من هذه الاشجار ، وأولئك العرب من هؤلاء الأتراك » .

وفي مكان آخر يقارن الكاتب جمال الطابع المحلي لشمال افريقيا بالمناظر القبيحة القمئية التي شهدناها في تركيا حيث « كل شيء متسخ ، ملتوفاقد الأصالة والبريق » ، الأمر الذي يدفعه الى تقديم هذه الملاحظات المؤلمة : « هل كان علي أن أت الى هنا حتى أعرف كم كان طاهرا وخالصا ما رأيته في افريقيا » .

أخيرا ان هذه الادانة القاطعة وهذا الهجوم العنيف وهذا اللوحة القاتمة كلها أمور تدل على خيبة أمل

الكاتب - من غير شك - في العثور على مبتغاه في تركيا . من ثم نراه يصل الى هذه النتيجة في مؤلفه « العتبة التركية » :

« ان الدرس الذي استخلصه من هذه الرحلة يتناسب مع امتعاضي من هذا البلد . وحينما سأحتاج الى هواء الصحراء والى روائح عنيفة ووحشية ، فاني سأذهب الى الصحراء من جديد للبحث عنها » .

اذن افريقيا أبدا ودائما !

وفي عام ١٩٢٣ ، يلي أندريه جيد دعوة الجنرال ليوتييه الى المغرب حيث يذهب في صحة صديقه بول ديمااردان . ويمكث الكاتب في المغرب من ٢٨ مارس الى ٢٠ أبريل ، وفي الرابع من سبتمبر خلال العام نفسه يسافر الكاتب من جديد الى تونس حيث يقضي شهرا كاملا .

ومن يوليو ١٩٢٥ الى يونيو ١٩٢٦ مدفوعا برغبته العارمة في « الزهد » وتطوير النفس ، يرحل مرة أخرى الى افريقيا . ولكنه يتجه هذه المرة الى الكونغو حيث قام برحلة طويلة يكتشف فيها أن له « قلب رسول اجتماعي » . وفي الواقع ان ما يؤثر فيه خلال جولاته في القارة السوداء هو استغلال الاستعمار والرأسمالية البشع للسكان السود الذين تقوم باستعبادهم قلة من المستغلين البيض . وسوف يجر رحلته الى الكونغو عام ١٩٢٧ و « العودة من تشاد » عام ١٩٢٨ حيث يدين الاستعمار والرأسمالية اللذين اتحدا في سبيل قهر السود . ويوضح جيد بفخر في مفكرته بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ أن موظفا كبيرا في وزارة المستعمرات أنباء بأن كتابه عن الكونغو كان المرجع الوحيد خلال المؤتمر الدولي بجنيف الذي نقش فيه مشروع قانون لتنظيم عمل سكان المستعمرات .

وسوف يكلف أندريه جيد فيما بعد (خلال عام ١٩٣٨) من قبل لجنة التقصي بوزارة المستعمرات باعداد تقرير تفصيلي عن العمالة واليد العاملة الاهلية في منطقة غرب افريقيا الفرنسية . الا أن التقرير الذي يجره يظهر ثقة الكاتب في المؤسسات الفرنسية ، اذ انه يصل الى أن السكان المحليين يعاملون جيدا وأن الادارة الفرنسية تنصفهم ، كما انها قضت على نظام الرق المستتر في القرى النائية ، واقامت جمعيات لرعاية اليد العاملة الوطنية وتقديم كافة أنواع المساعدات لها .

ويقضي أندريه جيد شهر يوليو من عام ١٩٢٨ في تونس ، ثم يمضي الشتاء التالي في التنقل بين

ربوع الجزائر ، وأخيرا يعود مع نهاية عام ١٩٣٠ وبداية ١٩٣١ الى تونس حيث يصطحب « إليزابيث فان رايسليغ » الى واحات الجنوب التونسي . ونراه يسجل في فكرته بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٣٠ بهذه المناسبة :

أن واحة جابس ، التي لم أكن أعرفها بعد ، تبدو لي من أجل الواحات التي رأيته . . . وما كنت أظن نفسي قادرا على مثل هذا الاعجاب . اني لو عثرت على جابس في سن العشرين لكنت - كما يبدو لي - أفدت أكثر من افادتي من بسكره .

ويبحر أندريه جيد في عام ١٩٣٢ الى طنجة حيث يقيم شهرا كاملا ، ومنها يتجه الى فاس . ويصف لنا أجواء هذه المناطق في فكرته قائلا :

« زرقعة ملائكية - ولا حتى لفحة واحدة . ان الانسان ليشعر بالذنب اذا لم يبحر أمام بحر مثل هذا » .

وفي عام ١٩٣٦ يقضي شهري فبراير ومارس في واحة غور الصغيرة ، ثم في جزيرة « سان - لويس » حيث يشاهد - مبهورا ، عيد الأضحى الذي يفسر معناه على أنه « تحسيد المجرد » ويرى فيه رمز الغداء والتكفير والتضحية .

خلال هذه السنة (١٩٣٦) نفسها يتلقى جيد دعوة لزيارة الاتحاد السوفيتي حيث يذهب لاكتشاف عالم قد « يتحقق فيه ما لم يحلم به أحد » ويكون لقاءه حارا ومصحوبا برأيات النصر . الا أن هذه النشوى سرعان ما تزول فيصاب بخيبة الأمل حينما يزور المصانع والحقول وحضانات الأطفال وأخيرا الوحدات الصناعية والكوخوز . لقد تبين له أن جميع هذه التنظيمات الجماعية سيئة الإدارة . من ثم أخذ ينتقد تسلط الجهاز الإداري على هذه التنظيمات في الاتحاد السوفيتي - والطابع الموجه لسياسة هذه الدولة . وسوف يسجل عام ١٩٣٦ في كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتي » كل انطباعاته عن هذا البلد ، كما سيبين حكمه السلبي على الشيوعية عن رغبته الصادقة في اتخاذ موقف بالنسبة لكبرى قضايا العصر ومشاكله في شكل التزام من أي نوع كان . وسوف يصدر أندريه جيد بعد مضي عام من رحلته منشورا سياسيا عنوانه لمسات على عودتي من الاتحاد السوفيتي « يقدم فيه عددا من الاحصائيات التي استقاها لدى التروتسكيين .

وفي عام ١٩٣٩ تشد مصر انتباه الكاتب . ومرة أخرى نراه يصدم في البداية إذ أنه يعلن في « مذكرات من مصر » الصادرة بتاريخ ٢ فبراير ١٩٣٩ أنه عانى الجحيم في شوارع القاهرة ، وأنه لم يستطع إقامة أية علاقة قوية مع أهلها . إلا أنه سرعان ما يجعل بعض الراحة في مدينة الأقصر . وسوف يقيم الكاتب في « ويتربالاس » (القصر الشتوي) بالأقصر الذي يبهره بحدائقه الغناء الزاهرة بكل أنواع الزهور النادرة . ولقد أعجبه هذا الإطار الفردوسي الذي كان يحلوه الجلوس فيه ومشاهدة عمال البساتين وهم يؤدون عملهم في رشاقة وفي حركات منسقة توحى له ، بفعل خياله الجامح ، أنه يعيش في جنة الخلد . من ثم تحلو مصر في ناظره ويحظى شعبها لديه بكل مظاهر الحب والاعجاب . ومع ذلك ، نلاحظ أن « مذكرات من مصر » لا تشير كثيرا الى الآثار الفرعونية ولا تذكر الا تلميحا مرور الكاتب بالاسكندرية والقاهرة والأقصر والكرنك وطيبة ووادي الملوك ومدينة حابو ونجع حمادى وأبيدوس وندره وإسنا وادفو ورشيد .

وفي السادس من مايو ١٩٤٢ يرحل الكاتب الى تونس حيث يستقر في البداية بمدينة تونس نفسها ، ثم في بلدة سيدى - بوسعيد من ٢٥ يونيو الى ٢٣ سبتمبر عند بعض الاصدقاء . وفي السابع والعشرين من مايو ١٩٤٣ يغادر تونس الى الجزائر ثم الى المغرب . وبعد عودته في السادس والعشرين من يونيو ١٩٤٣ الى الجزائر حيث يدعوه الجنرال ديغول الى العشاء اثناء اقامته في بلدة البيار . وسوف يشير في « مفكرته » الى هذا اللقاء بقوله :

« مقابلة ديغول كانت بالغة الود والبساطة ، كما أن الاحترام والتقدير اللذين أظهرهما نحوي كادا يقتعاني بأن شرف ومتعة اللقاء كانا له . »

وفي السابع من فبراير ١٩٤٤ يستقر جيد في مدينة فاس . الا أنه يتلقى أمرا بالذهاب الى مدينة الجزائر في أسرع وقت . ويبدو أن الجنرال ديغول كان يفكر في أن يوكل اليه دورا سياسيا ، الأمر الذي يفسر لنا استدعائه على وجه السرعة الى مدينة الجزائر - المقر المؤقت لحكومة فرنسا الحرة .

وفي ابريل ١٩٤٥ يقوم برحلة ترفيهية جديدة الى الجنوب الجزائري وفي الأيام الاخيرة من ديسمبر ١٩٤٥ ، وخلال شهرى يناير وفبراير ١٩٤٦ يعود الى مصر ومنها ينتقل الى بيروت التي دعى اليها . ويتم استقباله رسميا في بيروت يوم ٢٩ مارس ١٩٤٦ من قبل عديد من الشخصيات السياسية . وسوف يلقي في بيروت محاضرة عنوانها « ذكريات أدبية ومشاكل حالية » حيث يقص حياته كأديب

ويعلم عدم إيمانه الا بقيمة فعالة واحدة وهى الفردية . وبعد برهة من الزمن يلقى في الاذاعة اللبنانية حديثا يظهر فيه ادراكه لدوره كممثل للأدب الفرنسي ووعيه باسهام الثقافة الفرنسية في لبنان .

وفي عام ١٩٤٧ يحصل على جائزة نوبل التى ترد له اعتباره بعد أن كان قد تعرض في السابق الى كثير من التهجم والنقد . وحتى بعد بلوغه سن الثامنة والسبعين ، لا يتخلى عن ميله الى الرحلة والسفر ، اذ أنه يعتقد بأن التخلي عن الرحيل هو علامة الأ فول . ولا شك أن حب الكاتب للحياة وملازمتها سوف يظل مرتبطا ، في المقام الأول بالنسبة اليه ، بفترات اقامته في شمال افريقيا . ولقد كان ينوى في أخريات حياته الذهاب الى مراكش ، الا أن المنية منعت من تنفيذ هذا المشروع الأخير .

ومع ذلك ، فان أندريه جيد لم يكن يرى أن كل هذه الرحلات كافية لاشباع غلته الى السفر والارتحال ، ولكن أظهر ، في أكثر من مناسبة ، أسفه على عدم ذهابه الى نهاية العالم وإلى منطقة الاستواء على وجه الخصوص . لقد كان يود أن يرى كل بلدان العالم ، وأن يعود اليها أكثر من مرة ولكن الكسل والملل كانا ، في النهاية ، أقوى منه .

أدب الرحلات : الرحلة الواقعية والرحلة الخيالية

لا شك أن الرحلة الواقعية ، أى الرحلة التى قام بها صاحبها فعلا ، هى الأصل في أدب الرحلة عند أندريه جيد . ويمكننا أن نميز - في هذا الصدد ، من جهة مفكرته اليومية التى يدون فيها بدقة ملاحظاته وانطباعاته الآنية والمقابلة فيما بعد للشرح والتفسير والاطناب ، ومن جهة أخرى روايات الرحلات التى أشرنا الى كثير منها في الصفحات السابقة حيث تخضع الملاحظات الواقعية الحقيقية للتضخيم من قبل خيال الكاتب الفياض وتمت تأثير قراءات الكاتب العديدة للمؤلفين العالميين . وليس من شك في أن الأدب العالمى يزخر بقصص الرحلات التى ترمز ، الى قدر ما وفي أشكال وصيغ مختلفة ، الى السعى أو البحث عن الحقيقة .

بالنسبة لأندريه جيد يمكن للكتب أن ترمز بفضل عالمها الخيالى ، الى المكان الذى يصعب الوصول اليه ، فكل رحلة ، سواء كان يبحث عن حقيقة ملموسة أو حقيقة روحية ، يسعى الى البحث عن ذاته ان لم يكن يعمل على الهروب منها . من ثم تصبح الرحلة ، على ضوء هذا المعنى ، مرادفا لضرب من الرفض المستمر للذات .

ومن الواضح أن كاتبنا قد دفع الاعتراف ، في اختباره الدقيق هذا لذاته ، الى الحد الأقصى مما يمكن التفوه به . كما أنه اذا كان كل حدث ينطلق عند جيد من الآن ، الا أن هذا الآن لا يخلو من بعد عالى - بعبارة أخرى ان الحقيقة النفسية التى يصل الى تسجيلها الكاتب من خلال تحريره الذاتية لا تخرج عن اطار التجربة العامة للانسان . وقد يلجأ الكاتب في سبيل تحقيق هدفه الى خدعة استخدام « أنا » الآخر ، ان صح هذا التعبير . أنه يقول لنا في هذا الصدد في مفكرته :

« ان انتصار الموضوعية ، هو أن تسمح للرواى باستمارة « أنا » الآخر . لقد خدعت الناس بسبب توفيقى الكبير في ذلك ، اذ اعتبر بعض الناس كل كتبى مجموعة من الاعترافات المتتابعة » .

يمكن القول اذن بأن جيد تحدث عن ذاته بواسطة مخلوقاته الخيالية ، وان تطلعه الى معرفة الآخرين قد زود الأدب الفرنسي بكثير من الوثائق النفسية عن تصوراته لمختلف شعوب المعمورة ، وعلى وجه الخصوص شعوب الشرق . وهو خلال تنقلاته العديدة ، قد استطاع أن يجنى محصولاً ضخماً من الاحاسيس والانطباعات النادرة التى أثرى بها ، فيها بعد ، شخصياته الروائية . هذا بالإضافة الى تحليله لذاته نستشفه عبر معظم هذه المخلوقات الرومية . على هذا النحو نكتشف أن نزعتة الى الهروب والانطلاق واغراء المجهول والبحث عن « المكان الآخر » تشكل مجموعة من الموضوعات الرئيسية التى تتناثر في مؤلفاته . ولقد عبر عن هذا المعنى الناقد المعاصر « مارك بايجدير » بقوله :

« عنده لا يوجد الانسان بدون الفنان ولا الفنان بدون الانسان » .

كانت الرحلة بالنسبة لأندريه جيد ، بمثابة مغامرة أتاحت له الاتصال المباشر بالعالم الخارجي . وإذا كان شمال افريقيا يعد ، من الآن فصاعداً ، موقعاً « أدبياً » فذلك ليس بفضل الاقامات المتعددة لكثير من الكتاب بقدر ما هو راجع الى الاهمية التى أولاها له أندريه جيد في مؤلفاته ، ومن بينها خاصة « اذا لم تمت حبة الغلة » . لقد صار شمال افريقيا متصلاً اتصالاً وثيقاً بأندريه جيد اذ أنه منمق أو مشوه بفضل أحاسيسه وانطباعاته . ، ولقد كان ميل الكاتب الى التحليل النفسي والى فحص انطباعات الذات يدفعه الى نبذ كل الاعتبارات الأخرى ذات الطابع السياسى والى تعميق فهم وتحليل مأساته الداخلية . ولما كان عاجزاً عن الانفصال عن مشاكله وقضاياه الذاتية نراه يصب تأملاته على أهم مشاغله وهواجسه النفسية . انه يمزج مؤلفاته بعصارة فكره ، الأمر الذى يجعل هذه المؤلفات تعبر تعبيراً مباشراً عن الأحداث التى تأثر بها وتحمل عدداً منها من الأثباء والمعلومات الخاصة بحياته

الفكرية والأخلاقية والعاطفية . غير أن كل نظرة يلقها الكاتب على سريرته تستطيع أن تضفي مغزى عالميا على أقل مغامرة من مغامراته الشخصية .

أن الموضوعات الرئيسية التي تعالجها مؤلفات جيد لا تشكل صورة مطابقة لحياته ، ولكنها مرآة لها ان صبح هذا التعبير . ويتمتع علينا أن نفهم أدب - جيد اذا لم نطلع على انطباعات رحلات الكاتب التي دونها هنا وهناك . وعلى الرغم من تعدد الأنواع الأدبية وتنوع الأنشطة الثقافية التي عرفها الكاتب ، وعلى الرغم من شغفه بالاطلاع وتمثل الانتاج الفكري العالمي ، نجد أن الأدب الشرقي يحتل المكانة الرئيسية والسائدة في مؤلفاته . ويظهر الأدب الشرقي في صورتين :

١ - في صورة الأدب الذي حرره بنفسه ويخص في الجزء الأكبر منه منطقة شمال افريقيا .

٢ - في صورة الأدب المعروض الذي تناوله بالنقد والتعليق : مثال ذلك - التحليل المطول الذي قام به ، خلال « خطباته الى أنجيل » طوال الفترة الممتدة من ١٨٩٨ الى ١٩٠٠ ، لترجمة كتاب ألف ليلة وليلة التي قدمها « ماردروس » .

ويتضح أن معظم الأحكام التي يطلقها الكاتب على هذه الترجمة ذات طابع ذاتي ، الأمر الذي يدل على حسن استيعابه لأداب وتاريخ المنطقة .

ويمكننا القول في هذا الصدد بأن أندريه جيد يعد من أوائل الداعين للأدب الشرقي في فرنسا . من هنا نفهم نشاط المجلة الفرنسية الجديدة (N.R.F) التي عملت من جهة على تعريف العالم الخارجي بالأدب الفرنسي ، ومن جهة أخرى على تعريف الفرنسيين بالأدب الاجنبي . لاجرم أن يكون الأمر الجوهري بالنسبة لأندريه جيد ، على شاكلة « مونتاني » MONTAIGNE الذي كان يرى في الرحلة فرصة « لحك وصقل عقله مع عقل الآخرين » هو توصيل خبرته وتجاربه الى الغير . من ثم يمكن اعتبار مجمل مؤلفات أندريه جيد الخلاصة المركزة لخبرته في الحياة وتأملاته التي جمعها في رحلاته عبر العالم .

لقد دون الكاتب تفاصيل رحلاته العديدة الى شمال افريقيا في « مفكرته اليومية » وبلورها ، بوجه خاص ، في مؤلفه « اذا لم تمت حبة الغلة » ولقد نشر هذا الكتاب الأخير عام ١٩٢٠ ، وهو لا شك

يعبر عن ذكريات الصبا . ويروي لنا جيد في هذا الكتاب استيقاظ حواسه وتفتحها على الحياة مع التأكيد على أن تطوره وجدانه كان مطابقا لمنطق تطور شخصيته نفسها . ولا شك أن التفسيرات الخاطئة أو الصحيحة أو المعقولة التي يقدمها لنا الكاتب تعطينا فكرة عن مدى الإضافات الخيالية التي يلجأ إليها أندريه جيد حينما يختص الأمر برحلاته وجولاته في شمال إفريقيا . إلا أنه إذا كان الكاتب يفحص ذاته ويحللها عبر الأحداث التي يسوقها ، فإن العناصر الخاصة بتاريخ حياته تعد ، مع ذلك ، قليلة ولا تخرج عن كونها نقاط انطلاق للبحث والتحليل . فالكاتب يطور الأحداث بتعليقاته ، الأمر الذي ينقلها بالتدرج من مستوى الاعتراف الى مستوى العمل الفني .

من جهة أخرى ، يحاول جيد في هذا الكتاب تفسير سلوكه في شمال إفريقيا كنتيجة لتربيته في الطفولة ، بعبارة أخرى انه يريد أن يقتنع بأن بدايات حياته هي التي قادته الى امصار اليه ، إذ أن الحبة التي انبثقت وثمرت هي نفسها الحبة التي ذوت ، وكل فرد منا يحوى في قرارته مجموعة امكانات متعاوضه تشبه البراعم ، ويكفي أن نسمح لبرعم مصاب بالنمو حتى يولد لنا زهرة ذابلة . من ثم اذا كانت طفولة الكاتب رديئة المنبت ، لا غرابة - في نظره اذن - أن تكون النتيجة نباتا رديئا . ومن هنا يرى الكاتب أنه متسق مع نفسه .

ان اندريه جيد يعتقد بأنه وجد في شمال افريقيا الأرض الأجنبية التي تنبثت منها اصدااء غامضة تأخذ عليه ليه وعقله جميعا . من ثم تفيض كل أحاسيسه وتنفجر كل رغباته التي استطاع أن يكتبها وأن يبقى عليها حبيسة في وجدانه الى هذه اللحظة . وهو يشعر بتحرر تام يسمح له بالاختلاط بمختلف الفئات الاجتماعية وتلقى ، من غير تمييز ، كل أنواع التجديد التي يمكن أن يعثر عليها في بلد أجنبي ، كما يدفعه هذا التحرر والانطلاق الى تمجيد القيم الجديدة التي يشيد عليها مفهومه الخاص للأخلاق . ومقابل غالبية - الروائيين الرحالة الذين أقاموا نزعتهم الى « البرانية » على الوصف الدقيق للمظاهر المختلفة والنادرة التي تقابلهم في عادات وحضارات الشعوب الأجنبية يتميز أندريه جيد بابتكاره ضربا من « البرانية الشخصية » . إذ أن ضميره المتفتح أمام كل المشاهد الغريبة والنادرة سوف يظل دائما مسرحا لانطباعات تتدافع وتتنافس من خلالها عواطفه ومشاعره . ولما كان الكاتب ينزع الى لون من الحياة الحسية القوية ، فانه وجد في البيئة الأجنبية البسيطة نمطا من الحياة الأولية التي تستطيع أن تنقع غلته وتشفي جوعه الى كل الأحاسيس المباشرة والطبيعية . لا عجب اذن أن يكرس الكاتب الجزء الثاني كله من مؤلفه « اذا لم تمت حبة الغله » الى تبرير هذه الحقيقة البالغة الأهمية بالنسبة له ألا وهي : لا يجدر بنا أن نعارض قط حياة الغريزة . ويفسر الكاتب هذا الادعاء باضفاء حكمه قيمة على هذا

البعد الغريب لسلوكه بزعمه أن السلوك الغريزي يتفوق على القيم الخلقية المكتسبة . وتحاديا في رغبته في تبرير سلوكه الشاذ هذا يزعم أن ارادته لا تلعب أي دور في هذا الصدد ، وأن مسؤوليته ليست محل تساؤل ، إذ أنه حينما يحل بين نفسه وبين تدويع ثمار هذه الأرض وملذاتها لا يقيم بينها في الواقع ، أي اختيار سابق أو عمد ، ان الكاتب يريد أن يحيا حياته الحاضرة وأن يغمض عينيه عن عواقب أفعاله حتى لا يكدر نعيمه أو ينغص عليه شيء متعته ولذته .

وتمثل عقد الطفولة التي يفصلها لنا الكاتب تفصيلا في الجزء الأول من كتابه « اذا لم تمت حبة الغلة » البذور التي قادته « حتيا » الى ما صار اليه . من ثم يحاول جيد أن يفيد من قوانين الوراثة ودروس الختمية والفرويدة ليشرح لنا سلوكه البالغ على ضوء عقد الطفولة ، وهو يبرع جدا في سوق مثل هذه المبررات وتصنيفها .

فمن الناحية الدينية يبرز لنا قسوة وتزمت التربية البروتستانتية التي تلقاها في طفولته وشبيته . ويبدو أن هذه التربية تؤكد في المقام الأول دور الضمير الذي تمثل هنا في مجموعة من المواقف الخلقية القائمة على ضرب من الاتفاق المطلق . من ثم لم تكن طفولته الا مجموعة من المحرمات والنواهي ، وسوف يرى نفسه كل يوم في مواجهة التمييز بين الخير والشر . ومن الناحية الاجتماعية يتضح لنا أن أسرة الكاتب من جهة الأب هي أسرة برجوازية من رجال القضاء . ومن جهة الأم أسرة من البرجوازية العليا المقيمة في مدينة « روان » شمال غرب فرنسا من هنا يرث أندريه جيد لونين من السلوك الاتفاقي والتمطي : نمطية السلوك البروتستانتى من جهة ونمطية السلوك البرجوازي من جهة أخرى ، الأمر الذي يؤكد تأثير القيم التقليدية والمحافظه على طفولته . وأخيرا من الناحية الجنسية يؤكد الكاتب على جميع مظاهر الاحباط التي كان ضحية لها خلال طفولته ، ويبرز دور البيئة البرجوازية والبروتستانتية المتزمتة في احماد دفعاته الجنسية ، وخاصة بعد نزاعته الشاذة ، الأمر الذي أحدث به صدمة عاطفية قوية وجعله يعيش في جو الركود النفسي والخنمول .

لا جرم أن مؤلف أندريه جيد « اذا لم تمت حبة الغلة » لا يشكل وثيقة نفسية فحسب تشرح لنا سلوك الكاتب وتبرره ابان رحلاته الى شمال افريقيا ، إذ أنه ، بالإضافة الى ذلك ، يمثل تقريرا سياسيا واجتماعيا هاما عن شمال افريقيا وافريقيا السوداء وكثير من البلدان الاخرى التي زارها . ولقد لمس جيد بنفسه بؤس المهاجرين السوريين في مارسيليا حيث يتجمعون في انتظار سفرهم الى المكسيك بحثا عن عمل . ويقص علينا الكاتب آلامهم ومشاكلهم بأسهاب وبنبهة لا تخلو من الحرقه والأسف . ولقد لاحظ كذلك في مارسيليا أن ما يسمى بالحي العربي ليس الا ملجأ للبؤس والتعاسة والشقاء .

أما على المستوى السياسي فإن أحداث تركيا هي التي سوف تستوقفه في كتابه «العنبة التركية» هذا بالإضافة الى العداوة المعلنة التي أظهرها نحو هذا البلد . وهو يعتقد بأن مذبحة الأرمن ليست فعلا يتميز بالوحشية النادرة بقدر ما هي دليل على فشل النفوذ أو التأثير الفرنسي في هذه المنطقة وارتباط هذا البلد بسياسة ألمانيا . ولقد عبر عن رأيه هذا في كتاب له الى الكاتب «موريس باريس» الذي كان يجالسه في الرأي :

« هل كانت هناك جدوى من كتابة مقالاتك المدوية لدى هودنك من آسيا الصغرى ، أيا باريس . اني ما زلت أتذكر الحق الذي أحدثته لدى هذه المقالات ، أنا الذي أعود أيضا من هناك ، لقد بدا لي أن بعضا من رجاحة العقل كانت كافية لفهم كم كان عملنا ونفوذنا هناك مضطربا وزائلا ، ان لم نقل ، ميثوسامته » .

ولقد قام جيد ، بجانب التقارير الاجتماعية والسياسية ، بتقديم صورة للأحداث العسكرية التي كانت تدور في شمال افريقيا . فلقد شاهد محاولة الأمريكيين لاحتلال تونس وفشل هذه المحاولة ثم شاهد استقرار القوات الألمانية والإيطالية في مدينة تونس في ٣٠ نوفمبر ١٩٤٢ وأخيرا تحرير تونس من قبل قوات الحلفاء في ٨ مايو ١٩٤٣ . كما أنه سيشهد بعد مرور عام من ذلك ، الثورة الأهلية بالمغرب العربي .

ويعبر جيد في تقاريره العسكرية عن وجهة نظر المقيمين في مخابهم وعن تعقيباتهم على البيانات الرسمية ، ويقدم لنا صدى الخطب السياسية وتعليقات الصحف المحلية . انه يعنى ، في الواقع ، بلعبة الحرب وتطور المارك بين القوتين المتحاربتين حول تونس أكثر من اهتمامه بانعكاسات الصراع على المستوى الدولى . ونراه بعد وصف دقيق للعمليات العسكرية الدفاعية والهجومية ولدى الخراب والحسائر المادية الناتجة عنها ، يتم سرد وقائع الحصار وتصوير المحاصرين بكل ما تمثله من مشاكل وآلام مثل نقص المواد الغذائية وانقطاع الغاز والكهرباء والماء واختفاء الوقود وتسعيرة السلع النادرة والسوق السوداء . الخ . كما يعنى بتقديم صور للخلافات التي تدب بين جنود المعسكر الواحد كالألمان والإيطاليين ومعلومات قيمة عن عقلية المتحاربين وسلوك ومواقف السكان المحليين .

كل هذه الكتابات تبين ، كما نرى ، عن شخصية الكاتب على الرغم من طابعها الوثائقي والاعلامى . كما أن الكاتب كثيرا ما يتأثر بمشاهداته فيرفع صوته شاجبا الظلم ومدينا كل صنوف

الاستغلال التي تتعرض لها الشعوب المستعمرة . هذا - بجانب نزعتة الأصلية الى الهروب في الرحلة والاستفادة منها في تنوع انتاجه واثراء معارفه وخبراته بالنفس البشرية وأغوارها .

مهما يكن الأمر ، تظل مفكرته اليومية الوثيقة الأساسية والمرجع الرئيسي بالنسبة لكل من يهتم بحياته وأعماله . ففي هذه المفكرة قد دون - أندريه جيد أفكاره وتأملاته وانتقالاته ودفعات حماسه وثورات غضبه وحنقه ، باختصار كل خلجاته كإنسان وكاتب . ولا شك أن قدرته على الافادة من كل ملاحظاته وتأملاته للمظاهر والأشكال الخارجية قد زود أعماله بقدر كبير من المفاهيم الانسانية ذات الفائدة العامة . وإذا كان حبه للاستطلاع وفضوله من السمات التي تتجاوز كل حد ، فهي ، من غير شك - صفتان تؤكدان رغبته في تعميق معرفته لذاته وميله الى تفهم العقليات المغايرة لعقليته شحذا لروحه الناقدة وتجديدا للمصادر التي يمكنها أن تغذي أعماله ومؤلفاته بالموضوعات الجديدة الثرية بأبعادها ومعانيها .

ونلاحظ وجود مسافة زمنية طويلة بين تحرير مفكرته اليومية الذي جرى في الفترة الممتدة من ١٨٨٩ الى ١٨٩٣ وبين نشرها عام ١٩٣١ ، وقد يكون ذلك دليلا قويا على ميل الكاتب الى صقل صورته أو اسطوره ككاتب أمام جماهير القراء . ولقد قام الكاتب ، عند نشره لهذه المفكرة ، باختيار بعض الاجزاء المتبقية عنده بعد عملية تدمير أولية ، وذلك بغرض تكريس صورته المثل لدى قرائه المعجبين . ولا يجب أن ننسى ، في هذا الصدد ، النزعة الترجسية لدى الكاتب ، هذه النزعة التي تؤكدها الخطابات الطويلة التي أرسلها أندريه جيد طوال سنوات عديدة الى زوجته مادلين رونندو ، والتي يحاول فيها أن يبرز ذاته في أحسن مظهر وأفضل صورة معتمدا في ذلك على أسلوب منمق ومتقن النسق والایقاع . ان جيديحين يتحدث عن ذاته انما يتحدث عنها في صورتها المثل وليس كما هي في الواقع قاصدا بذلك تكريس هذه الصورة للأجيال القادمة . الا أن زوجته قد أحست بهذه الخدعة ، وقامت في لحظة غضب باحراق كل هذه الخطابات التي كان قد وجهها اليها الكاتب . ولقد أعلن جيد أن فقدان هذه الرسائل يعد أكبر خسارة بالنسبة له ، إذ أنه فقد ، مع ضياعها ، كل العناصر اللازمة لاقامة الدليل على تكوين شخصيته على هذا النحو وفي الوقت نفسه جزءا كبيرا من مذكرات شبابه .

لا شك أن أندريه جيد حينما يسجل ذكريات الرحيل والانتقال يحول مشاكلها الفردية الى صورة أدبية ، لا سيما حينما يعالج فيض عواطفه وانفجار حواسه ، وتدفعه ذاتيته العارمة الى اضمحاء حماسه وجيشان أحاسيسه على مناظر الطبيعة نفسها . ولا يغير من طبعه تعب الرحلة أو اجهاد المرض أو حسرة

خيبات الأمل العابرة . لذلك نراه دائماً قوي التأثير مستجيباً لكل نداء توجهه اليه الغريزة أو الطبيعة . ويتميز جيد عن غيره من كتاب عصره بصراحته المطلقة التي تجعله يطلعننا على أدق خلجات نفسه الخفية وعلى أعمق مكونات وجدانه الحميم .

أن أندريه جيد يكتب - من غير شك - بحثاً عن ذاته وابتغاء حل صراعه وعقده النفسية بوضوح وبصيرة . ومن هنا تمثل الرحلة من بين ما تمثله بالنسبة له ، مخرجاً يغلب به على غواية الجنس وأغراء الشهوات وسيلة تسمح له بالقضاء على تسلط الغرائز وملاحقتها له خلال رحلاته المتعددة . من هنا يقدم لنا أدب الرحلة عند جيد مزيجاً من الوقائع والمطامح والأمال .

ومن العسر علينا أن نفصل بدقه في هذا الأدب بين ما يتصل بالواقع وما يتصل بالخيال طالما أن الكاتب العقبري بيرع ، بطريقة منقطعة النظر ، في المزج التام بين ذاته الحميمة وبين العناصر الخارجية ، بحيث يتبدى له كل عالم يلتقي به أو يكتشفه في صورة كل متناسق ، وبحيث يصبح كل عنصر جزءاً لا يتجزأ من تركيب شمولي وليس عنصراً قائماً بذاته لا يدرك الا في فرديته وخصوصيته الأساسية .

على هذا الأساس يقوم أدب الرحلات عند أندريه جيد على هذه المبادئ الرئيسية :

أ - تشكل الرحلة الواقعية أو المعاشة نواة المؤلف الأدبي .

ب - تضاف الى ذلك المؤثرات المختلفة الناتجة من القراءات العديدة لكتاب الرحلات الفرنسيين والأجانب .

ج - بالإضافة الى ذلك ، لا يجب إهمال دور الخيال وأهميته .

لقد رأينا كيف ينطلق جيد من عالم الواقع ، وكيف ينتقي منه الانطباعات المؤثرة القوية ، وكيف يمزج ذلك بخياله الخصب الخلاق فيخرج لنا تركيباً رائعاً تتحد فيه روحه بالعالم وتضفي عليه حياة جياشة بفضل ذاتيتها المتدفقة . أما بالنسبة للقراءات التي يفيد منها الكاتب في تدعيم خياله وتغذيته بالصور والمقارنات فهي جد طويلة وليس بوسعنا الا الوقوف عند بعض معالمها البارزة .

لقد اهتم أندريه جيد اهتماما كبيرا بالفكر والأدب الألماني فقرأ لجوته ونيتشه وشوبنهاور وهابن وفشته ونوفاليس ، كما اهتم بالأدب الانجليزي فقرأ أعمال شكسبير وديكنز وأوسكار وايلد وكوتزارد وبليك ، وبالأدب الأمريكي فاطلع على أعمال شتاينبيك ووايتمان وآلان - ادجارو ، وبالأدب الايطالي فقرأ لدانتي وبيترارك وبالأدب الروسي فقرأ لدوستوفسكي وتولستوي وتور جنيف وبوشكين ، كما كانت له اهتمامات خاصة بالأدب والحضارة اليونانية واللاتينية فقرأ الاليزا - والأوديسا والانيادة وتاريخ هيرودوت وتاريخ حرب البيلوسونيز ، من غير أن ننسى المراجع الأساسية في هذا الصدد مثل « الاسطورة الذهبية للرساليات » و « عادات وأخلاق المسلمين » و « النيل والحضارة المصرية » . ويجدر بنا الا ننسى أيضا المؤلفات الأجنبية الخاصة بالشرق مثل : « الرحلة الى الشرق » لهرمان هس (ترجمة جان لا مبير وقدم له جيد نفسه عام ١٩٤٨) . و « يوسف في مصر » لتوماس مان ، و « هيرودياس » لفيليبز ستيفن . من جهة أخرى ، لقد أظهر الكاتب اهتماما خاصا بأعمال سابقة من الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن الشرق أو حتى لمحو اليه أو تخيلوه تخيلا أمثال راسين في مأساة « بجازيت » وفولتير في قصتي « زاديغ » - و « كانديد » ويلزك في رواية « سرازين » وفكتور هيجو في ديوانه « الشرقيات » ، وبالنسبة لمعاصريه : كلوديل في « معرفة الشرق » وبير لويس في « أغنيات بيليتس » مارتان دي جار في « الاعتراف الافريقي » ومونفور في « التركية » وسانت اكريوري في « رحلة ليلية » . أضف الى ذلك كتاب الأيام لطفه حسين وألف ليله وليلة وكثيرا من قصائد الرعاة للكتاب اللاتين وأخيرا الكتب المقدسة الثلاثة الخاصة بديانات التوحيد ، ولا شك أن تأثير هذه القراءات لا يتم عند جيد بطريقة النقل وإنما عبر عملية من التفاعل مع الواقع المعاش بواسطة الخيال الذي يلعب دورا كبيرا لا بد لنا من الوقوف عنده .

فما هي الطريق اذن التي تقود الكاتب من الوثيقة الانسانية التي تشكلها الرحلة الواقعية الى الوثيقة الخيالية التي تشكلها الرحلة المروية ؟ ليس من شك في أن الاماكن التي تغنى بها الشعراء والكتاب وأحاطوها بهالات الحب والحنين والود والوفاء جد متوفرة في الأدب العلمي . في هذه الاماكن التي تقطنها الأحلام وترتفع عليها أجنحة الخيال يبرز الماضي بصفة خاصة لارتباطه بذكرياتنا الأولى ، هذه الذكريات التي لا تحمل من مسحة حزن ، الا أنها مسحة محبة الى النفس ، فهي متصلة أتصلا وثيقا بهذه السعادة التي فقدناها والتي نود أن - نحياها في وجداننا الى الأبد .

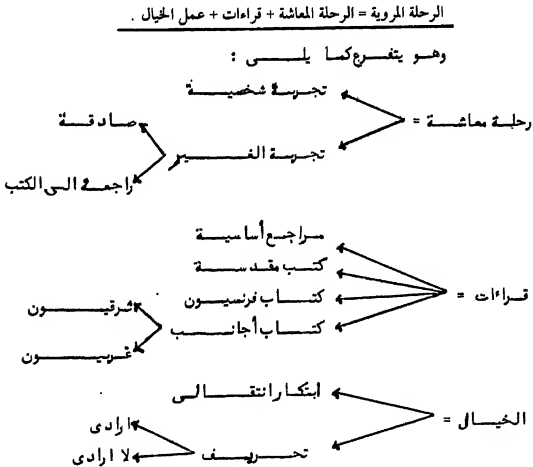
لا شك أن جيد كان يحاول عند تأليفه لكتبه احياء ماضيه وتحليل الخواص والأحاسيس التي تتصل به . الا أنه لما كانت ذاكرته تخونه دائما ، فهو كان غالبا ما يلجأ الى خياله لتعويض هذا النقص . ولم

يكن يتحرج في اضافة تجارب الغير اذا أعوزته الخبرة الشخصية أو اضطرته الحاجة الى ذلك . من ثم كثيرا ما تتميز تجاربه التي يرونها لنا ببعض الغموض والتناقض . وغالبا ما يقوم الخيال في هذه الظروف بوظيفتين متميزتين :

١ - وظيفة الاختراع أو الابتكار الانتقالي الذي يساعد على سد نقص وفراغات الذاكرة ، وهي ترادف « الفراغات الفكرية » التي ينسبها فرويد الى عمل الرقابة خلال الحلم .

٢ - عملية تحريف الذكرى ، وهي إما إرادية خاصة حينما يحذف الكاتب عمدا بعض التفاصيل خشية الفضيحة أو رغبة منه في تقديم صورة مثالية لذاته ، واما لا ارادية حينما يعتقد الكاتب أنه يقص فعلا حقيقة جريها وعاشها .

ويمكننا تمثيل هذه الأفكار بالنموذج التالي :



ان الرحلة المروية تنشأ من مجموع هذه التقاطعات وتعطينا وثيقة انسانية معقولة ، ولكنها غير قابلة للتأكيد في جملتها .

وهناك مؤلفان آخران للكاتب يستحثان منا وقفة متأنية ونظرة فاحصة نظرا لارتباطهما أيضا بانطباعات وذكريات عالم الرحلة ، ونعني بهما كتابي : « الأغذية الأرضية » و « اللا أخلاقي » الصادرين تباعا عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٢ ، أي خلال الفترة الافريقية لرحلات الكاتب ، ونحن نكاد نستشف منها طبيعة المادة المكونة لأحدهما وهي تعطينا انطبعا قويا بالحضور الافريقي .

في كتاب « الاغذية الارضية » ترتفع أحاسيس الكاتب ومشاعره الى درجة النشوى عند التغمي بأبجاء الشرق والغرب على السواء ، حيث يمتزج تنوع المناظر الطبيعية وتجدد الرؤية الشعرية لدى الكاتب مع بلوغ حواسه الى ذروة اللذة في مقطوعة سيمفونية واحدة . ونسوق مثالا على الأحاسيس البصرية التي تمتاز بالوصف الشعاري الذي فجرته إحدى مناظر الطبيعة الساحرة :

« لقد رأيت تحت شعاع الصباح المائل جبال الأحمر خادو وهي تتورد وتكاد تشبه المادة المشتعلة .

« لقد رأيت الريح وهي تدفع الرمل من قرار الأفق وتثير لهثات الواحة التي أصبحت مثل سفينة تربعها العاصفة » .

« لقد رأيت على طول الطرق المهجورة هياكل نياق بيضاء » .

وفي مكان آخر تشدنا أحاسيس الشم والتذوق :

« كان هذا الشارع من مدينة الجزائر يعبق ظهرها برائحة البنسون والشراب المزوج بالمعقم . وفي مقاهي بسكره العربية لم يكن يشرب الناس الا القهوة وشراب الليمون والشاي . الشاي العربي ، حلوى بالفلفل ، زنجبيل ، ... » .

وحينما يصف أندريه جيد مدينة بليدا ، فان جماع أحاسيسه يولد لنا فنا بالغ الدقة تمتزج فيه العناصر التصويرية والموسيقية والشاعرية في تركيب بديع :

بليدا ، أيا بليدا | يازهرة الساحل | أيتها الورد الصغيرة | لقد رأيتك دافئة عاطرة . زاهرة بالأوراق والأزهار ، بعد هروب جليد الشتاء . في حديقتك المقدسة كان مسجذك الأبيض الناصع يشع بروحانيته ، والشجر المتسلق ينحني تحت الزهور . وكانت شجرة الزيتون تختفي تحت أطواق النباتات ، والنسيم الطيب يحمل شذى أزهار شجر البرتقال ، وحتى شجر اليوسفي النحيل كان يعبق » .

ولا شك أن عبور الكاتب بمدينة الجزائر وبسكرة وشتمه وعماش وتوغرت كانت يشكل في « الأغذية الارضية » ذريعة يصطنعها لادخال عناصر البيئة المحلية في أوصافه ، فهو حينما يصف لنا ساعات السكينة والراحة اللذيذة التي كانت توفرها الحدائق الغناء حيث تعبق الزهور وتفوح الروائح الزكية ويتجول النحل ، وحينما آخر يحدثننا عن الواحات العائمة في الصحراء كالجزر في البحر ، وحينما آخر يتوقف عند القوافل المتعبة المكدودة التي تتأرجح بين اليأس والرجاء ، وأخيرا تحتل الصحراء في هذه الأوصاف المكان الأعظم . وتظهر الصحراء في صورها المختلفة من رمال متحركة أو كثبان تشبه أمواج البحر ، ومن مناطق جرداء بنبت فيها نبات الحلفا وتكثر الثعابين ، ومن مناطق صخرية تتأرجح فيها نار الشمس ، ومن أراض صلصالية لا تخلو من فرص الحياة حينما يتوفر الماء .

ويصل خيال الكاتب أحيانا الى درجة تشخيص المدن التي يزورها ، فهو يقول في « الاغذية الارضية » :

« لقد رأيت أزمير ترقد كالنبت الصغير ، ونابولي مثل السابحة المثيرة وزغوان كراع من قبائل البربر تحمر خدودها جميعا عند اقتراب الفجر . أما مدينة الجزائر فترتجف حبا تحت أشعة الشمس وتذبذب عشقا في أحضان الليل » .

كما ينفذ المدن الاسلامية :

« انك لم تر جدران هذه المدينة الاسلامية . . هذه الجدران العميقة حيث انصب ضياء الشمس خلال النهار ، جدران ناصعة البياض كالصلب . . أيتها المدينة لقد بدوت لي بللورية شفافة ! »

إلا أن الكاتب يبرز في مؤلفه « اللاأخلاقي » بصورة أوضح حنينه الدائم الى الحياة الغريزية . كما أنه يتعمق بالحفظ العريضة المميزة للمناظر الطبيعية فيبدو لنا ، في هذا الكتاب ، دقيقا بفضل إيجازه واقتصاده في ذكر التفاصيل . ولقد فرضت عليه الطبيعة التونسية هنا وجودها كإفرضه من قبل موقع بسكرة الجرائري . ونحن نرى بطل هذا الكتاب : ميشيل اللاأخلاقي وهو يتجول في نفس الأماكن التي خلبت لب المؤلف ، الأمر الذي يسقط رغبات الكاتب على بطله على الرغم من ادعاءات الاستقلال والتباعد التي يريزها بين الفينة والفينة تجاه هذا الأخير . ونحن كثيرا ما نتساءل أمام هذا الكتاب : أهو يشكل وثيقة صادقة أم هو من نسج الخيال ؟ وفي الواقع ، ان اتفاق الصدف هنا البالغ الدلالة ، لا شك أن أندريه جيد أفاد كثيرا من تجربته الحية على مستوى وصفه للطبيعة وعلى مستوى تأثيره بها وأحاسيسه وخلجاته . وليس غريبا بعد ذلك أن يتولى خيال الكاتب الخصب ربط القطبين

الذاتي والموضوعي لديه ربطا محكما ، ذاتية الكاتب ، كما أوضحنا ، ذاتية غامرة تبت حياتها وروحها الجياشة في الطبيعة ، وموضوعية الطبيعة بدورها تتلاشى تدريجيا لتتوجد بخيالات الكاتب وأوهامه .

ونحن نشعر منذ مقدمة « اللا أخلاقي » أن نشيد الكاتب الموجه الى الصحراء ، في هذا البلد المشع بمجده ورونقه وبهائه ، سوف يظل بالنسبة اليه الصورة الكاملة للرجبة . يقول أندريه جيد :

« لا شيء يثبط التفكير أكثر من الحاح صفو السماء فهنا يصبح كل بحث مستحيل طالما أن اللذة تتبع الرغبة عن كتب . »

وهو في كل رحلة الى شمال افريقيا يقول بتجديده وتنشيط أحاسيسه التي ظننا زائلة ، وها هو ذا الذي عودته الى تونس يكتب في « اللا أخلاقي » :

« عند تفجر أحاسيس جديدة ، كانت تتحرك بعض أجزاء منى وبعض القدرات النائمة التي احتفظت ، نظرا لعدم استخدامها ، بكل أسرار شبابها » .

وكان الشعب العربي يبهره ويفتنه وهو يصفه بقبوله :

« ان الشعب العربي يتميز بصفة رائعة ، وهي أن فنه فن يعيشه ويتغنى به ويبدعه كل يوم » .

لقد رحل الى شمال افريقيا أيضا لا أمل في شفائه ، فكانت واحة بسكره ومدينة تونس كشفتها حقيقيا بالنسبة له . لقد بحث في هذه الاماكن بالمعنى الكامل والحقيقي للكلمة ، لقد استرد وجوده وذاتيته ، فلا عجب أن يكون هذا البحث معجزة . يقول جيد :

« ذات يوم صحوت ، فجأة ، وسط اللازورد ، وجريت فور نهوضي الى أعلى سطح . وكانت السماء صافية بين طرفي الأفق . وتحت أشعة الشمس المتوقدة بدأت تتصاعد الأبخرة وتغلغت بها الواحة كلها بينما نسمع في الارحاء البعيدة هدير الوادى الغائر . وكان النسيم نقيًا وجيلا الى درجة شعرت فيها بالتحسن » .

لقد استولت أضواء تونس فعلا على لب الكاتب وبهرت حتى حسبها أقرب الى الرفرة والسخاء منها الى الحدة والقوة ، كما عنى بمراقبة تتابع الفصول حيث يتناول برد الشتاء القارس مع ربح السموم الملتبته خلال الصيف . وهو يصف في واقعية واعتدال جمال الحدايق التونسية والسلام الذي يغمر بساكنيها المثمرة ويبرز افتتانه أمام « هذه الأماكن الهادئة المليئة بالظل والنور التي تبدو في مأمن من

الزمان » . وتبرز واقعية الكاتب كذلك في هذه الصورة التي يرسمها للمرأة التونسية ، وهي هنا أم بشير :

« كانت امرأة رائعة ، راسخة ، ذات جبهة عريضة يعلوها وشم أزرق ، كانت تحمل سلة غسيلها على رأسها مثل حاملات القرايين القدامى ، وكانت تتلفح برداء فضفاض داكن الزرقة يبرز فوق الخصر ثم يسقط دفعة واحدة حتى القدمين » .

وعلينا الآن أن نسأل : كيف يقبل رجل غربي حضارة مغايرة تماما لحضارته بكل هذا الاقتناع والتحمس ؟ وكيف تهتز جوارحه وتنفض ذاتيته تجاوبا مع كل ما يحيط بها من مظاهر جديدة وفريدة خلال تنقلات الكاتب في الشرق ؟

ومن الواضح أن جيد لا يأخذ عن الشرق الا ما يلائم هواه أو مزاجه ، ولا يجب أن ننسى أنه يبحث فيه عن تجديد قواه الروحية ، أو على الأقل يجرى وراء هذا الوهم ، كما يبحث عن أحاسيس الانسلاخ الشامل الذي يحققها له شعور البرانية . من ثم يعمل هذا التوافق بين العالم الشرقي وبين رغبات الكاتب الدفينة على خلق نوع من الاتحاد والالتزام لديه بين البيئة الخارجية وبين ذاتيته . لذلك ليس غريبا أن تكون هذه الزيارات والرحلات العديدة ذريعة لوصف مشاعر الكاتب وتقديم بعض نظرياته الشاذة الغريبة . من ثم هو يخلق حولنا جوا خاصا يطبعنا بروحه ويشركنا مع الكاتب في انفعالاته وردود فعله ازاء الأشياء والعالم الخارجي .

ولا شك أن موقف الكاتب هذا قد يعبر عن كبت عميق لديه ، وهو حينئذ يفصح عن ذلك فائما يعمل على اشباع نزعاته الخفية التي تثور في أعماق سريره . وقد يكون هذا الموقف ناتجا عن الضغوط الخارجية التي تعرض لها الكاتب خلال طفولته والتي تحولت ، مع الزمن ، الى ضرب من الالتزام الداخلي . ولقد رأى بعض النقاد في شخصية أندريه جيد « سجين القيود البروتستانتية وهو نمط الشخص الكاتب لرغباته عند فرويد » .

ونحن إذا أخذنا بنظرية الكبت عند جيد ، نستطيع أن نفهم بوضوح أكبر مؤلفاته وسلوكه ومواقفه المختلفة من قضايا العصر والحياة . وتمثل حالته - لا شك - النموذج التقليدي لما يمكن أن تؤدي اليه الرغبات المكبوتة بعد تحريرها وانطلاقها من قيودها . ومن هنا يمكننا أن نفسر أدب الرحلة عند جيد على أساس أن التقاء كاتب بشمال أفريقيا كان بمثابة رد فعل ضد مختلف الصدمات العاطفية التي أصابته

خلال الطفولة . كما أن موقفه الجديد تجاه التزم وأحترام التقاليد يبرر بشكل ما عيوب تربيته ونقائص سلوكه . ولا شك أن كل هذه التحولات سوف تطبع أعماله الأدبية بآثارها العميقة .

على كل حال ، ان الرحلة الواقعية ورحلة الاحلام والافادة من المصادر المختلفة لآداب الرحلات تعد من العناصر الأساسية التي تسمح لنا بابرار سمتين من سمات أندريه جيد :

أ - هاوي الرحلات .

ب - رائد الأدب الشرقي المعاصر في الغرب .

إذا كان جيد يتميز بالروح الفردية ، فهو ينطلق بحثاً عن آفاق - جديدة لاثراء فلسفته الخاصة وأسلوبه الجمالي الخاص . وهو يصل الى تحقيق اكتمال ذاته عن طريق النشوى الحسية ، الا أنه على الرغم من تنوع المناظر والمشاهد التي يقدمها ، لا يصور لنا الا رؤيته الخاصة للوجود . وليس من شك في أن الرحلة من بلد الى بلد ، والحياة في وسط اجنبي قد أتاحا للكاتب فيها أفضل للغرب ، وهو القائل « يجب المغادرة لتعميق المعرفة » . ولقد أتاح له اقاماته المتعددة في الاطلاع على نمط من المعيشة مغاير لما اعتاده وعاش عليه ، وحتى الموسيقى الشرقية أثرت فيه بأنغامها الراقصة وألحانها القائمة على الطرب . وفي الشرق رأى الوجه الحقيقي للغرب وفهم رسالته التي كان لزاماً عليه أن يحققها ، وهي تطوير شخصية الانسان وروحه الفردية بواسطة الثقافة .

الا أن جيد حينما تغلب عليه دفعة الحياة ورغبة العيش الرغيد سرعان ما يتخلى عن شخصيته الغربية ويندفع وراء حماسه العارم ؟ وهو حينئذ يقطر لنا انطباعاته تقطيراً حتى نرشفها رشفات حثيثة وحتى يدفع الغربي الى الاحساس بالجمال الآخر . من ثم تظل ذات جيد ، مهما تنوعت الاماكن والظروف هي المركز الاول لأدب الرحلة عنده . ولقد قال الشاعر بودلير : « ان الرحالة الحقيقيون هم أولئك الذين يرحلون من أجل الرحيل » . الا أنه لا شك أن - الرحلة الوحيدة الجديدة بهذا الاسم هي الرحلة التي يقوم بها الانسان في داخله ، وهو الامر الذي يتحقق مع جيد . فهذا الكاتب ، الذي كان يحلم بكل مجهول ومستعصي المثال ، وهذا الباحث عن كل احساس جديد ، لا يني في البحث عن صورته الذاتية بكل ما تحمله من عقد ومظاهر الكف . غير أنه لن يمتزج الا على ما حاول الفرار منه ، أي على ذاته نفسها .

مراجع البحث :

BIBLIOGRAPHIE**1 — ETUDES:**

ARLAND Marcel, Essais et Nouveaux Essais critiques, Gallimard, Paris, 1952.

ARNAUDIES Anne, Le Nouveau Roman, seuil, Paris, 1974.

BARTIHES Roland, Le degre zero de l' ECRITURE, Seuil, Paris, 1972.

BASTIDE ROGER, Anatomie d' Andre Gide, P.U.F., Paris, 1972.

BARTHOLD V., La Decouverte de l' Asie, Payot, Paris, 1947.

BOISDEFRE Pierre de, Vie d' Andre Gide, 1869-1951, ESSAIDE BIOGRAPHIQUE CRITIQUE, Hachette, Paris, 1970.

BRACHFELD Georges, Andre Gide and the Communist Temptation, Droz, Geneve, 1959.

BUCHET Edmond, Ecrivains intelligents du XXeme Siecle, Correa, Paris, 1945.

CANALON ELAINE Davis, TECHNIQUES ET PERSONNAGES DANS LES RECITS D' Andre Gide, Lettres Modernes, Paris, 1970.

CHADOURNE Jacqueline, Andre Gide et l' Afrique, Le role l' Afrique dans la vie et l' oeuvre de l' ecrivain, Nizet, Paris, 1968.

DALLENBACH Lucien, Le Recit Speculaire, Essai sur la mise en abyme, Seuil, Paris, 1977.

FAYE Jean- pierre, Theorie du recit, Hermann, Paris, 1972.

FONVIELLE- ALQUIER Francois, Andre Gide, ed. pierre Charron, Paris, 1972.

FREYBURGER Henri, L' Evolution de la disponibilite Gidienne, Nizet, Paris, 1970.

GOT Maurice, Andre Gide, C.D.U., Paris, 1962.

LAMBERT Jean, Gide Familier, Julliard, Paris, 1958.

- LOTTMAN Herberst, Rive Gauche, Seuil, Paris, 1981.
- MACHERY Pierre, Pour une theorie de la productoin litteraire, Maspero, Paris, 1974.
- MANSUY Michel, Etude sur L'imagination de la Vie, Jose Corti, 1970.
- MARTIN Claude, Andre Gide, Seuil, Paris, 1974.
- La Maturite d'Andre Gide, Klincksieck, Paris, 1977.
- MARTING P., L'Orient dans la Litterature Francaise au XVIIe et au XVIIIe siecle, Hachette, Paris, 1906.
- MAUCUJER Manreze, Gide, l'indecision passionnee. ed. du Centurion. Paris, 1969.
- MICHAUD Gabriel, Gide et L' Afrique, ed. du Scorpion, Paris, 1961.
- MERCEAU Felicien, Le Roman en liberte, Gallimard, Paris, 1978.
- MOUTOTE Daniel, Le "Journal" de Gide et les problemes du moi, 1889-1925, P.U.F., Paris, 1968.
- Les Images vegetales dans L'oeuvre d'Andre Gide, P.U.F., Paris, 1970
- Painter Georges, Andre Gide , Traduction de l anglais par Jean-Rene Major , Mercure de France , Paris , 1968.
- Riviere Jaques , Etudes , (Baudelaire , Giaude , Gide, Romeau, etc .) , Gallimard , Paris , 5291 .
- Rousset Jean, Narcisse Romancier, Jose Corti, Prais, 1973.
- SCHLUMBERGER Jean, E veils, Gallimard, Paris, 1950.
- Madeline et Andre Gide, Gallimard, Paris, 1956.
- SCHVEITZER Marcille, Gide aux oasis, ed. de la Francite, Bruxelles, 1971.
- SCHWOB Rene, Le vrai drame d'Andre Gide, Paillart, Paris, 1932.
- SIMON E., Patrie de L'Humain, Gallimard, Paris, 1948.
- STEEL David, Le Theme de L'Enfance dans L'oeuvre d'Andre Gide, These d'Universite, Lille, 1974.
- THBERRY Jean- Jacques, Andre Gide, Gallimard, Paris, 1968.

II — ARTICLES:

- BARTHES Roland, Introduction a l'analyse structurale des recits in Communications, n°8, Seuil, Paris, 1966, pp.1 a 27.
- BOIDEFFRE Pierre de, Des Vivants et des Morts, in Temoignages, Paris, 1954, p. 151 a 153.
- BIASI Pierre - Marc de Les Figures de l'A venir, in Litterature, n°17, Fevrier 1965.
- BONAPARTE M., Linconscient et le temps, in Revue francaise de Psychanalyse, n°11, 1939, pp.61 a 105.
- BONNEFOY G., Les Triomphes de la fiction in Les Nouvelles Litteraires, n°2369, 19 fevrier 1973.

CAHIERS Andre Gide, N°1, Fevrier 1952.

CAHIERS de la Quinzaine, Andre Gide, 6eme cahier de la XXeme serie, Debat sur Andre Gide au studio Franco- Russe, 1930.

CHADOURNE M., Les Voyages de Gide au Tchad, in La Revue Europeenne, 1928.

DOSSIER Andre Gide, (coupures de presse) , Bibllotheque Jacques Dou- cet, Paris.

ESTEVE, Le Moi selon Marcel Proust Paul Valery et Andre Gide, in Cahiers du Sud, n° 28, 1938.

GRENIER J., Barres et Gide au Liban, in Combat, 8 novembre 1946.

RAYNALD Hermile. L'Espagne musulmane. in La Nouvelle Revue, 1881.

III — DIVERS:

CORRESPONDANCE RILKE/GIDE 1909 — 1926, ed. Correa, Paris 1952.

LOCOSTE J. Le Romantisme dans L'oeuvre romanesque d'Andre GideMemoire de D.E.S. presente a Paris.

MARGARET Boule, La Remese en question du personnage, These dacty- lographiee, Paris, 1976.

TAILLIART C.E., L'Algerie dans la Litterature Francaise, RTese pour le doctorat es- lettres, Paris, 1925.

YAGHMAI S. Les Elements autobiographiques dans l'oeuvre romanesque d'Andre Gide, These d'Universite, Paris, 1962.

الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر

تأثرت القصة الفلسفية في القرن الثامن عشر بالقصص الاخلاقية وقصص المغامرات التي حظيت إبان هذه الفترة بازدهار لا نظير له . ونال السفر والارتحال أهمية قصوى في هذا النوع من الرواية الذي يعد امتدادا لأدب « البيكارسك » (Picaresque) في اسبانيا في القرن السادس عشر .

ويقص علينا مؤلف روايات « البيكارسك » مغامرات بطل آفاق غالبا ما ينتمى الى العامة ولا تنوفاً يصدده معطيات مسبقة تنبئ عنه ، فهو بطريقة أو بأخرى صعلوك تتقاذفه المغامرات و« لقلعات المتعددة التي يسوقه اليها تجواله ، وهذا النوع من الروايات غنى بالاحداث التي تتعدد مسارحها ، كما يمثل الطريق والنزل العناصر التقليدية للاطار الذي يغلب عليه .

وتتطور شخصية الافاقة في جو أخلاقي يدعو للارتياح ، وتنتمى الشخصيات التي يلتقى بها خلال اسفاره الى كل الطبقات الاجتماعية بدءا من الطبقة الارستقراطية وانتهاء بالصيغ وقطاع الطرق ، وهو في ذلك يشهد جرائم غامضة ، وتتوالى نصب عينيه النكبات ، ويصبح لزاما عليه أن يشق طريقه في عالم يسوده الدهاء والخداع . يكتمل لدينا صورة البطل من خلال المغامرات والمكائد التي تتميز كل منها باستقلاليتها عن الأخرى ولا يربط بين مجموعهن سوى شخصية البطل .

الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر

جنات خالد حازي

مدرس الادب الفرنسي الحديث
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

ف قصة جيل بلاس دي سانتيان (١٧١٥ - ١٧٣٥) (**Gil Blas de Santillane**) للروائي لوساج (**Le Sage**) على سبيل المثال تدور في اسبانيا وعلى طول الاثنى عشر جزءا التى تقع فيها الرواية يتعرض البطل (**Gil Blas**) لمغامرات عديدة عنيفه متباعدة الأحداث .

واستلها ما من نموذج « البيكارسك » اختار كاتبنا الفرنسي اسبانيا مسرحا لأحداث قصته ، غير أنه يندر أن يظهر الأغراب بها ، فاسبانيا في القصة قناع تخفى وراءه نقده اللاذع لفرنسا .

ويقدم لنا لوساج (**Le Sage**) في قصته صورة لتقاليد مجتمع الصالونات وللتقاليد البورجوازية والقروية الفرنسية .

وتنقاد شخصية جيل بلاس (**Gil Blas**) في تيار سريع من الخطوب ودوامه من الأحداث لتصبح حياته مغامرة مستمرة مقاليدها في يد الظروف التى يتعرض لها . ونشأة بطلنا متواضعة ، فعلى ظهر دابة مسنة يملكها عمه ، رجل الدين ، يغادر جيل بلاس (**Gil Blas**) أوفيدو (**Oviedo**) ، البلدة التى شهدت ميلاده ، ليقطع اسبانيا طولا وعرضا ويحوزته أربعون دوقا لتبدأ مغامراته مع أولى خطواته خارج منزل أسرته .

ويستولى سائل على نقوده ثم يخذله طفيل ويقتاده للصمص أسيرا في مجاهل الغابة . ويفر جيل بلاس (**Gil Blas**) هاربا ليجد نفسه سجيناً في سجن « استورجا » (**Astorga**) بسبب خطأ لم يرتكبه ، ويستقر رأى جيل بلاس (**Gil Blas**) على صرف النظر عن الدراسة بجامعة سلامنك (**Salamanca**) التى كانت تمثل هدفه الاصلى ، ويقرر العمل خادما ليجوب الطرقات حرا طليقا كسابق عهده حيث يلقى عددا من المحتالين ومثلهم من الشرفاء . ويلتحق جيل بلاس (**Gil Blas**) بخدمة العديد من السادة المتباينين ظروفًا وطبعا ، فهو تارة طاهى وتارة أخرى ممرض وأحيانا كاتم للاسرار وأحيانا أخرى سكرتير الخ ، ويخدمته لعدد من الشخصيات الهامة ذات النفوذ يرقى جيل بلاس (**Gil Blas**) درجات المجد والثراء حتى انه يتمكن من امتلاك قصر في اسبانيا ويتزوج ابنة أحد مزارعيه .

وبفقد زوجته يعود الى طريق المغامرة وينتهى به الحال الى أن يصبح سكرتيرا للدوق أوليفارس (**Olivares**) وبعد سبعة عشر عاما في هذه الوظيفة يعتزل العالم نهائيا ليعيش في هدوء وعزلة .

ولا شك أن حيوية النص وتنوع أحداثه تقرب قصتنا هذه من أدب الرحلات والمغامرات كما تقربها غزارة العبارات وروح النقد من القصص الاخلاقية . وتصور لنا هذه القصة كافة ظروف الحياة الانسانية ، فحياة السفر والقصور والبورجوازية وحياة القرية تتلاقى معلنة مجيء القصة الواقعية مع ديدرو (Diderot) .

أضف الى ذلك أن هذه القصة التي تتخذ من اسبانيا إطارا لأحداثها تتكرر في قصص أخرى مثل قصة « الفلاح الوصولي » (Le Paysan Parvenu) لماريفو (Marivaux) ١٧٣٦ وهي تتخذ من فرنسا مسرحا لأحداثها .

وبصفة تقريبية نجد ان هذه الرواية تحذو حذو قصة جيل بلاس (Gil Blas) فجاكوب (Jacob) القروى الساذج الذي يدهش لكل شيء يتفتح بسعادة بالغه على حياة الترف والمتع الحسية الدقيقة التي تقدمها له العاصمة باريس .

ويستغل هذا الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً ملاحظته ويصل الى أهدافه بواسطة إعجاب النساء به ، وهو لن يعدم وسيلة للارتقاء في هذا المجتمع . هذا الأخيل كما يشير الى ذلك عنوان القصة يدهش لكل ما تقدمه له باريس ، وسرعان ما يبدأ في تبني سلوك تهكمى ، ولذا يصبح له دور في اللعبة الاجتماعية .

وتدور قصة (Le paysan parvenu) « الفلاح الوصولي » كسابقتها جيل بلاس دي سانتان (Gil Blas de santillane) حول محور التقابل بين الخادم وسادته . والتكوين الروائي في قصة ماريفو (Marivaux) يقابل القروى بساكن الحضر ومثع الريف بفساد المدن ؛ و لجاكوب (Jacob) الذي اختار « سيد الوادى » اسماً يناديه الباريسيون به ، مداخله الى صفوة القوم في باريس . وقد أمده ثراؤه بنوع من السلطة والثقة بالذات ، غير انه لم يستطع التكيف مع عادات عليا القوم ، وبقي في داخله احساس بغربته عن هذا المجتمع ؛ ورغم اعتلائه قمم المجد والجاه يفشل جاكوب (Jacob) في تغيير طبيعته وسلوكه ، وتصرفه هذه الاستحالة عن المحاولة فيعود الى الريف حيث يمكنه أن يجد ذاته ويقيها على سجيئتها ، وقد تبين لجاكوب بعد اختلافه الى هذه المجتمعات وولوجه فيها ان فسادا خفياً يخلف كل شيء ، كما اكتشف ان كل من يحيطون به يمثلون الدناءة والحقارة وقد ابتعد ماريفو (Marivaux) بذلك عن « الوقاحة » المرحية غير المؤذية التي يتميز بها الافاق في أدب اليكارسك »



بعد استعراضنا لبعض مواصفات رواية « البيكارسك » التي تتخذ من السفر والترحال محورا لها سوف نعرض بالتحليل لقصة فلسفية وهى قصة « جاك القدرى وسيد » - Jacques Le Fata (liste et son Maître) ١٧٧٣) لدينس ديدرو (Denis Diderot) لبيان الهمية التي أوليت للرحلة في الفكر الفلسفى في القرن الثامن عشر .

وتدين هذه القصة بالكثير الى رواية « البيكارسك » الانجليزية والفرنسية ويمكننا ذكر « تريسترام شاندى » (Tristram Shandy) للكاتب سترون (Sterne) كأحد مصادر الهام ديدرو (Diderot) الخاصة بهذه القصة . وقد ضمن هذا الاخير قصته افكاره الفلسفية ، ولم يأل جهدا في تبيان إنكاره لرواية المغامرات التي تنتمى اليها قصته .

ومن العسير حصر هذه القصة في نوع محدد من أنواع الرواية ، فنصها به عناصر الحكاية الخيالية والاساليب الفنية للقصة والمسرح والتصوير ، كما انها تتميز بثراء وتنوع كبير . وتضيف الاستطرادات لهذه الرواية بعداً اضافيا وعمقا خاصا .

ومن خلال قصته هذه يظهر لنا ديدرو (Diderot) ككاتب واقعى وفيلسوف ومصور لعادات واخلاقيات عصره في آن واحد ، ويختار كاتبنا أجواء اجتماعية متباينة اطارا لموضوعه مضيفا اليها بعدا فلسفيا واخلاقيا .

وتفيض هذه الرواية بحيوية وديناميكية ويتجسد لنا من خلالها عالم مركب متعدد العناصر يشبه الكرنفال . ونجد هذه العناصر المتعددة والمتناقضة للوهلة الاولى التي نسج منها المؤلف قصته ، نظيرا لها فيما يسميه ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) في دراسته عن ديستوفسكى (Dos- tolevski) « الرؤية الكرنفالية للعالم » . (١)

ويحدد تأثير الكرنفال على الادب قبل كل شئء المساحة الكرنفالية التي تقع فيها رواية « البيكارسك » خارج الحدود المعتادة . من هنا تبدو لنا الهمية القصوى للترحال وهو المحور الرئيسى للرواية محل دراستنا ، فالاسفار تعطى للشخصيات فرصة اللقاء الحر والاتصال وتوطيد علاقات من

— Mikhail Bakhtine ' La Poétique de Dostoevski ' Seuil, 1970, p 159.

(١)

نوع خاص على غرار تلك التي نلقاها في الكرنفال ، وتتميز الشخصيات الكرنفالية بانطلاقا وحرية غير محدودة . فتصرفاتهم وحركاتهم تجرد في الكرنفال تلقائية لا تلقاها في عداه . وهم يصبحون بذلك « ومن وجهة نظر المنطق المعتاد والمألوف شواذا وغريبى الاطوار . » (٢)

ولما كان الكرنفال مجالا خصبا للحرية واعمال الخيال فكل قلب للنظام الاجتماعي يصير فيه أمرا عاديا نظرا لارتباطه بالرؤية الشعبية للوجود ، وبالتالي يحى فيه كل تدرج اجتماعي لتنشأ بدلا منه علاقات ملائمة لطبيعة الكرنفال . هذه العناصر الكرنفالية التي أوجدها موضوع الارتحال لا يمكنها بالتالى النشوء والاستمرار إلا في جو عام يسوده المرح والغبطة ؛ فهناك تنطلق الضحكات التي يكون مبعثها إما التهريج المبتذل أو المحاكاة الساخرة . والادب الكرنفالى على غرار الكرنفال ذاته يخالف مكانيا أى مجال تقليدى . فهذا العرض « بدون مطلع درج » (٣) يشاهد ويمثل في مكان عام ، في الشوارع والطرق ويمكنا القول في مكان مفتوح تسود الألفة والحرية فيه بين البشر . ولا شك أن هذا الجسو من الألفة قد أثر تأثيرا قويا على ابتكار شخصية « جاك القدرى » (Jacques Le Fataliste) ، ويصرح المؤلف بذلك في الصفحات الأخيرة لقصته :

« كانت نهاية رحلتهم وشيكة مما لم يمكن جاك من إعادة قصص حبه » (٤)

وفي قصتنا يبدو لنا موضوع السفر الشائع في مؤلفات القرن الثامن عشر في صورة مغامرة تماما للمؤلف . فالواقع أن القارىء لا يدرك من خلال النص بداية رحلة جاك وسيده أو مسارها أو نهايتها ولا يمد المؤلف بأى إيضاح في هذا الشأن :

« من أين جاء ؟ من أدنى الاماكن وأقربها . وإلى أين هما ذاهبان ؟ أيدرك المرء وجهته ؟ » (٥)

وتبقى مراحل النص واضحة المعالم وكذلك طبوغرافية الاماكن مما يجعل القارىء على شاكلة البطل في العمل الادبى هائما على وجهه في ترحال لا بدء له ولا نهاية . وتدور القصة في أساسها حول سفر

— Ibid, p 170.

— M. Bakhtine, op. cit. p 170

— Denis Diderot, *Oeuvres Romanesques*, Edition de Henri Benac, Garnier Freres, 1962, p. 767.

— Ibid. p. 493.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

السيد وتابعه جاك الذي يروى مغامراته العاطفية ليقطع الوقت . وتحول الاحداث العديدة التي يتعرضون لها وكذلك روايات الاشخاص الذين يلقونهم دون استرسال جاك في سرد قصته . وبشكل جهل جاك وسيداه بالطريق وتعرضهم للتحديات الجوية والدروب غير الممهدة حائلا آخر دون المضي في السرد ، فكم من مرة عاد جاك وسيداه أدراجهما بحثا عن ساعة أو حافظة فقدت منها . ويعد السفر هنا بالنسبة لديدرو (Diderot) ذريعة يبرز من خلالها أهمية المناظر الطبيعية في الريف وكذلك يؤس القرى في القرن الثامن عشر . ففي عام ١٧٥٠ كان الفلاحون في فرنسا يمثلون عشرين مليوناً من مجموع السكان الذين يتراوح عددهم بين ثلاثة وعشرين وأربعة وعشرين مليوناً . ويوضح لنا هذا معالم فرنسا وقت ظهور قصتها هذه . ومن ثم تصبح رواية « جاك القدرى » Jacques Le Fata (liste وثيقة شاهدة على سنوات البؤس وأزمة ١٧٧٠ التي هزت الاقتصاد الفرنسي .

ويصور لنا ديدرو (Diderot) من خلال سفر الشخصيتين الرئيسيتين في قصته حال عصره . فالقارئ يلتقي بادیء الأمر بالفلاحين الذين يدركون سوء وضع قراهم ، فقد حدث أن أصيب جاك في ركبته وتولت قروية تضميد جراحه في كوخها وسمع بطلنا ، زوج القروية يلومها على استضافتها إياه :

« انه عام سيء ومن سؤته نكاد بالكاد نكفي حاجتنا وحاجة أطفالنا ، فالحبوب باهظة الثمن ولا يوجد نبيذ وليس هناك بجانب هذا كله فرصة عمل » . (٦)

وتسود البطالة ويصبح الفلاحون أكثر الطبقات احساسا بوطاة البؤس فهم يستدينون ويلحقهم الدائنون بلا هوادة أو رحمة .

وفي فندق الوعل الكبير « حيث نزل جاك وسيداه ، لقي الاثنان فلاحاً من نوع آخر ، يدل مظهره على سعة ذات اليد فهو يملك خيولاً وماشية وعرائاً ، غير أن سوء المحصول ألجأه الى الاستدانة واثقلت الضرائب كاهله حتى بات عسيراً عليه أن يجد مخرجاً من حالته هذه .

وبلاحظ جاك انه في هذه الظروف العصيبة ينخفض معدل الوفيات وتحدث دفعة ديموغرافية قوية تزيد من حدة الموقف في الريف الفرنسي . وتدفع غريزة البقاء الفلاح الى التنقل وتغيير مهنته أو بلدته

ويستبح ذلك هجرة واسعة من الريف . ونتيجة لذلك تتمزق الاسرة . أما الفلاحون الذين يبقون في قراهم فسوء الحال يوصلهم الى الشحاذة والسرقة وفي بعض الاحيان الى القتل للوفاء بالتزاماتهم واحتياجاتهم . ويغشى اللصوص وقطاع الطرق الريف ويقع جاك فريسة لثلاثة مختالين يسلبونه كل ما يملك .

ونظرا لندرة السلع أصبح وجود الصائدين في الخفاء طبيعيا ومقبولا فحين يتوقف جاك وسيدته بعد سفر دام أربعة أيام عند نزل يجد ان فيه كل ما يشبع فيها شهية أضناها صوم لاخير لها فيه ، وتعزو صاحبة الفندق وفرة هذه الاشياء الى وصول الصائدين الذين يعملون في الخفاء .

وتدل وقفات جاك وسيدته على خصائص وسمات الريف الفرنسي ، فحين تقودهم أقدامهما وسط الحقول أو على قارعة الطريق نجدهما يفيضان شوقا الى الافضاء باعتراقاتها الى اللقاءات المتنوعة . وغالبا ما تكون هذه الوقفات في فنادق وملاهي ، الا انها أحيانا ما تكون في اماكن لا تتميز ببخاصية فيها عداها كالوكر على سبيل المثال .

وتصبح هذه الاماكن شاهدا على ما يروى من قصص تتلاحق فيها الأحداث ويتعدد فيها الرواة .

ونسوق مثلا على ذلك النزول الذي تجمع أمامه حشد من الناس يستمعون بشغف لحلاق يحكي قصته السيد لوبلوتيه (Le Pelletier) وكذلك الملهى الذي كان مسرحا لحادثة القروية ذات الجرة المكسورة والوكر الذي ألبأ ارتفاع منسوب المياه في التربة اليه المسافرين ليستمعوا لقصة مدام لابومريه (Mme de la pommeray) الغريبة .

وفي هذه الاماكن المفتوحة التي تستقبل كافة الرواد يشترك الجميع في الاحتفال . وهذا النوع هو الموضوع الذي ينفرد السفر بتقدمه الى الادب ويلاحظ تودوروف (Todorov) :^١

« السفر يسمح للكاتب بربط كافة المواقف مع ابقاء البطل الواحد (وظيفة أولى)

للتعبير عن انطباعاته عن كل الاماكن التي ترد في كتابه (الوظيفة الثانية) وكذلك تقديم نماذج ما كان النص ليستوعبها بدون الارتمال (الوظيفة الثالثة) » (٧)

— Tzvetan Todorov, *Théorie de la littérature*, Seuil 1965, p. 20.

وفي قصتنا هذه تظهر الوظيفة الثانية ، فالكاتب لا يسهب في وصف الاماكن التي يقف عندها بطله
أما الوظيفتان الاولى والثالثة فينالا كل الاهتمام .

ويعد « جاك » بطل القصة بدون منازع يحيط به العديد من الشخصيات المتباينة طباعا والمختلفة من
حيث المستوى الاجتماعي ونوعية المغامرات ، ويطور الكاتب شخصياته بسهولة ويسر في جو
كرنفالي . ويبقى المؤلف قريبا من الاجواء المحيطة ، فأحداثه مسرحها اطار معروف لدى معاصريه
وهو لا يتعد عن الحياة اليومية ، فغاياته تمسيد كافة نماذج الشرائع الاجتماعية في عصره بالشخصيات
التي يقدمها والتي يواكب فيها الارستقراطي رجل الدين ويدانهم أناس يشغلون كافة الوظائف
والهن .

ويتخلل الصفحات بذلك عرض حقيقي لشخصيات وحرف متعددة . فالخلاق يصبح راويا يحكي
القصص الغريبة ليسل بها المغفلين ويجتذب بها زبائنه وتستوقف رواياته المتسكعين في الطرقات
فيستمعون له في شغف ودهشة .

وفي موقف آخر يلتقي جاك ببائع متجول يذكي بضاعته ويحاول إغراءه بشراء ساعة من الذهب .
وكم كانت دهشة جاك حين عرف ساعة سيده فخطفها ولاذ بالفرار يتبعه البائع صائحا وجامعا الناس
حولها . ويمثل الاثنان أمام النائب العام الذي يقضى بالعدل حاميا بذلك بطلنا جاك . وتعدد
الشخصيات الكرنفالية فنجد الخياط وصانع الاقفال والحلوان وغيرهم . وهكذا يقدم لنا المؤلف
صورة لمجتمع القرن الثامن عشر مع ابراز خصائصه .



وتتمتع الشخصيات الكرنفالية بحرية كاملة في الفكر والتعبير والحركة ومن هنا تبدو فريدة في
نوعها . ويجسد جاك البطل الرئيسي في روايتنا الشخصية غريبة الاطوار على أفضل ما يكون . فخارج
الجو الكرنفالي نجده تابعا لسيده .

أما في المجال الكرنفالي فهو « المجنون » الذي يوجد ترابط بين افكاره وعباراته واتجاهاته (٨) وجدير
بالذكر اننا لا نعني هذا الجنون بمعناه الحقيقي وانما بالمعنى الذي ساقه هيجل :

(٨) يبرز ميشيل فوكو ان المجنون في القرن الثامن عشر يعود الى وضه كشخصية اجتماعية وبغلة الناس للمرة الأولى ويستفرون عنه والجدير بالذكر ان الجنون يعود ببطء له بعد
مكاته في الصورة الاجتماعية الثالثة .
— Michel Foucault, *Histoire de la Folie à l'âge classique*, Gallimard; 1972, p. 372.

« ليس الجنون فقداناً كاملاً للعقل وأنا مجرد تناقض » (٩) .

وقد مارس جاك عدة مهن ولعب ادواراً متعددة ، فقد كان على التوالي جندياً وفلاحاً وتابعاً لسينيوزا (Spinoza) ورسولاً للصهباء .

ولما كان قد أُجبر على التزام الصمت في طفولته^(١٠) فقد أصبح ثرثاراً مدركاً لعليه هذا بل وغيروا عليه عن يفوقه ثروة مثل مضيفة الفندق . غير ان فعله يعادل قوله ، وعشقه للعمل معين لا ينضب فهو يصنع الحديث ويروي به بطريقته وكما يحلوه .

ويزوج جنون الثروة لديه جنون الخيال ويوصف في ذاته بالجنون فهو يستعيز عن الحضور بالغياب .

وهكذا يطلق جاك لخياله العنان كما في حادثة المشائق التي ينصبها رجال الاقطاع أو يرى أشياء لوجودها . ويمس خيال جاك له الاحداث ويغير الكثير من أبعادها بما يقصيه عن عالم الواقع المحيط به .

وتجمع شخصية جاك كافة التناقضات الانسانية فهو يدعى حق التفكير وصياغة الحقائق مهما كانت درجة تناقضها . ويلفت نظره الى الامر بحكمة :

« قد لا يكون على الارض رأس بها قدر التناقضات الموجودة برأسك »^(١١) وكل شيء ممكن بالنسبة لجاك حتى أكثر الامور تطرفاً ؛ ويكاد يكون الحد الفاصل بين العقل والجنون لديه واهياً حتى لا نقول معدوماً . وكذلك فالتغيير بينهما تعسفي فكما يقول « يتبع المرء هواه الذي يسمونه عقلاً أو عقله الذي عادة ما لا يكون سوى نزوة على شيء من الخطورة » .^(١٢)

ويطرح جاك كما يطرح الكاتب في رواية « ابن أخ رامور (le neveu de Rameau) مشكلة الشخصية :

— Philosophie de l'esprit, Germer Baillere, traduction Vera, 1867, p. 37

(٩) وكان ذلك بطريقة غير مألوفة فقد كان يقطع الوقت بالصمت ويحتل حيزه وأصمداً على فمه كرامة .

— Oeuvres romanesques, p. 545.

— Ibid., p. 503.

(١١)

(١٢)

« هل يمكنني ألا أكون أنا ؟ وحينما أكونها هل يمكنني تغيير ذاتي ؟ أو أكون أنا والآخر^(١٣) فهو على التوالي ذاته والآخر . وقد قضى دور المجنون والمهرج هذا على وحدة شخصيته^(١٤) وجعله يعاني من ازدواجية داخلية^(١٥) ويحول اختراجه عن ذاته دون كونه « ذاته » وهي عملية يشير إليها (Derrida) في كلماته هذه :

« بادخال وجود آخر على الذات تعرضها للتقلب والتغير »^(١٦) وكنموذج لعدم الاذعان « يعيش « جاك » ويعايش » حياته بكل حدثها . وهو في سبيله لتحقيق ذلك يطبق فلسفة شخصية وتعسفية تعسف الحياة نفسها .

ولكن ألم يلتفت إليه سيده لصفات المرونة والتدرة التي يتسم بها ؟ فهو يلقي على الحياة نظرة بعيدة وقصية عن الالئكار وبخطبه لكل المؤلف والمتفق عليه يقضي على رثابة الحياة ذاتها .

وعلى النقيض منه نجد أن سيده رجل التقاليد والقوالب ، فهو يستخدم العبارات التقليدية حتى تؤكد له التجربة خطأها . فنراه على سبيل المثال يردد لنفسه عبارة : « انه في كل الاحوال هو السيد » وقد اعتاد الوقوع في الخطأ وغالبا ما يكذب حدسه فهو لا يرى الامور الا من زاوية واحدة . وفي الوقت الذي تثرى فيه عبارات جاك بعدة معان نجد أن لحديث السيد معنى واحدا ولهذا نجده يجد من حرية جاك في القول ويفهم جاك عدم جدوى قول كهذا :

« أليس لكل انسان طباعه ومصطلحاته وذوقه وأهواؤه التي تحدد لنا اذا كان يببالغ أو يسهون من الامر »^(١٧)

وتصاحب آليه الحديث عند السيد آليه في الحركة فقد يتميز بتكرار حركات ثلاث : الاستنشاق بالتبغ والنظر في الساعة واغراق جاك بالاسئلة .^(١٨)

(١٣) يرى جان فابر في جاك انسانا عملاقا إلهاميا مقدرا بالطبع ولكنه مدرك لكل تعصباته ولا يمكن لرجاع أي منها إلى آلية حيوانية .

— Ibid., p. 498.

Sagesse et Morale dans Jacques le Fataliste dans " The Age of Enlightenment " , Melanges Besterman, Ed. Andrews, Oliver and Boyd, 1967 p. 178.

(١٤) في رواية (Le Neveu de Rameau) نجد أن البطل كان يردد له احتفظ بالله مع كونه آخر أي همه . من هذا المنطلق يمكننا تفسير ما يقوله لكاه : لو كان قد ترك عند موه بعض معزوفات القيثارة في حافظته ما كنت أترجمت بين أن أكون ذاتي أو أكون لاه .

Denis Diderot, Oeuvres Romanesques, p. 406.

(١٥) وبهذا الإضافة أنه يعيش لاذواجية خارجية أيضا ما دام « سانشو » (Sancho) فلا لسيدة كما يوضح المراقب ذاته . Ibid., p. 553.

— Jacques Derrida, De la Grammatologie, Les Editions de Minuit, 1967, p. 221.

(١٦)

— Oeuvres romanesques, p. 544.

(١٧)

(١٨) نشير هنا إلى بعض العبارات والزمائم الحركية يربطها البعض إلى المجنون

وتتسع دائرة الشخصيات الكرنفالية وينضم فيها إلى جاك وسيدته نماذج غريبة من المعتمدين . فلو بللوتيه (Le Pellet) تتملكه عادة الاحسان الى حد أن المخيطين به يعتبرونه مصابا « بنوع » من الجنون فقد أمسى معهما بعد ثرائه نظرا لانه كان يحسن الى الناس بدون تمييز ، حتى لقد وصل به الامر الى التسول ليتمكن من الاحسان الى الآخرين .

أما جوس (Gousse) فهو شخص غريب الاطوار لا يعرف له مبدأ^(١٩) ومصاب بنفس داء لويللوتيه . فهو أسير لعادته نجده لا يتردد في اعطاء كل ما يملك الى المعدمين ويسمح لنفسه ببعض الغش لتعويض نقوده . ونسوق هذا مثلا على غرابة أطواره فهو يرفع قضية على نفسه ويكسبها ويجد نفسه رغم ذلك في السجن .

وتتسلط على بونديشيري (Pondichery) فكرة كونه شاعرا ولا ترده رداءة أبياته عن فكرته فهو أسير لعادته نجده لا يتردد في اعطاء كل ما يملك الى المعدمين ويسمح رداء أبياته عن فكرته هذه ولا يدرى هو نفسه سببا لتسلط هذه الفكرة عليه بيد أنه يرد على لائمية رداءة أبياته بقوله : « بما أنني غير مستطيع منع نفسي من كتاباتها فلا مفر لي من الابيات الرديئة . »^(٢٠)

لم يحقق كل من القائد جاك وصديقه ذاتيتها الا من خلال مباريات مستمرة ، الا أن كلا منهما كان يجب الآخر ، ولكن أبسط الأمور تدفعهما الى شهر سيفهما ، كما كانا يتصفان بكل ما يحتاج اليه القائد الماهر من صفات وكان ذلك موضع جنونهما .^(٢١)

وتتملك الشخصيات الأخرى انواعا متباينة من الجنون مثل جنون الرغبة لدى الأب هدسون « الوحش ذو الطاقة » والمركزيز ديزاريسيس أو مدام دي لا بومريه التي تتميز بحلة متطلباتها . وتطغى على الأب هدسون :

« الرغبات العارمة وحب لا يكبح جماحه للمتمتع والنساء »^(٢٢)

— Oeuvres romanesques, p. 555.

(١٩)

— Ibid., p. 527.

(٢٠)

(٢١) ويعد ديجلان مبارزا عتيذا لا يبدأ له بال حتى يقتل غرعة

— Oeuvres romanesques, p. 557.

Ibid., p. 754.

الظفر الـ

— Ibid., p. 673.

(٢٢)

وتشكل اللذة احدى ركائز حياته مما يجعل من رغبته العاطفية رغبة واحدة متسلطة عليه فلا يدخل شيء في حساباته الا الايقاع بالنساء واغرائهن ، كل النساء واشباع حواسه ويمائل المركز دايوزيس الاب همدسون في تحول عاطفته ولعله الى هوس ، ولها عدا موضوع رغبته لوجود شيء في حياته أو ألكاره ، ويتحول ولع مدام لابومديه بالمركز دايوزيس الى غيرة جنونية وتمتلكها رغبة في الانتقام منه ويصبح جنوبها في ذهنها علامة قدرة . فكل قواها المدفونة سوف تستغل في تحقيق هدفها الماكياييلي وسوف يمكنها بذلك أن تعيش انتقامها بكل حدته . ولا يوجد تكافؤ بين الدافع وهو هجرانها وبين حدة انتقامها .

وكما في حالة الاب والمركز ديزاريس نجد أن الرغبة تحجب الرؤية عن مدام دي لابومديه ولن نعي هذه الشخصيات حدودا لافعالها . وبما أنه لاحدود للجنون فكل السدود والحواسز تنهار أمام المسار الاعمي للرغبة الجائعة والغيرة^(٢٣) .

ويغلق الابناء غير الشرعيين دائرة الشخصيات الكرنفالية . فوجودهم خارج الدائرة يجعل هناك بينهم وبين المجانين وغريبي الاطوار المنفصلين بطبيعتهم عن المجموع وليس ابن التكلل ديجلان (Desglands) ابنا غير شرعي فحسب ولكنه ايضا صعلوك وغريب الاطوار فقد أنقض بصراخه ذات ليلة ، كما يسوق لنا جاك ، كل أفراد القصر بما فيهم حارسته العجوز الثقيلة الحركة :

« جىء بالحراسة فخطوها البطيء ما كان ليعينها على قطع الطريق بسرعة ولما اجتمعنا أراد منا أن نهضه ونلبسه ثيابه وأن نذهب به الى قاعة الاستقبال الكبرى ليعتلي مقعد والده الوثير . وأبدى رغبته في أن يمسك كل منا يد الآخر راقصين في دائرة » .^(٢٤)

وجاء الى الوجود طفل آخر غير شرعي نسب لفرط الشبه بينها الى الأخ جون ، فقد اعتاد هذا الاخير أن يزوج فتيات قريته وقد تمرس في هذا العمل حتى أن احدها أنجبت :

« طفلا ممثا يشبه الأخ جون كما تتشابه نقطتا ماء » .^(٢٥)

وليس ابن الأنسة أجاتا (Mlle Agathe) والفارس سان أو انابنا Saint ouin002tdv غير شرعي فحسب ولكنه مبتود الصلة بأبويه فقد قام على تربيته وبيأشره السيد .^(٢٦)

(٢٣) نلاحظ أن مديرة (Diderot) يبرز لنا في الحياة اليومية التي يعدها موضوعات غير ملائمة فهو يترجم لحالات صدقة وحسب وغيره قلنا تحدث بلات الحلة التي يعدها جا . وتعتبر حياة حافلة بالأحداث .

(٢٤) Oeuvres romanesques, p. 751.

(٢٥) Ibid., p. 535.

(٢٦) تشير أيضا الى الابن غير الشرعي الوحي الذي كان يحكه الجسد الى الرجوع من الملائكة الرومية بين الرابع (Hudson) همدسون ودماد دي لا بروندي

Oeuvres Romanesques, p. 684.

وكان المجهود في الشخصيات الكرنفالية نجد أن حرية النماذج التي تتعرض لها في التصرف والحديث تصاحبها حرية في الحركة ، ومن ناحية المدلول الرمزي نجد أن للحركة في الرواية أهمية كبرى ، فهي أما مكملة للقول أو مستعاض بها عنه . وفي كتابه « تقييد ريتشارد سون » (Elogesur Richardson) يصرح ديدور : (Diderot)

إن الحركة أحيانا ما تكون رفيعة ومعجزة مثل الكلمة «^(٢٧)» وتصبح الحركة من هنا رمزا لحرية الاجسام ومحسنا بديعيا لأفكار ومشاعر الشخصيات . وتأثير يدكارت (Descartes) الذي تستند نظرية التعبير في القرن الثامن عشر الى مذهبه : توافق حركات الوجه العضلية واعتمالات النفس . «^(٢٨)» .
وبواسطة الحركة يتحول الصمت الى حديث يكشف غموض الافكار ويبرز الانفعالات . وتتلوج الحركة من مجرد التغيير في قسمات الوجه أو عبوسه الى حركة الجسم ككل . ويعتبر اكفهرار أو اشراق وانسباط أساريه مرادفا للطبيعة ذاتها ، ففي اسطورة الخلق هناك توافق بين تعبير وجه الطبيعة وتعبير وجه مخلوقاتها . «^(٢٩)»

ويجسد جاك الرجل « الطبيعي » الذي لا يعرف أي عقبة فهو يطلق الجراح لحركاته ويعبر عنها كاملة . ونسوق مثلا لتعبير وجهه عن الامتعاض حين تذوق الخمر الرديئة . وفي مواقف أخرى نجده يحك جبهته وينفض أذنيه تعبيرا عن حيرته . وتنطق بالحركة معالم الوجه ويستعاض بها عن الكلام وتظهر بواطن الافكار . وقد يستعان بالحركة أحيانا بين اثنين للتخلص من ثالث كذلك الموقف الذي لم يرغب فيه السيدان يسمعه جاك : «

« أشار السيد الى المضيفة اشارة فهمت منها أنه ليس على ما يرام وإن بذهنه خلل . » «^(٣٠)»

وتغني الحركة عن التعليق وتفسر بصورة مباشرة وبدون اللجوء للكلمات فكر المتحادثين ، وفي رواية (Gacques le Fataliste) نجد أن لحديث الأيدي أهمية كبرى في أداء نوع من التمثيل الصامت والافصح عن مشاعر لا تشير اليها الكلمات كاحساس الحزي ومثال ذلك اخفاء مدام ديزاريس (Mme des Arcis) وجهها بيدها أمام زوجها . وقد تستخدم الأيدي كقناع تتوارى

— Oeuvres Esthetiques, Garnier, 1959 p. 35

(٢٧) الأعمال الجمالية

— G. Matore et A. J. Greimas : " La naissance du genie au XVIII^eeme

(٢٨)

siècle in Le Français Moderne

Oct. 1957, p. 271.

(٢٩) نظير هذا الى ابن اغ رامو (Le Neveu de Rameau) حين ربطت الطبيعة ابن لغتها انقلب عنها والتعلبت ثانيا واقلبت ثالثا وقد تعفرت ملاعب الغزال وفق نوله

— Op. Cit., p. 487.

— Ibid., p. 598.

(٣٠)

خلقه الاحاسيس الحقيقية أو تفصح عن قلق ونفاذ صبر كما في حالة السيد حين استيقظ قبل جاك ورغب في أن ينهض هذا الاخير فلم يتورع عن لكزه بيده ليوقطه .

وتجيء بعض الرجفات والعدادات الصغيرة لتبرز الانفعالات المختلفة ونسوق أمثلة لها فمئنا فتح السيد وغلقه لعلة تبغه تعبيراً عن سامة ووحدته بدون جاك وكان حركته علامات وقف للزمن دقيقة بعد أخرى حتى يغلبه النعاس .

وفي حين أنه يأخذ تنشيقاً من علبته وينظر الى ساعته تعبيراً عما يعتل في نفسه اثر سرد جاك لحكاياته نجد أن حركاته وهو يستمع للمضيقة لامبعث لها سوى العادة . وغالباً ما يكون الجسم كله وحركته تعبيراً عن ديناميكية الحياة ذاتها ، فالشخصيات تتحرك وتجتاح المساحة المخصصة لها بل وتغشاها . وقد يعبر بالجسم عن السأم كما يبين لنا ذلك المركز ديزاريس الذي مل زيارة مدام لابوريه :

« كان يتلفظ بكلمة ثم يستلقي في المقعد الوثير وتعبت يده بنشرة مكتوبة لم يقذف بها ليحدث كلبه أو ليغفو . » (٣١)

وعلى عكس ذلك البطء المعبر عن الملل نجد أن حركات الجسم السريعة تبرز العجلة وحيوية العلاقات الانسانية . ويجسد لنا ذلك اندفاع جاك نحو منقذه وعناقه المتكرر له . وفي الكرنفال يترجم الجسم المتغير الشكل ، الذي عرف كيف يعبر عن السعادة مشاعر الألم .

فالقروية تشد شعرها ياساً أمام جرتها المكسورة وتشبه في حركتها هذه جوستين التي تشهد مشهداً فريداً : -

« انتزعت غطاء رأسها وشدت شعرها ورفعت عينيها الى السماء » (٣٢) وتعبر هذه الحركات العنيفة في ذروتها عن مخاوف يصعب التغلب عليها والحركات التي تفصح عن وجود الانفعال تخفيه أيضاً . فهي توارى الغش والنفاق وتخفيها وتصبح بذلك أداة ضرورية للشخصية الكرنفالية . فنحن نرى على سبيل المثال القس هدسون (Hudson) المتهم لأسباب واضحة بخطف بائنة الحلوى يدافع عن نفسه أمام : وجهاً وفوقياً مردفاً عبارته بحركات ذات الاعاز الديني . فحين تدق الاجراس :

— Oeuvres Romanesque, p. 600.

(٣١)

— Oeuvres Romanesques, p. 697.

(٣٢)

« يفرض هدرسون على المجتمع الصمت ويخلع قبعته رأسها بيده على صدره صليبا . » (٣٣)

ويصنع الجنون هذه الشخصيات المتتمة لأوساط اجتماعية متباينة والمتميزة بطبائع مختلفة فلا يمكن ادراجهم بين الشخصيات الطبيعية إذ أن لكل منهم خاصية منفردة . ويقرب انفرادهم وتميزهم بينهم رابطا إياهم بوثاق حب التظاهر والمفاخرة سواء على مستوى التصرفات أو الحديث أو الحركة . وبذلك يتضح لنا أنه على حين يبدو العمل الأدبي متشعبا تشكل الشخصيات رابطا موحدًا له بذلك الجنون الذي يجمع بينهم .

وهم بذلك يضيفون نوعا من التوازن والاستمرارية على العمل . ولهذا الشخصيات جاذبية فهي عميقة ومتقلبة تماما كالشخصيات الكرنفالية التي لا يمكنها التحكم في ذاتها وينبعث منها نوع من المغناطيسية لا يمكننا تجاهلها في انجذابنا نحو دوامة الكرنفال وهم بذلك يضيفون نوعا من التوازن والاستمرارية على العمل . ولهذا الشخصيات جاذبية فهي عميقة ومتقلبة تماما كالشخصيات الكرنفالية لا يمكنها التحكم في ذاتها ، وينبعث منها نوع من المغناطيسية لا يمكننا تجاهلها في انجذابنا نحو دوامة الكرنفال وتزيد على ذلك أن هناك علاقات كرنفالية سوف تنشأ بين هذه الشخصيات المتباينة .

ويسود الرواية من بدايتها نوع من عدم التناسب وعدم التوافق . ويعلن عنوان القصة في وضوح عن وجود من الديالكتيكية بها . « جاك القدري » وسيد « Jacques le fataliste Et son maître » (Jacques le fataliste Et son maître) يرسم المعالم الرئيسية لطبيعة العلاقات بين الاثنين ، بين جاك وسيد ، وبين الخادم والسيد ومنها إلى العلاقة بين السيادة والمعبودية وهذه العلاقة القائمة على التبعية المتبادلة يبررها الكاتب مؤكدا على كونها .

« لا يصلحها ولا يحسن شيئا إلا معا ولا قيمة لها متفرقين تماما مثل دون كيشوت وسانشو » (٣٤)

فعلى غرار ما يفعله سانشو يعارض جاك سيده ولكنه يصبح فيها بعد مساعدا له . والسيد بدون جاك كالأنتان الآلي وجاك بعيدا عن سيده يفرق نفسه في أكثر المغامرات جنونا وتؤثر تبعية كل منهما للآخر على سير حياتها ومغتها .

— Oeuvres Romanesques, p. 674.

(٣٣)

— Oeuvres Romanesques, p. 553.

(٣٤)

وكلمة سيد تقيم علاقة سيد بعيد ، فالسيد هو الذي يأمر وينهى تابعه ؛ ومن ناحية أخرى فالسيد يتجاوز معلوماته وعلمه تابعه وهو بذلك يلقنه المعرفة . وفي كافة الاحوال نجد ان فكرة عدم المساواة سائدة وكذلك فكرة قلة شأن التابع بالمقارنة بسيد . فكما تقضى وظيفته نجد أن جاك ينتقل بين أكثر من سيد حتى يستقر به الحال مع سيده الحالي .

وفي بدء الامر نجد أن بينهما علاقة سيد ومسود فكلاهما يحترم القوانين التي يفرضها التدرج الاجتماعي . فجاك على سبيل المثال يستخدم في مخاطبته لسيد له لفظ الجمع دلالة على الاحترام ، على حين تثبت حرية انتقاء السيد لالفاظه في محادثة جاك .

وتصاحب السيادة الكلامية (في القول) سيادة حركية ، فالسيد لا يتورع عن ضرب خادمه فهو صاحب الامر والنهي ويرغب في أن يطاع . ويتضح لنا هذا من حديث المضيفة التي تقضى يوما بحكم عملها بين جاك وسيد :

« ليأمر أحديكمنا ويطيع الآخر ويعمل ما في وسعه » (٣٥) ويذعن جاك للأمر برغم نزوعه الدائم الى الاستقلال وإثبات ذاته . ويذهب في اذعانه الى التقريب بين علاقة التبعية بين الكلب وسيد و العلاقة بين الأدميين :

« سأل جاك سيده اذا كان قد لاحظ انه مهما بلغ يؤس الناس من العامة فهم يقتنون كلابا وهذه الكلاب على اختلافها قد لقت حركات متشابهة كاللدوران والسير على رجلين وعلى القفز أمام الملك والملكة وعلى الاستلقاء كالموق . وتخلص جاك الى ان هناك رغبة تملك كل انسان في التحكم في غيره ومن هنا فلكل كلبه » (٣٦) وصورة أخرى لعلاقة السيد بتابعه تبدو جلسيه حين يفقد السيد جواده فيستولى على جواد جاك ويذهب السيد الى أقصى من ذلك حين يشتري جوادا جديدا ويحتفظ رغم ذلك بجواد جاك متمللا بأن معرفته به أوطد .

وفرض التدرج قوانينه حين يتناول السيد العشاء مع المركز ديزاريسس فجاك في هذا الوقت يبقى في الفندق مع سكرتير المركز . وتبرز الصفحات الاخيرة من الرواية أهمية السيادة واليد العليا للسيد الذي يفر هاربا على جواد جاك مرسل ذلك الأخير ليسجن بدلا منه .

—Ibid., p. 663.

—Ibid., p. 667.

والغريب ان ذلك الذي يتمتع بالسيادة والنفوذ لا شخصية له على حين يحظى الخادم ، رغم كونه مجرد تابع ، بشخصية قوية وان كانت غير واضحة كل الوضوح ؛ فجاك بالنسبة لغير سيده « السيد جاك » ومن هنا فبعض اللبس يشوب العلاقة بين السيد والتابع المسود ، وتخلق بينهما الظروف التي تحيط بمغامراتهما نوعا من المساواة تذهب في بعض الاحيان الى اعلاء التابع على حساب سيده . ويفرض الموقف الكرنفالي نفسه هذا ليقيم ما تنفق مع باختين على تسميته « الحياة المقلوبة رأسا على عقب » (٣٧)

والاختلافات بين جاك وسيده لا يتطرق اليها الشك وتبقى « لقلب جدلية العلاقة بين السيد والتابع ويسمح جاك لنفسه قبل كل شيء » بتقييم سيده ويبدى دهشته لتوافر بعض المميزات لديه .

« يريحي أن أعرف فيك انسانيتك فهي صفة قلما تتوافر بين السادة وتابعهم » (٣٨) ويفوق جاك سيده ثقافيا فهو يدير حوارا شيقا ويعرض فلسفته الخاصة في الحياة ولا يقف الامر عند القول انما يتعداه الى الفعل فهو يلقي نفسه في المخاطر ولا يتردد في المجازفة .

ويبدى جاك بعض التعنت في الرضوخ والطاعة ويمثل أمانا « موقف عزل الكرنفال وخلعه » (٣٩) ويصبح السيد الملك خادما تابعا ويمسك بالسلطة مهرجا . وواقعة الاطاحة بالملك هذه تعقب حادثة مدام دي لا بومريه . ويعترض جاك على سلطة سيده نظرا لكونها قابلة للجدل وكما قبل جاك أن يأمر السيد وينهى ، على السيد الاذعان للامر وقبول دور التابع لخادمه . هذا التغيير في الموقف يدعو جاك الى الفاء عبارة مثل :

« يسوس جاك سيده » (٤٠)

فهو يصبح طاغية وبدا يجسد حلم أبناخ رامو (Le Neveu de Rameau) وهو رمز الضعف والمهانة في ان يصبح حدا ويحكم بدوره .



ويسود خلف الأتعة عدم التوافق وعدم التناسب وهو عامل ضروري في الكرنفال يرمز الى ازدواجية الطبيعة الانسانية . وعلى النقيض من الأتعة الحقيقية التي تنذر في جاك القدري (Jacques le

—M. Bakhtine, Op. Cit., p. 170.

(٣٧)

—Oeuvres Romanesques, p. 539.

(٣٨)

—M. Bakhtine, Op. Cit., p. 170.

(٣٩)

ويحل العرش بدلا من الملك تابع لمرحاض ما يبدى العالم مغلوبا بروية كرنفالية ومعطية معنى مكسبا .

(٤٠)

—Oeuvres Romanesques, p. 665.

(Fataliste نجد ان النص يفيض بالاقنعة الغير حقيقية كالنفاق والكذب^(١١) وتظهر وفرتهم كيف تتمايش العناصر المتناقضة والمتكاملة في الوقت ذاته كالخير والشر والصدق والكذب ، الحقيقة والخيال .

ولا يحتل التنكر مكانا كبيرا في الرواية . فالقناع يرتدي مرة واحدة بدافع من الغبطة ورمزا للاحتفال^(١٢)

وترتدي بعض الشخصيات الثانوية الأقنعة لتميط اللثام عن الحقيقة للآخرين ، فالجاسوس على سبيل المثال يرتدي كل أنواع الملابس لمباغنة صانعه الحلوى وهي متلبسة بواقعة الخيانة ، ويتنكر القائد جاك في زي فلاح ليجد الصديق الذي كان قد فرق بينهما ، غير أن ذلك كله لا تأثير له على الحبكة الروائية وإذا وجد له تأثير ما فهو سريع وعابر .

ويجدر بنا الوقوف قليلا أمام وفرة الأقنعة التي تخفي النفاق والكذب فالخداع يبدو كظاهرة تكاد تكون عامة وكما يلاحظ جاك :

« كان الانسان وسوف يكون دوما وعلى التوالي خادعا ومخدوعا . »^(١٣) وتعتبر وفرة الأقنعة المعنوية دليلا ملموسا على المانوية أي عقيدة الصراع بين النور والظلام التي تسود العالم ويزيد النفاق والكذب من حدة اللبس السائد للوهلة الأولى في الرواية لكونها مغلفة بالطيبة والثقة . وسيستخدم القناع هنا في اخفاء أكثر الأعمال شرا ومنع مرتديه حرية زائفة ولا يتفق على الاطلاق ظاهر وباطن الشخصيات المقنعة وتتوه تدريجيا حقيقةتهم .

وباماطة اللثام عن نفاق رجال الدين تسنح للكاتب فرصة انتقاد رجال الدين في عصره . فبدافع الغيرة من القس ملاك يذهب راهبان الى حد رشوة طبيب ليشهد بأن القس ملاك مجنون ، ولا يغفلان في الوقت ذاته عن مصالحهما المادية فهما يكيلان المديح كيلا للقس ملاك أمام مريديه من عليه القوم . ويثبت الكاتب بين طيات هذه الأحداث نقده اللاذع لكما يسوق لنا مثالا آخر ، فرجل الدير هديسون المناقق يحدث وخطيب ديني بارع يرى المحيطون به في كلامه أكثر صور الحديث صدقا . فهو يرتل

(١١) لم تكن الحقيقة لثقال سائرة في القرن الثامن عشر فقد كان سالفا وقطع جو عامة من الشعر والرواية ويشير Francis Pruner في كتابه L'Unité Secrète de

Jacques le Fataliste, Minard, 1970, p. 322.

(١٢)

—Oeuvres Romanesques, p. 610.

—Ibid. p. 701.

(١٣)

الصلوات عن ظهر قلب وقد كون لنفسه بذلك صورة الرجل الورع . وقد استطاع ان يلين شكيمة رجل البوليس بأحاديث محورها أن قبل مجيئه :

« كانت الأمور الروحية مهمة الى حد الفضيحة وكادت الخسارة تلحق بالبيت » (٤٤)

ويقنع مظهره الخادع اسقفاه حتى ان هذا الأخير لا يساوره الشك في فضيلة رجل ديره . غير أن « القول والفعل » لدى رجل الدير همدسون لا يتفقان بالمرّة فوسائله الى الرذائل تخدع ضحاياه . (٤٥)

وتناقض أقواله أفعاله بل وتتناقض أفعاله فيها بينهما . فعل حين يطرد من البيت مرتكبي الفضائح لا يتورع هو عن فعلها فهو يسجن بائعة الحلوى في قصره .
ويتبع بائعة هوى الى مسكنها . . الخ بل يستخدم المكان المقدس المخصص للاعتراف فيها بئجل من الأفعال .

وهو يأمر السيدة موضع ثقته والتي تعاونه ان تتقن اداء دورها وإن تذهب لدى سيدة حسنة السمعة غير أن هذا لا يمت للحقيقة بصلة فسمعتها الطيبة مردها اتقانها الظهور بمظهر الورع .

وتخدع الراهبتان الجديدتان اللتان يداخلهما بعض الشك في رجل الدير همدسون وفي مكان اقامة هذه السيدة وفي عشيقه رجل الدير همدسون بل وفي الدير ذاته ولن يسقط قناع همدسون مطلقا ، بل وأكثر من ذلك يكافأ على خدماته بدير وفي الخيرات، وبهذا يكون قد نجح في تغليب المظهر على الجوهر والخيال على الحقيقة .

ويثبت لنا الكاتب أن القناع وسيلة هامة وضرورية أيضا للطبقة الأرستقراطية وهم على شاكلة رجال الدين يستخدمون الحب قناعا مما يسمح بوجود الخدع . فالحب كاحساس له أبعاد قدرية (٤٦) فالإنسان يتفان في الاحتفاظ به رغم كل شيء وفي مواجهة الجميع . ويكاد يبدو أن الإنسان كلما رقي درجات السلم الاجتماعي كلما مزقته الغيرة وسيطر عليه حب التملك والميل للانتقام . ومن ثم يرتبط الأصل

— Oeuvres Romanesques.

(٤٤)

(٤٥) لا يجهل القاري حقيقته وحقيقة أعماله ومن ثم يرى الشخصية من كافة جوانبها ومنه الشاهد الوحيد على ارتداء الشخصيات القناع وعلمهم أنه على رجل حين يصح هذا القناع فيظهر لا خلفه بالنسبة لجميع الشخصيات بكونه فعلا للقاري .

(٤٦) يتساءل جاك : التناحر لأن تصبح أولا نصيح عادلين ؟

النبل بالاحاسيس الوضعية . وعلى النقيض من ذلك نجد أن للعامة البعيدة عن الاصول العريقة أحاسيس نبيلة ، فجاء على سبيل المثال لا يعرف الغيرة وشهرة الانتقام فهو يتقبل عدم استمرار الحب ودوامه بوعي وواقعية . فالحب كأي احساس في الحياة يتحكم فيه التغير والتبديل .

ويصبح المركز ديزاريسيس ومدام دي لا بومريه على التوالي خادعين ومخدوعين وكلاهما ذو أصل عريق وعاشق للآخر ، غير أنه يبيء اليوم الذي يتصرف فيه المركز عنها : حيث تلجأ مدام دي لا بومريه الى خطة مبدئية لاكتشاف الحقيقة التي تخفيها عنها .

وترتدي هنا القناع للكشف عن الحقيقة . فعل المكران يخترق القناع ليفصح المركز ديزاريسيس عن مشاعره وتبدأ لعبة واعية اختيارية .

وتؤكد مدام دي لا بومريه لعشيقها براءتها وتصبح الخدعة جلية حين تدعى انها قد ملت صحبتها وتعيد بذلك الأسلحة الى مطلقها عليها تجبره على البوح بالحقيقة .

وتقضي مدام دي لا بومريه في لعبة الصراحة الى نهاية الشوط فمن ناحية تدعى تغير مشاعرها تجاهه ومن ناحية أخرى تدعي انها ما كانت ترتكب خطأ اخفاء هذا التغير الذي يعتري مشاعرها .

ويقع المركز في الشرك ويخضع الى درجة يدلي فيها بما كان يخفيه ويبلغ في انخداعه الحد الذي يرى معه ان مدام دي لا بومريه امرأة صادقة وأمينة وفاضلة . ويرى هنا أن للكذب مميزات فقد سمح لمدام لا بومريه ليس فقط بمعرفة الحقيقة ولكن بأن تخطى بصفات اضافية في نظر عاشقها ، غير أن هذا الاعتراف يشعل لديها الرغبة في الانتقام وهي لهذا تدبر خطتها بعناية :

« حين هدأت غضبتي الأولى وذائق بعض الراحة فكرت في الانتقام واي انتقام ذلك الذي يخيف في المستقبل كل من تسول له نفسه ان يخدع امرأة فاضلة » (٤٧)

وسوف تفعل ما تترأى لها بالمركز ديزاريسيس الذي ارتكب خطاين : أولها خداعها وثانيها اخفاء ذلك عنها . وسوف تلهو به بدورها بوعي وذكاء وحكمة لا يثنيا عن بلوغ هدفها شيء .

وهي تستخدم لأغراضها ذكاءها وثروتها ولا تترك للصدف شيئا حتى أنها تعطي سيدات (Ais non) اينون اللاتي سيساعدها في خطتها الميكانيكية تعليمات مدونة لما يجب ان يلتزم به في سلوكهن . وفي كل سطر من سطورها هناك قناع ، فالكلمات والافعال تغطيها كلمات في التجبد والتصفوف .

وتنبح مدام لابومرية فيها الهدف منه اخفاء مشاعرها الحقيقية ومن هنا ينشأ التعارض بين أفعالها وأقوالها من ناحية واحاسيسها من ناحية أخرى وتستمر اللعبة « فقد كانت تراعي في علاقتها بالمركز اظهار تقديرها وصدافتها وثقتها على أفضل ما تكون صورها . (٤٨)

وقد توقعت مدام لابومرية كل ما سوف يحدث : فالمركز ديزارسيس يقع في حب اينون التي يعتقد انها مخلوق ملائكي . ولم تكن مدام دي لابومرية تنتظر غير هذه اللحظة لتقف حائلا بين لقاءاتها بما يعذب المركز فكليا بعدت معشوقته عنه كليا تاقي اليها وتقود مدام دي لابومرية اللعبة بسادية ومازوشيه في أن واحد فهي تتعذب بدورها وتتلهذ بعذابها وهي تحدته عن ولعه باينون وتستمتع اليه وهو يبالغ في تصوير حبه لغيرها وتتوالى الخطط وتشعب لتنتهي يوما بزواج المركز باينون وتتصمر مدام دي لابومرية غير انها لا تستمتع طويلا بلذة النصر . فهي لم تكن تتوقع ان تمسك المركز ديزارسيس بزوجه بعد معرفته بماضيها ووقعت في الشراك الذي نصبته لغيرها . فلم تكن قد وضعت في حسابها القدر الحقيقي لمشاعر المركز لاينون مما ضاعف من المها بعد أن سقط قناعها وفقدت مكانتها فأصبحت في الحضيض بعد سموزوارتفاع المركز واينون من العبودية الى السيادة .



ويسمح عدم التناسب من ناحية أخرى بالتقارب والاتحاد الوثيق بين « الأعلى » والأدنى . فالكرنفال مرتبط بصورة خاصة بطقوس شعبية تطبع الرواية بطابع سحري غريب . ويعني بالأعلى هنا الموضوع المينا فيزيقي كالقدرية ، اما الأسفل الذي يرتبط به فهو عدة موضوعات تتصل بالعامية . فالرواية تلمس بعض المشاكل الهامة التي ارتبط بها فلاسفة عصر التنوير ، فهي تطرح مشكلة القدرية أي الوجه المقابل لمشكلة الحرية .

ومحور مناقشات جاك وسيده وهي معتقدات يصعب النقاش والبث فيها . فجاك التابع والشعبي النشأة قادر على مناقشة الأمور الفلسفية . (٤٩) فمكتبة سيده المتتمة الى طبقة النبلاء مكتنة من تنمية

—Ibid., p. 621.

(٤٨)

(٤٩) كان ديدرو (Diderot) نفسه ابن صانع مدى

مداركه ومعلوماته وما هو ذا مماثل سيده ان لم يفقه اهتماما بالمشكلات الفلسفية ، وكنوع من التناقضات الغريبة نجده أيضا لبقا ومحدثا بارعا ملحا في ملاحظاته ، وتتعارض فلسفته مع فلسفة سيده الذي يؤمن بالحرية الانسانية . ويرفض جاك فرض الحاكم الحر .

وهو يتبع القائل الذي يعد من مريدي سبينوزا . وقد تعلم من تجاربه ان الحرية زائفة . إذ أن « الاسطوانة الكبرى » فقط يمكنها ان تقرر سير الأحداث التي تبقى اسباب وجودها وسيرها غامضة وليس للانسان أي تأثير عليها .

واسلوب جاك على النقيض من سبينوزا مادي :

« كان العالم المادي والمعنوي يبدو لديه فكرة عقيمة خالية من أي معنى » (٥٠)

فالمادة هي الموجود الوحيد بالنسبة لجاك على حين يؤمن سيده بخلود الروح ووجود الله والشیطان . وفي مناقشة له عن الحسية يرفض جاك الأفكار الغريزية والفطرية فالمعرفة بالنسبة له مصدرها الاحاسيس والذاكرة . :

« كان يحاول اقناع سيده ان كلمة الالم خالية من كل فكرة وانها تكتسب معنى في اللحظة التي تذكر فيها الذاكرة بأحاسيس اعترتنا أو خالجتنا من قبل . » (٥١)

غير ان هذه التأملات الفلسفية تقع في مجال شعبي وفي اطار قريب نسبيا من الريف الفرنسي في القرن الثامن عشر . فرواية جاك القدري (Jacques le Fataliste) تمتد جذورها الى الحياة الواقعية واليومية في الحقبة التي تدور فيها كما رأينا من قبل ، كما أن الوقائع الاجتماعية والسياسية تحتل فيها مكانة هامة .

هذا التمزق بين طريقة التفكير (المناقشات الفلسفية) ومخط الحياة (فرنسا في القرن الثامن عشر) تصبغه سخرية تصل الى حد الاسفاف للإنحط بادیء ذي بدء تغليب وجود الجسم والوظائف المتعلقة به ، فغالبا ما يكون محور الموضوع العظم أو الساق والركبة والأجزاء الدقيقة المتصلة بها .

—Oeuvres Romanesques, p. 670.

(٥٠)

—Oeuvres Romanesques, p. 509.

(٥١)

فالجسم كمبدأ حيوي يعرض ويوصف فهو مانح الانسان حركته وديناميته ومستقبل لأكثر الأحاسيس تنوعا ، ومن هذا تظهر أهمية الحقيقة المادية للجسم وتدعم الفسيولوجية الفرضية المادية . وترجع الصورة لبعض الشخصيات الحقيقية والخيالية في الرواية الى سخرية خالصة فراهب القرية نوع من الأفرام أحذب ذو أنف معقوفة لجلاج وأعور كأقرب ما يكون الى الشخصيات الخرافية .

فحين يشفى جاك من جرح ركبته يفكر في العاجزين وذوي العاهات لخوفه من البقاء معوقا . ونجد في الرواية أيضا وصفا طبيعيا للطبقات الدنيا فعلى حين يمضي جاك وسيد الليل عند بائعات الهوى تعترض رجل الدير هدسون :

« إحدى هذه المخلوقات التي تستجدي المارة » (٥٢)

وتكون الوظائف الجسمية في رواية « جاك القدرى » (Jacques le Fataliste) نوعا من اللزمات وهي عودة الى المرحلة الفمعية (لذة البلع) فالطعام والعشاء والانتهايم معان تتردد كثيرا في النص . كل شيء يصلح ذريعة لاحتساء الخمر ، الأمر الذي يتم معه في سر تغير ملامح الشارين .

وتخلق حالة المثالة جوا من الغبطة الجماعية يسقط الفواصل الاجتماعية كما في الكرنفال . فجاك لا تفارقه قنيتته يرتشف منها رشفة ثم يساء لها .

وكثيرا ما يمتدح جاك الخمر ويتغنى بمزاياها ممجدا ديونيزوس آله الخمر ، فالخمر قادرة على تقريب رؤيتنا للعالم من السخرية وهي رمز الحقيقة السافرة التي يتغنى بها هذا المتعبد .

وجو الحرية هذا يقويه ويدعمه هذا النوع من العلاقات اللفظية التي تفرض نفسها بفقدان التدرج والمسافات بين الأفراد في الكرنفال ، فلا حائل يقف أمام أقاصيص ولغة العامة . كما يظهر على السطح كلمات جديدة أختفتها الذاكرة ولم تنسها . وينقطع الخيط بين منطوق الكلمات ومسمياتها . ويظهر السباب وغلظ القول بدون حرج ، فالسيد يقذف بتابعه للشياطين ويطلق على جلاده لفظ كلب لاعتنا جاك . . الخ ولا يحكم عدم التناسب الدائم والمستمر العلاقات التي تربط بين شخصيات الرواية فحسب بل والقيم المطلقة أيضا كالخير والشر ، الحقيقة والخيال التي تربط بصورة وثيقة في روايتنا هذه .

وتظهر لنا أعالي الأشياء وأدناها في صورة متعددة فهي حين تدور المناقشات الفلسفية المجردة في إطار حقيقي ملموس نجدها تختلط بوظائف جسمية لفظية أو بكلمات مبتذلة .

ويسود جو عام من البهجة يشغل المساحة الكرنفالية . فأصداء الضحكات تدوي وهي ضحكات صادقة مرحة يشوبها بعض اللغز والسخرية يوئلا كان الضحك إحدى ركائز الكرنفال فأننا نجد في الرواية أساليب وطرق إضحاك متعددة ترمي مجتمعة الى إبراز هذا « الضحك الواعي »^(٥٣) الذي يشير اليه أحد نقاد « جاك القدري » (Jacques le Fataliste) ويكسو قائمة أسماء الاعلام في القصة طابع التهريج والتهمك . لنذكر على سبيل المثال اسم التابع الذي يثير عدة تعليقات ، فالأخ جان (Jean) شقيق جاك يصعبه في رحلاته وأسفاره الأخ ملاك Ange كذلك يصعب التمييز بين الشخصيات التي تحمل اسم جازون (Jason) وهو اسم ذو معنى مما يؤدي الى اللبس وهو أحد مصادر الضحك في الرواية ويقدمهم جاك بهذه الكلمات :

« كانوا باعة متجولين . كان لجدى جازون عدة أبناء ، كانت اسرة جادة يستيقظون في الصباح ويرتدون ثيابهم ويذهبون الى اعمالهم ثم يعودون ويتناولون عشاءهم . كانوا يعودون دون أن ينسوا بنيت شقة »^(٥٤)

لا يمارسون فقط مهنة واحدة ولكن يعملون كالرجال الأليين بحيث يصعب التمييز بين الواحد والآخر . وكأنما يؤدي التشابه في الأسم الى تشابه في الأفعال والحركات مما يضيف عليهم طابع الفريق المؤدي لرقصة واحدة . ويتكرر اللبس مع والد جاك الروحي فكلاهما يسمى « العجيب » .

ومن الاستهانة والاحتقار والتهويلات أيضا الضحك . ففي واقعة نيكول على سبيل المثال تندب المضيئة نيكول التي وقعت في براثن اثنين من نزلاء الفندق أسماء معاملتها ، يكتشف القارئ بعد أربع صفحات وعلى أثر سؤال لجاك عن عمر نيكول ورد المضيئة بأنها لم تتجاوز العام والنصف ، ان الحديث يدور حول كلب صغيرة وفي سرقة حافظة نقود جاك نجد ان جاك بعد ابلاغه الشرطة على السرقة يسترد حافظته ولكنها خالية ، فالقاضي قد أعطى ما بها من نقود للساقة التي ادعت ان هذه النقود كان جاك قد اعطاها اياه لقاء خدماتها الجليلة .

Columbia University, New York, 1950, p. 127 — Robert Loy, *Diderot's determined Fatalist*. King's Crown Press (*Jacques le Fataliste* (or) رواية نقدية لرواية

— Oeuvres Romanesques, p. 606.

(٥٤)

ويضبط الناس السيد الذي خدعه القديس أوين (Ouin) متلبسا مع أجاتا ، ويصردو العقل الغليظ غير الثاقب بعد رؤيته لصانعة الحلوى مع عشيقها انه ما كان يمكن ان يكون غير زوجها :

« صانع الحلوى هو الذي يشاركها فراشها »^(٥٥)

ونجد أيضا ان بعض المواقف منشؤها الملهاة والدعابة وهذا النوع من الضحك يشبه في سخريته ضحك الحكايات الشعبية، فالمضيفة تغرق وجهه جاك بمحتوي الزجاجات التي تفتحها وديجلان (Desg- lands) يغمر بالبيضة التي كسرها في يده . وجهه غريمه والقصة مليئة بالحركات المضحكة التي تعود في أصولها الى حركات الملهاة ، فالفلاحة يدفعها زوجها فتسقط بطريقة تثير الضحك .

وينزع جاك أكثر الشخصيات تهريجا سزج الجواد ليسقط سيده الذي يتقم بدوره ويضرب جاك ومن ناحية أخرى نجد أن الحركة تبرز الهوة بين سبب غضب جاك واثره .

فجاك يطلق مسدسه لينتقم لشرفه من المحتالين الذين قدموا له طبقا به العظام المتبقية من طعامهم ونهاية هذه القصة لا تقل تهريجا عن بدايتها فجاك يسلبهم ملابسهم بعد اجبارهم على خلعهما وعلى الاستغراق في النوم . والحدث الحزين يصبح احيانا مصدرا للضحك كذلك المرة التي : « انتفضت المضيفة واقفة ووضعت يديها في خصرتها ناسية انها كانت تحمل نيكول وسقطت تلك الأخيرة مذعورة تتخبط في وثاقها وظلت تنبح واختلطت بنباحها صيحات المضيفة وضحكات جاك »^(٥٦)

لتسود الفوضى عارمة فلا يمكن التمييز فيها بين الصرخات والضحكات والنباح ، وتصبح هذه الفوضى مصدرا عاما للضحك .

وتكثر المداعبات اللفظية المتنوعة التي تسر القارئ وتثير ضحكه جاعلة من رواية « جاك القديري » (Jacques le Fataliste) عملا مضحكا وساخرا وكثيرا ما تظهر تلقائيا بعض العبارات الغريبة في الاحاديث والخطب لويللوتيه (Le Pelletier) على سبيل المثال يضرب اوبرتو- (Auber tot) وهو يستجدي الناس من أجل فقراؤه ولا يتمالك هذا الأخير نفسه فيصفعه ويرد لويللوتيه من فوره :

—Oeuvres Romanesques, p. 586.

(٥٥)

—Oeuvres Romanesques, p. 499.

(٥٦)

« هذا نصيبي فأين نصيب فقراي » . (٥٧)

وحين قمل الطيبة التي تعالج جاك من الاصرار على أن يتناول مريضها شوائه بالسكر تصرخ قائلة :
« ليكن سوف يكون اذن من نصيب أولادي ومن نصيبي » (٥٨) وتختلط الاجابات والردود السريعة
أحيانا بالواقعة فعندها يسأل الناس جوس (Gousse) عن اخبار ابنه الذي يتمتع بعينين جميلتين
وقوام ممتلئ وبشرة صافية يصدم جوس سائليه قائلا بدون مقدمات :

« على ما يرام أفضل كثيرا من غيره . . لقد مات » (٥٩) فجوس من الشخصيات التي تحب اللعب
بالكلمات . وحديثه يشبه أحاديث شخصيات مولير . ويزر المؤلف ذلك بنفسه فالغاية الحقيقية من
المعنى كثيرا ما تبدو وتظهر لتصبح مصدرا للدعاية .

فلو كان قد حظى بزوجة تشكو « أطفال ثلاثة على عائقها لرد عليها من فوره » اتركهم من على
عائقك » (٦٠) ويحمل صاحب الفندق ملامح شخصيات مولير فهو لغضبه من استضافة زوجته لجاك لا
يكف عن ترديد عبارة واحدة .

« بالله ماذا كانت تفعل أمام بابها » . (٦١)

وتضاف السخرية الى العبارات الهازلة وتظهر على مستوى الكلمات والتكوين الروائي وبذلك
تتضمن القصة سخرية على سخرية فالراوي لا بد له من مستمع . والكتابة التي تصل من خلالها
الرواية يكون الراوي فيها مؤلفا والمستمع قارئا .

وبالتالي لا يمكن للقارئ المستمع خلال هذا الدور المزدوج أن يبقى سلبيا وفي « هذا ليس
بقصة » (Ceci n'est pas un conte) لنفس الكاتب نراه يدرس العلاقات بين الراوي
والمستمع فيقول :

« حينما نروي حكاية نفترض مستمعا نترجه اليه الا انه حينما تطول الرواية بعض الشيء فمن
الصعب الا يستوقف المستمع الراوي أحيانا » (٦٢) وتصبح مشكلة الراوي الأولى هي العلاقة بين
الراوي والمؤلف وفنه فهو يفكر في عمله الأدبي ونحن كقراء نكون أمام عمل يتكون ويفضح الخدع في

— Ibid., p. 546.

(٥٧)

— Oeuvres Romanesques, p. 546.

(٥٨)

— Ibid., p. 554.

(٥٩)

— Ibid., 553.

(٦٠)

— Ibid., p. 507.

(٦١)

— Oeuvres Romanesques, p. 793.

(٦٢)

الأعمال الروائية ونصبح أمام سخرية من الشكل ومن المعنى الذي يظل دائما مثار الأسئلة والذي قد يقضي عليه .

ويوصي المؤلف بأنه يريد اشباع وإرضاء قارئه وخدمته فهو يستمر بأحداث روايته كما يحلو ويجعل منا نحن القراء ضحايا كما يجعل من المفاجأة وسيلته . فحين نحذر وجهته ونتكهن بها عن مساره بغير خطته تماما مثل جاك الذي يظن ان كل شيء مكتوب في الورقة الملفوفة . فالمؤلف لديه خطته وحبكته الروائية معدة حتى وان بدا لنا أنه يخلط بين الأحداث أو يوقفها حيناً ويجعلها تستمر حيناً آخر

وتوضح لنا ذلك العلاقات بين الراوي والشخصيات ، وذلك من خلال موضوعية الراوي الذي يستخدم أكثر اشكالها شيوعاً في النصوص وهو استخدام ضمير الغائب « فرجاءك من يدي سيده وكان يبدو على وجهه ونبرة صوته الصديق لدرجة أن . . (٦٣) » والراوي يعلق على الأحداث وعلى أقوال أبطاله بأكثر الطرق محايدة وبدون أدنى تدخل منه كقوله « كان كلاهما على حق » .

غير انه يحدث ان يتحول الراوي الى بطل بدوره ويصبح ذا وجود مادي ملموس مثلهم يشاركونهم مغامراتهم ويشهدوا معهم .

« سمعت المضيف يصرخ من زوجته بالله ماذا كانت اذن فاعلة عند بابها » (٦٤)

هذا التحول غير المحسوس من الغائب الى المتكلم تمكنه من مشاركة شخصياته حياتهم والاختلاط بهم مطالباً بحقوقه كمؤلف شاهد على ما يرويه من أحداث . فالقصص يصير على ان تؤخذ ذاتيته في الاعتبار وهو بهذا يكشف عن خدع الأعمال الروائية وهو يتدخل مشوها حوار شخصياته : فكلمة (Engastrimute) من وحي افكاري اما الكلمة في النص الأصلي فهي (Ventriloque) (٦٥) ومعناها المتحدث من بطنه .

وهو بهذا يضع نبرة على وجود المؤلف الذي لا يمكنه الظهور الا من خلال مخلوقاته وتزخر القصة في هذا الشأن باعتراقاته . فهو يتحمل مسؤولية الكلمات الغريبة كالحائث من الماء على سبيل المثال : (Hydrophobe) ؟ جاك قال (Hydrophobe) ؟ لا يا قارئى لا . . أعترف انها ليست منه ولكن بقسوة النقد هذه المحذاك ايها القارئء تقرأ حواراً واحداً في أي عمل لمهاة كانت أم مأساة بلغت درجة جودته بدون ان تقع عينك على كلمة للمؤلف في فم أحد شخصياته » . (٦٦)

— Oeuvres Romanesques, p. 500.

(٦٣)

— Ibid., p. 507.

(٦٤)

— Ibid., p. 719.

(٦٥)

— Oeuvres Romanesques, p. 762—763.

(٦٦)

وقلب دور الراوي يتم عن طريق السخرية . فالمؤلف الراوي موجود وغائب على التوالي يظهر ثم يختفي ويعلن عن نفسه ثم يتوارى فقد أخذ على عاتقه ان يروي لنا حكايات هو بادلها غير انه سرعان ما يعطي الكلمة لرواة آخرين كجاءك أو سيده أو المضيفة أو الحلاق ؛ ويجد القاريء نفسه بين عدة رواة وهو اسلوب لا يطمئنه . ويذهب المؤلف الى أبعد من ذلك فهو يقترح على قارته بثقة متناهية أن يكون مؤلفا بدوره وهو يسخر منه ويضله ليمسك من جديد بمقاليد النص وكثيرا ما يرهق المؤلف الراوي نفسه فهو يرتب بدقة متناهية لكل شخص مكانها :

« السيد الى اليسار مرتديا طاقية نومه ورداءه مستلقيا بتكاسل على مقعد وثير ومنديله ملقى على المقعد وفي يده علبة نشوقه . والى الخلف المضيفة في مواجهة الباب قريبة من المائدة وأمامها كرسي . جاك بدون قبة الى اليمين مرتكز بمرفقيه على المائدة مطرق الرأس بين زجاجتين إفرش اثنتان على مقربة منه الأرض » . (٦٧)

هذا الوصف الفصل يدعو القاريء للدهشة فالراوي لم يكتثر على حد الاطلاق باعطائه هذا الفيض من التفصيلات عن مسرح الأحداث أو وصف الأحداث واطارها أو وصف لأحاسيس شخصياته الخ ..

وهو يفسر رفضه هذا حتى لو أدى ذلك الى ان يحب ظن قارته : « اذا ظهرت لي قليلا من الامتان لما أقوله فاحفظني في بالكثير لما لم أقله » (٦٨)

ويبدو من هذا أن كل محاولة من جانب الراوي للافصاح عن ذاته والمثول في روايته تقابلها رغبة مضادة في الاختفاء .

ويصبح قارؤه أيضا مستمعا له يوافقه حيناً ويعارضه حيناً آخر . وهو يعبر عن ذاته بكافة أنواع الاعتراضات وهذا القاريء وفقا لهوى المؤلف موجود ابتداء من الصفحات الأولى غير ان مهمته لا تقتصر على كونه قارئا فهو مخاطب له دور في النص وجانب من الحوار يشارك به في إعادة بناء الجوانب للرواية وهو ليس بالشخص السلمي المتقبل لكل ما يقال له ، فالكاتب يتحدث الى ذهن حاضره للنقد يثير ويثار .

وعلى غرار السيد الذي يخطيء في تكهناته واستقراءاته نجد أن القاريء يفر به أكثر من مرة . وبلغت الكاتب نظره لذلك ويقوم نيابة عنه برأب الصدع وتصحيح الخطأ وتكثر الاصطلاحات التي تبرز قرب

— Ibid. p., 622.

(٦٧)

— Oeuvres Romanesques, p. 499.

(٦٨)

وقوع القاريء في الخطأ كقول « سوف تعتقد » سوف تقول « وكما أبرزنا ذلك من قبل فالقاريء هذا مستمع ومخاطب في آن واحد .

هذه العباران تظهر في النص كالأزمة ، والقاريء ليس كالسيد في ارتكاب الأخطاء فقط وإنما محافظ وتقليدي مثله . فهو يطالب الراوي « بالحقيقة » ولا شيء غيرها لادراكه ان هذا الأخير يميل الى تشويه الأحداث والمبالغة فيها .

وتتضح محافظة من اخلاقيات متمثلا باخلاقيات القرن الثامن عشر نجده يدين سلوك مدام لابومريه لما دبرته من انتقام قاس ، ويلتمس العذر للمركزين ديزاريسيس في خداعه لها ولكن يلوم عليه زواجه من بائعة هوى .

ويحظى القاريء بحرية زائفة وتتوطد صداقة بينه وبين الراوي ، فهذا الأخير يقيم معه حوارا ذا نبرة هادئة مطمئنة مألوفة . فهو يحترم رغباته ويسعى لارضائه وي طرح عليه اسئلة يستنبط منها رأيه : - « اتربعون في الذهاب اليهم لم البقاء معي ؟ » (٦٩)

وأحيانا يمثل لرغباته الملحة فيما يطالبه بسرد قصة فهو يقص عليه على سبيل المثال قصة الشاعر بوند يشيري (Pondichery) ويذهب الى حد الاعتذار عن فجوة في النص توقعنا منه لايضاح الذي يحق للقاريء طلبه . كما يشير من بعيد أو قريب الى بعض الأحداث لأنها لم تطرأ على باله .
والى جانب هذا كله يطالب الراوي بحقه بطريقة غير ملفتة في باديء الأمر فهو يجعل القاريء مطمئن الجانب ومن ناحية أخرى يسلبه هذا الاطمئنان .

« أنت ترى أيها القاريء كم أنا مفضل ولا رجعة الى غيري في . . . » (٧٠)

ومن هنا تنتفي صفة الامتنان بالجزء الثاني من العبارة . فسطوة الكاتب تمارس تحت قناع الكلمات . فالرواية لا وجود لها بدونها فهو يوصلها الى الغاية التي تحلو له وهو يوفر للقاريء عدة امكانيات فيما يختص بسير الأحداث ويحرمه منها في الوقت ذاته .

« من أي نقطة بداية تختارونها لمسارهم ما كانوا ليسيروا عشرين خطوة » (٧١)

وهنا ينزع الراوي قناعه ويواجه قارئه صراحة بأنه كثير التساؤل ويرفض إرضاءه . فحين يرغب القاريء في معرفة نهاية مطاف قافلة القائد جاك يعقب عليه في حدة « برب السماء أيها القاريء أعلمم

— Oeuvres Romanesques, p. 555.

(٦٩)

— Oeuvres Romanesques, p. 551.

(٧٠)

— Ibid., p. 515.

(٧١)

أحد وجهته (٧٢) « ولا يقف عند هذا الحد نقد ينصاع لرغبة القاريء ويحييه على أسئلة يكون قد رفض الخوض فيها من قبل . ولم يتم ذلك بنيرتهم منه وهو يمضي في النص بأكثر الطرق مناقضة لأداب السلوك . فحين يضغط القاريء عليه ليعرف وجهة جاك وسيد مجيئه قائلا :

« أين ؟ يالك من قاريء فضولي ولقيم يملك هذا الأمر ؟ ان كانت وجهتها بونتوازا وسان جرمان هل يفيدكما هذا في شيء ؟ فاذا ما أصررتن سأقول لكم كانا يقضيان الى . . . نعم ولم لا ؟ الى قصر رحيب » (٧٣) ويثير القاريء حنق الراوي الذي يقف حجر عثرة أمام اعتراضاته فحين يعترض القاريء على اختيار اسم « عجيب » يغضب الراوي ويؤخه بحدة :

« بريك هل هناك ذوق في اختيار اسم شخص ؟ فالشوارع تعج بكلاّب الحراسة التي تدعى « بوميه » دعوا عنكم اذن هذه الرقة المصطنعة » (٧٤)

ويلهب الى أبعد من ذلك فهو يستعذب إثارة دهشة القاريء البورجوازي المحافظ فهو يقص عليه ما لا يتوقعه ويسمعه من الألفاظ ما يأبى سماعه .

والقاريء ليس مخطئا فحسب وإنما أيضا محل نقد وحكم وهو يجد نفسه شيئا فشيئا سجيناً لتناقضاته الشخصية وسجيناً لطبيعته نفسها :

« أينما وليتم وجوهكم فأنتم مخطئون » (٧٥)

وتعود جدلية السيد والعبد للظهور هذه المرة على مستوى الانتاج والخلق والابداع الروائي . فالراوي يرفض اتباع القاريء ويجعل منه ضحيته ولا يستحي من تضليله مهما بدا ذلك متناقضا . كل ما يهم أن تبقى للراوي اليد العليا وتستمر علاقة السيادة والنفوذ على القاريء لصالحه .

وفي ختام القصة يترك الراوي الناشر الحلبة ليختفي الى غير رجعة ولكن ليس الناشر هو الراوي والمؤلف الذي يسخر مرة أخرى من قارئه ما دام يسترسل في السرد ابتداء من القصر ذلك المكان الرمزي .

(٧٢)

— Ibid., p. 537.

(٧٣)

— Oeuvres Romanesques, p. 513.

(٧٤) تتبع القارئة هنا في تسمية الكلاب باسم القائد الروماني الكبير بومبوس .

— Ibid., p. 702.

(٧٥)

— Oeuvres Romanesques, p. 714.

وتتوالى الضحكات ليعود الكرنفال كأجل ما يكون وتستمر السخرية الى ما لا نهاية وكما يلاحظ
« كيميف » :

« لا يستولي القاريء على العمل الأدبي ويتمكن منه وإنما يحدث العكس . فالقاريء لا يلعب دورا
في القصة وإنما هو مقيد يلعب به وهو لا يشترك بل يقتسم مع الشخصيات مأسيتها مستعبدا
مضطهدا . » (٧٦)

يوفر الكرنفال في النهاية حلا مناسباً للهيكل الروائي في « جاك القدري » (Jacques le Fata-
liste) والكرنفال كمسرح للأحداث يقدم مكانا مميزا لتطورات « المجنون » الذي يزعج الناس
بوجوده ويربك نظام العالم في الوقت الذي يضفي عليه شيئا من العمق .

وزمرة الشخصيات المتعددة تتطور على هذا المسرح وتجد وحدتها في غرابتها . ويطلق تأثيرها
للابتكار العنان .

هذه الشخصيات المتمتعة بحرية قصوى في التصرف والحركة تتصرف على نحو يناقض المنطق المعتاد
فالذي يحكم العالم الذي خلقه المؤلف منطق الكرنفال ، وسيطر عدم التناسب على العلاقات بين
الشخصيات الكرنفالية وهو يعكس بدوره تنوع خبراتهم ويدور حول محاور ثلاثة متكاملة أولها يثبت
حقيقة وجود جدلية السيد والتابع التي تحكم العلاقات بين جاك وسيدته .

ويتصرف جاك القدري كرجل حر بينما يتصرف سيده الذي يؤمن بالقدرة غير المحدودة كرجل
آلي . أما ثاني هذه المحاور الذي يعد سندا للقناع فهو يكشف ازدواجية الدور الاجتماعي الملبىء .
بالكذب واللبس وتأرجح ذاتية الشخصية ، فالقناع رمز للازدواجية الانسانية التي يتخوف منها . أما
المحور الثالث فمن خلاله تصلنا رسالة الرواية الساخرة وهو يخدم الوصول الى حقيقة الشخصية
وتواكب الموضوعات الفلسفية الموضوعات العادية .

وتسود الكرنفال الحرة ، فقواعد لغة غير معمول بها وتخلص سلك الشخصيات الكرنفالية من
التعقيدات اللغوية .

والخدع تستخدم كحجر زاوية للرواية وتقع بها كافة المواقف الكوميديّة والخطوط . ويختلط النقد
بالتهريج خاصة على مستوى كتابة الرواية الأمر الذي يضع البناء الروائي ذاته موضع التساؤل .

ويعد هذا العمل مشاركة في « الضحك الجماعي المتجدد ودعوة للتفاؤل وتنشيط المعرفة البهيجة » داخل حرية غير محدودة تسود العالم . وتتبدد الرؤية المهزوزة التي تبدو سائدة للوهلة الأولى .

وهكذا يحكم موضوع الازمحال ، وهو موضوع اساسي في أدب القصة كما يقول ميشيل بوتور (Michel Butor)^(٧٧) ، هيكل الرواية محل الدراسة ، فهذه الفوضى الظاهرية وهذه الدوامة من الأحداث التي يخلقها تستعيد توازنها بواسطة السفر ويسير تتابع الأمكنة غير محددة من قبل والتي تمر بها الشخصيات وفق خطة زاخرة بالمعاني .

BIBLIOGRAPHIE

I. ETUDES

ALYN Marc, *Le Diderot de Boreas*, Uzès, Editions du salin, 1975.

BAKHTINE Mikhail, *La Poétique de Dostolevski*, traduit du russe par Isabelle Kolitcheff, Présentation de Julia Kristeva, Seuil, 1970.

L'oeuvre de Francois Rabelais et la culture populaire au Moyen Age et sous la Renaissance, traduit du russe par Andree Robel, Gallimard, 1970.

BATLAY Jenny et FELLOWS Otis, " De l'amour ou des amours dans Jacques le Fataliste ", dans *Melanges Wade*, Geneve, Droz, 1977.

BRISSENDEN R. F., *Virtue and distress : studies in the Novel of sentiment from Richardson to Sade*, New York, Barnes & Nobe, 1974.

BUTOR Michel, *Repertoire II*, Editions de Minuit, Collection " Critique ", 1964.

Repertoire III, Editions de Minuit, Collection " Critique ", 1968.

CATRYSSSE J., *Diderot et la mystification*, Nizet, 1970.

CHOUILLET Jacques, *Diderot*, Societe d'edition d'enseignement superieur, 1977.

" Sens, contre—sens et non—sens : l'allegorie du chateau dans Jacques le Fataliste " dans *Melanges Wade*, Geneve, Droz, 1977.

La Formation des idées esthétiques de Diderot, 1754—1763, A. Colin, 1973.

DERRIDA Jacques, *De La Grammatologie*, Editions de Minuit, 1967.

DIECKMANN Herbert, *Cinq leçons sur Diderot*, Geneve, Droz, et Paris, Minard, 1959.

FABRE Jean, " Sagesse et MORALE DANS Jacques le Fataliste " dans *Melanges Besterman*, St. Andrews, Oliver & Boyd, 1967.

FONCK Gonthier, " Schiller et Jacques Le Fataliste de Diderot " dans *Hommage a Maurice Marache*, les Belles—Lettres, 1972.

FOUCAULT Michel, *Histoire de la folie à l'âge classique*, Gallimard, Bibliotheque des Histoirs, 1972.

Gandon Yves, *Du Style classique*, A. Michel, 1972.

HEGEL, *Philosophie de l'esprit*, traduction Vera, Germer Baillere, 1867.

Huet Marie—Helene, *Le heros et son double. Essai sur le roman d'ascension sociale au XVIIIe siecle*, Librairie Jose Corti, 1975.

KEMPF Roger, *Diderot et le roman ou le demon de la presence*, Seuil, 1972.

LEFEBVER Henri, *Diderot*, Editeurs francais reunis, 1949.

LEWINTER Roger, *Diderot ou les mots de l'absence*, Editions du Champ Libre, 1976.

LOY Roger, *Diderot's determined fatalist. A critical appreciation o Jacques le Fataliste*, New York, King's Crown Press, Columbia University, 1950.

MAY Georges, *Quatre visages de Diderot*, Boivin, 1951.

PARIS Jean, *Rabelais au futur*, Seuil, 1970.

POULET Georges, *Etudes sur le temps humain*, Plon, 1953.

PROUST Jacques, *Lectures de Diderot*, A. Colin, 1965.

PRUNER FRANCIS, *L' unite secrete de Jacques le Fataliste*, Minard, 1970.

SMIETANSKI J., *Le realisme dans Jacques le Fataliste*, Nizet, 1965.

TODOROV Tzvetan, *Theorie de la litterature*, Seuil, 1965.

WALTER Eric, *Jacques le Fataliste de Diderot*, Hachette, Collection " Poche Critique ", 1975.

WEISZ Pierre, *Incarnation du roman. La realite et les formes*, St—Aquilin de Pacy, Mallier, 1973.

II. ARTICLES

ARASSE Daniel, " L'image et son discours : deux descriptions de Diderot ", in *Scholies*, 1973—1974, pp. 131—160.

BATLAY Jenny et FELLOWS Otis, " Diderot et Sade : affinites et divergences ", in *L'Esprit Createur*, Winter 1975, pp. 449—459.

OROGYANYI Gabriel, " The Funtioararration in Diderot's *Jacques le Fataliste* ", in *Modern Language Notes*, May 1974, pp. 550—559.

BUFFAT Marc, " La Coincidence ", in *Communications* 19, 1972, pp. 6—18.

بين الفن والتاريخ يأخذ التراث الاسلامي مكانته كحقيقة منبثقة من دوافع القيم الروحية والموضوعية التي تؤكد وجود الانسان المسلم في الزمان والمكان . واذا كان هذا التراث قد اندفع الى الوجود عن طريق العقل والوجدان فقد سبقتهما في ذلك « اليد » التي ابدع الله تكوينها وصاغ شكلها ، وأودع أطراف أصابعها سر الوجود وحقيقة الحياة ومستقبل الانسان . وهذه « اليد » كالقلب والعقل ذكرها الله في محكم كتابه في مائة وواحد وعشرين آية ، جاءت متفرقة في العديد من السور القرآنية (١)

وتأخذ حقيقة « اليد » كما خلقها الله فيها تأخذ لتكون صانعة لاستمرار الانسان ودوامه ، ومكونة لحضارته وممهدة لوجوده ومثبتة لحياته على هذه الارض كآرقى المخلوقات ، وهي وحدها لا العقل والوجدان التي عبرت عن حقيقته الاولى ، حيث استطاع بها في دورة من دورات وجوده ، أي منذ عرف باسم الانسان المنحني PITHECATHROPUS الذي عاش على هذه الارض منذ آلاف السنين ، أي منذ العصر الجيولوجي الثالث ، المعروف باسم البلايستوسين المتأخر حيث عملت هذه اليد في اشعال النار واستعمال الادوات - المستمدة من الاحجار والعظام وفروع الاشجار - وهي التي

الخط العربي بين الفن والتاريخ

محمود حلى

(١) محمد لؤي عبد الغالي : المعجم الموهبت لآلفاظ القرآن . ص ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .

تلك اليد البدائية وأضفى عليها خصائص إنسانية ، دون تغيير بالغ في شكلها أو بنيتها . . . إلا أن « اليد » لم تصبح ذات فاعلية كبيرة الشأن إلا بعد أن تطوّر اللحاء الدماغى البشرى ، وبذلك صارت « اليد » تعبر عن اللمسات المميزة للإنسان والمتعلقة بالحنس والادراك والارادة والعقل »^(١) .

هذه هي البداية الحققة لمفهوم الإنسان ، لتنطلق يده لتعمل وتشيّد وتقيم له ما يريد هو أن يقيمه ، فبنت له الأهرام ، وأقامت له المعابد ، ونسجت له الثياب وصنعت له الأثاث ، ومهدت له الطريق وزرعت وجنت ومضت قدما لا تكل ولا تستريح لتقيم للإنسان حضارته وترفع من شأنه ليكون سيد الوجود كما أراد الله له أن يكون .

يتداعى بنا هذا المدخل العلمى البحت الى مصادر الفن الاولى حيث نجد في كهف يرجع الى ما قبل التاريخ ، وعلى فراغ جدران مغارة بواي « سورة » بحلف الكبير بليبيا ، رسما لفنان بدائي يمثل يد انسان كبيرة الحجم يمر من تحتها ثلاثة أشخاص فما هي الدلالة الطقوسية التي حاول فنان هذا الكهف أن يعبر عنها بهذا الرمز ، يذهب تفسيري احتمالا أن هذا الزميل المصور أراد أن يعبر عن أن هذه « اليد » وهي هنا في معناها المطلق هي سبيل الإنسان الى الحياة

أخذت به ليرتقي الى عصره الرابع حيث عاش ما يعرف باسم « انسان نياندرتال » - NEAN-DERTAL وهو ذلك الانسان الذي صنعت يده الأدوات واشعلت النار وانتهت به الى عصره الخامس حيث عرف لأول مرة باسم الانسان العاقل في العصر الثلجي HOMO SAPIENS DILUVIALIS الذي أطلق على عصره الجيولوجي « البلايستين الرابع » حيث عملت يده في أعمال فنية كصناعة الفخار ، والرسم على جدران الكهوف ، وكان هذا العصر هو المهد لمصر « الهولوسين » عصر الانسان العاقل الحديث HOMO SAPIENS RECENS وهو العصر الذي شيدت « اليد » بمهارة أعمالا يدوية لما مفهوم الحضارة في معناها التمهيدي .

ولنضيف الى هذه الخطوات التاريخية التي خطاها الانسان في اعماق الزمان ، حقيقة علمية « تأت لنا من علم » الحفريات التشرىجية « الذي ذهب في ان اليد البشرية أقدم من الانسان نفسه فشكلها وبنيتها ترجع الى سنوات لا يمكن التكهّن بها ، وهي أي هذه « اليد » تعتبر من حيث بنيتها بدائية غير متطورة ، كما أنها لا تصلح للتسلق ، وفضلا عن ذلك نجد أن يد الانسان أقدم من لحائه المخي ، وكل ما هناك أن تطوّر مخ الانسان خلال النصف مليون سنة الأخيرة هو الذي بدل

(١) الكمار فون كوكليجن : يد الإنسان ليزر ، من الجيران . مجلة فكر وفن العدد ٣ ص ١٦ لثانياً الغربية ١٩٦٣

المنطقة كلها ، وإن هذا التقارب نراه في طبيعة تجانس العرق العربي وتفاهم بلفة واحدة ذات لهجات متباينة يتيسر فهمها رغم اختلاف المواطن وتباعد البيئات . وتأخذ فيها تأخذ على سبيل المثال كلمة اللات وهي آله العرب قبل الاسلام أيا كانت مواطنهم ، والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة النجم ١٩ - ٢٠ .

« أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » ومناة هذه كانت من آله النبطيين وكانوا يطلقون عليها اسم « منوتو » وكان أهل تدمر يطلقون عليها اسم « منوت » كما تجدها « عبد منت » عند أهل ثمود .

وعلى هذه الصورة تتميز مجموعة شعوب الجنس العربي الذي يسمى خطأ الجنس السامي^(٣) الذي له صفات تشريحية ولغوية معينة مشتركة « فين اللغات السامية من التشابه الكبير في الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات ما لا يمكن معه ان ينسب تقاربها الى حدوث اقتباسات فيها بينها في العصور التاريخية وإنما لا سبيل الى تفسير هذا التقارب الا بافتراض أصل مشترك لها »^(٤) .

وحروف العربية تبلغ ثمانية وعشرين حرفا ، ذهب بها القدماء أنها جاءت بهذا القدر

ذاتها دون معتقدات ودون لغة وكتابة ، أي الحياة لذاتها وبذاتها . وتلك حقيقة تشدنا الى دراسة تاريخية وتحليلية الى ما يمكن أن نطلق عليها « الأنا البد » التي أخذت مفاهيمها لتكون دلالة على مصدر ذاتية الانسان المعقدة ، كما تدل على وجوده البحت لانه بها أمكنه أن يقول « أنا يد فأنا موجود » ، بهذا يتبلور المعنى الرمزي في صورة كهف « وادي سورة » بحلف الكبير بليبيا . لتعني أن يد الانسان تدفع به قدما وتعطيه الامل لمستقبل كل الأجيال القادمة .

هذه قصة « اليد » والخط لسان اليد فهي التي كتبت وابدعت ، وشكلت فنونه . أما قصة الكتابة فهي قصة الحضارة بنفسها ، نراها في كل مكان ونجدها أينما اينعت المدنية وازدهر الرقي ، والكتابة وجدت لحاجة الانسان اليها ، تطورت معه ، وارتفعت بارتقائه وأخذت سيبلها الى قمته مع تقدمه العقلي والدوقي ، ولا توجد حضارة أولت فن الخط ذلك الاهتمام القيم مثل حضارة الشرق الاسلامي .

وقبل أن نتناول بعضا من الآراء التي بحثت مصادر الكتابة العربية أريد أن أقف عند ثقل موضوعي قد يكون له أهمية ذات شأن في تقارب اللغات وتشابه ايجديتها التي كانت سائدة في

(٣) ليس هناك ما يسمى بالجنس السامي أو الشعوب السامية إنما الكلمة اصطلاح حديث خرج علينا به الاسقف شارلوتز ولصدها الشعوب التي تسكن الجزيرة العربية ومنطقة الرافدين والشام الكبرى وسيناء .

(٤) سيجو موسكاني : الحضارات السامية القديمة . ترجمة د . سيد مطروب بكر ص ٤٩ ، القاهرة بدون تاريخ .

والعرب من أهل الجنوب كانوا يعبدون هذا الاله الذي مازالت أطلال معابده قائمة حتى الآن في « الحريصة بحضرموت » . وإذا أخذنا كل هذا وربطناه بطبيعة الصحراء التي تشكل المحافظة المطلقة على الجنس واللغة والعادات والمعتقدات ، فالأمر يذهب بنا الى مضمون اللغة وحرورها انما كانت لها ودافعها الطبيعية في الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطها بالخط السماري السومري الأكادي ، ولا بحروف المسند الذي يحدثنه ابن خلدون فيقول « وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغاً في الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسياء التبابعة في العصبية والمجددين للملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين » (٦) .

ولسنا هنا في موضع مقارنة بين الجنوب والشمال اي بين « اليمن » (الجنوب) ، والشام (الشمال) ولكن اذا كانت حروف « المسند » وهو الخط الحميري مختلفة في صورتها عن رسم الحروف الآرامية « العربية الشمالية ، فاللغة كانت واحدة مثل الأصول

مثل منازل القمر المقسمة الى ثمانية وعشرين قسماً ، ولما كانت المنازل القمرية يظهر منها فوق الارض أربعة عشر منزلة ويغيب تحت الارض أربعة عشر كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة ، وهي الألف والباء ، والحاء المهملة والحاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والياء المثناة تحت ، وما يدغم منها أربعة عشر حرفاً أيضاً بعدد المنازل الغائبة وهي التاء المثناة من فوق والتاء المثناة ، والدال المهملة والدال المعجمة والزاء والدال والسين المهملة والسين المعجمة ، والصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والضاء المعجمة والتون والجيم المعجمة » (٥) .

وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة يس الآية ٣٩

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »

وإذا تناولنا هذا التصور مع مفهوم الشهور القمرية التي أخذوا بها ورجعنا الى أن الأكاديين وهم سلالة عربية كانوا يعبدون الشمس ابناً لالهة القمر « سين » وأن البدو الآراميين

(٥) التلغشي : صبح الاعشى ، الجزء ٣ ص ١٦ ، ١٧ القامرة ١٩٦٣ والحروف العربية ومنازل القمر ، قد يكون أول من قالها سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة ، انظر ابن التميمي ، الفهرست ص ١٠ طبعة بيروت الصورة ١٩٦٤ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧٦ القامرة بدون تاريخ كتاب التسمي .

لقد أصبحت الحروف الآرامية منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد حروفا للغة عالية ، فأننا نجد فيها نجد كتابة آرامية حثر عليها في صقارة عن رسالة بالآرامية من أحد ملوك فتيقية ، ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تبهاء شمال الحجاز . . . وقد حثر على بردي آرامي في جزيرة الفتيتين بأسوان وحثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية (١٠) .

ومن الخط الآرامي خرج الخط النبطي الذي كتبت به مملكة « سلع » - البتراء - PETRA النبطية (١٦٦ ق. م - ١٠٦ م) ورغم الاختلاف البين في رسم الحروف النبطية والعربية « فقد أثبت البحث العلمي الدقيق أن العرب الشماليين اشتقوا خطهم من آخر صورة من خطوط النبط . . . ولم يتحرر الخط العربي من هيئته النبطية بحيث أصبح خطا قائما بذاته الا بعد أن استعاره العرب الحجازيون لأنفسهم بقرنين من الزمان وما تزال في الكتابة العربية حتى يومنا هذا في بعض الأقطار وفي كتابة المصاحف بوجه خاص آثار نبطية لم يستطع أن يتخلص منها الخط العربي على طول الزمن » (١١) .

العربية فأهل الجنوب كانوا من العرب العاربة ، وأن نسيهم كما تحدث عنه المصادر العربية « متصل بإسماعيل بن إبراهيم الخليل كما يحكي هشام بن الكلبي » (٧) فاللغة كانت لغة الشمال وذلك لأن هذا الشمال « الآرامي » كان له تاريخ قديم ضارب في أعماق « المكان » نرجع به على وجه التقريب إلى « القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وفي نقش مسماري للملك الأكدي « نرام - سين » - NARAM SIN يذكر أرض « ايرم » وكانت تقع في الجزء الجنوبي من الرافدين » (٨) و « ارم » ذكرها الله في القرآن الكريم في سورة « الفجر » الآية رقم ٧ ، ٨ « ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد »

وكانت اللغة الآرامية وحرفها قد أصبحت منذ قيام الدولة الفارسية « الكيسانية » ACHAEMENIA السدي سيميخم « المسعودي » ملوك الفرس الأولى « لغة اللهل الخصب » بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق البردي ، اذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئا فشيئا (٩) .

(٧) المسعودي : مروج الذهب الجزء الثاني الطبعة الرابعة عن ٧٠ القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

(٨) سبهي موسكالي : نفس المصدر ص ١٧٦ .

(٩) جيس هنري برستد : التصار الخطارة ترجمة الدكتور احمد فخري عن ٢٦٦ القاهرة ١٩٦٩ .

(١٠) عبدالحسيد زايد : نظرات حائرة في العلاقات بين لغات الشرق الأدنى القديم

(٢) مجلة عالم الفكر ص ١٧٣ الكويت - وزارة الاعلام .

(١١) ابراهيم جمه : قصة الكتابة العربية من ١٧ سلسلة اقرأ ٥٣ .

الجنندل « ومنها جنوبا الى مدينة « مدين صالح »
ثم الى « يثرب » لتستقر بعد ذلك في مكة موطن
قريش .

وهذه المسيرة لا تستند على أي شواهد أو
براهين ، غير ما ذهبت به « نبيه عبود » لتقول :
« أنه يبدو من الغرابية لأول وهلة أن الخط
العربي الشمالي لم يكن له شأن في الجنوب » (١٢)
ولا شك في أنها قد استندت في هذا الرأي على
جميع النصوص العربية أينما وجدت خارج
الجزيرة العربية الأمر الذي جعلها تذهب في أن
هجرة الحروف العربية إنما وجدت خارج
الجزيرة العربية ، لأنه حتى الآن لم يعثر على أي
نقوش أو خربشة تعطينا أي دليل على أن هناك
غير المنطقة الشمالية هي وحدها التي تواجد بها
كتابات نبطية عربية . وفي ذلك الكتاب الذي
أصدرته وزارة المعارف في المملكة العربية
السعودية عام ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م تحت اسم
AN INTRODUCTION TO
SAUDI ARABIAN ANTI-
QUITIES وبه إلمامه مصورة مقتضبة
النص تدل أن مدن « عسير » و « نجران »
و « مدين صالح » و « العلا » و « تيساء »
وغيرها من المدن ، وحيث عثر على خطوط
« ثمودية » و « لحائية » و « الصفوية » وهي
مشتقة من الخط « النبطي » في صورته
« الآرامية » وليس في صورته العربية التي نجد

ولا شك في أن الخط النبطي العربي وهو من
خطوط الشمال ، يكاد أن تكون صورته أقرب
شكلا الى الخط العربي في شكله المتطور ، الأمر
الذي جعل الدارسين لهذه المادة وأصلها ،
يدهبون الى أنه الخط الأم أو هو الخط العربي في
تصوير مقارن .

والإنباط سكان البتراء وهي هذه المملكة
التي قامت على مفهوم سياسي لعرب المنطقة
الشمالية الذين أقاموا في هذه النواحي وظل
سلطانهم السياسي قائما أكثر من خمسة قرون
جاعلين عاصمتهم مركزا عظيما للقوافل
التجارية بين أقصى الجنوب في بلاد اليمن وبين
موانئ البحر المتوسط والطرق البرية عبر
الأناضول ، حتى أزال الرومان ملكتهم ودمروا
عاصمتهم « تدمر » وحملوا ملكتهم العربية
أسيرة الى روما .

وأيما ما كان التاريخ فقد ظهرت الكتابة
العربية لتحل طبيعيا أينما تواجد العرب في
المكان ، ولقد ذهب بعض الدارسين لمادة
الكتابة العربية أن جعل مصدرها مدينة
« حران » ومنها انتقلت شمالا الى « بصرى »
و « أم الجمل » ثم الى « زيد » لتصلد شمالا
الى ناحية الشرق حيث مدينة « تدمر » لتسير
نحو الجنوب الشرقي حيث مدينة « أنير » ثم
« الحيرا » ثم الى الغرب في مدينة « دومات

٣ - بالظفر الى اسوار نجران مدينة شمر وملك ابنائه .

٤ - على القبائل وجعلهم فرسان الروم ولم يبلغ ملك مبلغه .

٥ - الى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول (بالاله) سعد الذي ولده .

ويذهب الدكتور « حسن ظاظا » أن الخط المستعمل في هذا النقش هو الخط النبطي ، واللغة العربية المستعملة تعرضت هي ايضا لتحريفات نبطية وأن « ديسو » و « ماكليز » لا يعتبران هذا النص عربيا ويضعانه في كتابها في الباب الخاص بالنصوص النبطية (١٣) .

وقد نكون أقرب الى الحقيقة اذا قلنا ، اذا كانت الحروف العربية قد جاءت بصورها من الشمال فهي ولا شك قد تبلورت وتشكلت بين « مكة » حيث البيت العتيق والمدينة ، وأن سكان قلب الجزيرة قد تعاملوا على غيرهم من الشعوب المحيطة بهم بلغتهم العربية السليمة التي جاء القرآن الكريم ليكون معجزة دين ومعجزة بلاغة ولغة ومعجزة حروف مكتوبة ، لأن الكلمة كانت لديهم صورة رمزية لحروف ينطقونها في سليقة فطرية لا نجد لها نظيرا مطلقا عند أي شعب من شعوب المنطقة بل ولا حتى الكثير من البطون العربية المختلفة ، وذكر لنا « الفارابي » المتوفي سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م في مقدمة كتابه « الالفاظ والحروف » « لقد كان

نماذج الاولى على وجه الاحتمال في نقش « النماره » الذي عثر عليه الاستاذ « رينيه ديسو » R. DUSSAUD شرق « حوران » ونقش « زيد » في جنوب شرق « حلب » ومؤرخ سنة ٥١٢ م ونقش « حوران » في « اللجا » مؤرخ سنة ٥٦٨ م ، بيد أن أهمها على الاطلاق هو نقش « النماره » الذي وجد على قبر « امرئ القيس بن عمر » وعليه تاريخ بالتقويم البصري الذي بدأ سنة ١٠٥ م ويحتوي على خمسة أسطر :

١ - تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اصر التاج ،

٢ - وملك الاسدين وزار وملوكهم وهرب محجو عكدي وجاء

٣ - يزجي في حيج نجرن مدينة شمر وملك معدو وبين بنيه

٤ - الشعوب وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ - عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم بايكسول بسعد ذو ولده

وأقرب معنى لنقش النماره قد يكون على هذا النحو :

١ - هذا جسد امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حمل التاج .

٢ - وملك الاسد ونذار وملوكهم وهرب محج لليوم وجاء .

(١٣) الدكتور حسن ظاظا : السابون ولغاتهم من ١٦٥ وعاش من ١٦٧ الاسكندرية ١٩٧١ .

الحروف رمز للفظ واللفظ رمز للفكر ، وتغيير الحروف يشكل تغيير الرموز الامر الذي يؤدي الى خروج الرمز من التجريد الى الواقع وهنا يتشكل الاساس اللغوي عند الشعوب .

ويستقيم منطق الاعجاز لدى اصحاب اللغة العربية ابان جاهليتهم في معلقاتهم ، التي لم يتبق منها غير سبعة أو عشرة على رأى آخر والتي نجد فيها أن التصور العربي الذي أحاط بالكلمة الموزونة يشكل في ذاته قمة اللغة وقمة التصور حتى أنهم كتبوها على « القياطي » بماء الذهب وعلقوها على استار الكعبة ، وأطلقوا عليها « المذهبات » ومنها معلقة امرئ القيس والنابعة السدياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وليبد ، وطرقة ، وعلقمة ، والاعشى ، ومن هذه الحقيقة نأخذ الدليل على استعمال الكتابة ومعرفتهم بها كما يؤكد لنا قول امرئ القيس :
لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط الزبور في عسيب يماني
وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهديا
كخطك في رق كتابا منمنما
وأصحاب هذه الاصاله الشعرية والكلمة العربية الموزونة امتد بهم الفهم والمعرفة الواعية الفلة ليسير بهم الزمن قدما الى هذا الحقل الذي

لقريش أجدو العرب انتقاء الانصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها ابانة عما في النفس ، وعندهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعندهم أخذ اللسان العربي بين القبائل « (١٤) . ويذهب الفارابي في رأيه هذا بأن اللسان الكامل « لم يأخذ لا من لحم ولا من جذام لمجاورهم أهل مصر والقيط ولا من قضاة وغسان وإباد لمجاورهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون (بالسريانية) ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالخزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورهم القبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم أهل اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم » (١٥) .

ولم يبق غير « قریش » من بين كل العرب في استواء لغتهم ومهم أخذت العربية التي وجدنا فيها أن الصلة بين الدلالات اللغوية والادراك العقلي هي القاعدة التي يتناولها علم اللغة لتجذيد القيم السوية عند الشعوب وذلك لان

(١٤) - بشر : المجموع اللغوي التاريخي القسم الاول من ١٢ النافذة ١٩٦٧

(١٥) نفس المصدر : ص ١٢ ، ١٣ .

وحين جاءت حركة الفكر الاسلامي لتأخذ سبيلها الى صميم الخط العربي لتكون دافعا من الدوافع الرئيسية للتذوق الفني الذي وقع في نفوس المسلمين ايا كانت مواظمتهم «تشكيلا رفيعا ظهر واقعه ليصل التركيب الحرفي للفظ مكتوب الى المستوى الرفيع الذي كان عليه التركيب اللفظي المنطوق» (١٧).

وكان لهذا المذاق دوافعه المبكرة عندما تحول العرب الى الدين الاسلامي وعند أول آياته التي نزلت على رسول الله عليه الصلاة والسلام في سورة المعلق ١ - ٥ حيث قال الله تعالى :

«اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم»

ومن هنا التزم المسلمون بكتابة الوحي وحفظ القرآن في الفؤاد ، وبواسطة الخط الذي وقع في نفوسهم موقع الالتزام وموقع الحق الامر الذي نجده في اقوالهم «الخط الحسن يزيد الحق وضوحا» (١٨).

والموازنة بين التجويد والمثالية في الكلمة المكتوبة كما هي في الكلمة المنطوقة تأخذ لها آصرة محكمة تربط بين الاثنين وذلك لأن «البيان في اللسان والخط في البيان» ، كما كان يقول عبد الحميد الكاتب ، وعلى هذا النحو

تناوله «الخليل بن احمد الفراهيدي» عبقري العرب الذي كتب كتاب العين الذي أصبح من بعده بداية للمعجمات الضخمة والقواميس الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابلا عند اي امة من الامم ، قديما أو حديثا ، وبعد الخليل بن احمد تناول هذه المسألة تلميذه «سيبويه» ومن ثم أصبحت المعاجم اساسا للفكر الاسلامي اللغوي حيث تدفقت «الجمهرة» لابن دريد ، و«التهذيب» لسلازهرى و«المحيط» لابن عبيد ، و«المجمل» لابن فارس و«الصحاح» للجوهري و«اساس البلاغة» للزخشري و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي .

وكان من الطبيعي ان تظهر مثل هذه المعاجم الموسوعية وذلك «لأننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي ، تامة في الفاظها وصيغها وصرفها ونحوها وأوزانها وفي قوة التعبير بها . تلك اللغة لم تزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزله العرب فكانوا فيه قطانا أو مهاجرين الى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجته يتكلمها اهله ، فإن اهالي الاصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة اذا تحدثوا ويفهمونها اذا قرئت عليهم ولو كانوا أميين» (١٩) .

(١٦) مجلة الادب والفن : دكتور عمر فروخ ، الثقافة العربية الجزء الرابع ص ٢٠ ، ٢١ للسنة الأولى لسنة ١٩٤٤ .

(١٧) محمود حلمي : نقاط في مدخل الفن الاسلامي - دراسات أثرية وتاريخية ص ٤٣ مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ١٩٧١ .

(١٨) عبدالنور القرطبي : بهجة المجالس وأحسن المجالس ص ٣٥٧ القاهرة ١٩٦٢ .

العمل الفني قائما على التجريد التصوري الذي لا يسكون فيه بل هو حركة مستمرة متدفقة (٢٠).

وهكذا ومن أعماق هذا المفهوم الباطني ارتفع الخط العربي الى مستوى الكلمة المنطوقة « لأن الكلمات نفسها موزونة في لغتنا العربية ومشتقاتها تجري كلها على صيغ محدودة الاوزان المرسومة كأنها قوالب البناء المعدة لكل تركيب وافعال اللغة ونسوبة الى أوزان مميزة في الماضي والمضارع والامر ، وفي الاسماء والصفات التي تشتق منها على حسب تلك الاوزان ، ولا نظير لهذا التركيب الموسيقي في لغة من اللغات الهندية الجرمانية ولا في كثير من اللغات السامية » (٢١).

« وإذا كان امتياز الحروف بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا مجال فيها للمحال فالأذن العربية تميز بين الصاد والضاد وبين الدال والذال ، وبين الحاء والخاء والهاء ، وبين الصاد والسين والشين ، وبين الجيم واليمين والغين ، وبين القاف والكاف والحاء ، وقلما يميز الناطقون باللغات الاخرى بين هذه الحروف » (٢٢).

يحدثنا « القلقشندي » في قوله : « اما الموازنة بين الخط واللفظ ، فالاصل في ذلك ان الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها : من حيث أن الخط دال على اللفظ والالفاظ دالة على الافكار . ولاشتراك الخط واللفظ في هذه الميزة وقع التناسب بينها في كثير من أحوالها وذلك لانها يعبران عن المعاني . الا أن اللفظ معنى متحرك ، والخط معنى ساكن ، وهو وان كان ساكنا فانه يفعل فعل المتحرك بإصالة كل ما تضمنته الى الافهام وهو مستقر في حيزه قائم في مكانه ، كما أن اللفظ فيه العذب الرقيق السائق في الاسماع كذلك الخط فيه الرائق المستحسن الاشكال والصور » (٢٣).

وحقيقة الحركة هذه التي حدثنا عنها « القلقشندي » في الحيز الساكن اي في الحرف المكتوب الموجود ، كانت من الحقائق التي استوعبها الفن الاسلامي وأقام أصوله عليها والذي بها وعند مفهومها الباطني بنى الفنان المسلم واقمية الشكل الخارجي والتزم التحرر في تناوله الفني للاشكال . واعاد رؤيتها من جديد في صورة تركيبية مختلفة عما هو قائم في الطبيعة الموضوعية ، والتي بها أصبح مفهوم

(١٩) القلقشندي : نفس المصدر ص ٥ .

(٢٠) محمود حلمي : نفس المصدر

(٢١) عباس حمود العقاد : اللغة العربية ص ١٠٥ السلسلة المكتبة الثقافية ، القاهرة - بدون تاريخ .

(٢٢) المصدر ذاته ص ١٠٨ .

قد اسقطت على هذه الحروف المكتوبة ، ومن هنا أصبحت الجمالية الموضوعية للحروف العربية تأتي بطبيعتها عند الخطاط المجدد ، ان تبدأ أولا بتقويمها مبسوطة لتصبح صورة كل حرف منها على حياها ، ثم تأخذ في تقويمها مجموعات مركبة ومتفاوتة القياس والشكل .

واذا كانت الملاحظات جميعها وغيرها من الشعر الجاهلي قد كتبت بالذهب على قماش « القباطي » وعلقت على الكعبة فهي ولا شك لم تكتب بالخط العربي النبطي انما كتبت بالخط العربي « المكبي » أو « البثري » الذي ذهب فيه « البلاذري » « اجتمع ثلاثة نفر من طيء وهم مرامر بن مرة ، واسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من أهل الانبار ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الانبار ، وكان بشر بن عبد الملك أخو اكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي ثم « المسكوني » صاحب دولة الجندل يأتي الحيرة فيقيم فيها الى الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن امية بن عيد شمس وابو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسأله أن يعلمها فتهجأه ثم أراهها الخط فكتبا » (٢٤) .

ثم هناك هذه الحقيقة التي تناولها علماء التجويد الذين أتوا برسوم « صوروا فيها الحلق واللسان لبيان مخارج الحروف . والقالب الا يتجاوز ذلك فيها وقد يصورون في حفظها الوجه جميعه ولكن على قلة ، وعندنا شرح للشافعية الحساجية في الصرف للحسن بن ابراهيم النيسابوري المعروف بنظام ، في اواخره صورة الحلق واللسان والشفيتين لبيان مخارج الحروف » (٢٣) .

وجاء الخط العربي المجدد ، جاء ليرتفع الى هذا المستوى الذي تقوم عليه لغتنا العربية ، ولذلك نجد أن الشكل في الخط العربي هو بالضرورة رابطة بين الشعور الانساني والموضوع الخارجي ، أي بين الذات والحروف ، وهذا يعني ان ثمة تكامل قائم قويا بين الحيز والصيرورة ، واتحاد وثيق بين الباطن كجوهر والشكل كمعنى ، على نحو لا نجده في أي فن آخر حتى في الموسيقى والشعر وهما من الفنون السمعية وهما فنون الرؤية والمكان ، واذا كان « الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى كما يقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فان الخط المجدود وسيلته اليد الشاعرة التي تسمع وترى . وذلك لأن كثافة الحروف قد تلاشت داخل الحيز وان قويا جمالية

(٢٣) احمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ص ٢٥ - القاهرة ١٩٤٢ .

(٢٤) البلاذري : فتح البلدان - ص ١٩٥٦ ، ٤٥٧ - القاهرة ١٩٥٩ .

انظر أيضا ابن التيمم : القهرست ص ٥ ، ٦ طبعة بيروت الصورة ١٩٦٤ .

خط آخر كان هو ايضا شائعا وله شأن كتبت به مدينة يشرب ، وهو ذلك الخط الذي شاع استعماله بعد ذلك في مدينة الكوفة ، وهو الخط الذي شاع وانتشر لأن مصاحف عثمان كتبت به .

ولا شك أن أول تجويد الخط العربي ظهر بفضل كتابة « المصحف الامام » الذي امر الخليفة الثالث عثمان بن عفان بجمعه على أكمل صيغة عربية وهي لهجة « قریش » وارسلت هذه المصاحف ، وكانت ستة ، الى الامصار ، وترتب على ذلك ان شاع منذ ذلك الحين خط هذه المصحف وكتبت به كافة بلاد الخلافة الاسلامية .

ومن هنا نجد أن العناية بتجويد الخط العربي انما يرجع أولا الى كتابة القرآن الكريم ، ومن ثم وقع الثقل على الكتابة العربية عندما عربت الدولة الاموية الديوان الاسلامي .

ولسنا ندري أين ذهبت نسخ « المصحف الامام » الستة ، وأغلب الظن أنه لم يعد باقيا شيئا منها الآن ، وان هذه المصاحف الموجودة في متحف « طوب قابو » باستانبول في الحجرة التي يطلقون عليها (سونت أوده سي) والمكتوب على رق ، ليس هو بمصحف عثمان الذي

ورواية « البلاذري » لا تستند الى أي برهان علمي يمكننا الاستناد عليه ومن هنا لا يسعنا الا أن نأخذ من هذه الرواية . الا أن هناك نفرا من العرب كانوا على بينة من الخط والكتابة العربية قبل الاسلام الذي جاء « وفي قریش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب » (٢٥) وكانوا يطلقون على خطهم « الخط المكي » افتعلت بعض المصادر صورة منه نسبوها الى « ابن النديم » وهي هذه البسملة التي اوردها « بوب » في الكتاب الذي أشرف عليه وسماه « موسوعة الفن الفارسي » (٢٦) وهذه البسملة اذا وضعت في موضع للمقارنة مع أي نموذج من أوراق البردي المصرية التي عثر عليها في « كوم اشقوه » وهي مدينة « افروديتوبولس » وتقع على بعد ثلاثة أميال في الجنوب الغربي من مدينة مشطة بمرکز ابوتيج (٢٧) من مجموعة دار الكتب المصرية أو مجموعة الارشيدوق ريزر التي منها « بردية اهنسيا » (٢٢٢هـ - ٦٤٣م) أو على الشاهد الحجري الخاص « عبدالرحمن بن خير » (متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم ١٥٠٨/٢٠) فاننا نجد ان لا صلة تربطها مع خطوط هذه الشواهد الاثرية التاريخية المؤكدة التي يستدل منها على وجه اليقين أن الخط العربي المستعمل آنذاك كان خطا لنا ولكنه لا يتماثل مع خط هذه البسملة ، وانه لم يكن يتشابه مع

(٢٥) نفس المصدر - ص ٤٥٧ .

(٢٦)

A.U. POPE, SURVEY OF PERSIAN ART, OXFORD 1937.

(٢٧) ادولف جرومان : أوراق البردي المصرية ، السفر الأول - ص ١١ القاهرة ١٩٣٤ .

القاضي ، فأخذه أبو بكر الخازن وجعله في جامع (عمرو) وشهره وجعل عليه خشيبة منقوشا ، وكان الامام يقرأ فيه يوما وفي مصحف اسماء يوما ولم يزل على ذلك الى أن رفع هذا المصحف واقتصر على القراءة في مصحف اسماء وذلك أيام العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة (٢٨٨) .

وليس لاحد أن يزعم ان في حوزته أحد من مصاحف الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » ما لم يخضع هذا المصحف للفحص العلمي الشامل الدقيق ، ومن دراسته وتحليل الرق الذي كتب عليه ومن فحص كيماي للعجر الذي كتب به ، تقول الرواية أن « زيد بن ثابت » هو الذي كتب المصاحف العثمانية أو على الأقل كتب بعضها منها ، ولا بد أن الحروف التي كتب بها هي دون شك حروف الخط المدني في أبسط صوره ، وليس من الصعب علينا أن نحصر رسم الحروف التي كانت مستعملة آنذاك ، ومقارنة كل حرف منها بالحروف التي نجدها في مصاحف عثمان الاربعة الموجودة الآن . « والتي يسود الوهم أن عثمان كتبها وهي ١ - مصحف طشقند ٢ - مصحف الشهيد الحسيني / بالقاهرة ٣ - مصحف الآثار الاسلامية باستانبول (متحف الآثار الاسلامية التركية TURK VE ISLAM ESER- LERI MUZESI) ٤ - مصحف متحف

استشهد عليه ، ولا يمكن بحال ما أن تكون هذه هي حقيقة هذا المصحف وذلك لسببين ، أولهما أن الحروف عليها رقت متكامل ، الامر الذي لم يكن شائعا في عصر الخلفاء ، وثانيا أن الحروف على درجة ملحوظة من الاتقان .

وهناك مصحف آخر نسب الى « عثمان بن عفان » يوجد بدار الكتب المصرية (رقم ١٣٩) والمصدر في ذلك أتوا به من كتاب « الخطط التوفيقية » الذي نقل مؤلفها « علي باشا مبارك » عن المقرئ الذي كان في الجامع العتيق ، وهو ايضا مكتوب على رق غزال والكتابة الكوفية في هذا المصحف موجودة ، ويمكن بالمقارنة مع رسم الحروف أن يرد مصدرها الى الكتابة الكوفية التي استعملت في القرن الخامس الهجري ، والدليل على ذلك أن هذه المصاحف الاخرى المعروضة في دار الكتب المصرية والمكتوبة على رق ، والتي ترجع الى القرن الرابع الهجري هي أقل جودة من مصحف عثمان هذا المزعوم . ويحدثنا المقرئ الذي أنه « حضر الى مصر رجل من أهل العراق واحضر معه مصحفا ذكر أنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنه الذي كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه أثر الدم ، وذكر أنه استخرج من خسائنه المختار ، ودفع المصحف الى عبدالله بن شعيب المعروف بسان بن بخت ولد

المصاحف قد قارب الكمال في الاتقان الكلي بما يتعلق بكتابه « حتى اذا كانت نهاية القرن الهجري الثالث بلغ الرسم ذروته من الجودة والحسن ، وأصبح الناس يتنافسون على اختيار الخطوط الجميلة ، وابتكار العلامات المميزة حتى جعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس ، ولألف الوصل فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة كما يقول الزرقاني » (٣١) .

وبعد المحاولة الاولى في تحسين الخط العربي أثناء كتابة المصحف الامام اiban خلافة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦م) ، تأتي المحاولة الثانية في الاسلام التي كان للمعصر الاموي الفضل فيها بجانب فضله في نقل صناعة الورق من اطراف بلاد الصتن الى الشام حيث تمكن المسلمون بعد ذلك من تطوير صناعته . وأول ما عرف من الورق عرف باسم القرطاس الشامي ، الذي حددت به أنواع الكتابة العربية الاولى ، وذلك لان الورق كان يصنع بمقاسات معينة لا سبيل الى تغييرها ، واشتملت احجامه على مقاس « الطومار » وهو نصف الدرج الذي كان يصنع من نبات البردي الذي أهمل استعماله بعد ذلك وكان مقاس « الطومار » وهو أكبر مقاس في ورق الكتابة ،

طوب قابو باستانبول . وخلاصة القول - كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد - أن هذه المصاحف الاربعة رغم نسبتها الى عثمان ليست بخط واحد ، ولا قياس واحد ، ولا عصر واحد ، ونرجح أنها نقلت عن أصل عثماني قديم ، أي عن أحد المصاحف التي أرسلها عثمان الى الامصار لذلك اطلق عليها مصاحف عثمانية ، ثم توسعوا فجعلوا بعضها بخط عثمان » (٢٩) .

واذا لم يكن لدينا دليل قاطع على أن هذه المصاحف هي مصاحف الخليفة الثالث عثمان بن عفان فليس لنا أن نأخذ بمثل هذه الروايات التي لا سند عليها ، وتبقى الحقيقة لدينا في نسخ من القرآن كتبت بالخط الكوفي سجل عليها وقفية مؤرخة سنة ١٦٨ هجرية (٧٨٤ - ٧٨٥م) وهي محفوظة بدار الكتب المصرية . وكذلك « هناك قطع من القرآن مكتوبة بالخط الكوفي على رق غليظ وهي ذات قيمة أثرية عظيمة ، وأغلب الظن أنها ترجع الى ما بين آخر القرن الثاني الهجري وآخر القرن الرابع ، واقدم هذه القطع تشمل قسماً كبيراً من اجزاء الخامس والعشرين وفواصل آياتها ورود صغيرة مذهبة » (٣٠) . وفي الواقع أن رسم

(٢٩) الدكتور صلاح الدين المنجد : دراسات في تاريخ الخط العربي - ص ٥٠ ، ٥٥ بيروت ١٩٧٢ .

(٣٠) ادوارد روبرسون : أوراق البردي والخطوط العربية مكتوبة و جون ويلاند ، و بالتشتر . مجلة الآداب والفن - ص ٧٩ ، ٨٠ - الجزء الرابع - لندن ١٩٤٤ .

(٣١) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن - ص ٩٤ ، ٩٥ الطبعة الرابعة - بيروت ١٩٦٤ .

المصدر : محمد عبدالمعظم الزرقاني : تناول المرقان في علوم القرآن ٤٠١/١ القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م

النديم ، « كان قطبة هو الذي استخرج الاقلام الاربعة ، واشتق بعضها من بعض ، وكان اكتب الناس على الارض العربية (٣٣) . وقامت شهرته على ابداعه أقلاما جديدة لم تكن معروفة لدى أهل المدينة ولا أهل مكة ولا الكوفة والبصرة . وهذا يعني أن هذا الخطاط الأموي قد خرج عن الخط « المبسوط » اليابس والتزم الخط « المقصور » الذي يسمى بالخط « اللين » والذي كان شائع الاستعمال في مكة وفي المدينة » وخط التقوير أو المقور أو المستدير استعمل في كتابة رسائل النبي عليه الصلاة والسلام وبه أيضا كتبت مصاحف عثمان (٣٤) ويذكر لنا « القلقشندي » نقلا عن الشاطبي صاحب « الابحاث الجميلة في شرح « العقيلة » والخط العربي المعروف الآن بالكوفي في عدة أقلام مرجعها الى اصليين وهما التقوير والبسيط . فالتقوير هو المعبر عنه الآن باللين وهو الذي تكون عرقاته وما في معناها منخسفة منحطة الى الأسفل كالثلث والرقاع ونحوهما . والمبسوط هو المعبر عنه الآن باليابس ، وهوما لا انخساف وانحطاط فيه كالمحقق وعلى ترتيب هذين الاصليين الاقلام الموجودة الآن . ثم قد ذكر صاحب اغاثة المنشئ ان أول من نقل الخط العربي الكوفي الى ابتداء هذه الاقلام المستعملة

وبعده تأتي المقاسات المختلفة التي لكل منها نوع من الخطوط استخدموه ليلام تم قطع الورق .

وقبل أن نتكلم عن سبيل الخط العربي الى الاصلاح والتقويم والتحسين والتجويد والجمال ، علينا أن نذكر الكتابة العربية في إيجلها وفي رقصها لأهمية هذا وذاك . لقد كان الاعجام سليقة فطرية عند العرب ، أما الرقش فقد كان له وجود قائم قبل يحيى بن يعمر وأبي الاسود الدؤلي « ولدنا حديث عن هذا الشأن جاء به ابن الاثير قال « أن النبي عليه السلام قال اذا اختلفتم في الباء والتاء فاكتبوها بالباء وبهذا كانت النقاط توضع في المصاحف ، انما وضعت على الباء والتاء وهذا ما ذكر في كتاب (المحكم في نقاط المصاحف لأبي عمر الداني) ومن ثمة تأتي رواية « معاوية » التي يرويها عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال « كتبت بين يدي معاوية كتابا فقال لي : يا عبيد ارقش كتابك فاني كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا معاوية ارقش كتابك » قال عبيد وما رقصه يأمر المؤمنين ، قال : أعط كل حرف ما ينويه من النقاط » (٣٥) .

وأول من ظهر في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) كسا محمد بن

(٣٣) د . محمد حمدان : صنعة الكتابة في عهد الرسول والمصاحبة - مجلة فن ونكر ص ٢٦ العدد ٣ السنة الثانية - ألمانيا الغربية ١٩٦٤ .

المرجع للمعين رواية السويطي ، وابن حبان .

(٣٤) ابن النديم : نفس المصدر ص ٧ .

(٣٥) ابراهيم جهم : فصلا الكتابة العربية - ص ٢٧ ، ٢٨ مجموعة اقرأ .

الان في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس» (٣٥).

ولدينا نماذج متباينة من الخط «المقصور» وجدناها في أوراق البردي ترجع الى نهاية القرن الاول الهجري . ومما نقله ايضا المؤرخ المصري «القلقشندي» قال أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب .. أن جودة الخط انتهت الى رجلين من أهل الشام يقال لهما : الضحاك ، واسحاق بن حماد وكانا يخطان الجليل ، وكأنه يريد الطومار أو قريباً منه (٣٦) ، ولدينا نصوص تدل على أن الخلفاء الامويين كانوا يكتبون رسائلهم بقلم الطومار .. ويذهب الجهشيارى أن الوليد بن عبد الملك كان أول من كتب من الخلفاء في الطومار (٣٧) .

وإذا كان للعصر الاموي الفضل الأول في تجويد الخط العربي فله كل الفضل بجانب فضله هذا نقله لصناعة الورق ، وأول ما عرف من الورق عرف باسم القرطاس الشامي - الذي حددت به أنواع الكتابة العربية الاولى وذلك لأن الورق كان يصنع من البردي الذي إعملت صناعته واستعماله بعد ذلك ، وكان مقياس الطومار وهو أكبر مقاس في ورق الكتابة وبعده تأتي المقاسات التي لكل نوع منها نوع من

الخطوط استخدموه ليلام قطع الورق هذا ، والطومار كمقاس للورق له عدة أنواع :

١ - الطومار البغدادي وعرضه ذراع مصري واحد . ٢ - الطومار الحموي وعرضه دون قطع البغدادي بقليل . ٣ - الطومار الشامي وهو دون قطع الحموي بقليل . ٤ - الطومار المصري وهو دون قطع الشامي بقليل . ٥ - الطومار المغربي وهو دون قطع المصري بقليل .

وحسبي أقول حقاً إذا قلت أن القلم الجليل الذي عاصر تاريخ الخط العربي ومازال قائماً حتى الآن قد أبدعه الخطاط الدمشقي عند رغبة الخليفة الاموي السادس «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) لانه أمر أن تعظم كتبه ويجلل الخط الذي يكتب به أو على حد قوله كما يذكر «الجهشيارى» «تكون كتبي وكتب الناس الى خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض» (٣٨) .

وقد صار هذا القلم الاموي فيما بعد يسمى بالقلم الطومار وهو أكبر الاقلام «وقدر الكتاب مساحة عرضه بأربعة وعشرين شعرة من شعر البرذون وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم في

(٣٥) القلقشندي : المصدر السابق ص ١١ .

(٣٦) القلقشندي : المصدر ذاته ص ١٢ .

(٣٧) الدكتور صلاح الدين المتجد : نفس المصدر ص ٨١ .

(٣٨) نفس المصدر ص ٨١ .

كما أبدع أخوه يوسف السجزي خطا جديدا أطلق عليه «خط التوقيع» ، لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهر القصص .
وان ذا الرياستين الفضل بن هارون أعجب به وأمر ان تحرر الكتابة السلطانية به دون غيره وسماه القلم الرياسي ،^(٤٢) وقد أعطانا أبو العباس احمد بن علي القلقشندي (٢٢١هـ - ١٤١٨م) نماذج من حروفه في كتابه «صحيح الاعشى» .

وعن ابراهيم السجزي اخذ الخطاط الاحول المحرر أو احمد الاحول كما أطلق عليه الاستاذ بهجت الاثري وهو من صنائع البرامكة كما يقول عنه محمد طاهر الكردي الذي حدد ثقله «بأن خطه مع روعته وبهجتة لم يكن مهندسا»^(٤٣) ، وهو ذات الرأي الذي وصفه به من قبل أبو جعفر النحاس في كتابه صناعة الكتاب وقال عنه «كان خطه يوصف بالبهجة والحسن من غير احكام ولا اتقان وكان عجيب البري للقلم»^(٤٤) ، ومهما كان من أمر فقد أبدع «الاحول المحرر» عدة اقلام استمد اصولها من القلم الجليل ، منها ذلك القلم الذي سماه خط

الزمن المتقدم في ايام بني امية فمن بعدهم»^(٣٩) .

ثم أتى بنو العباس بخلافتهم العباسية (٣٢٢ هـ - ٦٥٦م / ٧٥٠ - ١٢٥٨م) ليظهر أول ما يظهر خطاطان أصلهما من دمشق الاموية ، وهما «الضحاك» و«اسحاق بن حماد» وقد عاش الاول في عهد «أبي العباس عبدالله السفاح» والثاني في عهد خلافة «أبي جعفر المنصور» و«أبي عبدالله محمد المهدي» وكانا يخطان «بالقلم» (الجليل على حد قول «أبي جعفر النحاس» في كتابه صناعة الكتاب) وكأنه يريد خط الطومار أو قريبا منه ،^(٤٥) .

ومن بعدهما ظهر «ابراهيم السجزي» الذي تتلمذ على «اسحاق بن حماد» وأخذ عنه قلمه الذي عرف باسم القلم الجليل واستنبط منه خطين جديدين متجانسين هما خط الثلث وخط الثلثين ومات «السجزي» سنة ٢١٠ هـ بحسرية ، والسجزي كما يقول الشيخ عبدالرحمن بن الصايغ في تحفة اولي الالباب نسبة الى اقليم سجنستان ،^(٤٦) .

(٣٩) القلقشندي : المصدر السابق ص ٤٩ .

(٤٠) القلقشندي : المصدر ذاته ص ١٣ .

(٤١) المصدر السابق ، حاشية على هامش ص ١٢ .

(٤٢) المصدر ذاته ص ١٠٠ .

(٤٣) محمد طاهر الكردي : تاريخ الخط العربي وادواته ، ص ٣٠٩ - القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .

(٤٤) القلقشندي : المصدر ذاته ص ١٢ .

انتشر الخط في مشارق الارض ومغاربها» (٤٦) .

ولابن مقله « يخط يده رسالة في علم الخط والقلم موجودة او حبيسة دار الكتب المصرية وتحتوي على القوانين والقواعد في رسم الحروف العربية الموجودة ، معتمداً على منهج قطر الدائرة التي تبقى عليها جميع أقواس الحروف الابجدية المفردة واعتبر الألف (القطر) هو الاساس الهندسي لضبط الحروف » (٤٧) .

استوزره الخليفة العباسي أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (٢٧٩هـ) ثم استوزره الخليفة ابو منصور محمد القاهر بالله (٣٢٠هـ) وقطع يده الخليفة ابو العباس احمد الراضي بالله (٣٢٢هـ) فقال « يد خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن دفعتين تقطع كما تقطع ايدي اللصوص » (٤٨) .

واذا كان ابن مقله هو أول من كتب الخط اليبدي الذي تطور بعد ذلك الى خط النسخ فله أيضا ستة أقلام هي الجليل ، وخط الثلث ، والثلث الخفيف ، وقلم التوقيعات ، وقلم

النصف ، وآخر سماه خفيف الثلث ، وثالث سماه المسلسل الذي يكتب متصل الحروف : « وكان الخليفة المأمون معجبا بخط « الاحول المحرر » كما كان استاذاً للخليفة المقتدر وأولاده » (٤٩) .

يبد أن دور العراق العباسي في تجويد الخط العربي قد تمثل في ثلاثة من كبار الخطاطين وافذاهم وابعدهم شهرة وصيت وعلم وفن . الاول هو الوزير « ابن مقله » والثاني « ابن البواب » والثالث « ياقوت المستعصي » .

الاول : « أبو علي محمد بن مقله » (٢٧٢ - ٣٢٦هـ / ٨٨٥ - ٩٠٨م) قال عنه « مستقيم ذاه سليمان سعد الدين الفندي » في كتابه تحفة خطاطين « أنه مقله حذقة الزمان ، وهو ذلك الاكاديمي الذي منهج لنا الخطوط العربية وضبط نسب حروفها وحدد شكلها واحكم العلاقات الهندسية التي بينها حتى أصبحت علماً له مناهج مدرسية محكمة ، وهو الذي اعتمد عليه القلقشندي في كتابة مادته عن الخط العربي في موسوعته العلمية التاريخية المؤلف في مصر سنة (٨٢١ - ١٤١٨م) وقال عن ابن مقله « هو الذي هندس الحروف واجاد تحريرها ، وعنه

(٤٩) تركي عطيه جوده الجهوري : الخط العربي الاسلامي من ١٤٣ هـ بقاء ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

(٤٧) القلقشندي : نفس المصدر من ١٣ .

(٤٧) تركي عطيه جوده الجهوري : المصدر السابق من ١٥٥ .

(٤٨) محمد طاهر الكروبي : نفس المصدر من ٣٥٢ .

المقتدر ، وخلع عليه خلع الوزراء في سنة ستة عشر ، واستقل باعباء الوزارة أمرا ومبها ، وبذل فيها ما مبلغه خمسمائة ألف . ثم استوزره . . الراضي ثم جرت خطوب أوجبت أن الراضي حبسه بداره ثم ضيق عليه وسعى به اعداؤه الى الراضي فقطع يده اليمنى «^(٥١)» ومات في حبسه مقتولا ، ومن شعره يشير الى قطع يده .

ما مللت الحياة لكن توثق
ت بايمانهم فبانت يميني
ثم احسنت ما استطعت بجهدني
حفظ ارواحهم فبا حفظوني
ليس بين اليمين لذة عيش
ياحياتي باننت يميني فيميني
وفي ثرى بغداد توسد جسد ابن مقله الوزير
ليختلط التراب بالتراب ، وفي تاريخ بغداد ظل
الخطاط المجود حيا يعيش أبدا مع الزمان .

واخذ الخط عن ابن مقله محمد بن
السهماني المتوفي سنة ٤١٥هـ ، ومحمد بن
اسد البزاز البغدادى المتوفي سنة ٤١٦هـ ، ومن
بعدهما ظهر مجود عظيم عرف باسم « ابن
البواب » .
وابن البواب هو « أبو الحسن علاء الدين

الرقاع ، وقلم الغبار ، وكانت مكانة ابن مقله
بين معاصريه كاستاذ ومقتن فنون الخطوط
العربية وموضع تقدير ومن ذلك « قال ابوحيان
التوحيدي في رسالته علم الكتابة مارواه عن
الزنجي » اصلح الخطوط واجمعها لاكثر
الشرط فاعلية اصحابنا في العراق ، فقليل له ما
تقول في خط ابن مقله قال : ذلك نبي فيه ،
افرغ الخط في يده كما أوحى الى النحل في
تسدس بيوته «^(٤٩)» .

وابوحيان التوحيدي هو ذلك المعلم المحقق
الناقد الوراق الناسخ وفي رسالته هذه « يشير
ابوحيان مشكلات كمشكلات هذا العصر في
الفن وفي قواعده ، وأهمها وحلة الفنون ، فهو
اذا تحدث عن حسن الخط وعن دور القلم ،
فانما يتحدث عن الفن بصورة عامة وذلك انه
كخطاط ووراق ، وكاديب مبدع وباحث ، لا
يستجلب امثلة ولا تدور افكاره الا من معين
مهنته وفنه «^(٥٠)» .

وبين الخطاط المجود والوزير الكبير
تأرجحت حياة ابن مقله ، تأرجحت بين
عبقريه الفنان ومأساة الوزير . الذي انتهى به
الأمر الى قطع يده ثم قطع لسانه ، وذلك لان
الوزير كان له رغبة في الدنيا « استوزره الخليفة

(٤٩) ناجي زين الدين المعروف : يدائع الخط العربي ص ٤٨٩ بغداد ١٩٧٢ .

(٥٠) الدكتور عفيف بيسي : دراسات نظرية في الفن العربي - القاهرة ١٩٧٤ .

(٥١) محمد بن علي بن طهانيا : القهري - ص ٢٠١ القاهرة بدون تاريخ .

نقي السريرة حافظا للقرآن والحديث استن
لنفسه سنة ان ينجم كتاباته على نحو لم يكن عند
غيره مثل « كتيبه علي بن هلال . . حامدا لله على
نعمه ومصليا على نبيه محمد وآله وعترته » و يظهر
فضل ابن البواب وفضل علمه واستاذيته في
كتابة الخط العربي المجهود أنه لما مات رثاه أحد
الشعراء فقال :

واستشعر الكتاب فقدك سالفنا
فجرت بصللا ذلك الايام
فلذلك سودت الدوي وجوهها
أسفا عليك وشقت الاقلام

ولدينا الآن نماذج مختلفة من خطوط ابن
البواب المختلفة نجد بعضها في متحف الآثار
الاسلامي التركي وله ايضا بمتحف « الطوب
قابو » نماذج من خطه .
وتوفي ابن البواب سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م أو
سنة ٤٢٤هـ (١٠٣٢م) ودفن بجوار قبر الامام
ابن حنبل ببغداد .

وعن ابن البواب اخذ الخط « محمد بن
عبدالمك ، وعنه أخذت الشيخة المحدثه
الكاتبه زينب الملقبة بشهدة ابنة الأبري ، وعنها
أخذ أمين الدين ياقوت » (٥٤) وهو ثالث الثلاثة
الكبار في العصر العباسي ويعرف باسم ياقوت

علي بن هلال « قال عنه القلقشندي هو الاستاذ
ابوالحسن » الذي أكمل قواعد الخط وتممها
واختصر غالب الاقلام التي اسسها ابن
مقلة « (٥٣) أي أن ابن البواب « هذب طريقته
ونقحها وكساها طلاوة وبهجة » (٥٣) .

ولا بن البواب رائية تناولت منهجه في تجويد
الخط العربي مطلقا ؛
يامن يروم اجادة التحرير
ويريد حسن الخط والتصوير
إن كان عزمك في الكتابة صادقا
فارغب الى مولاك في التيسير
أصده من الاقلام كل مشقف
صلب يصوغ صناعة التحبير
والاقلام التي كتب بها ابن البواب متعددة
منها قلم النرجس وقلم الريحاني والقلم المنثور
والقلم المرصع والقلم اللؤلؤي والقلم الواشي
والقلم المدمج والقلم المسلسل والقلم
الحوائجي . وذهبت شهرة ومكانة الحسن بن
علي بن هلال لتصل الى عريضة الشاعر المعري
وهو الكفيف ليقول :

ولاح هلال مثل نون أجادها
بماء التضار الكاتب ابن هلال
وكان « ابن البواب » زاهدا متواضعا الثياب
كبث اللحية ، وكان على خلق ، هادى النفس

(٥٣) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٣ .

(٥٣) محمد طاهر الكرمي : نفس المصدر ص ٣٣٤ .

(٥٤) القلقشندي : ذات المصدر ص ١٤ .

التاريخ المحتمل الذي مات فيه ياقوت المستعصمي^(٥٧).

وإذا أخذنا بهذا التاريخ على وجه اليقين فلا يمكن بحال ما إلا أن نقول أن ياقوت المستعصمي ينسب إلى الخليفة العباسي أبواحمد عبدالله المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) وبهذا تسقط الرواية التي تنسب ياقوت إلى السلطان السلجوقي (ملكشاه) الذي توفي سنة ٤٨٥هـ. أن بين سنة ٤٨٥هـ وسنة ٦٩٩هـ التي توفي فيها ياقوت حوالي ٢٣٤ عاما وتكفي هذه السنوات العديدة لكي نتأكد من أن الرواية التي قالت بأن ياقوت كان من مماليك السلطان ملكشاه هي رواية لا تستقيم مع الواقع والحقيقة التاريخية.

لقد أطلق على ياقوت المستعصمي لقب قبلة الكتاب، لأنه قد تمكن عن جدارة بالكتابة بالاقلام السبعة وهي الثلث والنسخ والمحقق والريحاني والتوقيع والرقاع. وفي متحف الآثار الإسلامية التركية العديد من المصاحف المذهبة التي كتبها، وكذلك بمتحف قابو العديد من نماذجها المختلفة الخطوط.

وفي عصر الخليفة العباسي (أبواحمد عبدالله

المستعصمي) ياقوت بن عبدالله الموصل (الذي عرف أيضا باسم ياقوت الرومي مات سنة ٦٩٩هـ-١٢٩٩م) وأصله من مدينة أماسيا من الأناضول السلجوقي^(٥٥) وتاريخ وفاة ياقوت وترادف اسمه بلبق الملكي نسبة إلى السلطان جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥هـ-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) قد التبس على الكثير من تناول سيرته، فقد ذكر الخطاط محمد طاهر الكردي أن المستعصمي توفي سنة ٦١٨هـ^(٥٦). وجاء في مصور الخط العربي الأستاذ ناجي زين الدين المصرف أن الذي مات سنة ٦١٨هـ هو ياقوت عبدالله الحموي وهو غير المستعصمي بيد أن الخطاط الكردي لم يكن على يقين من هذا التاريخ فأعطانا تاريخاً آخر لوفاته المستعصمي هو ٦٩٩هـ ذكر في تحفة الخطاطين. ولابد أن هذا التاريخ هو التاريخ الأقرب إلى الصواب بدليل أننا نجد في متحف الآثار الإسلامية التركي بإستانبول مصحفا مذهباً بخط النسخ مؤرخ ٦٨٥ هجرية (١٢٨٦م) (رقم ٥٠٧) جاء في آخره وكتب ياقوت المستعصمي في سنة خمس وثمانين وستمائة بمدينة السلم بغداد حامد الله تعالى على نعمه ومصليا على نبيه محمد وآله الطاهرين ومسلما، ومن ذنوبه مستغفرا (آخر الصفحة رقم ٢٥٧). وبذلك يكون عام ٦٩٩هـ هو

(٥٥) الأتراك في الفن الإسلامي : أوغور دوران : مكتبة الأتراك في الخط الإسلامي من ٢٠ سبتمبر ١٩٧٦ .

(٥٦) محمد طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٦٩ .

(٥٧) الدكتور محمد عبدالمعز مرزوق : الفن الإسلامي - ص ١٧٤ - بغداد ١٩٦٥ .

المعتصم بالله « حلت الكارثة الفادحة بأرض المسلمين في شهر المحرم من سنة ٦٥٦هـ يناير ١٢٥٨م هب اعصاب مهجي مدمر واندفعت جمافل المغول بقيادة السفاح هولاكو « فخرت بغداد الخراب العظيم واحترقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ماكانت في الدنيا مثلها » (٥٨) .

وكان لايد أن يتنقل الثقل الحضاري من الشرق الى الغرب . انتقل الى مصر بعد موقعة عين جالوت التي انتصرت فيها جيوش المسلمين بقيادة « قطز » على جيوش المغول يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٨م وكان من الطبعي أن يتنقل بعد هذه الاحداث الجسام الثقل الحضاري من بغداد الى القاهرة وان يتحول مسيرة تجويد فنون الخط والكتابة الى مصر المملوكية ويذكر الفلقتندي ليصل بين العراق ومصر « وعن ياقوت أخذ الولي العجمي » وهو ولي الدين علي بن زكي وعنه اخذ عفيف الدين محمد الحلبي وعنه اخذ ولده الشيخ عماد الدين ويقال انه كان كاهن البواب في زمانه ، وعن الشيخ عماد الدين بن العفيف اخذ الشيخ شمس الدين بن ابي رقية محتسب القسقاط ، واخذ عنه الشيخ شمس الدين

محمد بن علي الزفناوي الذي صنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها اليه في صناعة الكتابة . وعنه تخرج الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري محتسب مصر الذي نظم في صنعة الخط ألفية سماها « العناية الربانية في الطريقة الشعبانية » (٥٩) « وعن الزفناوي اخذ ايضا نور الدين الوسيحي وعنه اخذ ابن الصايغ شيخ كتاب مصر في عصره ٨٤٥هـ وله رسالة في تعليم الخط » (٦٠) .

لقد كان لمصر ابان الخلافة العباسية دورها في تجويد الخط العربي حتى أن بغداد عاصمة العالم الاسلامي في ذلك الوقت كان اصحاب الفكر فيها يحسدون أهل مصر على الخطاط « طبطب » و « ابن عبد كان » كاتب الانشاء في سلطنة احمد بن طولون ٢٥٤هـ - ٨٦٨م وذهب قولهم « بمصر كاتب وعمر ليس لامير المؤمنين بمدينة السلام مثلها » (٦١) .

بيد أن مفهوم الخط العربي وتجويده في مصر اiban العهد الطولوني ومن بعده العهد الاخشيدي لا يخرج عن كونه عباسي المظهر والسمات ، ولدينا فيها لدينا لوحة تأسيس المسجد الطولوني بالخط الكوفي وهي على درجة متواضعة من الاتقان .

(٥٨) ابوالحسن تغري بري : التيجان الزاهرة - الجزء ٧ ص ٥٠ القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٢م .

(٥٩) تاجي زين الدين المصرف : نفس المصدر ص ٣٧ بغداد ١٩٧٢ .

(٦٠) الفلقتندي : نفس المصدر ص ١٤ .

(٦١) الفلقتندي : نفس المصدر ص ١٣ .

فارس والعراق والشام والاندلس ومصر ، ومن ثمة باتساع ارض المسلمين كلها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وذلك على هدى من الفكر السني الذي انطلق من هذه المدارس التي أسسها الوزير العالم نظام الملك « أبو علي حسن الطوسي » وعند ابعاد مفكرها وعلماء العصر من الذين انسابت آراؤهم الى عقول المسلمين لتغير وتزيل الصدا العباسي وتمسف الفواطم واستبداد آل بويه . في ذلك العصر ظهر المجودون الذين عملوا على تطور اشكال الخط الكوفي وغيروا من أنماطه التقليدية وادخلوا عليه العديد من الاشكال المتباينة حتى اصبح يسمى الخط الكوفي الهندسي والكوفي المزهر والكوفي المضفر . وأول ابداع سلجوقي من هذا الخط الكوفي نراه في جامع دمغان بایران ٤١٧هـ - ١٠٢٦م . أما أجل الامثلة منه فنجده في الجزء الاعلى من المحراب الخزي في جامع علاء الدين بمدينة قونية وهو الجامع الذي بناه السلطان السلجوقي كليج ارسلان ٦١٧هـ - ١٢٠٠م وفي هذا المحراب نجد ابتكار خطاطي عصر السلاجقة من خط الكوفي المزوي الذي اصبح بعد ذلك وسيلة تعبيرية جمالية رائعة للتذوق الذهبي حتى اصبحت الكتابة الكوفية لأول مرة في تاريخ الفنون وفي تجويد الخط العربي تشكيل تعبيرى منبثق عن العلاقة التي بين ما هو قائم في الحيز وبين الارتباطات الدوقية عند الخطاط المسلم ، حتى اصبحت الكتابة العربية الكوفية تبدو في صميم شكلها

واذا كانت مدرسة مصر لها التبعة الفنية لكل ماكان قائما في بغداد فانها قد شكلت بعد ذلك مدرستها حين انتقلت الخلافة اليها بعد الكارثة المغولية ، وعلى الاخص حين جاء ذلك المجود الكبير « الحسن بن علي الجويني » المتوفي سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م وهو ذلك الخطاط الذي قالوا عنه « لم يكتب بعد ابن البواب اجود منه » .

وفي العصر الفاطمي (٢٩٧ - ٥٦٧هـ / ٩١٠ - ١١٧١م) ظهرت كتابة عربية بالخط الكوفي مخفورة بالجامع الازهر ٣٦١هـ - ٩٧١م واخرى مخفورة على الخشب في جامع الحاكم بأمر الله الذي تم سنة ٤٠٣هـ - ١٠١٢م ثم هذه الكتابة الحجرية التي نجدها على وجهة الجامع الاقمر الذي انجز في عهد الامر باحكام الله الفاطمي ٥١٩هـ - ١١٢٥م الذي يتميز عصره بظهور الخط اللين المستدير بجانب الخط الكوفي الذي تحول في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر السلجوقي الايوبي ٥٦٩هـ - ١١٧٤م الى تصور مختلف تعددت فيه نماذجه وتنوعت أشكاله ، وأجملها على الاطلاق المحراب الذي اقامه الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤م في المسجد الطولوني .

وكان للعصر السلجوقي قبل العصر المغولي قوة إبداعية تدفقت على العالم الاسلامي في

للحلية والتاريخ لأنه طوع كاتبه يتمشى معه في كل زخرف وهندسة وتشكيل ، مع بقاء حروفه على قاعدتها » (٦٢) .

وتصل قمة الخط الكوفي الى ذروتها في المصاحف السلجوقية التي ترجع الى القرن الحادي عشر والثاني عشر ، وبالمتحف البريطاني نستخدم من القرآن الكريم تحتوي على صفحات جميلة محلاة بوحداث زخرفية من صفائر وتفريمات نباتية تحمل مميزات العصر السلجوقي المبتكر وخصائصه التي انفرد بها . وقد كتب هذه النسخة الخطاط المجسود أبو القاسم بن ابراهيم وتاريخها جمادي الاول سنة ٤١٧هـ / ١٠٢٦م وتستقيم هذه الذروة الجمالية في التشكيل الكوفي المنحوت على الخشب في لوحة توجد في متحف جلال الدين الرومي بمدينة قونية وعليها « يا حاضرة مولانا » في تكوين مبتكر من الافقية والرأسية والعلاقة الروحية التي تجمع بينها بأبعادها الدوقية .

وفي عهد السلاجقة تحول خط المصاحف من الكوفي الى خط النسخ الذي أصبحت له مكانته الفنية الرفيعة ولدينا أمثلة عديدة منه في متحف الآثار الاسلامية التركية ، « وأقدم مصحف مكتوب بالخط النسخي الفتي موجود بمكتبة شيلستر بي بمدينة دبلن » (٦٣) .

أما ضرب من التلاقي الروحي بين خطوط افقية واخرى رأسية تماسكت عند زوايا انخفضت حدتها وصلابتها . ومن هنا جاءت الكتابة الكوفية لها اوزان متباينة الابعاد ، التداخل الذاتي فيها له حركات مكانية ذات تفاعل متغيرة التردد الايقاعي وهذا ما جعل منها كتابة ذات قيمة فنية واثرة لا نظير لها . ومن ناحية اخرى نجد أن مميزات الخط الكوفي انه مصدر تلاقي روحي بين الافقية والرأسية التي قام عليها النمط المعماري للمسجد . أما الزمن المتخلل بين أبعاد الحروف الكوفية فقد وضع الفموض في هذه الكتابة ، الامر الذي أدى الى صعوبة فهمها وحكم على قارئها أن يكون صاحب ذهن مشع وحس لماع وذوق متجاوب أما هذا الجلال الذي يبدو عليها ويحيط بها فيرجع الى ان تشكيلها الفتي قد طرح فيها صورة تجريدية مطلقة اخذت سبيلها الى التراث الفتي الاسلامي كصلة بين الافقية والرأسية في معمار المسجد .

يقول الاستاذ يوسف احمد « ويظهر خط النسخ انسحب الخط الكوفي الزاهر من ميدان الكتابة الاجتماعية ، ورضي أن يكون زاهدا ناسكا قائما يسكن المساجد والمحاريب وزخرفة المصاحف ، فكان يكتب في المساجد والمصاحف تبركا وحلية ، وفي القصور والاسوار وغيرها

(٦٢) يوسف احمد : الخط الكوفي ص ١٣ القاهرة بدون تاريخ .

(٦٣) الدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق : المصنف الشريف ص ٢٤ بغداد ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

والكتبة هي : CHESTER BEATTY, DUBLIN

المدرسة السلجوقية فهذا لا يعني إلا أن العكس كان هو الصحيح وإن المدرسة السلجوقية كانت حلقة اتصال بين عصر ذهب وعصر جديد أخذت فيه مظاهر الحضارة الإسلامية تشكل في ذاتها اتجاهات فنية إسلامية جديدة أشعل جذوتها المفهوم السني نفوس المسلمين ومدرسة الاتابكة في الجهاد التي منها مدرسة نور الدين محمود الحربية التي وقفت لثرد الصليبيين والقرامطة وفرق غلاة الشيعة والرافضة وعلى رأسهم أمثال ابن العلقمي الذي يقول عنه ابن تغري بردي « أنه كان رافضيا خبيثا حريصا على زوال الدولة العباسية »^(٦٥) . وكذلك نجد الحشاشين وبني بويه والقواطم والمغول ، ورغم المحن والمصائب وضياح الكثير من تراث المسلمين من جراء سقوط بغداد وتكالب هذه الفرق على اتحاد الحضارة الإسلامية ، ففي هذا العصر نجد أن الفنون الإسلامية في مصر لها مميزات حضارية قيمة مختلفة عن هذا الذي كان قائما من قبل إبان العصر العباسي الذي ارتكزت اتجاهاته الفنية على التطور التاريخي للفنون الذي يسير على الوتيرة الواحدة .

وفي هذا العصر الذي يمكن أن نسميه « عصر ما بعد المدارس النظامية » نجد الكتابة الكوفية وخط النسخ جنبا إلى جنب ، الأمر الذي كان متبعا في كتابة المصاحف السلجوقية

وقد تفاعلت الرؤية الفنية لحروف خط النسخ السلجوقي مع الأستاذ « د . بارت » فكتب عنها يقول « والحقيقة أننا نستطيع أن نقول أن نظرة إلى صفحة من القرآن في العصر السلجوقي تعطي من السرور النفسي ما تعطيه تلك النظرة إلى صفحة من موسيقى باخ »^(٦٤) .

وإذا كانت مدرسة الخطوط المجودة المصرية لها مكانتها المميزة إبان الدولة الفاطمية ٢٩٧ - ٥٦٧هـ / ٩١٠ - ١١٧١م والدولة الأيوبية ٥٦٩ - ٦٥٠هـ / ١١٧٤ - ١٢٥٢م فهي قد لامست السمت في عصر المماليك البحرية والبرجية: ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م والذي يعد عصرهم يحق من ازدهار عصور الفن الإسلامي . لقد أخذت المدرسة المصرية المملوكية مكانتها في الإبداع الفني المتعدد الذي نراه بيننا الآن في القاهرة المملوكية من عمارة وخزف ونسيج وزجاج وحفر وتكفيت وفنون الكتاب من خطوط مجودة وتجليد وتذهيب . وإذا كان هذا الثقل الفني قد ظهر في أواخر العصر الفاطمي واثناء العصر الأيوبي فلذلك إنما أتى بدوافع تكونت من البنية الإسلامية السنية التي أخذت تتسرب في أواخر العصر الفاطمي الجائز لتعلن عن نفسها ، وكان لابد أن يتغير التكيف الشكلي للحروف العربية ونوع الكتابة ، وإذا مانست هذه الأعمال إلى

(٦٤) د . بارت : الفن الإسلامي ببلاد فارس - ص ١٧٦ - كتاب تراث فارس القاهرة ١٩٥٩ .

(٦٥) تغري بردي : نفس المصدر ص ٤٧ .

وسبعين ورقة عظيمة الحجم والسبك ويقال ان هذا المصحف اعظم مصاحف العالم حجبا ، والصفحات الثلاث الاولى مكتوبة بتمامها بحروف ذهبية ، والعنوان شديد التتبيق والزخرفة (٦٦) وهو من مقتنيات مكتبة جون ريلاندر بمانشستر .

ذهب البعض ان الخطوط المصرية لا ترتفع الى مستوى المدرسة السلجوقية ، وبنوا رأيهم هذا على أن مصر تعلقت بخط الطومار التقليدي والسلاجقة جودوا خط النسخ وجاء هذا الرأي مع مقارنة بين المصاحف السلجوقية المكتوبة بخط النسخ والتي قالوا انها ارفع مستوى من خط المصاحف المملوكية التي كتبت بخط النسخ المستدير الجلي ، وفي تصوري أن هذه المقارنة لا تقوم الا عن القياس الشكلي للأنماط في تصورها الخارجي ، والأنماط هنا لا يمكن أخذها بدلالات لها ميزان خارج عن الموازين التي يجب ان يقاس الخط العربي بها وهذه المقاييس ذوقية قبل كل شيء وترجع الى حساسية الكلمة وقمعا الخطي عند المجدوم وليس لديه صلة بهذه الحساسية فليس في وضع ان يحكم على مثل هذه الامور ، التي تتعلق بمفهوم الفن الاسلامي الذي لا يقوم الا على خصائصه البهتة بمقوماتها الذاتية وعند دوافعه الروحية المنبثقة من واقع العقيدة الاسلامية في مفهومها الالهي .

وهو كتابة أسماء السور بالخط الكوفي والصورة بخط النسخ ، وهذا ما كان متبعاً ايضاً في كافة الاعمال الفنية الاخرى ، وتأخذ على سبيل المثال المحراب الفاطمي في جامع ابن طولون وتابوت الاسام الشافعي المحفوظ بالمتحف الاسلامي بالقاهرة (رقم الاثر ٤٠٩) ومحراب مشهد السيدة رقية (رقم الاثر ٤٤٦) . وهكذا تبلورت مفاهيم الفن الاسلامي وبدأت الخط الثلث يأخذ لنفسه سمات مميزة مختلفة اذ اصبحت حروفه كبيرة ومستديرة ولهذا اطلقت عليه اسم خط الثلث المملوكي أو الجلي المصري الذي نجد منه نماذج كثيرة لدينا في دار الكتب المصرية التي بها المصاحف الضخمة الكبيرة مثل مصحف السلطان قلاوون ٦٩٢هـ - ١٢٩٣م ومصحف السلطان حسن ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م ومصحف السلطان شعبان ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م ومصحف الامير سرعطمش (٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) ومصحف السلطان برقوق ٨٠٠هـ - ١٣٩٨م ومصحف السلطان المؤيد ٨١٥هـ - ١٤١٢م وهناك مصحف عظيم القيمة هو المخطوطة الضخمة التي تحمل اسم خاتم الاشرف قانصوه الفوري السلطان المملوكي ٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م قبل الاخير لمصر ، وهو كان يدل المال بسخاء ، وأغلب الظن أن المصحف كتب بناء على طلبه بعيد سنة ست وتسعمائة هجرية . وهذه المخطوطة مكتوبة على اربعمائة

(٦٦) لدارد بورسون : نفس المصدر ص ٨٠ .

الشرقي كتابة كوفية من الحصى مكتوبة بخط الثلث واخرى من الخشب كبيرة الحجم الذي يتوازي مع ما اخذت به مصر المملوكية من سمات الخط العربي الطومار الذي سمي باسم الخط الثلث المملوكي . وفي الواقع ان خط الطومار اخذ لنفسه مسارات مختلفة لما فروق في الوزن وهو أم الخطوط ولا يعتبر الخطاط عظيمًا الا اذا اتقنه واحسن كتابته ، واذا كنا نحدد الشيوخ الشامل لخط الطومار في كافة العالم الاسلامي الى حجم الورق ومقاساته المختلفة كما قلنا من قبل .

لم يتناول أحد من الشعوب الاسلامية الخطوط العربية الموجودة مثل ما تناولها الفرس اولًا ثم الاتراك من بعدهم ، لقد اصبح الحرف والقلم ويد الانسان تعني خفقات في الابقاع الجميل داخل النفس المبدعة ، ابقاع له رنين وجدان وله وميض الهام ، طرح باطني لمعبرة يد انسان شرقي خلفها الله ولها حساسية غيبية امسكت بالقلم لتجعل من الحروف العربية صدى مسموعا للجمال والجلال من خلال اعمال كبار الخطاطين الفرس والاتراك . لقد ظهرت مدرسة جديدة بالغة الالامية غيرت مفاهيم التجويد والتحسين وجعلت للحروف مذاقا فنيا له صورة بصرية موضوعية ، وله صورة سمعية تتردد غفقاتها داخل الحروف وفي

ان هذه الفروق التي بين خطي النسخ السلجوقي وجلي الثلث المملوكي انما جاءت متأثرة بالمكان والظروف الاجتماعية عند كل من السلاجقة والمماليك . وموضوعية هذه الظروف هي التي دفعت بالسلاجقة ان تكون مصاحفهم صغيرة الحجم وذلك لتصبح سهلة النقل معهم وهم كما نعرف لم يتمتعوا بالاستقرار في مكان لانهم كانوا في غزوات متلاحقة ، أما المصاحف المملوكية فقد كتبت ليوقفها اصحابها على مساجدهم التي شيدت على نفس القياس ، فالمسجد السلجوقي صغير جدا اذا قيس بالمسجد المملوكي الكبير الذي نرى العديد منه في القاهرة المملوكية مثل مدرسة الجاشنكير وجامع قلاوون ومدرسة السلطان حسن التي تأخذها على انها قمة معمارية ومعجزة بناء لا نظير لها في ايران أو في الاناضول السلجوقي ولا حتى في استانبول العثمانية التي بها العديد من المساجد الكبيرة مثل السليمانية والسلطان احمد وشهزاده . ويمدنتنا المؤرخ تقي الدين المقرئ عن مدرسة السلطان حسن فقال « بدأ السلطان عمارته سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله أكبر قالب وأحسن هندام واضخم شكل فلا يعرف في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذا الجامع » (٦٧) .

ويعبده السلطان حسن نماذج مختلفة من الكتابة العربية فعلى الطنط الموجود بالاياوان

(٦٧) المقرئ : نفس المصدر ص ٣١٦ .

ذات المجود المبدع ومن ثمة داخل نفس المتلوق .

كانت البداية حين طرح المجود الفارسي النمط الشكل التقليدي الذي كان له التزام جوهرى يتبع اسلوب ابن مقلة وابن البواب واخذ نفسه بتصوير للحروف مختلف ، وبمعادلة جديدة مصدرها احساس الخطاط بنفسه وقيمته وما يمكن ان يعده وما يكتشفه ويتعرف عليه من علاقات بين الشكل الخارجى للحروف والذات الانسانية ، حيثل انثى مذاق رفيع جعل من الحروف العربية وقواعدها الخطية ليس مجرد نقل للشكل يقتضى مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف ووزنها الشكلي بل اصبحت الغاية القصوى لديه مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف مع مآثره من مضمون روحى ، اى ان الخطاط المجود العبقري اخذ يلتزم أنماطا جديدة غير معروفة طرح من حروفها الموزونة تعبيراً روحياً جعل من الخطاط صوفياً متمرساً من ارباب الاحوال والمقامات يفيض قلبه ولسانه ويده بحب الله فأكثر من كتابة لفظ الجلالة في خط مميز جميل ليتقرب به رتبة من الله . فلقد كان الخطاطون اعظم الفنانين مكانة في العالم الاسلامي عامة وفي ايران خاصة لانشغالهم بكتابة

المصاحف » (٦٨) . التي هي « كلمة الله ويد انسان » (٦٩)

وبداية المدرسة الفارسية كما يذكرها لنا « حاجي ميرزا عبدالمحمد خان ايراني » في كتابه « يسدايش خط وخطاطان » (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م) ان خطاطي القرن الثامن الهجري (١٤م) قد ترسموا طريقة ياقوت المستعصي بعد خراب بغداد ، قال وهم ستة : عبدالله الصيرفي الذي اشتهر بقلم النسخ ، وعبدالله ارغون ٧٤٢هـ (١٤م) بخط المحقق ، يحيى الصوفي وهو من تلاميذ الصيرفي سنة ٧٣٩هـ (١٤م) بخط الثلث ، ومبارك شاه قطب ٧١٠هـ (١٤م) بقلم الرقاع ويؤكد أن يحيى الصوفي وحده اخذ الخط عن ياقوت مباشرة (٧٠) وهؤلاء غير الذين ذكرهم القلقشندي . ومن المعروف لم يصلنا سوى القليل من فنون الكتاب وصناعته في فارس حتى القرن الثاني عشر (٧١) .

وفي القرن السابع الهجري (١٣م) ظهر في افق العالم الاسلامي من خلال عبقرية الانسان المسلم خط التعليق الذي يعرف باسم الخط الفارسي ومن مميزاته ميل حروفه من اليمين الى

(٦٨) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي - ص ١٦ القاهرة ١٩٤٦ .

(٦٩)

PHILIP BAMBOROUGH, TREASURES OF ISLAM, P.21, G.BRITAIN

(٧٠) تاجي زين الدين المعروف : نفس المصدر ص ٣٨ .

(٧١) ١ . بارت : نفس المصدر ص ١٧٨ .

ومن المشاهير الذين جاءوا من بعد هؤلاء واحتفظ التراث بأفضالهم في حقن تجويد الخطوط العربية يأتي اسم عبدالرحمن الخوارزمي وابنه عبدالكريم الخوارزمي الذين عملا معا في تحسين الخط والتعليق .
وعبدالكريم هو الذي كتب درة المخطوطات الفارسية وهو ديوان جلستان للشاعر عبدالرحمن جامي ، وفي ذلك العصر ظهر « ابراهيم سلطان » الذي كان من أبرع اللاعين بالحروف وعرفت عنه مقدرته على الكتابة بستة أساليب خطية مختلفة وفي ضريح الامام رضا بمشهد مصحف بدیع بخط ابراهيم سلطان تاريخه في سنة ٨٢٧هـ - ١٤٢٤م (٧٣) .

وكان بكل مدينة من مدن فارس الاسلامية كبار خطاطيها ، وكان التنافس بين المدن المختلفة يشكل في ذاته مدارس لتجويد الخطوط العربية قائمة ، ولكل منها مميزات التي تجعلها في موضع الشهرة عن غيرها من المدن الاخرى .
وكانت لمدينة هرات مكانة لامعة عندما أسس بها شاه رخ مدرسته التي ضمت الخطاط والمصور والمذهب وصانع الورق ، وقمة اعمال هذه المدرسة يظهر في نسخة الشاهنامة التي تعرف باسم شاهنامة طهران وقد كتبها المجود جعفر بيستقر التبريزي سنة (٨٣٢هـ - ١٤٢٩م) للشاه بيستقر ميرزا الذي سار على

اليسار في اتجاهاتها من أعلى الى أسفل ويشكل حرف النون مفتاح قواعد خط التعليق ، فاذا انت اتقنته اتقنت باقي الحروف ، لان القاعدة فيه أن تأخذ اولها بسن القلم ليتحول الى صدره ثم ليتتهي به مرة اخرى .

وبين خط النسخ وخط التعليق ابداع الاستاذ العظيم مير علي تبريزي الذي ذهبوا فيه عن حق انه اعظم من كتب واجاد ، واجل من تناول القلم وجود ، واليه يرجع الفضل في ابتكار خط النستعليق وهو كما يبدو من اسمه جمع بين خطي النسخ والتعليق ، كان منهج التبريزي ليحصل منه أكثر رشاقة من الخطوط اللينة الاخرى ، عدا انه يحتفظ بصفات خط النسخ الرزين وخط التعليق الرشيق ، ومن أقدم أعمال علي تبريزي وأجملها نسخة من قصة هامي وهمايون التي كتبها خوجة كرمانى وهي من مقتنيات المتحف البريطاني بلندن (رقم ١٨١١٣) ويرجع تاريخها الى سنة ٧٩٩هـ - ١٣٩٦م وتنسب الى بغداد (٧٢) وكان مير علي تبريزي في خدمة الامير تيمور وخلفه ابنه عبدالله فاتم بعض التفاصيل في هذا الخط الجديد وكان له تلميذان مشهوران اولهما مولانا جعفر التبريزي الذي كانت له رئاسة اربعين خطاطا كانوا يشتغلون دائما للامير بايستقر ، والثاني هو الاستاذ مولانا أظهر التبريزي (٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) .

المرقعات كتبها سنة ١١٠٨هـ - ١٥٩٩م وهي الآن من مقتنيات متحف طوب قابو باستانبول .

وتذهب البراعة الفائقة في كتابة خط التعليق الى هذه الورقة التي كتبها الخطاط سلطان علي مشهدي وهي لم تكتب بمداد انما كتبها مفرغة على ورقة بيضاء وتحته ورقة في لون برتقالي باهت وهي الاخرى من مقتنيات متحف طوب قابو .

ولا يعني تعلق الفرس بخط التعليق والنستعليق ان ليس لهم ممارسة لباقي الخطوط . لا شك أن الخطاط الفارسي له مذاق خاص كان يستهويه ، فالنستعلقي الفارسي دون شطحات كان ممارسة روحية ، وتذوق الفارسي للحياة جعله يحب الطبيعة التي خلقها الله وصورها أحسن تصوير ، ولهذا نجد وله الفارسي بالحديقة والسجادة التي تشبه الحديقة أو الجنة ، ونرى شعراء الفرس لا يفصلون بين الطبيعة والتصوف ولهذا أصبح الغزل الصوفي وحب الطبيعة في أعمال فريد الدين العطار وعند سنائي وجلال الدين الرومي ، وعلى ذات الروي وعلى نفس البحر اخذ الخط مسالكه فيها بينهم حتى اسقطوا بعضه في ابهام الصوفية واسرارها ولهذا وجد عندهم الخط الذي يعرف باسم شكسته ، وشكسته اميز ، وهما من الخطوط المبهمة واللغاز المعقدة أو هو طلسم ملغز ولا يعرف كتابته او قراءته احد الا من تعلمه ومارسه ونهم رموزه .

درب اييه شاه رخ ، وعمل على ان تكون مدرسة هرات اكاديمية للكاتب لها شهرتها التي ذهبت لتملأ العالم الاسلامي .

وكانت المدينة تبريز في عهد الشاه طهما سب (٩٣١ - ٩٨٤هـ / ١٥٢٤ - ١٥٧٦م) الفنية التي علت شهرتها الى مكانة لم تبلغها أي من المدن الفارسية الاخرى ، وذلك بفضل والد الشاه اسماعيل الصفوي (٩٠٨ - ٩٣٠هـ / ١٥٢٤ - ٥٠٢م) الذي كان قد شمل المصور محمد كمال الدين بهزاد والخطاط محمود النيسابوري وحين قامت الحرب بين الشاه اسماعيل والسلطان ياوز سليم الاول سنة ٩٣٠هـ - ١٥٢٣م اخفاهما الشاه في كهف حرصا عليهما من أن يقعا في أيدي الاتراك .

ودرة اعمال محمود النيسابوري نسخة من ديوان المنظومات الخمسة التي كتبها الشاعر نظامي الكنججوري وتاريخها ٩٣٢هـ - ١٥٢٤م وهي الآن في متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك .

وكانت لمدينة اصفهان شهرتها التي تأتت لها من نبوغ الخطاط الاستاذ ميرعماد الحسيني توفي سنة ١٠٢٤هـ - ١٦١٥م الذي مازال الايرانيون يذكرون اسمه ويتكلمون عنه حتى الان كلما تحدثوا عن الخط ومشاهيره ، وعماد الحسيني هو من افضل من كتب خط التعليق وله مجموعة من

ابدع الاتراك مدرستهم التي كان لها الدور الكبير في تحسين الخطوط وتجويداها وابتكار الحسن والجديد منها ، ان الادراك الحقيقي للكلمة الموجودة المكتوبة عند الخطاط التركي كانت لديه إحساسا ذوقيا وحسبيا لان حروف العربية قد اصبحت لديه تحمل في شكلها معنى والتعرف على هذا المعنى انما يتأتى وميضاً بصل مباشرة الى رؤية جمالية ، فالتصور الذي نشده المحدث التركي في البسمة بالخط الجلي او النسخ او التعليق او الديواني و اراد أن يبرزه قدر المستطاع وان ينقله أماناً في اداء محكم حسب قواعد التجويد الشالي لحروف البسمة التي اصبحت من خلال كتابتها بخطه المحكم لا تمثل شكلاً غائباً ولا رمزاً مبهماً انما تمثلت حروفاً عربية قائمة في الحيز ولها وضع جمالي متحرك ينعكس بطبيعته داخل نفوسنا ليصبح ترديداً للمعنى الصوفي للعلاقة التي تربط بين الانسان وبين بسم الله الرحمن الرحيم .

والاتراك اخذوا الخط من سلاجقة الروم كما اعطتهم ايران بالقدر الذي اخذوه من مصر المملوكية ، ومن هذا كله تكونت المدرسة التركية العثمانية التي اصبحت بفضل المذاق العثماني خلاصة للرقيق المعطر الشذي الذي تدفع ليضيف لتراث الاسلام الفني الاعجاز العبقري الذي صنعه قلم من الغاب لتناوله يد الانسان المبدعة لتمطيه لنا تفاسياً انغامها شرقية

ان صياغة الحروف العربية ورسمها المعجز كانت عند الفارسي الانسان كمناجاة الناي لجلال الذات وقدرته ، أو هي لديه عشق وجوي فاض من وجد خطاط مجود جوهراً اوضعه قلب الكلمة فانطقها الشاء على الله . أو هي اشارات شاهر هائم اخذ به الحال فتجلى الشوق ذوقاً في اشعاره مترغماً بحب الله ، وان هذه الحروف قد اصبحت مكاشفات صوفي متعبد ترشح بمجاهدات قلبه همسات ابتغى بها القرب من الله ، أو أن الخطوط العربية قد اصبحت كنيات وابتهاالات لبستاني همس بنجواه من فوق رياض الاشواق لله .

ان مكنون هذه الوشائج المترابطة قد طرحت نفسها على شعب آخر من المسلمين نزل تجويد الخط العربي في انفسهم كما لم ينزل على أحد من غيرهم من قبل . يقول الاستاذ اوغور درمان « ان في العالم الاسلامي مثلاً سائدا يقول : نزل القرآن في الحجاز وقرىء في مصر وكتب في استانبول » والواقع أن معجزة القرآن كتحة فنية لم تنعكس على الورق الا في استانبول وكذلك اللآلئ من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكتب مثل حبات اللؤلؤ الا في هذا البلد أيضا (٧٤) .

وفي اعتقادي انه ليس في هذا الكلام اي مغالاة لان من بين الشعوب الكاتبة بالعربية

مدينة بسوسة واخرى يفتتها متحف مولانا جلال الدين الرومي .

وإذا كان الخطاط الحاج احمد كامل قد ذكر أن أول السلسلة الذهبية من الخطاطين الاتراك هو الشيخ حمد الله الاماسي ٨٣٣ - ٩٢٧هـ / ١٤٢٩ - ١٥٢٠م فاننا قد وجدنا في متحف الآثار الاسلامية التركية بمدينة استانبول مصحفاً كتبه ارجون الكامي (رقم القيد ٤٥٢) مؤرخاً سنة ٧١٧هـ - ١٣١١م ومصحفاً آخر كتبه يحيى الصوفي مذهب ومزهر (رقم القيد ٤٣٠) مؤرخاً سنة ٧٤٣هـ - ١٣٤٢م وما أقدم ما نعرف عن الخطاطين الاتراك ، ويمكن اعتبارهما مع غيرهما من الممهدين للمدرسة التركية وبذلك يبقى الشيخ حمد الله أول الفيض التركي .

والشيخ عبدالرحمن حمد الله الاماسي المعروف باسم الشيخ كان أول من خرج من الخطاطين الاتراك عن الاسلوب الاتباعي ، وأخذ نفسه بأقلام جديدة غير مسبقة شجعه عليها تلميذه السلطان بايزيد الثاني وفي متحف طوب قابو مصحف كبير مؤرخ ٩٢٦هـ - ١٥٠٩م عدد اوراقه ٤٧٣ وله مرقعه كتبها بالاقلاخجلسته مكتوبة بالعربية والفارسية مذهبة وملونة والبعض منها بخط التعليق .

خالصة ، « صار القلح المعلى في هذا الشأن للعثمانيين ، فقد اشتهر منهم الشيخ حمد الله الاماسي الذي نهل الخط من منبئه العربي الاصيل كما ذكر في ترجمته ، ونشأ من تلاميذه جيل ممتاز من المجريين وقد تنوعت سلسلتهم ، فذكر رئيس الخطاطين احمد كامل في لوحة كتبها نقلا عن شيخه حمد الله نصا باللغة التركية ذاكرة نسبة الخطي ، قال ما ترجمته بالعربية « ان الشيخ حمد الله كان شيخ الخطاطين ، ارخ رحيله بالحروف سنة ٩٢٦هـ وبعده جاء شكر الله لسلسلة مشيخة الخط ، ثم محمد حسن ، ثم خالد درويش علي ، وبعده مصطفى ، ثم جاء لحفظ طور الشيخ الحافظ عثمان ، أرخ وفاته بالحروف ايضا في سنة ١١١٠هـ ثم جاء بعدهم السيد عبدالله افندي أرخه الناظم لسنة ١١٤٤هـ ثم ذكر الاستاذ راسم وأرخه بالحروف في سنة ١١٦٩هـ وختم ابياته بالسنة التي نظمها فيها وهي ١٣٤٢هـ (٧٥) .

والتراث التركي من الخطوط العربية الموجودة محفوظ في متاحف الدولة ، في متحف طوب قابو ، ومتحف الآثار الاسلامية التركية ، ومتحف الخطوط التركية (مدرسة السلطان سليم) الذي يحتوي نماذج عديدة كتبها سلاطين آل عثمان ، كما توجد مجموعة متنوعة في متحف

الكبير في أغلب الكتابات الكبيرة مثل الكوفي المحقق والثلث الجلي أو ثقیل الثلث ، وقد سميت هذه الاقلام بالجلي وشملت التسمية خط التعليق الفارسي أيضا « جلي التعليق » على أنه يتبادر للذهن أن كلمة الجلي اختصت بالثلث فقط فهي تعني الواضح ، سمي لذلك لما في حروفه من سعة على ما تقتضيه الموازين ، ووضع الكتابة في مواضعها من واجهات المساجد والقباب ، والمتابر والألواح ،^(٧٧) .

وإذا أردنا أن نضع في تصورنا هذا الجلي العثماني فالتنا نجد منه ما يمكن أن نسميه « جلي الجلي » في ذلك الخط الكبير الذي كتبه الخطاط التركي « ييلاقجي زاده مصطفی شلي » في جامع ايا صوفيا ، كتب هذا الخطاط آيات من القرآن الكريم بحروف كبيرة من الذهب بلغ طول الألف فيها مبلغا كبيرا ارتفع الى عشرة اذرع على أن هذه الآيات الجميلة التصوير التي تتشابه في كثير من الاحيان قد حدثت من كبرها اسماء الخلفاء الاربعة الراشدين التي كتبت في وضوح وجزالة وكتبها الخطاط تكتجي زاده ابراهيم ، ابان عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٣ - ١١٠٥ هـ - ١٦٢٣ - ١٦٤٥ م)^(٧٨) .

ومن ابرز من كتب الخط واجساد رئيس

وفي عصر السلطان سليمان القانوني (٩٢٧ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) كان في تركيا مجود كبير هو احمد قره حصارى ولد سنة ٨٧٤ ومات سنة ٩٦٤ هجرية ١٤٦٩ - ١٥٥٦ م ، وقد تميز هذا الخطاط بخط الجلي وأخذ قلمه به وبرع في كتابته وفي متحف الآثار الاسلامية التركية مخطوط له مکتوب فيه سورة الانعام على الصفحات الاولى مذهبة بخط الثلث الثقيل وبعدها سورة بخط النسخ ومن ثمه سطور بخط الثلث الثقيل ثم سطران بخط الثلث الخفيف . وفي متحف طوب قابو مصحف آخر له كتبه بخط المحقق والريائي . ومن ابتكارات الخطاط قره حصارى هذه الصفحة التي تحتوي على كلمة الحمد لله وسورة الاخلاص بالخط الكوفي البسيط ثم البسمة بخط جلي مبتكر وان كانت على القاعدة التي كتبت بها البسمة في ديوان الانشاء للقلقشندي^(٧٩) .

وخط الجلي الثلث هو خط الطومار ولقد جعل العثمانيون الاثرى الخط الجلي على منشأهم الدينية وفي ألواح المساجد والجوامع وفعل ذلك من قبلهم اهل التركستان في ماوراء النهر ، فجعلوا عرض القلم في عرض كتابات الجدران والمحاريب ١٠ - ٢٥ سم حققوا كلمة الجلي التي تطلق على ما يكتب الحرف العريض

(٧٧) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٧٨) ناجي زين الدين المعروف : نفس المصدر ص ٤٦٥ .

(٧٩) دائرة المعارف الاسلامية : رقم ٢ ص ١٢٢ - القاهرة .

أبدع مقاييس جديدة أخذت بها الحروف الالجدية تتمثل قيا جمالية أضفت عليها أبعاداً ذوقية لها طين موسيقي ، « لقد ارتقى مصطفى راقم إلى ذروة اساليب الخط من الثلث والنسخ والجلي »^(٨٢) ولا سيما في حرف - لا - الذي نراه لديه ولدى غيره ممن جاء من بعده له أبعاد جمالية جديدة ، ولمصطفى راقم مرقعة كتب عليها لا حول ولا قوة الا بالله جمع فيها ال (لا) في تكوين مثالي معجز وهي من مقتنيات متحف الآثار الاسلامية التركي .

ويأتي من بعد هؤلاء الكبار ذلك الخطاط الذي لمع كصاحب مدرسة وهو السيد مصطفى عززت قاضي عسكر (١٢١٦ - ١٢٩٣هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٦م) له العديد من الاعمال المميزة منها ما كتبه داخل القبة الرئيسية في جامع اياصوفيا حيث نشاهد بها البسملة مع آية الكرسي مكتوبة بخط جلي الجلي في مساحة دائرية منحرفة الى أعلى بلغ طول الكتابة فيها سبعة ونصف من الامتار ، كما له كتابات أخرى على حوائط هذا الجامع ، وعمل عزت افندي مدرساً للخط في المكتب السلطاني (المدرسة) وتجلت استاذيته في كتابة الجلي والثلث والنسخ والرقعة والفارسي والديواني . وكان له اخ برع

الخطاطين « حافظ عثمان افندي » (١٠٥٢ - ١١١٠هـ / ١٦٤٢ - ١٦٩٨م) وهو عثمان علي الذي تقول الاتراك عنه « شمس خط جديد أخذت تشرف في سماء الفن باستانيول »^(٨٣) ، تتلمذ الحافظ عثمان علي الخطاط درويش علي « السلي تعلم على يده أكثر من ألف طالب »^(٨٤) ، وأكمل تعلمه للخط واجادته على يد الخطاط « سيولجي زاده مصطفى الايوي » « وفي سن الثامنة عشرة كان الحافظ عثمان مؤهلاً لنيل اجازة الخط ، ولم تمتعه هذه الاجازة من ان يتعلم على الخطاط نفيس زاده سيد اسماعيل ، ومن ثمة وجد انه في الامكان ان يعطي الغير ثمار اجازته للخط وعاش ليمضي سنوات حياته القصيرة يكتب ويعلم حتى أصبح مدرسا للخط للسلطان مصطفى الثالث وفي سن الاربعين مات ودفن في مدافن كوجا مصطفى باشا باستانيول »^(٨٥) .

كان الحافظ عثمان افندي مركز ثقل في فنه وكان حلقة وصل بين الجيل القديم والجيل اللاحق له الذي ازدهر بالعديد الذي لا يحصى من الموجودين الاتراك من بينهم اسماعيل زهدي ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م وأخوه مصطفى راقم (١١٧١ - ١٢٤٢هـ / ١٧٥٧ - ١٨٢٦م) الذي

(٨٣) اوزغور هردان : نفس المصدر ص ٢١ .

(٨٤) طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٣٩ .

(٨٥)

(٨٦) اوزغور هردان : نفس المصدر ص ٢١ .

الجاحدة بترات تركيا الاسلامية ، ويمتاز حامد الأمدي بجلاء رؤية في ضبط حروف العربية وهو يكتب عدة أقلام ويحسبها منها الجلي والتعليق . ولم يكن حامد الأمدي هو وحده الذي استمر بمعركة الخط العربي في تركيا فقد تكان معه على سبيل المثال الحاج كامل الدين المتوفي سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٤٠م ، والحاج نوري كرماني المتوفي سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١م . والمعاصر امين باريم .

لقد كتب الخطاط التركي عدة أقلام قديمة ومبتكرة ، كتب الجلي وجلي الجلي وكتب بالخط السنيلي والرياسي والرقعة أو قيرمة رقعة سي الذي كتب به أول من كتب ابوبكر غنار بك مصطفى افندي في عهد السلطان عبدالمجيد خان ١٢٨٠هـ - ١٨٦٣م وخط الديواني الذرورة التركية المعروفة باسم الخط الهمايوني وهو الخط الذي استعمل في الديوان العالي العثماني وكتبت به أوامر السلطان والالعامات والفرامانات ، وهنا رأي يقول ان أول من كتب به هو ابراهيم منيف ولكن الاستاذ ناجي زين الدين المصروف يذهب ان أول من كتبه هو شعله باشا .

واذا كان العراق العباسي قد اخرج اللبنة الاولى للخطاط المسلم ممثلة في أوابد بن مقله وابن البواب وياقوت فالعراق ابدان حكم المصاليك المعروفة باسم الكولات ١١٦٣ - ١٢٤٧هـ / ١٧٤٩ - ١٨٣١م . برز خطاطون

هو ايضا في تجويد الخط واسمه الحافظ تحسين افندي وكان مدرسا للخط في مدرسة دار الشفقة الاسلامية بالآستانة . ومن تلاميذ الخطاط عززت بسرع شفيق بك (١٢٣٥ - ١٢٩٨هـ / ١٨١٩ - ١٨٨٠م) وفي ذلك الحين افتتن بعض الخطاطين الاثراك بخط التعليق الفارسي فاستعاد البعض تصرر عماد الحسيني ومن هؤلاء الخطاط فخر الدين البروسوي (١٠٢٨هـ - ١٦٦٨م) وله عدة مرقعات بخط التعليق من بعضها ما كتبه بالحروف المقرغة .

وبعد ذلك ظهر الخطاط محمد أسعد يساري المتوفي سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٩م وله مرقعة بخط التعليق في متحف طوب قابو . ومن بعده ظهر ابنه يساري زادي مصطفى عزت الذي كتب بخط جلي التعليق . ومن بعده جاء نجم الدين اوقيسي (١٣٠١ - ١٣٩٦هـ / ١٨٨٣ - ١٩٧٦م) ، والخطاط عبدالله بك زهدي أخذ عن حافظ راشد افندي ونال اجازته عن مصطفى افندي عزت قاضي عسكر وعين معلما للخطوط بجامع نور عثمانية بالآستانة ثم ندبه السلطان عبدالحميد لكتابة الحرم المدني الشريف ومن أفضلها انه أقام مدرسة للخطوط العربية بالقاهرة ومات بها سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٧٨م ومن أشهر الخطاطين في العصر الأخير نجد الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعي توفي سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م والخطاط احمد كامل ومن ثمة حامد الأمدي الخطاط المعاصر الوحيد الصامد خطه العربي الى الآن امام لاثنية تركيا الحديثة

محمد علي باشا الذي عين الاستاذ التركي عبدالله بك زهدي مدرسا للخط بمدرسة الخديوية « وقت اثناء ذلك كلفته الحكومة المصرية كتابة الآيات القرآنية وغيرها على كسوة الكعبة الشريفة - عندما كانت هذه الكسوة تعمل في مصر - كما كتب سبيل ام عباس ، وتوفي في مصر سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٥٢م ودفن في مقابر جامع الرفاعي وتخرج عليه كثيرون » (٨٥) .

ومن ثمة جاء الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعي امام الخطاطين وأحد المجودين العظام في عصره استقدمه الملك احمد فؤاد الاول ملك مصر سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢١م ليكتب له مصحفا « فكتبه في ستة اشهر وأتم تذهيبه ونقشه في ثمانية أشهر » (٨٦) .

وكان آخر من جاء الى مصر من الاتراك الاستاذ احمد كامل الذي ذكرنا لولحته التي وضع على رأسها حمد الله الاماسي ، وقد تخرج على احمد كامل العديد من الخطاطين المصريين حين كان يدرس الخط العربي في مدرسة تحسين الخطوط بالقاهرة .

وقد يكون الاستاذ محمد مؤنس افندي زادة

اعظم كانوا زينة العراق ومظهر ذوقه واتقانه ... فكان من آخر هؤلاء استاذ الخطاطين ونايبتهم سفيان الوهيي ذاع صيته في العراق وزادت شهرته وعاش استاذ الخط من سنة ١٢١٥هـ - ١٨٠٠م وله مصحف كتبه بخطه لا يزال موجودا في جامع الاحمدية في بغداد ، أخذ عنه نعمان الذكاني ودرويش محمد الفيض وعمود القلعة في المعروف بالثنائي وبكر افندي اغازاده وهؤلاء أهل فن » (٨٣) .

أما العراق الحديث فهو زاخر بالعديد من الخطاطين منهم الخطاط هاشم محمد البغدادي الذي حصل على اجازته من مدرسة تحسين الخطوط الملكية في القاهرة عام ١٩٤٤م وحصل على شهادة دبلوم بتقدير امتياز رغم انه لم يمكث بها سوى اسبوع واحد للامتحان » (٨٤) واجازة سيد ابراهيم المصري ، واجازه مرتين الاستاذ حامد الامد التركي ، وتوفي سنة ١٩٧٣م وكان الخطاط عبدالغني عبدالعزيز هو وحده الذي منحه الاستاذ هاشم محمد البغدادي اجازة الخط دون غيره ، ومن تلاميذ هاشم ايضا صادق الدوري وعبدالله الجبوري .

وبدأت نهضة فنون الخطوط العربية الموجودة في مصر المعاصرة ابان الخديوي اسماعيل بن

(٨٣) عباس الغزالي : صالحة من تاريخ الخط في العراق - ص ٤ مجلة الآداب والفن - الجزء الثالث - السنة الثالثة - لندن ١٩٤٥ .

(٨٤) تركي عطية عبيد الجبوري : نفس المصدر ص ١٧٥ .

(٨٥) طاهر الكري : نفس المصدر ص ٢٤١ .

(٨٦) المصدر ذاته : ص ٢٨٦ .

بترميم الكتابة الكوفية في مسجد احمد بن طولون في القاهرة . ومن الذين تفرغوا لتدريس الخط بمدرسة الخطوط بالقاهرة محمد الفندي زاده وكان بجانب حسن خطه يدرس التذهيب والزخرفة ومات سنة ١٣٥٦هـ -

١٩٣٧م . وفي القاهرة لمح الأستاذ نجيب هوايني الذي كانت له أمشاق خط من الثلث والنسخ كانت تسمى السلاسل الذهبية وكانت تدرس لنا في المدارس الابتدائية ، وفي القاهرة نجد الأستاذ السيد ابراهيم الذي عمل مدرسا في مدرسة تحسين الخطوط العربية بالقاهرة والأستاذ محمد حسني واصلة من سورية .

وإذا أخذنا من كان موجودا من كبار الخطاطين بالاسكندرية فاننا نجد فيها نجد الأستاذ محمد كاظم الانصهاني والأستاذ عبدالسلام الفخاخ توفى سنة ١٩٣٨ وكان يسكن ويعمل في حي الموازين بالاسكندرية ، ولم يكن يخلو منزل بحي رأس التين من آية كتبها أو اسم الجلالة ، ولع ايضا في هذا البلد الأستاذ محمد عبده والأستاذ شفيق المصري . وكذلك الأستاذ محمد ابراهيم الذي أعطى للمنهج التعليمي لتجويد الخط العربي الصفة المدرسية وأقام مدرسة تحسين الخطوط في الاسكندرية وكان لها الفضل في تخريج العديد من التلاميذ ، توفى سنة ١٩٧٠ .

هو شيخ الخطاطين المصريين ، في عهده أخذ الخط عن والده ابراهيم افندي مؤسس (٨٧) وله مخطوط كتبه سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م وهو من مقتنيات دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ومن تلاميذ الأستاذ مؤسس الأستاذ محمد افندي ابراهيم الملقب بالافندي الذي عمل مدرسا في مدرسة ام عباس ثم في مدرسة تحسين الخطوط العربية . ولع في مصر الشيخ علي البدوي الذي كتب الآية الشريفة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » على شكل دائرة على السبيل المصري في « مئ » الذي أنشأه الملك فؤاد الاول (٨٨) وظهر ايضا مصطفى بك غزلان وكان له أمشاق كتبها بالخط الديواني وطبعتها مصلحة المساحة وكانت تعطي لنا في المدارس الابتدائية ، وهو الذي كتب الآيات القرآنية بخط الثلث داخل قاعتي العرش في قصر عابدين بالقاهرة وقصر رأس التين بالاسكندرية ، وفي عام ١٣٥٦هـ - ١٣٧٠م انجز غزلان بك درة اعماله الفنية حين كتب كساء الكعبة لمصلحة الكسوة التي كانت ترسل من القاهرة الى مكة المكرمة كل سنة منذ أيام المماليك وحتى ابطالها الرئيس السابق لمصر .

ومن المدرسة الحديثة نذكر أيضا الأستاذ يوسف احمد مفتش الآثار الاسلامية الذي قام

(٨٧) المصدر ذاته : ص ٣٨٦ .

(٨٨) المصدر ذاته : ص ٣٨٨ .

تعطي الحروف إيقاعات عالية ومنخفضة أي أن الحروف العربية المجودة بين القرار والجواب - إذا جاز لنا أن نستعمل هذا المعنى - إنما تقوم على حركات زمانية لها ضوابط مكانية متناسبة الشكل متساوية الوزن أي أن لها ذات الأبعاد الإيقاعية التي تمتاز بها الموسيقى الشرقية القيمة وذات ضربات الشعر العربي في تفاسيله المتباينة .

وفي سبيل ادراك الصلة بين الألحان السمعية والخطوط المرئية يمكننا أن نضع الخطوط المجودة في موضع المقارنة مع الإيقاع الذي هو في صميمه موازين زمنية كما هو موازين ذوقية ، ومن هنا تأتي الصلة ، حيث نجد كيف المكاني في الخطوط العربية المجودة والكم الزماني في اللحن يشكلان نسبا متباعدة بعضها عن البعض ومتقارب البعض الآخر . والخلاف في الموازين والعدد مبعثه طبيعة كل منها إذ أنه ليس جمع الحرف إلى الحرف يعني جمع البعد إلى البعد لأن الأمر في كل منهما إنما يأخذ له حتمية المشاركة التي دائما ما تقوم بين التشكيل أي كان وبين التدفق ، وذلك لأن الأبعاد في كل منها له مقاييس أفقية ورأسية متوالية الحركات والمنظور في هذه الأبعاد زمني أكثر منه مكاني ، وذلك لأن عنصر الزمن متداخل بين الحرف والحرف وبين الطنين والطنين والبعد الزمني المخلل ضرورة ، بدونها لا يمكن أن يستقيم التجويد في الخط ولا التناسق في اللحن ، ولهذا

هذه لمحات عاجلة ومقتضبة من تراث الخطوط العربية الذي إذا نظرنا إليه وتأملنا ما هو قائم الآن لوجدنا أن الملكات قد أصبحت محدودة من هذه المادة الخالدة لأن دوافع الخطاط المجود قد أصبحت دوافع واهية الصورة والتميز لأنهم لا يرون من الخطوط العربية إلا المظهر الشكلي والقليل من قواعد النسب المفروضة وفقا لمقتضيات الحروف وأبعادها الشكلي وسيرا على درب هؤلاء القدامى من الخطاطين المجودين اصحاب المواهب الذين جعلوا التعبير تشكيلا فنيا يتدفق ليعبر عن ذاته وعن حقيقة أن الذات الشرقية هي الوسيلة إلى اظهار القيم الجوهرية في ذاتها ومع النفس المسلمة المبدعة لذاتها ومن ذاتها ، وبهذا كانت الحروف العربية المجودة في مظهرها وفي جوهرها تطبيقا مرئيا لتلك الطاقة المبدعة التي يخترنها انسان الشرق الاسلامي في اعماقه .

ان الكلمة الموجودة في شكلها التركيبي إنما تأخذ لها هذه الأصرة الجمالية الموجودة المنبثقة من المعادلات الدوقية الكامنة في كل حرف مجود وذلك لأن الحروف العربية إنما تستقيم في شكلها على هذه الصورة الرفيعة لأنها قائمة على مقاييس رياضية بجانب لمساتها الروحية ، ولهذا نجد أن الكلمة المجودة بين التركيب والتحليل قائمة أولا على العنصر الذاتي الذي يعطي لها شخصيتها التي هي في الواقع جزء من شخصية مجودها . وثانيا ، على المقاييس الدقيقة التي

واخذت اوريا بهذا القرد وصارت في اوج مدنيتهما المادية والحربية ، اما نحن فلم نستشف ما عني به الحلاج بقوله انا الحق وتركنا قوله لنسير خلف القرد نعتق ماديته وننتبع خطواته الى حضارته المزيفة القاتلة .

لقد كان ومازال الخط العربي أحد المظاهر الحقيقية للحضارة الاسلامية ، وهو وحده الذي مازال قائما ومميزا حتى الآن رغم كل المعوقات التي تعترضه ، والدعوات الخبيثة التي تنادي بتركه والانصراف عنه الى الحروف اللاتينية .

ان فن الخط لم تعد له هذه القداسة التي كانت تميزه في الماضي ولولا هذه المجهودات الفردية التي تبذل هنا وهناك لاصبحت الخطوط العربية خطوط متاحف (يتفرج عليها السياح) .

لقد قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده « ان الاسلام محجوب بأهله » واستمع الاستاذ الامام في اعادة كلمته وأقول « ان الاسلام يافضيلة الامام محجوب بأهله الاغبياء » .

يفسر الايقاع كما يذهب فيه الحسين بن زيلة « انه تقدير ما لزمان النقرات ، فان كانت النقرة منعمة كان الايقاع شعريا لحنيا ، وان كانت محدثة للحروف - المتظم منها كلام - كان الايقاع شعريا »^(٨٩) ونضيف الى ذلك ، وان كانت محدثة للحروف المكتوبة كان الايقاع تمجيدا . وبهذا يمكننا أن نضيف هذا الايقاع الخطي لانه في حقيقته له نفس الابعاد الزمنية التي يتخلل حركاتها نغمات لها اوزان محسوبة بدقة امتدادها الزمني .

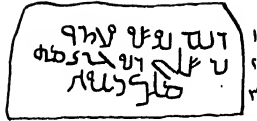
بهذا تكون وحدة الحركة قائمة في كل منها كما يذهب الى ذلك ابوحيان التوحيدي في قوله « الحركة صورة واحدة ولكنها توجد في مواد كثيرة ومجال مختلف وبحسب ذلك تولي أساء مختلفة »^(٩٠) .

هذا هو بعض من تراثنا في الكتابة العربية وخطوطها المجودة وهو جزء من تراث كبير متكامل كلنا تأملته واقتربت منه ثم رأيت الناس تعرض عنه وتنصرف الى غيره يحضرنا ابيات الشاعر الباكستاني بودي الذي يقول فيها :
قال المنصور ، أنا الحق
وقال دارون انا قرد



(٨٩) الحسين بن زيلة : الكافي في الموسيقى - تحقيق زكريا يوسف - ص ٤٤ القاهرة ١٩٦٤ .

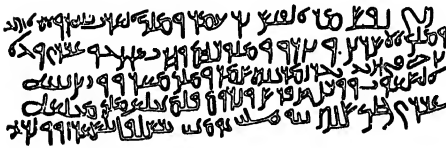
(٩٠) ابوحيان التوحيدي : الغلبات . ص ٢٢٥ - القاهرة ١٩٢٩



شكل رقم (١)

نقش نبطي على قبر فهر - تاريخه ٢٥٠ م - شرقية في أم الجبال
ونصه كالآتي :

- ١- دنة نفشو فهر
 - ٢- بن شلى هو جد ميت
 - ٣- ملاك تنوخ
- هذا قبر فهر - ابن شلى مري حذيمه - ملك تنوخ
- نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .




شكل رقم (٢)

نقش النمار : شاهد قبر اميرى القيس

كتابة نبطية عربية - تاريخها سنة ٣٢٨ م

نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .

ل/ سر حبل بر ظلمو بسب د/  المروكول
 بسب بدو كلكسر علا مفسد
 حبل
 عاص

نص حران

شكل رقم (٣)

نقش حران : شاهد قبر شرحيل - كتابة عربية تاريخها ٥٦٨ م
 ونصها كالآتي :

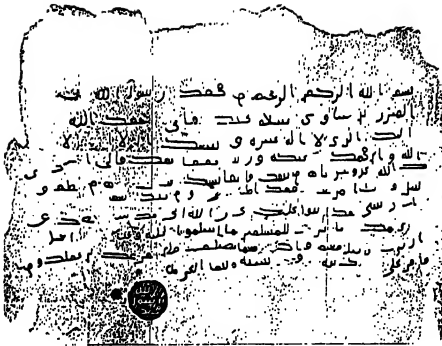
انا سر حبل بر ظلمو ذا المروكول

سنت ٤٦٣ بعد نفسه

حبل

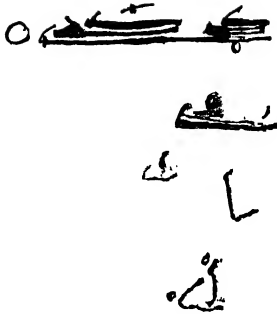
بعد

نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .



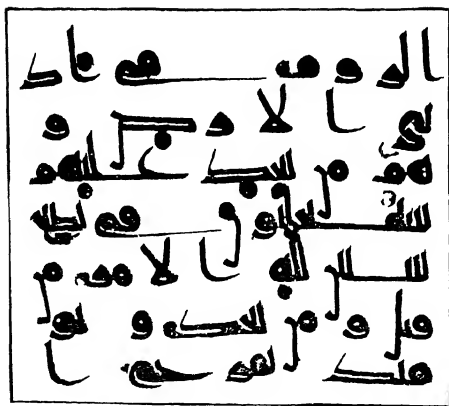
شكل رقم (٤)

صورة الرسالة التي أرسلها حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى المنذر بن ساوى
تقلا عن : دراسات في الخط العربي (المنجد)



شكل رقم (٥) :

نموذج من الخط المدهنى - حروف منتولة عن المصحف المنسوب لعثمان بن عفان
الموجود بمتحف طوب قابو - نقل محمود حلمى *



شكل رقم (٧) :

- ورقة من صحيف مكتوب بالخط الكوفي - أواخر القرن الثاني الهجري .
- نقل عن : مجلة الفيصل - العدد ٢٦ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قِيدُوا الْعِلْمَ

بِالْكِتَابِ

كُتِبَ عَلَى نَبِيٍّ هَذَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ

وَبُصِّلَتْ عَلَى نَبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالِدِ وَعَشْرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ

شكل رقم (٨)

الورقة الأخيرة من مخطوط كتبه ابن البواب بقلم الثلث - من مقتنيات

متحف الآثار الإسلامية التركية بإستانبول •

نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصروف) •

عَمَّ النَّسِيحُ وَتَسْعُو وَتَلِيَقُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

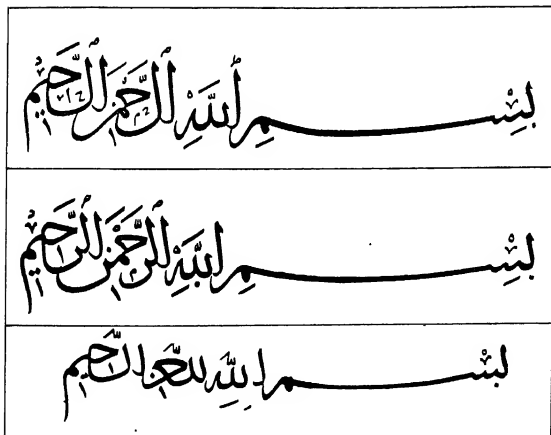
كَبَعْصَنِ كَرَحْمَةِ

شكلى رقم (٩) :

ورقة من القرآن الكريم : بداية سورة مريم

يقلم الثلثين - جليل الثالث - القاهرة القرن الثامن الهجرى *

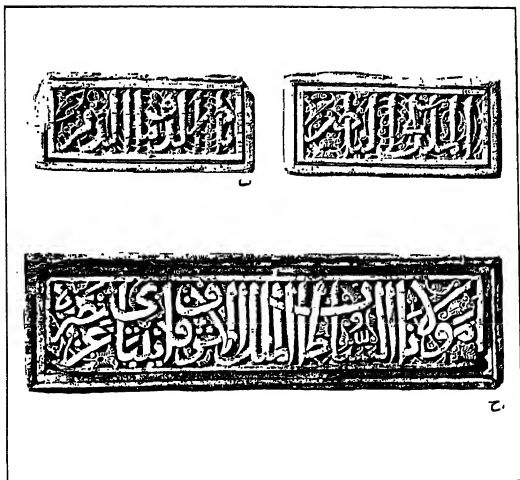
نقل عن : يدائع الخلد العربى (المشرّف) *



شكل رقم (١٠) :

البسملة : ثلاثة نماذج من خط الثلث السلوى المصرى

نقلا عن : القلقشندي .



شكل رقم (١١)

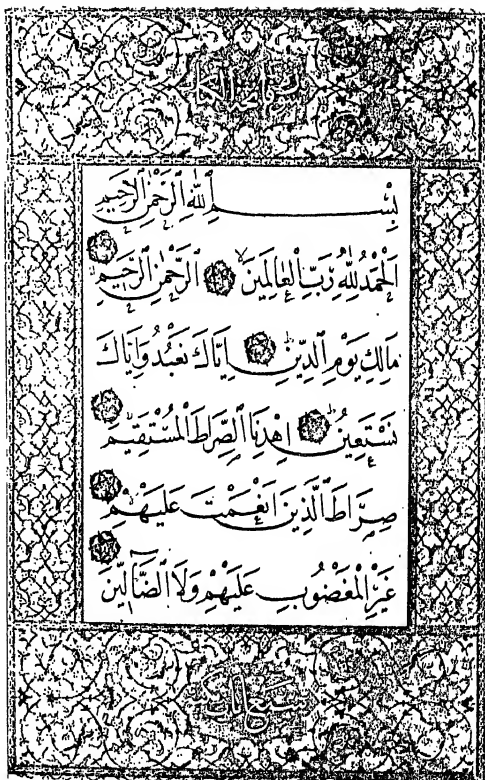
لوحة من الخلد الثلب المملوكى - كتابة بارزة من العساج
 أ ، ب : باسم السلطان الناصر محمد ٧٤٠ هـ - ١٣٤٠ م
 ج : باسم السلطان قايتباى ٩٠١ هـ - ١٤٩٦ م
 دار الآثار الإسلامية بالقاهرة (رقم الاثر ٤٢٢ هـ ٢٣٣٤)

نقلا عن : M.G.WIET, ALBUM DU MUSEE ARABE DU CAIRE,
 P. 39, LE CAIRE, 1930.



شكل رقم (١٢) :

لوحة من خط التعليق كتبها "ميرعاد الحسنی" ١٠١٢ هـ - ١٦٠٨ م
 نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصروف) .



شكل رقم (١٣) :

سورة فاتحة الكتاب بخط الشيخ كتيها الشيخ " حمد الله الامام "

١٥٢٠ هـ - ١٩٣٧ م

نقذ عن الاتراك وخط الاسلام (درسان)



مجلد رقم (١٤)

أوجه كيميائية أصمد ترميمها تشمل شراذم وحدانيات

- الحمد لله : كوكبي بسيدك وحليمة هندسية في مركز العزمين

- البسطة بخلاف الثلث

- سورة فاتحة الكتاب : نزل كوفس بسيدك

١٩٦٤ هـ - ١٤٠٦ م

نقد عن :

SULE AKCOY, HAT SANATI, KULTUR VE SANAT,
SAYI V, GCAK 1977 - ANKARA.



سجل رقم (١٥) :

سورة فاتحة الكتاب بقلم المحقق المرحاني

كثيرها " احمد نزه حصارى " ٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م

نقذ عن : الانتران وفن الخط الاسلامى (دروان)



شكل رقم (١٧)

بسملة بالقلم المحقق * وحديث شريف بقلم النسخ

كتبها " محمد شوقي " ١٢٥٢ هـ - ١٨٣٦ م

نقل عن : MAHMUD BEDREDDIN YAZER, YAZEL VE KALAM
GUZELI , 1.

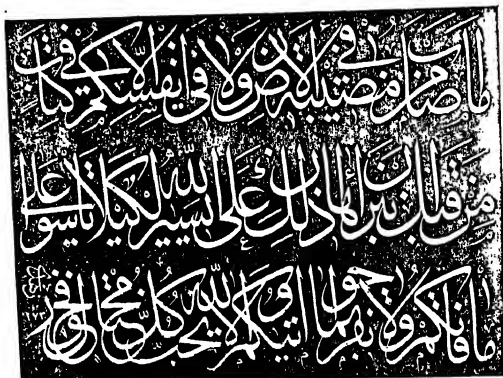


شكل رقم (١٨) :

بسملة بقلم الثلثة الجلى كتبها السلطان محمود الثانى

١٢٥٥ هـ - ١٨٣٦ م

نقل عن : SULE AKSOY, HAT SANATI, KULTUR VE SANAT,
SAYI V, OCAK 1977 - ANKARA.



شكل رقم (١٩) :

سورة الحديد الآية ٢٣ و ٢٤ بخط الثلث - كتبها زهدى

١٢٧٣ هـ - ١٨٥٦ م

نقلا عن : بدائع الخيل العيسى (المصروف) .



شك رقم (٢٠)

لوحة بقلم الثلث الجلي في شك متن متناثر - كتبها شيراز بك ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م
نقلا عن : الاصول ونفن الخلا الاسلامي (درمان) .



شكل رقم (٢١) :

سورة فاتحة الكتاب بقلم المؤلف، كتبتها السيدة مديني عوت ١١٩٣ هـ ١٩٧٦ م

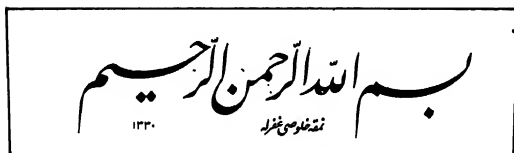
نقد من : مكانة الامارات في الفن الاسلامي (دورسان)



شكل رقم (٢٢) :

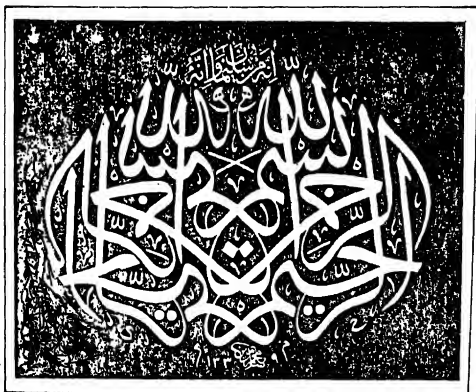
نموذج الأبجدية العربية بخلاف السهل كتبها عارف حكمت

نقل عن : يدائع الخلد العربي (المصنف) •



شكل رقم (١٣) :

بسملة بقلم التهليق كتبها خلوصي اتندي ١٣٣٠ هـ - ١٩١١ م
 نقلا عن : M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.

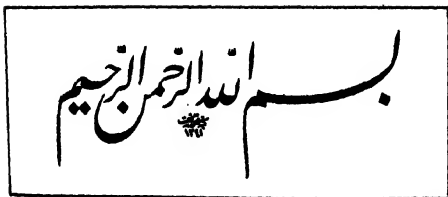


شكر رقم (٢٤) :

بسملة بخط ثالث الجلى فى شكل مثنى متناظر

كتبها احمد امين ١٣٣٥ هـ - ١٩١٦ م

نقلا عن : يدائع الخ. !. اله روى (المصروف)



شكل رقم (٢٥):

مسجلة بقلم التعليق كتبها محمد رفعت - ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م

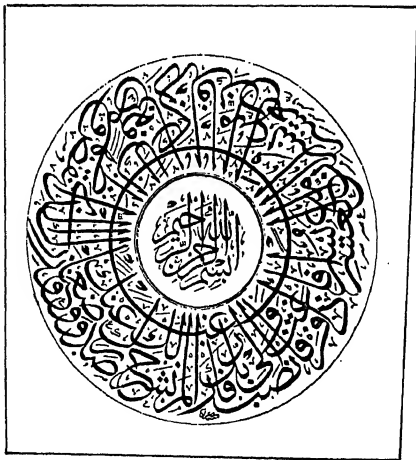
M.B.YAZIR, KALAM GUZELY, II.

نقلا عن :



شكل رقم (٢٦) :

بمسئلة بقلم الثالث الجلى كتبها عبد العزيز الرفاعي ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م
نقل عن : يدائع الخلد العربى (المصرى) •

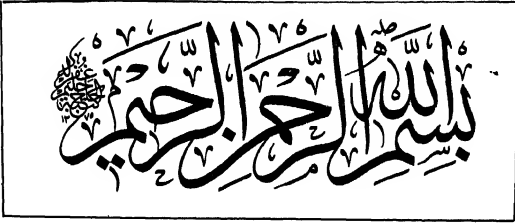


شكل رقم (٢٧)

سورة الأنشراح بقلم الشيخ محمد العزيز الرفاعي

١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م

نقل عن : يد ابن الخلد العربي (المتحرف)



شكل رقم (٢٨) :

بمسئلة بالالفم الجلى كتيبها " حليم " ١٣٧٣ هـ - ١٦٥٣ م
 نقلا عن : بدائع الخط العربى (المصرى)



شك رقم (٢٩) :

بسملة بالخط المحقق كتبها "نور كرماني"

١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م

K.B.YAZIR, KALEM GUEZELI, II.

نقلا عن :

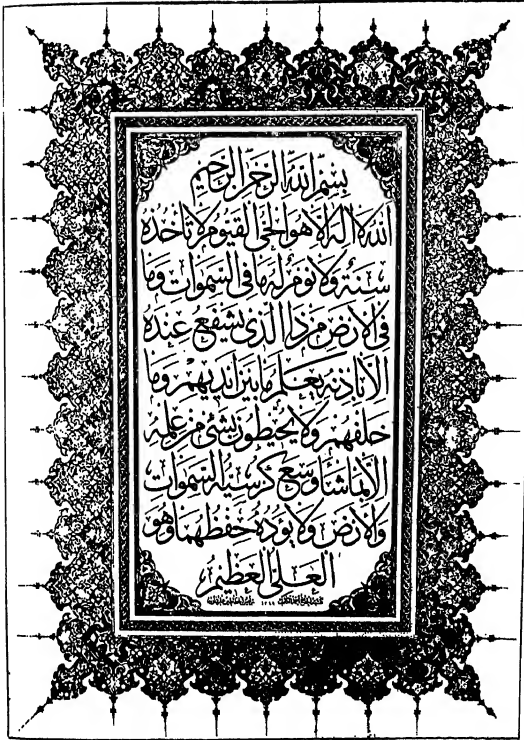


شكل رقم (٣١) :

بسملة بالخط المحقق كتبها " الحاج كامل اقدين " ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م

M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.

نقذ عن :



شك رقم (٣٢)

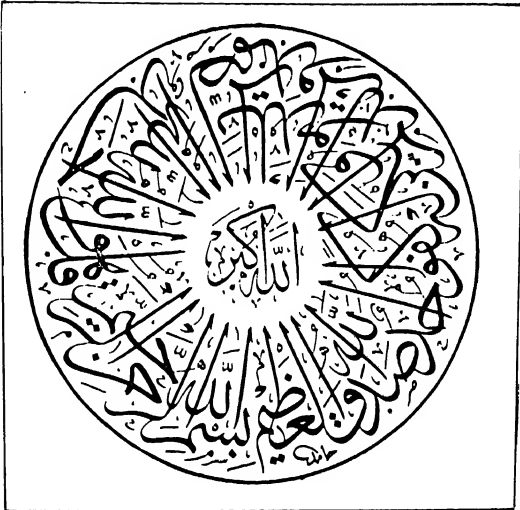
آية الكرسي بخط الثلث كتبها الحاج أحمد كامل - ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م

نقلا عن : مكانة الإبراهيم في فن الخط الإسلامي (درمان) .



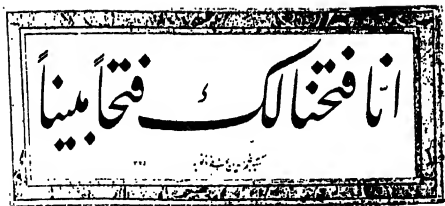
مسك، رقم (٢٢) :

أوحة متراكمة بظم الثلث الدجلى كجها " حامد الأسدي "
 ونصها " وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله غفور رحيم "
 نقلا عن : بدايع النول العربي (المصنف) .



شكى رقم (٣٤)

سورة الاخلاص بقلم الطه : كعبها " - اية الاعدى " .
 تظلا عن : بدائع الخلد العربي (المصنف)

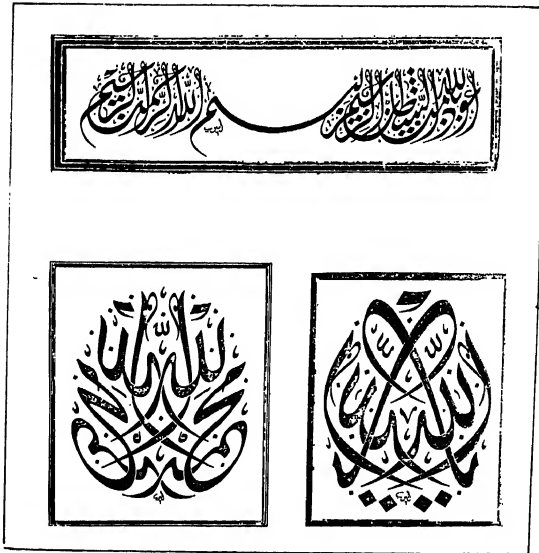


شكل رقم (٣٥) :

لوحة بقلم التعليق كتبها "نجيم الدين أوقتاي"

١٣٧٥ هـ - ١٩٧٦ م

نقل عن : مكانة الأتراك في فن الخط الإسلامي (درمان).



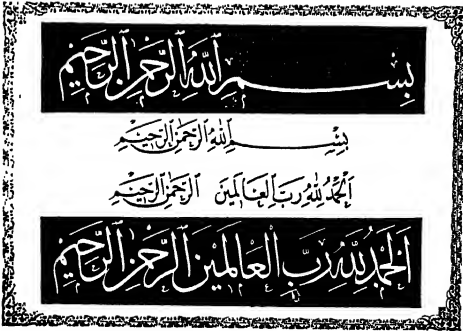
كل رقم (٣٦)

ثلاثة نماذج بالقلم الديواني كتبها أمين براهيم
نقل عن : كتابي معرنة في الاكاديمية: الننون البسيطة استانبول ١٩٧٨



شكل رقم (٣٢)

حديث شريف بقلم جلي الثالث كتبه محمد ابراهيم
(الاسكندرية)



شكل رقم (٣٨)

نموذج بقلم الثلث والنسخ كتبه هاشم محمد
 نقلا عن : كراسة قواعد الخط العربي بخط هاشم محمد
 ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م (بنسبته)

المتغيرات الظاهرية (الفينومينولوجية) في بناء الشخصية :

يعتبر المنظور الظاهري (الفينومينولوجي) في دراسة الشخصية من أبرز المعالم المميزة لما حققته الدراسات النفسية الحديثة والمعاصرة من إسهامات في الكشف عن حقيقة الشخصية الانسانية . ورغم تعدد مسميات النظريات الظاهرية مثل نظريات الذات -Self theories ونظريات التراكيب Constructive theories والنظريات المعرفية Cognitive theories والنظريات الوجودية -existential theories إلا أن معظمها يجتمع على مفاهيم معينة يؤكدها في تفسيره للشخصية بينما يتفق على رفض مفاهيم أخرى لا تدخل في إطار التصورات الظاهرية .

فالنظريات الظاهرية -Phenomenological theories تنطلق من تصور مؤداه أننا لانستطيع فهم السلوك الانساني والنبؤ به بدون معرفتنا لادراكات الشخص لبيئته ولنفسه كما يراها في علاقته بالبيئة ، ولذلك تسمى هذه بالنظريات الظاهرية بسبب هذا الدور الرئيسي الذي تعطيه للادراكات والمعارف والمشاعر في فهم كنه الشخصية . ومن ناحية أخرى ، تمثل هذه النظريات الى رفض معظم المفاهيم الدينامية والدافعية من نظريات التحليل النفسي والتعلم (ميلر - ودولاد) وكذلك معظم الافتراضات التي تقوم عليها نظريات السمات .

الشخصية من المنظور الفينومينولوجي

حليم السعيد بشاى

قسم علم النفس - جامعة الكويت

وجود عالم « حقيقي » من الأشياء ، وتزعم ان البيئة مجرد وهم لا يؤثر في خبراتنا الخاصة . ومع ذلك ، فان الموقف المعرفي يؤكد على انه ليس عندنا وسيلة مباشرة وفورية توصلنا الى هذا العالم ولا الى أي من خصائصه ... فما نعرفه عن الواقع يتم بالتوسط Mediated وليس فقط بواسطة اعضاء الحس ، ولكن ايضا بواسطة انظمة معقدة تقوم بتفسير واعادة تفسير المعلومات الحسية (٢) .

وفي ذلك قد اجريت دراسات كثيرة عن العمليات المتضمنة في المعرفة ، وعن « المثير كما يُخضع للتنظيم » stimulus as coded (٣) وهي دراسات تتعلق فقط بالشخصية على نحو غير مباشر ، مثل بحوث الذاكرة والادراك (٤) ، ومع ذلك فان الاتجاه المعرفي يحمل بصفة عامة أهمية للدراسة الاشخاص .

ولقد حاول بعض علماء نفس الشخصية المهتمون بالاتجاه المعرفي ان يكتشفوا كيف يدرك الفرد ويعقله ويفسره ويخبره ، وبالتالي اهتموا بالثيرات كما يتم تفسيرها وبالأحداث كما تتمثل معرفيا داخل من يلاحظها ، وبالأشخاص والأحداث كما يراها الشخص المدرك .

وباختصار تدور النظريات الظاهرية حول محور محدد هو خبرة الشخص كما يدركها وينظمها أي يفنئ من لوجيته .

هذا الرفض للتفسيرات الدافعية ، او على الأقل اهمالها بصاحب التركيز على الخبرات المباشرة للشخص ، لذلك ينظر الى الشخص على انه « كائن يعيش الخبرة » بدلا من اعتباره « شخصية ذات تركيب معين » أو نظام من الديناميات النفسية « التي تقوم على استعداداته وتاريخ تطوره ، ويعني ذلك ان هذه النظريات تهتم اساسا بالخبرة الذاتية للفرد ، وبنظراته الشخصية للعالم ونفسه وبفاهيمه الخاصة .

ان معظم هذه النظريات تهتم اساسا بالمعرفة Cognition - أي بكيفية معرفة الانسان وفهمه لعالمه ونفسه - هذه المعرفة تتضمن الانتباه الذي يوجهه الشخص الى العمليات الداخلية او العقلية التي من خلالها يسعى الى تنظيم وتصنيف المعلومات .

ولقد تأثرت هذه النظريات المعرفية بالعالم السويسري « جان بياجيه » من حيث اهتمامها ب « التركيبات العقلية » للانسان ، وبالطريقة الفعالة التي بها يستخلص المعاني والخبرات ، يقول « نيسير » (١) :

« ان عالم الخبرة ، سواء كان جميلا أو قبيحا ، يجري خلقه بواسطة الانسان الذي يغير هذا العالم » . هذه العبارة ، بالطبع لاتعني عدم

(1) U. Neisser. Cognitive Psychology. New York:

Apleton — Century — Crafts, 1967, p.3.

(2) Ibid, p.3

(3) D.H Lawrence. The Nature of Stimulus: Some relationships between learning and perception. In S. Koch (Ed) Psychology: A study of Science. New York: Mc Graw Hill, 1959, pp. 179 — 212.

(4) G.H.Bower Mental imagery and associate learning. In L. Gregg (Ed) Cognition in learning and memory. New York: Wiley, 1969

من الطفولة الى النضج بحيث يمكننا ان نعتبر ان دوافع الكبار تحمل حل دوافع الطفولة^(٦)

يطلق « البورت » على هذه الظاهرة مصطلح الاستقلال الوظيفي Functional autonomy ويعتبر انه بقدر ماتكون دوافع الفرد مستقلة ، أي غير مرتبطة بدوافع الطفولة فان هذا يعد دليلا على نضجه .

ويفسر ذلك ايضا موقف « آلبورت » الذي يؤكد على مبدأ المعاصرة Contemporaneity اتقاء اليقين - المميز للدوافع^(٧) . وبالتالي فان الماضي ليس هاما الا اذا تضمن قيمة وفعالية بالنسبة للحاضر . لذلك يعتقد ان الحقائق التاريخية عن ماضي الشخص ، وان كانت تساعدنا في الكشف عن النسق الكلي لحياة الشخص الا انها لا تفسر بطريقة ملائمة سلوك هذا الشخص في الوقت الحاضر ، أي ان « الدوافع السابقة Past motives لا تفسر شيئا الا اذا كانت ايضا دوافع حاضرة Present motives^(٨) ».

وبالاضافة للبحث في « الذات » كمفتاح رئيسي لدراسة الشخصية يركز على الخبرات المدركة لدى الفرد في الوقت الحاضر ، وعلى ذاته الظاهرية وعلى نمطه الفريد في المواءمة . ويأخذ « البورت » بوجه النظر الكلية holistic في دراسة الانسان ككائن حي بيولوجي اجتماعي متكامل ، بدلا من اعتباره مجموعة من السمات والدوافع . وفي ذلك تشابه وجهات نظر « البورت » مع نظرية « كيرت جولدشتين » الذي يؤكد على ان الكائن الحي كل متكامل يسعى الى تحقيق ذاته على كل مستويات وجوده^(٩) .

مصادر الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية

يستمد الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية أصوله من مصادر عديدة . فمن بين اصحاب النظريات الكثيرة الاولى على سبيل المثال ، اولئك الذين اهتموا بالبحث في الذات « مثل وليم جيمس وجورج هيربرت ميد وجون ديوي . وفي مطلع القرن العشرين اهتم كارل يونج بسعي الشخص الى تحقيق الذات والى التكامل ، وبوجود عمليات خلاقة تتجاوز الغرائز الرئيسية في علم النفس الفرويدي . كذلك كان لعلم النفس الجشكتي والفلسفة الوجودية اهمية كبيرة في بلورة الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية الانسانية .

اسهامات « جوردون البورت »

يعتبر « البورت » في مقدمة علماء النفس الذين درسوا الشخصية كتشخيص للسمات traits ، وكان لتصوراته للشخصية على هذا النحو تأثير هام على دراسة الشخصية لأكثر من ٣٠ عاما ، واذا كان البورت يعترف بوجود سمات عامة قد يشترك فيها كل الناس بدرجات مختلفة الا ان الكثير من آراء « البورت » يتعلق بالاتجاه الظاهر في دراسة الشخصية . فنظرية « آلبورت » تركز على الفردية individuality وتفرد uniqueness الشخص وعلى النماذج المتكاملة التي تميز كل شخص .

ان السلوك ، وفقا « لالبورت » يكون مدفوعا في الاصل بواسطة ، الغرائز ، ولكن فيها بعد يأخذ في التحرر من التدعيم البيولوجي ، ويرى ان معظم الدوافع السوية لدى الكبار لم تعد ترتبط بعلاقة وظيفية بجلورها التاريخية « فطبيعة الدوافع تتغير بشكل جذري

(5) G.W.Allport. Motivation in personality: Reply to MR.Betrocci.

Psychological Review, 1940, 47 533 — 554 & (p.54s) .

(6) G.W. Allport. Pattern and growth in Personality, N. Y Holt Rinehart, Winston, 1961 .

(7) Ibid , p.220 .

(8) K. Goldstein. The Organism. New York: American Book Co, 1939.

نظرية المجال عند « ليفين »

الطوبولوجية على نظرية الشخصية . فالمفاهيم المحددة مكانيا يمكن معالجتها رياضيا بطريقة لا تستطيع معها التعريفات اللفظية أن تعالجها .

لهذه التمثيلات الرياضية-mathematical representations بالإضافة الى انها تسمح بصياغة أكثر دقة ، فإن لها ميزة رئيسية تنضج من أنها تزودنا بمعلومات غير متوقعة حينما تخضع لعمليات رياضية مختلفة . وإذا كانت الصياغات اللفظية الغامضة - كما يذهب « ليفين » - تؤول فحسب الى كلمات أكثر فإن الرياضيات ، وهي لغة العلم ، تسمح بصياغة علاقات وظيفية محكمة . وان رياضيات « ليفين » هي رياضيات لوصف العلاقات المكانية الطوبولوجية : العلاقات المتبادلة والروابط المتبادلة بين المناطق الطوبوغرافية .

يعرف « ليفين » المجال الحيوي Life spaces على انه المجموع الكلي للحقائق التي تحدد سلوك (س) الفرد في لحظة معينة . ويشتمل المجال الحيوي على الشخص (خ) والبيئة النفسية (ب) ويعني ذلك ان السلوك دالة الشخص وبيئته ، س = د (خ ، ب) . يناقش « ليفين » أيضا مشكلة العلاقة الزمنية بين حدث ما والشروط التي تتخلقه . وفكرة « ليفين » في ذلك انه لا الماضي ولا المستقبل يوجدان في اللحظة الراهنة ، وبالتالي ليس لها تأثير على الحاضر . وإذا كان للاحداث السابقة موضوع في السلسلة السببية التاريخية التي بتشابكها تتخلق الموقف الراهن ، ولكن ما ينبغي ان يوضع في الاعتبار هو فحسب تلك الاحداث التي تعمل

لعبت النظريات المجالية field theories دورا كبيرا في تطوير المنظور الظاهري للشخصية ، لأنها فسرت السلوك على انه محتموم بالمجال الحيوي السيكلوسجي للشخص ، أي - بالاحداث التي توجد في موقفه السيكلوسجي الكلي في اللحظة الراهنة ، وليس بالاحداث الماضية ، يتضح ذلك خاصة في نظرية المجال عند « كيرت ليفين » .

أفاد « ليفين » في نظريته في الشخصية من مفهوم المجال في علم الفيزياء وهو المفهوم الذي تنوج بنظرية النسبية عند « اينشتين » . لقد لقي مفهوم « اينشتين » عن « مجالات القوة » تعبيرا في الحركة الجشطيلتية في علم النفس التي تؤكد على أن أي جزء من الكل انما يعتمد على كل جزء آخر . ويطبق الجشطيلتون فكرة المجال . كما يتضمن مكونات مترابطة فيما بينها داخل هذا المجال ، أساسا على دراسة الادراك ، وذهبوا الى ان الطريقة التي يتم بها ادراك موضوع ما انما تتوقف على النسق الكلي total context لا يحيط به او على تشكليه configuration فيما يدرك يتوقف على العلاقات بين مكونات المجال الادراكي ، وليس على الخصائص الثابتة للمكونات المنفردة .

يدعو « ليفين » الى تطبيق نظرية المجال على كل فروع علم النفس ، فنظرية المجال كما طورها ، هي عبارة عن مجموعة من المفاهيم التي تيسر ترجمة الخبرة الظاهرية ، بل ويعتبر « ليقين » أن الأخذ بهذه المفاهيم هو المهمة الأولى للسيكولوجية كعلم .

طبق « ليفين » ايضا المفاهيم المكانية او

« ليفين » ايضا بمبادئ الثواب والعقاب ، ولكنه خلافا لمبادئ اللذة hedonism التي اخذت بها نظريات التعلم المبكرة يعتبر الاناثبات على انها طرق لضبط السلوك في المواقف الراهنة ، وذلك عن طريق احداث تغييرات في البيئة النفسية وفي نظم التوتر في الشخص .

ووفقا ل « ليفين » ، يعتبر السلوك والنمو وظائف لنفس العوامل التركيبية والدينامية . فكلاهما وظيفة للشخص والبيئة النفسية . ومع ازدياد النضج ، يحدث بصفة عامة تمايز اكبر للشخص وللبيئة النفسية .

لقد كان لنظرية المجال عند « ليفين » فضل عظيم على علم النفس الاجتماعي التجريبي . وسعى تلاميذه الى توسيع أفكاره واخضعوها لتجارب صممت لتغيير المجال الحيوي عند الشخص وذلك بواسطة تغيير ادراكه لنفسه - وللأشخاص والآخرين - وللأحداث .

ويعني كل ذلك اسهامات عظيمة بالنسبة لدراسة الشخصية بصفة عامة ، ومن المنظور الظاهري بصفة خاصة .

بل ان النظريات الأخرى من الشخصية والتي اهتمت بشكل خاص بدراسة السمات والدوافع ، وتقر بالأهمية البالغة لنظرية المجال في دراسة الشخصية . (١٢)

في الموقف الراهن . وبعبارة أخرى الحقائق الراهنة فحسب هي التي تسبب السلوك الحاضر .

هكذا يضع « ليفين » في الاعتبار عند طرحه لفكرة المجال الحيوي كل ماهو معاصر للأحداث وهو مايسميه بمبدأ المعاصرة Contemporaneity . (١١)

ان الحدود بين الشخص والبيئة النفسية ، وبين المجال الحيوي والعالم الفيزيائي قابلة للتوصيل والنفاذ بين بعضهما البعض permeability أي أنها تمكن من تهيئة التأثير المتبادل فيما بينها .

ويرفض « ليفين » فكرة الخصائص الثابتة للشخصية مثل فكرة السمات غير المتغيرة . فالواقع النفسي كنتيجة للقوى الدينامية متغير دائما (١٠) . فبيئة الفرد لاتعمل على مجرد تيسير الميول الراسخة بشكل دائم في طبيعة الشخص (١١)

والعادات بذلك ليست ارتباطات مجمدة ولكنها بالأحرى نتيجة للقوى الموجودة في الكائن الحي وفي مجاله الحيوي .

وفي ضوء ذلك لا يقر « ليفين » بالمفاهيم المستخدمة المتعلقة بالحاجات الانسانية . فالحاجات التي لها تأثيرات على الموقف الراهن هي فقط تلك الحاجات التي ينبغي ان توضع في الاعتبار في تفسير ديناميات الشخصية . واهتم

(9) K. Lewin Principles of topological psychology. New York, Mc Graw — hill, 1935.

(10) K. Lewin. A dynamic Theories of Personality. New York: Mc Graw — Hill, 1935.

(11) K. Lewin. OP. Cit, 1935.

(12) W. Mischel. Personality and assessment. New York Wiley 1968.

الفينو منيولوجيا والوجودية :

أكدت كتابات « ستيج وكومبز »^(١٣) ايضاً على المعالم الظاهرية للمجال ، وكان لها فضل كبير من التأثير على علماء النفس المهتمين برعي الشخص وبخبراته الخاصة . كذلك طور « كارل روجرز » و « جورج كيلي » موقفا علميا يؤكد على الخبرات الخاصة والادراكات والذات كمحاور رئيسية لدراسة الشخصية فينو منيولوجيا .

تتفق الكثير من الآراء المتضمنة من معظم هذه النظريات الظاهرية مع الموقف الفلسفي الوجودي الذي طوره المفكرون والكتاب الأوروبيون مثل كير كيبيارد وسارتر كاموس . وقد انعكس هذا الموقف خاصة في اسهامات « روللوماي » عالم النفس الوجودي .

يعتبر « روللوماي » بصدد تناوله بالعلاج النفسي لاحدى مريضاته أنه كان بين يديه كل انواع المعلومات عن هذه الحالة ، مثل الفروض المشتقة من استجاباتها لاختبار الدور شاخ والتشخيص المأخوذ عن الفحوص الفينوولوجية ، ولكنه يعقب على ذلك^(١٤) :

« ولكن اذا كنت افكر اساسا كما اجلس

هنا ، في هذه الاسباب (whys) والكيفيات (hows) المتعلقة بالطريقة التي بدأت بها المشكلة ، فاني سوف أدرك كل شيء عدا الشيء الاكثر اهمية وهو الشخص الموجود - ex-isting person في الحقيقة ، سوف ادرك كل شيء عدا المصدر الحقيقي الوحيد للبيانات التي عندي ، وهو هذا الكائن الحي الذي يعيش خبرة وجوده - وهو ذلك الشخص الذي يغير الآن وعلى الفور وفي هذه الحجرة معي ، نموه وصيرورته « وبنائه للعالم » وذلك وقفا لمفاهيم علماء النفس الوجوديين » .

تعكس ملاحظات « ماي » اهتمام العلماء الوجوديين بالخبرة الظاهرية - phenomenological experience وبالأناhere and now وليس بمصدر العلة Etiology أو بالاسباب التاريخية الموغلة في الطفولة المبكرة للشخص .

وبالاضافة الى ذلك ، يفضل علماء النفس الوجوديون النظر الى الانسان على انه قادر على الاختيار والمسئولية بدلا من اعتباره ضحية للقوى اللاشعورية او للعادات .

يعلق « نيو انجر » وهو طبيب نفسي سويسري وجودي على النظرية الفرويدية بأنها قد صورت الانسان ليس على أنه انسان بالمعنى الكامل ، ولكن فقط على انه مخلوق يقاوم الحياة

(13) D. Snygg & Combs. Individual Behavior. New York: Harper. 1949.

(14) R. May (Ed) Existential Psychology, New York, 1961, p.26.

لاشباع حاجاته كما يجبرها ، وفي المجال كما يجبره . (١٦) فاهتمام روجرز اذن متمركز على ادراكات الشخص من حيث أنها المحددات لأفعاله : فالكيفية التي بها يرى الشخص الاحداث ويفسرها ، انما تحدده بالتالي الكيفية التي بها يستجيب لهذه الاحداث .

تحقيق الذات : يؤيد روجرز ، مثل معظم الفينومينولوجيين الموقف الذي يرفض الاخذ بمكونات دافعية معينة ، ويرى الكائن الحي على انه ينشط وظيفيا ككل منظم فتمه مصدر رئيسي واحد للطاقة في الكائن الحي الانساني ، هذا المصدر وظيفة للكائن الحي الكلي وليس لجانب منه وربما (يمكن) تصوره على نحو افضل على انه ميل نحو تحقيق الذات ، ونحو المحافظة على الكائن الحي وتقدمه . (١٧) اذن فالميل الاصيل لدى الكائن الحي هو ان يحقق ذاته وتصير « الدافعية » على هذا النحوليس كتكوين خاص ولكن كخاصية كلية لكون الفرد حيا .

يؤكد روجرز ، اتفاقا مع نظرية الايجابية للطبيعة الانسانية على ان الانفعالات مفيدة للتوافق ، وبدلا من أن يهتم بالتأثيرات الهامة للقلق ، يعتقد روجرز ان الانفعال يصاحب

ويصارعها ، ويذهب « نروايجر » الى أن الحقيقة بأن الحياة الانسانية محتومة بقوى وظروف انما تمثل جانباً واحداً فقط من الحقيقة ، أما الجانب الآخر فهو أننا أنفسنا « نحتم هذه القوى كقدرنا » (١٨) وعلى ذلك فان تحقيق الانسان لذاته ، من المنظور الظاهري والوجودي يتطلب اكثر من مجرد تحقيق الحاجات البيولوجية والغرائز الجنسية والعدوانية .

فينومينولوجيا الشخصية

نظرية الذات عند كارل روجرز

الخبرة الفريدة : تؤكد النظرية الظاهرية لروجرز في الشخصية على واقع الشخص الذي يجبره بطريقة فريدة ، ويعتبر السلوك نتيجة للأحداث الادراكية المباشرة كما يجبرها الشخص بالفعل ، وإذا كان اي شخص آخر لا يستطيع ان يتوصل بدقة الى « الاطار المرجعي الداخلي » للشخص فان الشخص ذاته هو الذي في مقدوره ان يكون على وعي بحقيقة نفسه ، فكل انسان في الحقيقة أعظم خبير في العالم بالنسبة لنفسه ، ولديه افضل المعلومات عن نفسه .

يقول روجرز « ان السلوك هو أساسا تلك المحاولة الموجهة نحو الهدف لدى الكائن الحي

(15) Ibid, p.252.

(16) C. R. Rogers Client — Centred therapy: Its current practice, implication and theory. Boston: Houghton, 1951, p.491.

(17) C.R. Rogers. The actualizing tendency in relation to Motives and to Consciousness In M.R. Jones (Ed). Nebraska Symposium on motivation. Lincoln: University of Nebraska Press, 1963 p.6.

الذات . هذه الذات المدركة -perceived self (مفهوم الذات) تؤثر في الادراك والسلوك . وتفسير الذات هو الذي يؤثر في كيفية ادراك الشخص لبقية عالمه . وتصير خبرات الذات مغلفة بالقيم ، وهذه القيم هي نتيجة للخبرة المباشرة مع البيئة ، أو يتشربها الشخص من الآخرين .

الاتساق والاعتبار الايجابي :

يبرز روجرز نظامين في بناء الشخصية وهما :
الذات (مفهوم الذات) والكائن الحي ، هذان النظامان قد يدخلان أحدهما مع الآخر في تعارض أو انسجام حينما يتعارضان أو لا يتطابقان ، تكون النتيجة هي سوء التوافق ، لأن الذات في هذه الحالة تصير منظمة بطريقة جامدة ، وتفقد اتصالها مع الخبرة الحقيقية للكائن الحي ، وتشحن بالتوترات . وإذا كان الادراك عملية انتقائية ، فإن المحك الاول في ذلك هو اتساق الخبرة مع مفهوم الذات ، وبالتالي يعمل مفهوم الذات كإطار مرجعي لتقييم وضبط وتنظيم الخبرات الحقيقية للكائن الحي . ويعتقد روجرز أن الرفض اللاشعوري للخبرة التي لا تتفق مع مفهوم الذات هو ما حاول الفرويديون تفسيره بواسطة ميكانيزم الكتب .

السلوك الموجه نحو الهدف ويسره بصفة عامة . ويرتبط شك الانفعال بالمغزى المدرك للسلوك المهاد إلى المحافظة على الكائن الحي وتقدمه^(١٨) .

والكائن الحي في سياق تحقيقه لذاته إنما يدخل في عملية تقييمية فالخبرات التي يدركها على أنها باعثة على تقدمه ، إنما يقيمها بشكل ايجابي (وبالتالي يقدم نحوها) . أما الخبرات التي يدركها على أنها معوقة لتقدمه أو لبقائه ، فيقيمها سلبيا (وبالتالي يحجم عنها) .

« فالكائن الحي يتصرف بنزعة أساسية وبسعي أساسي - وهو أن يحقق كيانه ويحافظ عليه ، ويرفع من شأنه وذلك في سياق معايشة الخبرة وجوده^(١٩) .

الذات : مفهوم رئيسي في نظرية روجرز في الشخصية التي يشار إليها غالباً كنظرية للذات ومفهوم الذات self-concept هو جشطلت تصويري ، متسق ، منظم ، يتألف من ادراكات خصائص ال « أنا » (بمعنى I أو me) وادراكات علاقات ال « أنا » بالآخرين وبجوانب الحياة المختلفة وفي ارتباطها بالقيم المتعلقة بهذه الادراكات^(٢٠) .

وكنتيجة لهذا التفاعل مع البيئة ، يصير ذلك الجانب الادراكي بالتدريج متميزا داخل

(18) Ibid, p.493.

(19) Ibid, p.478.

(20) G.R.Rogers . A theory of therapy, personality and interpersonal relationship, as developed in the client — centred framework In S. Kock (Ed.) Psychology: A study of science Vol. Z New York Mc Grow — Hill, 1959, p.200.

يعرف « بالعلاج الروجرى » **Rogarian therapy** الى تحقيق التفاعل المنسق بين الذات والكائن الحي ، ولى تيسير تطابق اكثر بين التركيب التصورى للذات والمجال الظاهرى للخبرة . - ويؤدى الاتجاه الثقيلى الدافئ غير المشروط الذى يبدىه الاخصائى (المرشد او المعالج) الى تمكين العميل من ادراك واختبار خبراته التى تكون غير متسقة مع تركيب ذاته . عندئذ يستطيع العميل ان يعدل من تركيب ذاته **self — structure** ليسمح لها بان تتمثل هذه الخبرات غير المتسقة . وفي هذه الحالة يكون فى مقدور العميل وفقا لنظرية روجز ، ان يعيد بالتدرج تنظيم مفهوم ذاته لكي يتفق مع واقع خبرة الشخص « فهو سوف يكون ، بشكل اكثر تكاملا ، ما هو عليه من حيث جوهره الحقيقى ، ويسد ذلك على انه جرهر العلاج » (٢١)

. ان نظرية روجز تعكس الكثير من الجوانب والنقاط الرئيسية المتعلقة بالاتجاه الظاهرى في دراسة الشخصية . فهي تركز على الواقع كما يدركه الشخص وعلى خبراته الذاتية ، وعلى سعيه الى تحقيق للذات . ومن ناحية اخرى فهي ترفض او لا تضع في الاعتبار حوافز بيولوجية معينة وانما تهتم بالذات كما نجبرها الشخص **ex-perienced self** بدلا من الاهتمام

فالخبرات غير المتسقة مع الذات قد يدركها الشخص كتهديدات ، ويقدر مايزداد التهديد ، تصير بنية الذات اكثر جمودا ودفاعية للمحافظة على كيانها . وفي نفس الوقت ، يصير مفهوم الذات اقل اتفاقا وقل انسجاما مع واقع الكائن الحي ، ويفقد اتصاله مع خبراته الواقعية .

يذهب روجز الى وجود حاجة عامة يسميها بالحاجة الى الاعتبار الايجابى **positive regard** التى تنمو كلما تطور الوعي بالذات . هذه الحاجة تدفع الشخص فى الحصول على التقبيل والحب من الاشخاص المهمين فى حياته . والشخص لايحتاج الى الاعتبار الايجابى من الآخرين فحسب ولكن ايضا من ذاته . وتنمو هذه الحاجة الى الاعتبار الايجابى من خبرات الذات المرتبطة بأشباع هذه الحاجة أو بإحباطها . ويتحقق التوافق النفسى السليم اذا كان الشخص يلقي اعتبارا ايجابيا غير مشروط **Unconditional positive** من الآخرين . واذا كان هنالك اتساق **consistency** بين هذه الحاجة وتقييم الشخص لذاته يترتب على ذلك نمو اعتبار الذات .

ويهدف العلاج النفسى « المتمركز على العميل » **Client — Centered** او ما

(21) C. R. Rogers. Persons of Science? A philosophical question. American Psychologist, 1955, 10, p.269.

بعضها البعض . فإذا افترضنا مثلا ان شخصا يعرف انه ذكي ، ولكنه يعرف في نفس الوقت انه يفشل غالبا . هذان النمطان من المعرفة لا يتلائمان جيدا مع بعضهما ، وبالتالي فهما متنافران . ويفترض « فستنجر » ان التنافر حالة باعثة على التوتر ، وان هذه الحالة تدفع الاشخاص الى تجنبها او التخفيف منها .

لقد اتبعت لفستنجر الفرصة لملاحظة إحدى الجماعات الدينية التي تنبأت بوقوع كارثة فيضان ، في هذه الجماعة تلقى الناس معلومات عن الفيضان عن طريق الاتصال المباشر مع الآلهة وعندما حل اليوم الموعود ، ولم تقع الكارثة ، نشأ تنافر شديد بين اعضاء الجماعة . وكشفت الملاحظة لسلوك هؤلاء الاشخاص عن بعض الطرق التي لجأوا اليها لمواجهة هذا التنافر . فمثلا وصلتهم رسالة من الآلهة تفيدهم بانهم قد انقذوا العالم لاجل النيران القوية التي اشعلوها في كل مكان وعقدوا اجتماعات ليشرحوا فيها اسباب عدم تحقيق النبوءة وذلك بهدف تخفيف حالة التنافر ، محاولين اقناع الآخرين وانفسهم بصدق رسائلهم السماوية . (٢٦)

بالاسباب الدافعية التاريخية او بتكوينات ثابتة للسمات .

نظرية الاتساق المعرفي

تبرز نظريات اخرى جوانب مختلفة من الخبرة كما تعيش في وعي الشخص ويدركها . لقد ركزت هذه النظريات في تناولها للخبرة الذاتية على ميل الشخص الى ان يتوصل الى اتساق بين المفاهيم والمعارف العامة عنده . هذه النظريات تدرس الشخصية في ضوء السعى المعرفي cognitive-striving الى الاتساق . .

يتمثل ذلك في تصورات دراسات « ليكي » (٢٢) و « فستنجر » (٢٣) و « كويدج » (٢٤) واكثر هذه النظريات اهمية نظرية « فستنجر » عن « التنافر المعرفي » .

يشير التنافر المعرفي cognitive dissonance الى العلاقات بين المعارف التي تكون جافة او مقتضبة او غير منسجمة او متناقضة . كما يتضح من المعنى القاموسي للكلمة « متنافر » inconsistent (٢٥) ويحدث التنافر المعرفي وفقا « لفستنجر » في حالة عدم اتفاق او عدم تلازم بعض المعلومات عند الشخص مع

(22) P. Lecky. Self — consistency. New york: Island Press, 1945.

(23) L. Festinger. A theory of Cognitive dissonance. Stanford: Stanford University Press, 1957.

(24) L. Kohlberg . A cognitive — developmental analysis of children's sex — role concepts and attitudes. In EE. Maccoby (ed), The development of sex differences, stanford: stanford University Press, 1966, pp. 82 — 173.

(25) L. Festinger, Ibid.

(26) L. Festingers . the Motivating effect of Cognitive dissonance. In G. Lindzey (Ed), Assessment of human motives. New York: Holt, Rinehart, Winston, 1958.

هذا المجال ان الناس تحاول خفض عدم الاتساق بين المعارف المتضاربة (٢٧) .

فالليل الى تقليل المعارف المتضاربة او المتباينة او الى تجنبها ، وإلى إعادة تشكيل الأحداث المتناقضة لجعلها منسجمة يدخل في الكثير من المظاهر النفسية . ولكن العلاقات بين السعي الى الاتساق المعرفي والسلوك غالبا ما تكون معقدة (٢٨) . فالسلوك اللامعرفي *noncognitive behavior* عند الفرد - كالأشياء التي يعملها بالفعل لا تخضع بالضرورة لضبط سعيد الى الاتساق المعرفي .

(نظرية التكوينات الشخصية لجورج كيلي)

ان تكويناتنا *constructs* وتجربتنا *ab- stractions* للسلوك ليست مثل السلوك الذي نصنفه الى فئات . والناس ايضا هم مدركون *perceivers* وبنا *construers* للسلوك ، ويستخلصون تجريدات عن انفسهم

لذلك بدأ فستنجر نظريته بالملاحظة غير الشككية بان الناس تسعى الى التخفيف من حالات التنافر في معتقداتهم .

وذهب الى ان عدم الاتساق بين المعتقدات يخلق تنافرا معرفيا ويدفع الفرد الى ان يفعل ما هو اسهل للتخفيف من حالة التنافر وللوصول الى الاتساق المعرفي بين معتقداته .

لقد فتحت نظرية فستنجر مجالات واسعة للبحث والدراسة وتؤيد نتائج التصورات النظرية والدراسات التجريبية عن اتساق الذات *self-consistency* وخفض التنافر *dis-sonance reduction* والاتزان المعرفي *Cognitive balance* وجهة النظر بأن الناس تميل الى البحث عن الاتساق المعرفي *cognitive balance* وفي الواقع ان الاتساق لفترة من الوقت يبدو مرتفعا بالنسبة لمفاهيم الذات وللانجاهات والقيم التي يعزوها الأشخاص الى انفسهم . تبين الدراسات في

أمثلة هذه الدراسات :

— E.L. Kelly. consistency of the adult personality.

— American Psychologist, 1955,10,659 — 681.

— L. Festinger, 1957.

— C.E. Osgood, G. J. Suci, & P.H. Tannebaum. the measurement of meaning Urbana, I 11.; The University of Illinois Press, 1957.

— R.P. Abelson, & M.J. Rosenberg. Symbolic psycho — logic; A model of attitudinal cognition. Behavioral Science, 1958,3,1 — 13.

— F. Heider. The Psychology of Interpersonal relations. New York Wiley, 1958.

— D. C. Glass. Theories of consistency and the study of Personality. In B. F. Borgatta. Handbook of personality , Chicago; Rand Mc Nally, 1968 p.788.

(28) L. Festinger . Behavioral Support of opinion change. Puplic Opinion Quarterly, 1964,28, 404 — 417.

وعن الآخرين . هذه الفروض والتراكيب قد اثرت كثيرا في علماء النفس المهتمين بدراسة الحالات الذاتية وبالفيثونولوجيا وبخبرة الذات .

التكوينات الشخصية :

تؤكد النظريات السيكدينامية على ان الدافع هو الوحدة الاساسية ، وان الصراعات اللاشعورية هي العمليات التي تحمل اهمية كبيرة في تحديد السلوك الظاهري ، وان الاحكام الاكلينيكية هي الاداة المفضلة .

وعلى العكس من ذلك ، تقوم نظرية « كيلي » (٢٩) عن المكونات الشخصية - per-sonal construct theory على الكشف عن الفئات الذاتيةcategories التي يأتي بها الشخص بدلا من الفروض التي يستنبطها عالم النفس . فالوحدات الرئيسية لهذه النظرية هي مكونات الشخص اي الطريقة التي بها يصف خبراته الذاتية الى فئات ، وبدلا من النظر الى الانسان على انه ضحية لاندفاعاته ودفاعاته ، فان هذه النظرية متناولة كخاتل نشط ومتغير دائما لـ « creator of hypotheses » وكلاعب لادوار متعددة .

ويذهب « كيلي » الى انه اذا كانت سيكولوجية السمات تحاول ان تجد مكان الشخص فيها يحدده صاحب النظرية من أبعاد

للشخصية فان نظرية المكونات الشخصية بدلا من ذلك تحاول أن ترى كيف يحاول الشخص أن ينظم الأحداث وفقا لأبعاده . ويأمل « كيلي » من ذلك ان يكشف طبيعة أبعاد المكونات construct dimensions بدلا من تعيين موقعه بالنسبة لأبعاد النظرية التي يضعها عالم النفس .

الانسان العالم (man- the- scientist)

تكشف سيكولوجية المكونات الشخصية عن الخرائط الذاتية subjective maps التي يكونها الناس في مواجهة الواقع السيكلوجي لحياتهم . يؤكد كيلي ان الانسان مثل العالم الذي يدرس ، يقوم ايضا ببناء أو تجريد السلوك ، وتصنيفه وتفسيره ، وبالحكم على نفسه وعلى عاله . ان الافراد الذين خضعوا للقياس بواسطة علماء النفس هم انفسهم اخصائيون في القياس assessors يختبرون ويقيمون وينتجون سلوكهم الخاص ، انهم يقيسون علماء النفس الشخصية الذين يحاولون قياسهم . فالتكوينات والفروض المتعلقة بالسلوك تتشكل بواسطة كل الاشخاص بصرف النظر عن درجاتهم العلمية وتخصصاتهم كعلماء .

ويرى كيلي ان هذه التكوينات ، وليس مجرد الاستجابات الجسمية البسيطة هي التي ينبغي ان تخضع للدراسة وفقا لمدخل ملائم للشخصية . ويتضح تصنيف السلوك على حد سواء حينما يصف المريض الذهاني افكاره الشخصية في العلاج وحينما يناقش العالم تكويناته ونظرياته المفضلة في مقابلة مهنية . فكلما هذين الشخصين مثلاان البيئة داخليا

البدائية البناءة :

ان الاحداث ذاتها يمكن تصنيفها وفقا لبداائل متعددة . فبينما لا يكون الانسان دائما قادرا على تغيير الاحداث فانه يستطيع باستمرار ان يشكلها بطرق مختلفة ، وذلك هو ما يعنيه كيلى بالتبادلية البناءة -constructive alternativism ونوضح ذلك بالحدث التالي : اوقع ولد زهرية كانت تعتز بها امه . ماذا يعني ذلك ؟ الحدث ببساطة هو ان الزهرية قد تحطمت . الا اننا اذا سألنا المحلل النفسي فقد يشير الى العداوة للاشعورية عند الولد ، واذا سألنا الام فسوف تقول كم هو « شقي » اما الوالد فسوف يقول انه « مدلل » بينما يرى المعلم الحدث على انه دليل على « الكسل » و « التراخي » والجدلة تعتبره مجرد « حادثة » في حين يرى الطفل الحدث على انه يعكس « غباء » وبينما الحدث يمكن الا يقع - انكسار الزهرية - الا ان تفسيره عرضة لتكوينات بديلة قد تؤدي الى نماذج مختلفة التصرفات .

لقد بدأت نظرية « كيلى » بهذه المسلمة الرئيسية « ان عمليات الشخص يجري توجيهها من الناحية النفسية بواسطة الطرق التي بها يتوقع الاحداث » (٣٠) هذه المسلمة تتفق مع النظريات الظاهرية الاخرى من حيث تأكيدها على النظرة الذاتية للشخص . ولكن مسلمة

ويعبران عن تمثيلاتها ونميراتها الذاتية في تكويناتها السيكلوجية . فالتكوينات الشخصية وليست الاوصاف الموضوعية للسلوك وفقا لابعاد واضحة ، هي التي تواجه عالم نفس الشخصية .

يشير « كيلى » الى ان معظم علماء النفس يرون انفسهم على انهم مدفوعون الى تحقيق الوضوح المعرفي والى فهم الظاهرات ، بما فيها حياتهم ، الا ان الاشخاص المفحوصين الذين تتضمنهم نظرياتهم خلافا لاصحاب النظريات انفسهم ، قد جرت النظرة اليهم على انهم ضحايا غير واعية بالقوى النفسية وبالسمات التي لا يستطيعون فهمها ولا ضبطها ، ويحاول كيلى ان يزيل هذا التباين بين صاحب النظريات والمفحوص وان يتناول كل الاشخاص كما لو انهم علماء .

فالمفحوص ، باعتباره كعالم ، يستخلص الفروض التي بها يحاول ان يتوقع ويتنبأ بالاحداث في حياته وان يتحكم فيها ، لذلك لكي نفهم المفحوص ، علينا ان نفهم تكويناته او نظريته الشخصية في الشخصية private personality theory ولكن ولكي ندرس التكوينات الشخصية علينا ان نجد الامثلة او « المراجع » referents السلوكية الدالة عليها . فحين لا نستطيع ان نفهم ماذا يعتبر شخص اخر بقوله ، مثلا « انني لست شخصا صدوقا » الا اذا اعطانا امثلة سلوكية ، ونحن بحاجة الى هذه الامثلة او المراجع السلوكية سواء كانت المكونات شخصية اي من وجهة نظر المفحوص ، او نظرية - اي من وجهة نظر عالم النفس . فهذه المكونات تصير معروفة فقط من خلال السلوك .

(30) Ibid, p.46.

كيلى اكثر تحديدا من حيث تأكيدها على الكيفية التي بها يتبنى الشخص بالاحداث او يتوقعها .

يتم كيلي بملاءمة او اتفاق *conveni-ence* المكونات بدلا من الاهتمام بالحقيقة المطلقة . وبدلا من ان يحاول قياس حقيقة مكون معين ، يتم كيلي بملاءمته او قائلته بالنسبة للشخص .

فمثلا بدلا من ان يحاول قياس ما اذا كان المريض « سوف يصاب بالجنون حقيقة » يحاول ان يكشف المواقف والخبرات المتضمنة في حياة المريض والتي تجعله يدرك نفسه على هذا النحو ، وبالتالي يبني في نفسه مكونا شخصيا معيناً واذا كان هذا التكوين غير ملائم ، تكون المهمة عندئذ ان تجد بديلا افضل - وهو ذلك البديل الذي به يمكن التنبؤ على نحو افضل ويؤدي الى نتائج افضل .

وتكون مهمة العلاج النفسي تزويد المريض وتبصيره بالشروط التي تحدد بها المكونات الشخصية واختبارها بناء على تطبيقاتها وتعديلها اذا لزم الامر . والمفحوص كالعالم يحتاج الفرصة التي تتيح له ان يختبر مكوناته وأن يتحقق من مدى صدقها . وان يعدلها في ضوء الخبرة الجديدة .

الادوار :

يشرح كيلي فكرة اخرى تستحق اهتماما بالغا ، تمثل في تأكيده على الادوار وممارسات الدور *role enactments* بدلا من ان ينظر

الى الانسان على انه مالك لسمات - ثابتة ومعممة بشكل واسع يتناوله كيلي على انه قادر على ممارسة ادوار مختلفة كثيرة وعلى الانخراط في تغير مستمر . والدور بالنسبة لكيلي هو محاولة لرؤية شخص اخر من خلال وجهة نظر الاخر - اي ان ينظر الى الشخص من خلال مكونات هذا الشخص ذاته - وان يشكل افعاله وتصرفاته في ضوء ذلك .

فممارسة دور ما تتطلب خضوع ذلك السلوك المميز للدور للتوجيه بواسطة ادراك وجهة نظر الشخص الاخر . هكذا استخدم كيلي طريقة اللعب بالادوار على نطاق واسع كاجراء علاجي يجري تصحيحه لمساعدة الاشخاص على التوصل الى افاق جديدة وعلى استخلاص طرق اكثر ملاءمة للحياة .

الانسان هو ما يصنعه من نفسه :

يرفض كيلي مثل النظريات الظاهرية الاخرى الفكرة القائلة بان الحياة النفسية تتركز الى دوافع محددة وتقوم نظريته الى الطبيعة الانسانية على الكيفية التي يبني بها الانسان نفسه وعلى ما يفعله في ضوء تلك المكونات . ويعتقد كيلي مثل روجرز اننا لسنا بحاجة الى مفاهيم لفهم الاسباب الى تجعل الانسان مدفوعا ونشطا : فكل شخص مدفوع لا من اجل اي سبب اخر عدا كونه شخصا يعيش الحياة (٣١) . فمفهوم الدافعية بالنسبة لكيلي « قد يبدو فقط على انه حشوائد » (٣٢) .

يلذهب كيلي مثل الكثير من الوجوديين الى ان الانسان « هو ما يفعله » وتحقق له - معرفته

(31) G.A Kelly. Man's construction of his alternatives. In G. Lindzey (Ed), Assessment of human motives. New York: Rinehart, 1958 P.49.

(32) Ioid, P.50.

الى تلك الخبرات الخاصة ونضعها في المجال العام .

الشخص كما يقيس نفسه :

يسعى العلماء الفينومينولوجيون مثل روجرز وكيلي الى ان يتجاوزوا الاستبطان ، والى ان يقيموا نظرياتهم على طرق موضوعية وعلمية . فمثلا يؤكد روجرز على ان المعالج النفسي يدخل الى العالم الداخلي لادراكات المريض ليس عن طريق الاستبطان ولكن بواسطة الملاحظة والاستنتاج . (٣٤) ويتضح الاهتمام بالموضوعية في الجهود العديدة التي بذلها روجرز لاجل دراسة الاشخاص بطريقة امبيريقية وهذه الجهود هي التي جعلت اعماله تقع في مجال علم النفس وليس الفلسفة . يبدو كذلك نفس هذا الاهتمام بالقياس الموضوعي للخبرة الذاتية في الاتجاه الذي اخذ به كيلي في قياس الشخصية . ويشارك علماء النفس ذوو الاتجاه الفينومينولوجي في جهودهم الرامية الى تكوين طرق ووسائل لدراسة الخبرة بطريقة موضوعية ، ولكن هل الشخص كخبير بقياس نفسه *the person as his own assessors* يستطيع قياس نفسه بدقة ؟ فاذا كان كل شخص منا على دراسة وثيقة بواقعه المدرك الواعي *conscious perceived reality* فقد يبدو ببساطة من الخداع ادراك ورؤية العالم الذاتي للشخص الاخر . وفي الحقيقة اننا لا نستطيع بالطبع ان ندخل بداخل جلد الشخص الاخر ونرقب العالم من خلال عينيه . ولكننا نستطيع ان نبدأ بواسطة عمل استنتاجات تقوم اساسا على ما نراه ، فعليه اكثر مما تقوم على ما نراه يفعله

بطبيعته من خلال رؤيته لما هو يفعله . لقد وصل كيلي من خلال خبراته الاكينيكية مع الطلاب المضطرين الى موقف علمي يتداخل بشكل واضح مع وجهات نظر الفلاسفة الوجوديين من امثال « سارتر » فالوجود يسبق الجوهر *existence precedes essence* فليست هناك طبيعة انسانية - « فالانسان هو ما يصنعه من نفسه » *Man is what he makes of himself* .

مشكلات القياس الفينو منيولوجي للشخصية

لا يقتصر المفهوم الفينو منيولوجي في دراسة الشخصية على التصورات النظرية فحسب ، وانما تمتد ليشمل كذلك متضمنات ومشكلات خاصة بقياس الشخصية في ضوء هذا المنظور ، وكما رأينا يعتبر الاتجاه الفينومينولوجي على منطلق معين مفاده ان خبرة الشخص كما يدركها هي اساس دراسة الشخصية . ولكن اذا اهلنا المجال الخاص بالشخص كما يقول كيلي « فانه يصبح علينا بالضرورة ان نفسره كموضوع شامل *inert object* مساق في مجال عام بواسطة قوى خارجية ، او كيانات منعزلة واقعة على متصل » . (٣٣)

ومن ناحية اخرى اذا كان الافراد المختلفون يتشكلون داخل نفس النظام العام من القوانين فانه ينبغي ايضا اكتشاف الخصائص المشتركة والمستويات العليا من التجريد فلكي تدرس خبرات الفرد داخل الاطار المرجعي للقواعد العلمية فاننا ينبغي ان نجد الطرق التي توصلنا

(33) G. A. Killy, 1955, p.39.

(34) C.R.Rogers. Some Observations on the organization of personality. *American Psychologist*, 1947,2, pp.358 — 368.

الناس الآخرون (٣٥) يعني ذلك اننا نستطيع ان نحاول تناوله والدخول الى عالمه ، وليس تمثيلاتنا وتكويناتنا النظرية .

حاولت بعض الدراسات ان تختبر ما اذا كان الناس يستطيعون بدقة قياس سلوكهم والتنبؤ به فاذا تبين انهم لا يستطيعون ذلك فان قيمة البحوث الفينومينولوجية تكون ضئيلة .

ولتحديد قيمة التقرير المباشر الذي يقدمه الشخص نفسه علينا ان نقارن التنبؤات المستوحاة من تقريره الذاتي بتلك التي يمكن عملها من المصادر الاخرى للبيانات . فمثلا ، علينا ان نقارن - تقارير الذات self — re — port عند الفرد بتلك المعايير المأخوذة من الاختبارات والمقاييس النفسية ومن الطرق الكليتيكية .

وعما يدعو للدهشة ان تقارير الذات وهي طريقة بسيطة قد ثبت انها صادقة بل وفي بعض الاحيان افضل من تنبؤها من اكثر الاختبارات والمقاييس النفسية تعقيدا والتي صممت لسبر اغوار الشخصية ، يتضح ذلك من بعض

الدراسات مثل دراسات « ماكس » « وستاوفر لبي » اللذين حاولا التنبؤ بالتوافق في المستقبل عند مريضى فصامين . وقد وجدنا ان التقارير البسيطة عن الذات المأخوذة من مقاييس للاتجاهات قد تمهدنا بتنبؤات افضل من اكثر المقاييس النفسية تعقيدا مثل اختصار منيسوتا المتعدد الالوجه لقياس الشخصية MMPI (٣٦) وقد وجدت دراسة اخرى ان بعض الطرق البسيطة لتقدير الذات self — rat — ing قد تكون اكثر تباتا وفائدة مثل الاستنتاجات المأخوذة من التحليلات العملية لبعض اختبارات الشخصية . (٣٧)

وتبين دراسات « ميتشيل ونبلر » ان قدرة طلاب الجامعة على التنبؤ بتقديراتهم كانت دقيقة مثل تنبؤاتهم المأخوذة من اجاباتهم على اختبارات التحصيل والاستعداد والشخصية . (٣٨) وقد اظهرت البحوث التي اجريت على التنبؤ بالسلوك الانجازي والتوادي انه في كثير من الحالات كانت تقارير الذات دقيقة مثل الاختبارات الاسقاطية . (٣٩) بل واكثر من ذلك تبين بعض الدراسات المتعلقة بالتوجيه المهني ان الاشخاص قد عبروا بشكل مباشر عن

(35) G.A.Kelly, 1955 p.42.

(36) J.Marks , J.Stauffacher & C.Lyle. Predicting outcome in schizophrenia. Journal of Abnormal and Social psychology. 1963,66,117, — 127.

(37) D.R.Peterson. Scope and generality of verbally defined personality factors. Psychological Review 1965,72,48, — 59.

(38) W. Mischel, & P. Bentler. The ability of persons to predict their own behavior. stanford University, 1965.

(39) J.J. Sherwood. self — report and propective measures of achievement and affiliation.

البسيطة تزودنا بتنبؤات لا تقل أهمية عن تلك التي نحصل عليها من أكثر اختبارات ومقاييس الشخصية دقة وتعقيداً ومن بطاريات الاختبارات، ومن الأحكام الأكاديمية ومن التحليلات الإحصائية المعقدة. (٤٣)

طرق دراسة الخبرة الذاتية :

يدلو في بعض الحالات ان الناس في ظروف معينة يستطيعون وصف سلوكهم والتنبؤ به ، على الأقل بنفس الدقة التي يستطيع بها المتخصصون ان يستخلصوا نتائج عن سلوكهم وشخصياتهم بواسطة طرق غير مباشرة ، ونتيجة لذلك من المعقول غالباً ان نسأل الشخص بطريقة مباشرة كيف سيسلك وتكون اوصاف الذات في كثير من الحالات دقيقة مثل مصادر البيانات الاخرى او افضل منها . ولكن ذلك لا يعني ان الناس تستطيع دائماً ان تتنبأ بسلوكها بدقة . وبالرغم من ذلك تبين نتائج بحوث عديدة ان الطرق التي صممت للحصول على تقديرات مباشرة للذات — self — esti — mates وعلى تنبؤات بالذات — self — pre — diction تستحق اهتماماً بالغاً . وفيما يلي نتناول بعض هذه الطرق :

ميوهم في تقارير للذات بدت ذات قيمة في عمليات الارشاد المعني مثل أكثر الاختبارات أهمية في هذا المجال كاختبار ستوننج للميول المهنية . (٤٠)

وفي دراسة عن بعض سمات الشخصية كالعداوة والاهتمامات الجسمية والتصيلية والدينية ، — استخدمت فيها طرق عديدة ، تبين ان البيانات المأخوذة عن اوصاف الذات self — description — كانت صادقة كالطرق الاخرى المستخدمة مثل الاختبارات الاسقاطية (تكملة الجمل الناقصة. الثالث ، الرور شاخ) وتقديرات الزملاء للمفحوصين وغير ذلك من الطرق (٤١) وقد اظهرت دراسة اخرى ان تقديرات الاشخاص لذواتهم كانت اصدق من تقديرات زملائهم لهم ، كما كانت افضل من التنبؤات التي قامت على اي مقياس من المقاييس العديدة بما فيها المعالجات الاحصائية الدقيقة (٤٢) .

وباختصار يمكننا الحصول على معلومات مفيدة عن الشخص من خلال تقارير الذات self — report وتقديرات الذات — self rating ولقد تبين بصفة عامة ، ان هذه الطرق

(40) — P.H. Du Bois, & R.I. Watson. The selection of patrolmen Journal of Applied Psychology, 1950, 34, 90 — 95.

— C. Mc Arthur & L.B. Stemens, The Validation of expressed interests as compared with invented interests: A Fourteen Year follow — up Jour nal of Applied Psychology, 1955, 39, 184 — 189.

— S. Dolliver. Strong Vocational Interest Blank.

Vs. expressed vocational interest: A review: Psychological Bulletin, 1969, 72, 95 — 107.

(41) J. wallace, & L. Sechrest. Frequency hypothesis and content analysis of projective techniques.

Journal of consulting Psychology, 1967, 31, 56 — 64.

(42) H.D. Hacc & L.R. Goldberg. comparative validity of different strategies of constructing personality.

inventory Scales: Psychological Bulletin, 1967, 67, 231 — 248.

(43) W. Mischel. Personality and assessment. New York: Wiley, 1968.

طريقة تقرير الذات Q — sort technique (٤٤)

تتألف هذه الطريقة من عدد كبير من البطاقات ، وعلى كل بطاقة عبارة مطبوعة . ومن امثلة هذه العبارات : « انا شخص خانع » « انا شخص محبوب » « انا شخص مندفع » او قد تكون العبارات من قبيل : « اقلق بسهولة » « اعمل بكفاءة » .. الخ .

تستخدم هذه الطريقة في وصف الذات ، او الذات المثالية ، او لوصف علاقة ما . في حالة استخدام هذه الطريقة لوصف الذات ، توجه تعليمات للمفحوص بان يفرز البطاقات لكي يصف كما يراها في الوقت الحاضر ، واضعا البطاقات وفقا لانطباقها عليه ، بحيث تتراوح من تلك الخصائص التي تكون اقل انطباقا عليه الى اكثرها انطباقا عليه . اما في حالة استخدامها لوصف الذات المثالية ، توجه تعليمات للمفحوص بان يستخدم البطاقات لوصف الشخص الذي يود ان يكون عليه . وفي وصف العلاقة ، على المفحوص ان يفرز البطاقات من اكوام تتراوح من تلك التي تكون مميزة اكثر للعلاقة الى تلك الاقل تميزا لها .

وقد افادت البحوث التي استندت الى نظرية روجرز من هذه الطريقة في دراسة التغييرات في الذات المدركة خلال العلاج .

من المعالم الرئيسية لهذه الطريقة ان المفحوص توجه اليه تعليمات لكي يفرز البطاقات في توزيع « قسري » forced distribution

على متصل continuum تميز من البنود الاقل تميزا الى تلك الاكثر تميزا لما يصنعه . هذا التوزيع القسري اعتدالي على وجه التقريب ، فالمفحوص ينبغي ان يضع بنودا قليلة نسبيا في الاكوام « الاكثر تميزا » و « الاقل تميزا » في حين ان معظم العبارات ينبغي توزيعها في فئات قريبة من مركز التوزيع ، ولذلك فان هذا التوزيع القسري يسهل معالجة النتائج بالطرق الاحصائية الملائمة . كذلك فانه يمكن من ضبط فئات الاستجابات ، مثل النزعة الى التركيز على تقديرات « المتوسط » او الى اعطاء تقديرات طرفية .

وتأتي بنود طريقة وصف الذات من مصادر عديدة ، فقد تشتق من نظرية في الشخصية (٤٥) او من التقارير والبروتوكولات العلاجية (٤٦) او مقاييس الشخصية . (٤٧)

ويعتبر الكثير من علماء النفس الفينومينولوجيين ، ان اوصاف او تقارير الذات تتضمن اهمية بالغة في حد ذاتها ، وان قيمتها كمنبئات predictors او كأدوات صادقة قد تفوق طرقا اخرى .

(44) J.Block. The Q — sort method in personality. assessment and psychiatric research. spring-field I11: Charles C. Thomas, 1961.

(45) W. Stephenson. The study of behavior. Chicago: University of Chicago press, 1953.

(46) J.M. Butler, & G.V.High. changes in the relation between self — concepts and ideal concepts consequent upon client — centered counselling Rogers, and R.F.Dymond (Ed) Psychotherapy and personality change.

Chicago: University of Chicago Press, 1954, pp. 55 — 76.

(47) J. Block. Op. cit.

المقابلة

فالمعالج ينبغي ان يحاول ان يتعلم من الشخص الخاضع للارشاد او للعلاج كيف يفكر ويفهم ويشعر هذا الشخص « فافضل مدخل لفهم السلوك هو من الاطار المرجعي الداخلي للفرد نفسه » (٤٨) ورغم اهتمام الروجريون بالتعاطف مع الشخص ، الا انهم مع ذلك لا يميلون البحث الموضوعي في العلاقة بين المعالج او المرشد والشخص الذي يطلب علاجاً او ارشاداً نفسيين ، يفسر ذلك اهتمام مدرسة روجرز بالبحث في العمليات المتضمنة في المقابلة . اهتم روجرز في دراساته الاولى باختيار مقتطفات من مقابلات مسجلة خلال جلسات العلاج النفسي المتمركز حول العميل لتحديد كيف ان التعبيرات اللفظية للعميل تعكس صورته عن ذاته picture — self وكيف تتغير هذه الصورة خلال سير العلاج (٤٩) .

ولقد اصبح تحليل مضمون content analysis سجلات المقابلات طريقة منظمة للبحث ، ولقد استطاع الباحثون تحديد فئات لحساب درجات تعبيرات الأشخاص في المقابلة كما يقررون ذواتهم . ولقد اوضحت بعض البحوث مثلاً امكانية قياس تقبل الذات في علاقاتها بتقبل الآخرين وانه كلما ازداد تقبل الذات ادى ذلك الى تقبل الآخرين . (٥٠)

ومع ذلك لم تكن مدرسة روجرز وحدها هي التي حاولت تحليل مضمون السلوك اللفظي في

يعترف معظم العلماء الفينومينولوجيين ان تقارير الذات قد لا تكشف عن كل شيء هام في السلوك وقد لا تعطي صورة كاملة عن الشخصية ، فقد يكون الشخص واعياً بأسباب سلوكه ولكنه غير قادر او غير راغب في تقريرها . وقد لا يكون واعياً بكل خبراته وبالتالي لا يستطيع الكشف عنها . وبالرغم من ذلك يفضل الفينومينولوجيون مثل روجرز الاطار المرجعي للشخص على انه المصدر الملائم لفهم ومهمة عالم النفس كما يرى روجرز هي ان يوفر الظروف او الشروط التي تؤدي الى النمو وتيسر الكشف عن المشاعر والذات .

ويجب الا نتوقع ان الناس تكون امينة مع نفسها حين تشعر بالخوف من ان ما تقرره سوف يؤخذ عليها او يؤدي الى قرارات سلبية تتعلق بمستقبلها ، ولكي يكشف الشخص عن مشاعره الخاصة ، فانه بحاجة الى جو غير مهدد يعمل على خفض مستوى القلق وديناميات الكف ولذلك يؤكد الفينومينولوجيون على خلق ظروف التقبل والدفء والتعاطف مما يجعل الشخص يشعر بالتلقائية في الكشف عن ذاته بصراحة ، يتضح ذلك بقوة فيما يعرف « بالعلاج المتمركز حول العميل » او بالعلاج الروجري « في هذا العلاج يوفر المعالج السامحة والتقبل ويترك جانباً مقياسه الموضوعية واهتمامه بالاختبارات .

(48) C. R. Rogers, op. cit. 1952, p. 494.

رأفة هذه الدراسات

— C.R. Rogers Counseling and psychotherapy. boston: Houghton 1942.

— C.R. Rogers, & R.F. Dymond. Psychotherapy and personality change. Chicago: University of chicago press 1954.

(50) E. J. Murray, F. Jr. Auld, & A.M. White A psychotherapy case showing prtogress, but no decrease in the discomfort — relief quotient.

Journal of Consulting Psychology, 1954, 18, 349 — 353.

دراستها . وتخضع معاني الكلمات والجمل والمفاهيم لمقاييس كثيرة .

في هذه الطريقة يقدم للمفحوص كلمة مثير stimulus word مثل « ابي » او « انا » او عبارة مثل « ذاتي المثالية » ، ويطلب منه تقدير كل مثير وفقاً لمقياس متدرج من سبع نقاط يتراوح بين طرفين متناقضين مثل « قوى - ضعيف » « سار - غير سار » « نشط - خامل » وان يكون تقديره على اساس انطباق معنى المفهوم المتميز عليه ويعتبر التمايز السيماني - differential — semantic طريقة موضوعية ومرنة ، تسمح ببحث معاني الكلمات والمفاهيم من كل الانواع ، وكذلك يبحث التغيرات في هذه المعاني كنتيجة لخبرات او اجراءات خاصة مثل العلاج النفسي .

ولقد كشفت بحوث التحليل العاملي للبيانات المتجمعة من استخدام هذه الطريقة عن ثلاث عوامل سيمانية رئيسية : عامل التقييم eva-luative factor مثل « حسن - رديء » وعامل القوة potency factor مثل « قوى - ضعيف » وعامل النشاط activity factor مثل « ايجابي - سلبي » .

وتشير بعض الدراسات (٥٢) الى ان هذه العوامل السيمانية الثلاث التي اتضحت من دراسات معاني المفاهيم تشبه تلك العوامل التي ظهرت من تقديرات سمات الشخصية . ويعني ذلك ان عوامل السمات trait factors

المقابلة وانما لقي هذا ايضاً اهتماماً من دراسات تنتمي الى مدارس اخرى في العلاج النفسي .

من هذه الدراسات ذات الاتجاهات السيكدينامي محاولة تتبع التغيرات في انماط الصراع كما يجري التعبير عنها في المراحل المختلفة من العلاج . فالمفحوص يبدأ في التعبير عن صراعاته الجنسية بشكل متزايد في الجلسات الاخيرة من العلاج النفسي ، بينما كان يفصح عن صراعات عامة في المراحل الاولى من العلاقة العلاجية ، ومن الطبيعي ان تحليل المضمون يتوقف على استنتاجات الاخصائي الاكلينيكي للمعاني المتضمنة في عبارات الشخص الخاضع للعلاج او الارشاد .

وتوضح هذه الدراسات ان البيانات الفينومينولوجية المأخوذة من المقابلة قد خضعت لطرق موضوعية في البحث وفي ضوء تصورات نظرية مختلفة . ولذلك اذا كانت المقابلة اداة مفيدة من وجهة النظر الفينومينولوجية ، فان البيانات المأخوذة منها يمكن تحليلها بطرق مختلفة كمصدر رئيسي لقياس الشخصية .

طريقة التمايز السيماني :

وهي من الطرق الفينومينولوجية التي صممها « اوسجود » (٥١) لدراسة المعاني كما يقدرها المفحوص بدلالات الالفاظ . هذه الطريقة تحدد تقديرات لمعنى الاشخاص او الاحداث او المفاهيم التي يريد الباحث

(51) C.E. Osgood, G.J. Suci, & P.H. Tannenbaum. The Measurement of meaning. Urbana, Ill: The University of Illinois press 1957.

من امثلة هذه الدراسات

— S.A. Mulaik. Are personality factors, raters, conceptual factors?

Journal of Consulting psychology. 1964, 28, (6), 506—511.

— P.E. Vernon. personality Assessment: A critical Survey. New York: Wiley, 1964.

« ممالك لنفسه » وليس مملوكا بطبيعته الانسانية ، وبانه هو ما يصنعه من نفسه .
 تتضمنات عميقة بالنسبة لدراسة الشخصية .
 فبدلا من البحث في موقع الفرد بالنسبة للإبعاد التي يحددها إحصائي القياس في اختبارات ومقاييس الشخصية وفي ضوء تصور نظري معين تصبح مهمة عالم النفس هي الكشف عما يصنعه الفرد من نفسه . ومع ذلك فإن النظريات الفينومينولوجية ورغم أسهاماتها العظيمة في سير غور الشخصية الانسانية الا انه قد أثبت بشأنها بعض التساؤلات الناقلة التي يمكن ان نجمها فيما يلي : -

هل المعارف اسباب للسلوك ؟ : فرغم أهمية المعارف والأدراكات والتكوينات الشخصية في دراسة الشخصية الا انه من الصعب الزعم بانها اسباب رئيسية لسلوك الشخص . فالتكوينات اللفظية والمعارف لا تسبب دائما السلوك غير اللفظي او حتى تؤثر فيه ، فالعلاقات بين المفاهيم الشخصية والانماط السلوكية الاخرى غالبا ما تكون غير مباشرة . ولم توضح الدراسات ان التغيرات في التكوينات الشخصية - او في الآراء او المعتقدات او القيم - تتخلق بالضرورة تغيرات سلوكية هامة ، بل ان التغيرات المعرفية والقيمية غالبا ما تكون دالة لاداءات سلوكية معينة ، أكثر من ان تكون اسبابا لهذه الاداءات والتكوينات ، والمعارف قد تخضع لاعادة تنظيم لكي تتسق مع السلوك ، كما قد تستخدم لتفسير ذلك السلوك .

تفسيرات غير كاملة :

لعل أكبر نقد يوجه للتفسيرات المعرفية والظاهرية هو انها تفسيرات غير كاملة ولا تقدم تحليلا شاملا وتفصيليا بدرجة كافية للأسباب التي تحكم السلوك . ففي نظرية « كيلي » مثلا

أقرب غالبا الى عوامل المعاني meaning fac-
 tors التي تتضح من دراسات التمايز السيمانتي
 للكلمات والمفاهيم .

نقد الاتجاه الفينومينولوجي في دراسة الشخصية

يبدى الكثير من علماء النفس وخاصة في مجال دراسة الشخصية اهتماما كبيرا بالمعارف والتفسيرات الشخصية للخبرة - وهو ما قامت عليه النظريات الفينومينولوجية . وفي الواقع ان الاهتمام بالكيفية التي يدرك بها الشخص للاحداث ويرى نفسه وعالمه ، كان له اثر كبير في دفع وتطوير وتعميق البحث في الشخصية الانسانية .

ومع ذلك فإن الاتجاه الفينومينولوجي في دراسة الشخصية قد تعرض لبعض النقد الشديد . ان الاعتقاد الوجودي بان « الانسان هو ما يصنعه من نفسه » وما يدركه في نفسه قد لقي اهتماما شديدا من الباحثين في السلوك والشخصية . فعلماء النفس المهتمون بوجهة نظر الحتمية في العلم يتساءلون عن الاسباب التي تحكم ما يصنعه الانسان من نفسه وما يدركها عليه ، كيف يتمكن الاشخاص من ان يصنعوا انفسهم ويدركوا انفسهم بطرق معينة ؟ فبينما يعزو الفلاسفة ذلك الى الارادة كبا فعل « سارتر » الا ان علماء النفس يبحثون في المتغيرات التي تكمن وراء ظاهرات الوجود والارادة ذاتها . واذا كان عالم النفس يتقبل الى حد ما الفكرة بان الانسان هو ما يصنعه من نفسه ، فان عالم النفس كعالم عليه ان يذهب الى ما هو ابعد من ذلك لبحث في الشروط والظروف التي تصنع هذا الانسان ذاته بما فيها الشروط والظروف التي تؤثر في ادراكه لذاته .

وقد كان للفكرة الوجودية بان الانسان

هل الذات « فاعل » ؟

لقد تعرضت الفينو منيولوجية لنقد شديد لانها نظريات وصفية اكثر من ان تكون نظريات تفسيرية (٥٤) . يؤكد « سميت » على اهمية التمييز بين نوعين مختلفين للذات : المعنى الاول وهو الذات كفاعل للسلوك - doer of behavior وهذا المعنى يشير الى العمليات العديدة التي تؤلف شخصية الفرد - فالذات كفاعل هي مصطلح اجمالي لهذه العمليات . اما المعنى الثاني فهو الذات كموضوع self as object - هذا المعنى يشير الى مفاهيم الشخص واتجاهاته نحو نفسه . اي الى مفهومه عن ذاته ، ويرى سميت ان هذين المعنيين للذات قد لقيتا خلطا في النظريات الظاهرية . ومن الخطأ - كما يقرر سميت - ان تعزى النظريات الظاهرية للذات كموضوع (وهو مفهوم الفرد عن نفسه) كل انواع القوى العلية ، مثل القدرة على تقييمها ووقايتها ككل وتغييرها لنفسها (٥٥) .

عندئذ يمكننا ان نطرح سؤالاً هاماً :

« هل من الممكن ان يكون هناك تكامل بين النظريات الفينومينولوجية والنظريات السلوكية ؟ هذا التكامل ممكن ، ولكنه يتطلب من علماء النفس النظر الى الانسان على انه الفاعل النشط الذي يدرك بيئته ونفسه ويفسرها ويؤثر فيها ، وكذلك على انه مخلوق من الطبيعة خاضع لقوانينها .

ينظر للتكوينات الشخصية على انها المحددات الرئيسية للسلوك ، ولكن ما الذي يحدد التكوينات التي لدى الشخص ؟ فاعتبار تكوينات الشخصية على انها اسباب للسلوك والملاحظ قد تكون مقالا لتفسيرات علمية غير كاملة ، واننا لنجد تلك التحليلات غير الكاملة حينما تقدم الحالات العقلية او الادراكات او المعارف او - المشاعر او غيرها من التكوينات كتفسيرات للسلوك ، بينما تلقى محددات الحالات العقلية ذاتها اهمالا او عدم اهتمام . يقول « سكينر » : (٥٣)

« ان الاضطراب في السلوك لا يتحقق تفسيره بواسطة ربطه بالقلق ، الا اذا استطعنا بالتالي تفسير القلق . كذلك لا يتحقق تفسير فعل ما بأن نعره الى توقعات معينة ، الا اذا استطعنا بالتالي تفسير هذه التوقعات » .

ويرى « سكينر » ان التحليل الشمولي ينبغي ان يتضمن الشروط او التفسيرات التي تحكم السلوك ، وليس مجرد الخطوط العقلية الوسيطة الفرضية .

ولقد وجه النقد للفينومينولوجيين لاستبعادهم الانسان (الشخص المدرك او الشخص العارف) من السلسلة العلمية causal chain وبالتالي استبعادهم الانسان ذاته من الدراسة العلمية ، ولكن بعض المنظرين الفينومينولوجيين ، من ناحية اخرى قد وجهوا الاتهام - للتأقدين السلوكيين لتناولهم الانسان « ككائن حي فارغ » او كآلة خالية من الفكر والمشاعر ، او كمجرد مخلوق انعكاسي .

(53) B.F. Skinner. Behaviorism at fifty. In. T.W Wann (Ed), Behaviorism and phenomenology. Chicago: Univesity of Chicago press, 1964, pp.79 — 108.

(54) M.B. Smith. The phenomenological approach in personality theory. some critcal remarks. Journal of A bnormal and social Psychology, 1950 45, 516 — 522.

(55) Ibid.

شخصيات وآراء

هزت العالم في الخمسينات أحداث ضخمة انطلقت من العالم العربي وامتد أثرها بعد ذلك الى الدول الافريقية وغيرها من بلدان العالم الثالث . فقد شهدت مصر مولد ثورة يوليو / تموز ١٩٥٢ ولم يمض على ذلك عامان حتى اندلعت الثورة الجزائرية ، وبدأت الامبراطورية الفرنسية تتداعى في افريقيا وجنوب شرقي آسيا ، كما أخذ الاستعمار الاجنبي يتقلص في افريقيا ، بينما نشأت حركة عدم الانحياز .

وفي الخمسينات ظهرت في الجزائر نخبة من كبار الروائيين الجزائريين الذين نشروا باللغة الفرنسية روايات ومسرحيات أصيلة كان لها أثرها الكبير في إيقاظ الوعي الوطني والدفاع عن الشخصية الجزائرية وشجب الاستعمار . وعند ما بدأت حرب التحرير في نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٥٤ ، أصبحت الرواية والمسرحية والشعر أسلحة فعالة تناضل من أجل الحرية وتمجد الماضي والاسلام الذى حاول الاستعمار مسخه والذى كان معظم الجزائريين يرون فيه أساسا قويا للوحدة الوطنية وعنصرا من أهم عناصر الشخصية الجزائرية .

صحيح ان الجزائر شهدت ، بعد الحرب العالمية الأولى نشأة « مدرسة » جزائرية كانت تكتب روايات موجهة للقارئ الفرنسى وتقلد الروائيين الفرنسيين الذين ألفوا قصصا وروايات تدور أحداثها في العالم العربي وخاصة في شمال افريقيا ، وتعنى بوصف العادات الشعبية

عبد الحميد بن هدوقة والرواية الجزائرية

السيد عطيه أبواننجا

في هذه الحرب وأبلوا بلاء حسنا في صف فرنسا وكانوا يتوقعون ان تفي فرنسا بما قدمته لهم من وعود بعد ان بذلوا كل غال للدفاع ، ولكنها غدرت بهم بعد ان وضعت الحرب اوزارها ، وقمعت الانتفاضات الوطنية بوحشية رهيبة .

وقد برزت في الخمسينات مجموعة من الكتاب والروائيين الذين وصفوا آثار تلك الحرب على المجتمع الجزائري ، وحلّلوا علاقة الجزائريين بالغرب وفرنسا بشكل خاص ، وقد عرف هؤلاء الادباء باسم مدرسة ١٩٥٢ ونذكر من بين الروائيين مولود معمري الذي نشر في فرنسا في ١٩٥٢ رواية « التل المسى la cof-fine oublie » وفي ١٩٥٥ رواية « نوم العادل (اى النوم الهادى) Le sommeil du juste . كما نشر مولود فرعون « ايام القبائل » في ١٩٥٤ . بينما نشر الروائي محمد ديب في فرنسا السدار الكبيرة « في ١٩٥٢ و« الحريق » في ١٩٥٤ .

وعندما شبت الثورة الجزائرية اخذ هؤلاء الادباء بمجدون ماضى الجزائر وتقاليدها الاسلامية ، وكانوا يقومون بذلك بأسلوب

والفولكلور وغير ذلك من الأمور التي تجذب السائح ، وتتفق مع الأفكار الخاطئة أو السطحية التي كونهما الغرب عن الشرق ، مثل حياة المرأة العربية في الحريم وسليتها وصراعها مع ضرابها . الخ . وكانت المدرسة المذكورة تتجاسر أحيانا فتشير الى تفسخ المجتمع الاسلامي منذ أن بدأ يتأثر بالحضارة الغربية ، ولكنها كانت تمحصر في الوقت نفسه على تمجيد فرنسا التي « نشرت العلم وأنقذت المجتمع الشرقي من الجهل والتخلف والاقطاع »^(١)

وقد وصف جان بومير Jean Pommier نتائج هذه المدرسة بانه محاولات فاشلة غبية للامل فقال :

« يجب ان نقر باديء ذي بدء ، بشيء غيب للامل لا يوجد ولم يوجد قط أدب جزائري ، ونعني بذلك انه لا يوجد ، او لم يوجد بعد ، أدب مختص بالجزائر وحدها ، ادب يتأكد طابعه بوجود لغة وجنس وامة جزائرية بمعنى الكلمة » . (٢)

الا ان الحرب العالمية الثانية كان لها اثرها في ايقاظ الشعور القومي ، فقد جامد الجزائريون

(١) نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، بعض روايات من تلج تلك المدرسة : الأتريجرالية ، والفولكلورية .

Abdel Kader Hady — Hamou : Zohra , La femme du mineur , 1925

SiImane Ben Ibrahim , Khadre , Danseuse des Ouled Nait , 1926

Les Freres zanati : Bou el — Nouar , Le Jeune Aljerien m1945

J . Pommier : les écrivains Algerienvisages m1953

de Algeri Paris horizons de France , 1953

p ,pp

اما العالم العربي فقد كان متعاطفا مع الثورة الجزائرية وفخورا بهذا الادب الجزائري الذي يغدق عليه الفرنسيون المديح ، ومن ثم فقد ترجمت مؤلفات اولئك الادباء الجزائريين الى اللغة العربية ، بما في ذلك الغت والسمين وماوجه الغرابية في ذلك وقد دأبنا على الاعتزاز بترائنا ونتاجنا بمجرد ان نرى الغرب يشيد به ، فادررنا قيمة الف ليلة وليلة واستلهمنا منها الروايات والمسرحيات عندما لمسنا مدى اعجاب الغرب بها .

الا ان الجزائريين انفسهم كانت لهم نظرة مخالفة لهذا الادب ، فقد فهم النقاد الحصيفون من أمثال مصطفى الاشرف والمرحوم عبد الله مازوني ان في هذا النتاج روايت خالدة ، ولكنهم كانوا يعرفون ايضا ان هناك اعمالا كثيرة ضحلة ومن ناحية اخرى فقد أعربت الدولة الجزائرية بعد استقلالها ، عن تقديرها لبعض الادباء ، فعينت مولود معمري استاذا للآثنوغرافيا ، وآسيا جبار مدرسا بجامعة الجزائر ، كما شجعت كاتب ياسين على الاستقرار في الجزائر فعاد اليها بعد السبعينات ، الا ان كثيرا من الجزائريين ياخذون على هذا الادب انه يستخدم اللغة الفرنسية ويخطاطب الفرنسيين ولا يختلف في نظرهم عن روايات «البيير كامو» و«رويلس» وغيرهما من الكتاب الفرنسيين الذين كانوا

رمزى حتى يجدوا في فرنسا ناشرا يقبل طبع رواياتهم . فقد نشر كاتب ياسين مسرحية «الجنة المطوقة» في ديسمبر كانون الاول ١٩٥٤ ومروحية «نجمة» في ١٩٥٦ . وفي ١٩٥٧ نشر محمد ديب رواية «النوال» كما صدر لمالك حداد ديوان شعر عنوانه «الشقاء في خطر» . وفي ١٩٦٢ نشر محمد ديب رواية «من يتذكر البحر» وكان يرمز لبلده الجزائر بالبحر الام .

ولن نتعرض لتلك الروايات بالتفصيل فقد خصصت لها دراسات كثيرة (٣) ولكننا سنكتفي بابدء الملاحظات التالية :

(١) جذب هذا الادب الاصيل الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يعيشون في الجزائر مثل البيير كامو وجابريل اوديزيو وجول روا واما نويل رويلس وساعدوا زملاءهم الجزائريين على نشر نتاجهم كما رأى النقاد الفرنسيون في هذا الادب دليلا على نجاح ادماج الجزائر في فرنسا ، فاغدقوا المديح على الكتاب الجزائريين الناطقين بالفرنسية .

(٢) رأى بعض الناشرين الفرنسيين في هذا الادب الجديد موردا هاما للارباح ، فقد صور الناشر «جوليار» الرواية الجزائرية آسيا جبار على انها «فرانسوا ساجان» الجزائر ، لانها الفت وهى في سن العشرين رواية جريئة على غرار الرواية الفرنسية الشهيرة .

و « الطموح » . وفي ١٩٧٥ نشر عبد الملك مرتاد رواية نار ونور » بدار الهلال في القاهرة .

لقد كانت تلك القصص والروايات محاولات شجاعة ، الا انها كانت في معظم الاحوال ضعيفة من الناحية الفنية ، وكانت تخلط بين الدعاية والفن وتستغل على حد قول مصطفى الاشرف « شعورا قوميا معنى عهده » في جذب القراء . وسرعان ما ميج الجزائروي وخاصة الجيل الجديد منهم هذا الادب الذى يصور الماضى على نحو لا يتخلو من المبالغة والتوهيل ولا يعبر عن مشاكلهم الراهنة .

ولكن تطلعهم الى ادب اصيل تحقق على يدكائين فذيين هما طاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة . فقد نشر طاهر وطار رواية اللاز L AS بالجزائر في ١٩٧٤ كما صدرت له في بيروت في العام نفسه رواية الزلزال :

صور طاهر وطار بأسلوب واقعي يشتد احيانا في جرائته وواقعيته بداية حرب الجزائر في قصة « اللاز » كما أبرز التناقضات التي كان المجتمع والافراد يتخطون فيها في ذلك الحين ، لقد نشأ اللاز لقيطا وعاش على هامش المجتمع وعانى من الفقر المدقع ومن الذل والمهانة فاختلت قواه العقلية . وكانت تربطه علاقة غير شريفة بضابط فرنسي مما جعل الاهالى يرون فيه جاسوسا يعمل لحساب المستعمر ولكن اللاز ينتزع نفسه من الوحل ويقبل في خدمة الثورة ويعثر على ابيه الذى كان يقود فرقة من

يعيشون في الجزائر قبل الاستقلال ، كما ان الجيل الجديد من الادباء الذين يكتبون بالفرنسية من امثال رشيد بوجدرة و « حامو بلحفاوى » يأخذون على مدرسة ١٩٥٢ انها كانت تغلف نقد الاستعمار بالرموز ، وانها لم تكن جريئة في انتقاداتها ، وبالرغم من ان مولود معمري نشر في ١٩٦٥ رواية الرائعة « الافيون والعصا » التي يجد فيها حرب الجزائر ، ومع ان آسيا جبار عاجلت الموضوع نفسه في « اولاد العالم الجديد » (١٩٦٢) الا ان الجزائر لم تعد تقنع بهذا الادب بل ظلت تحس بحاجة شديدة الى ادب جزائري ناطق بالضاد . ولعمل هذه الرغبة العميقة هي التي دفعت كاتب الى صياغة مسرحياته باللغة الجزائرية الدارجة ، وشجعت بعض الروائين الشباب على نشر قصص قصيرة وروايات باللغة العربية تمجد بطولة المجاهدين وتصف وحشية الاستعمار . وكان هؤلاء الادباء ينشرون قصصهم في الصحف ثم يجمعونها في كتب ، ونذكر من بينهم احمد بن عاشور وابو العيد دودو والجيلي خلاص . ويجدر التنويه بمؤلفات روائي شاب ، هو بقطاش مرزاق مؤلف « طيور الظهيرة » و « جراد البحر » فقد تميزت قصصه القصيرة بقوة اسلوبها وبراعتها في تصوير الحياة في مدينة الجزائر وابرز العلاقة بين الانسان وبيئته . وقد حاول بعض الادباء كتابة روايات طويلة فنشر محمد منيع « صوت الغرام » (١٩٦٧) كما نشر عرعر محمد العلى « ما لاتذروه الرياح » (١٩٧٢)

وبشكل خاص مع المرأة الجزائرية . لقد أصبح عبد الحميد بن هدوقة رمزا للبلاد الجزائرية المعاصرة فهو يمثل بلاده في كافة مؤتمرات الكتاب . ولا عطاء فكرة عن أهمية هذا الكاتب العملاق تكفي الإشارة الى ان رواية « ربيع الجنوب » (الجزائر ١٩٧١) نشرت اربع مرات وبلغ عدد نسخها ٤٠٠٠٠ نسخة وترجمت الى الفرنسية وطبعت ثلاث مرات وبلغ عدد نسخها ٢٠٠٠٠ نسخة . وقد صدرت مؤخرا الطبعة الثانية من ترجمتها الهولندية « كما ترجمت ربيع الجنوب الى اللغات الاسبانية والبولندية والالمانية .

لهذا وقد نشر عبد الحميد بن هدوقة في ١٩٧٥ رواية « نهاية الامن » وقد صدرت الطبعة الثانية منها وترجمت الى الفرنسية وظهرت الطبعة الثالثة منها ايضا ويجري الآن طبع ترجمة هولندية لها . وقد ظهرت منذ شهر رواية « بان الصبح » (١٩٨٠) .

كما نشر بن هدوقة قصصا قصيرة كثيرة ترجم معظمها الى الفرنسية المرحوم عبد الله ملازوني ونشر بعضها في ثلاث مجموعات وهي :

- (١) ظلال جزائرية دار الحياة بيروت ١٩٦٠ .
- (٢) الاشعة السبعة ، ١٩٦٢ تونس .
- (٣) الكاتب وقصص اخرى الجزائرية ١٩٧٤ .

المجاهدين . ولعل « اللاز » يرمز للجزائر التي استطاعت ان تطوى صفحة من الماضي الليم وان تغسل عار التبعية لفرنسا باستبسالها في النضال وان تسترد شخصيتها السلبية وجذورها الاصلية .

أما قصة « الزلزال » فهي تصور الجزائر في فترة اهتزت فيها اركان الماضي وبدأت تتضح فيها معالم المجتمع الجديد . لقد برع طاهر وطار في تصوير انهيار مجتمع ونشأة مجتمع جديد وما يحدث ذلك من تناقضات واهتزازات ، ويسرّ التعارض بين القديم والجديد في حياة الشارع وحياة الاسرة وتطور الاحداث . فالزلزال هو الثورة الزراعية التي قوضت الاقطاع . ان بطل الرواية اقطاعي يحاول الاستعانة ببعض النصوص الدينية لمناهضة الثورة الزراعية فينادي بان الارض ملك لمن حياه الله بها ، ولكن الجيل الجديد يسخر منه ويتصر عليه ، فيتزلزل عالم بطل الرواية ويفقد عقله ويهيم على وجهه في شوارع المدينة بينما يطارده الاطفال ، رمز الجيل الصاعد .

ويعالج عبد الحميد بن هدوقة الموضوعات نفسها في رواياته ، ويعتق مثل طاهر وطار ، المذهب الواقعي ، وينادي بضرورة الالتزام في الادب ، ولكن أسلوبه الواقعي تتخلله شاعرية فريدة وتغلّفه رمزية تعطي لرواياته ابعادا عميقة كما تفيض كتاباته بسالح والحنان للريف الجزائري ولل فلاحين ، وتتعاطف مع الشباب

كما نشر مجموعة من الشعر الحر بعنوان
الارواح الشاغرة (١٩٦٧ ، الجزائر) وكتب
حوالى ٢٠٠ تمثيلية اذاعية وتلفزيونية .

ونظرا لغزارة انتاج عبد الحميد بن هدوقة
فسوف نركز دراستنا على رواياته . ولما كانت
تلك الروايات قد تأثرت بحياة الكاتب
وتجاربه ، فسنعطى نبذة قصيرة عن نشأته وتطور
فكره وفنه .

ولد عبد الحميد بن هدوقة في سنة ١٩٢٥
بالمقصورة بولاية سطيف ، وقضى طفولته في
قرية صغيرة من قرى الجبل حيث عرف حياة
الريف عن كتب وصوره في « ربح الجنوب » و
« نهاية الامس » . ودرس اللغة العربية على يد
والده وتابع دراسة اللغة العربية وأدائها في
قسنطينة بالجزائر ثم في تونس حيث حصل على
شهادة معادلة للسانس الاداب ، كما تخرج من
معهد التمثيل العربي في تونس ، هذا وقد تعلم
بن هدوقة الفرنسية في مدرسة المنصورة الفرنسية
ثم في مارسيليا ، حيث تلقى تدريبا تقنيا في
صناعات البلاستيك ، ودرس الاخراج
الاذاعي في الوقت نفسه ، وعاد بن هدوقة الى
الجزائر في ١٩٥٤ حيث درس اللغة العربية
وعندما قامت الثورة الجزائرية انضم اليها . ولما
بدأ البوليس الفرنسي يطارده هرب الى فرنسا في
نوفمبر تشرين الثاني ١٩٥٥ وتوجه منها الى
تونس في ، ١٩٥٨ حيث انقطع للدفاع عن
الثورة الجزائرية ونشر مقالات كثيرة وكتابا عنوانه

« الجزائر بين الامس واليوم » ولعل هذا العنوان
يلخص في حد ذاته عالم بن هدوقة القصصى .
وبعد الاستقلال عاد بن هدوقة الى الجزائر حيث
يشغل حاليا منصب مدير الاذاعة والتلفزيون .
هذا وقد تزوج بن هدوقة بفرنسية انجب منها بتا
تعيش الان في فرنسا ، ولكنه لم يكن موفقا في
حياته الزوجية فطلق زوجته الاولى واقترب
باخرى جزائرية .

وقد صور عبد الحميد بن هدوقة الكثير من
تجاربه في رواياته ولكنه لم يفرض شخصيته على
شخصيات رواياته . فمما لاشك فيه أن مالك
بطل ربح الجنوب والبشير بطل نهاية الامس
ورضا بطل بان الصبح يشبهونه الى حد كبير ،
لكن كل شخصية لها طابعها المستقل وحياتها
الخاصة . هذا ويتميز انتاج بن هدوقة باصالة
فهو ادب عربى اصيل نشأ وترعرع تحت شمس
الجزائر ، ولكنه متفتح على الادب العربي
والادب الغربي وفي رسالة شخصية وجهها اليها
بن هدوقة حدد فنه وعالم رواياته قائلا :

« ان ما كتبه لن يعدو ان يكون اسهاما
متواضعا في بحث ادب عربي جزائري ؛ وسط
محيط تتنازعه التيارات والعقائد والأمزجة
الحادة . . .

اننا نعيش هنا بالجزائر ، وفي كافة أنحاء
الوطن العربي على ما اظن ، وجودا حضاريا
وتاريخيا متازما وامتزقا في نفس الوقت . كما ان
انتهاء اتنا الجغرافية والحضارية والروحية والثقافية

عناصر الاجابة على تساؤلات عبد الحميد بن هدوقة موضحين ان رواياته تصور ثلاث مراحل هامة من تطور الجزائر ، فهي مراحل تنصارع فيها الاتجاهات والقوى الاجتماعية المختلفة .

١ - ربيع الجنوب

تبدأ احداث « ربيع الجنوب » بعد الاستقلال مباشرة ، وتدور تلك الاحداث في بقعة نائية بمنطقة جبلية ، وتمضى الحياة في القرية رتيبة كثية لا يخفف من وطأتها سوى اجتماع الفلاحين بالمقهى في المساء في المناسبات . ولا توجد في القرية مدرسة تعد ابناؤها للحياة ، وقد وهب أحد القرويين قطعة من الارض لبلدته حتى تبنى فيها مدرسة ، ولكن حياة السكان القروية وظروف معاشهم التي تستلزم تربية المواشى حالت بينهم وبين الانفاق على بناء المدرسة ، فالكل يود ان تكون في مكان يقرب من سكنه ، وهكذا قرروا في النهاية ان يجعلوا من المكان الموهوب مئوى اخيرا لشهداء القرية » . (٤)

وهكذا فضل الفلاحون التضحية بالمستقبل على مذبح الماضي ، وقرروا تكريم الموتى بدلا من اعداد الجيل الجديد ، ومن الطبيعي ان تسيطر العادات والتقاليد العتيقة على أهل القرية وتمثل عليهم سلوكهم ، ومن الطبيعي ان تغلب عليهم السذاجة وان تحركهم الغرائز فيسمعوا لتحقيق النفع السريع والمصلحة العابرة بدلا من

لم تعد تكفينا لتحقيق ذاتنا ، فرحنا نبحت عن أنفسنا ، اما في الازمنة الضائعة ، او في البدائل المستوردة ، لنعوض لا شعوريا ما اخذ منا طوال قرون النوم والزهد ...

لذا حاولت فيها كتيبه ، على تواضعه ، ان اعالج نقاط التأزم الرئيسية في الواقع الجزائري بصفة تدخل اكبر قدر من المستقبل في الحاضر ، وتبتعد عن المضامين الجاهزة والاشكال النابعة من مراكز خارجية ، اعتقادا مني بان الانطلاق من معطيات سوسيو- تاريخية محلية لكل قطر عربي ، لوروعيت في اعمالنا الادبية لارجعت لنا شيئا من كرامة ، وجنبنا كثيرا من مزالق الاستلاب . فالثقافة العربية التي عاش العالم على كرمها الروحي ما يقرب من الف سنة لا تستحق هذا الواقع الذي وضعها فيه تخلفنا المادى والسياسي .

ان هذه الاهتمامات هي التي جعلتني في كل اعمالي الادبية اعمد الى معالجة الواقع المتأزم والجوانب المظلمة في حياتنا الاجتماعية ، مبتعدا بقدر الامكان عن الاغتياب بما حققناه من ايجابيات .

هل وفقت ؟ طبعاً لا املك الجواب وليس لي ان اجيب فالقارئ وحده له الحق في ان يجيب عن مثل هذا السؤال . »

اننا سنحاول في الصفحات التالية ان نقدم بعض

اعداد العدة للمستقبل ، وهم على ما عليه من فقر وجهل متفرون بعبث بهم الاقطاع كما يشاء .

وعندما تهب ريح الشمال تحمل الحياة بالقرية ويسودها الهدوء . وعندما تهب ريح الجنوب او ريح القبلى تعصف بكل زرع ، وتكسو القرية بطبقة من الغبار الاسود وتحمل في طياتها الزوايع ولكن ريح الجنوب التى تحمل الرواية اسمها لها قيمة رمزية . فكلما هبت اطلقت غرائز القرويين من عقلاها وفجرت مشاعرهم العنيفة ، ولعل ريح الجنوب تشبه في وظيفتها السروائية « الشمس » في رواية الغريب لالبر كامو ، فهى تثير القبط والغضب على نحو يدفع الى القتل .

في مسرحيات كاتب ياسين أيضا تطلق الشمس النحل من خلاياه ، وكثيرا ما تقترن ريح الجنوب بالرعد الذى يوحى « بمشاعر العنف والقوة والجبروت والثورة على كل شيء وهى ثورة تؤدى في النهاية الى الخراب » (٥) كما تقترن تلك الريح بالحر الذى يولد شعورا بالاختناق . وهكذا نجد ان الريح لها ، كالشمس في روايات كاتب ياسين وجهان احدهما يبعث على الهدوء والطمأنينة ويدعو الى الحب والعودة الى الارض الخنون ، اما الوجه الاخر فهو وجه العنف والحر والغضب والثورة التى تكتسح كل ما يعترض طريقها .

وتدور احداث الرواية حول عدة شخصيات

هى المجاهد مالك والاقطاعى عابد بن القاضى وابنته نفيسة والراعى رابع وصانعة الفخار رحمة .

ان رابع يرعى غنم عابد بن القاضى كل يوم مقابل وجبة يومية وشاة كل عام ، وهو لا يعرف للراحة طعما ، ولكنه يعيش في انسجام تام مع الطبيعة . وفي المساء يعود الى كوخه في الجبل حيث تنتظر امه البكاء ولا يجد الراعى وسيلة للتعبير عن افكاره والخروج من وحدته سوى العزف على الناي . وفي المساء تصل أنغام الناي الى القرية من أعلى الجبل متقطعة يفرغ فيها صاحبها « كل ما يفيض به قلبه من حنان ووحدة وشوق » وكانت تلك الأنغام تسحر نفيسة وتثير خيالها ، كما كان يجذبها رابع بجماله وقوته ، الا انها كانت ترى فيه خادما من خدم ابوها ، اما رابع المسكين فقد صورت له سذاجته ان نفيسة تحبه .

اما العجوز رحمة فهى الفنانة الشعبية الاصيلة . لقد كانت تصنع أوانى الفخار وتطليها بنفسها بالرغم من انها أصبحت طاعنة في السن وكانت تنشد الكمال في التعبير الفنى وتتحسر لانها لم تصل اليه . لقد كانت او انها تزين كل دار وقد سجلت تلك الفنانة على الاوانى الاحداث الهامة في حياتها وفي حياة القرية وخاصة اثناء حرب التحرير . والواقع ان تلك الأوانى أصبحت ذاكرة حية للقرية .

الحكومة رئيسا للمجلس الشعبي البلدى . ان ابن القاضى يخشى مالك لانه يحس انه قد عرف سره ، ويخشاه كذلك لانه ينادى بالاصلاح الزراعى الذى كثر الحديث عنه على نحو يقض مضجع ذلك الاقطاعى .

ماذا يفعل ابن القاضى لينقل الارض التى وهبها حياته ؟ لقد قرر ان « يصهر الى » الحكومة أي ان يزوج ابنته الثانية « نفيسة » بالملك ، فنفسه تشبه تماما زليخة ولورأها مالك لتحرك حبه القديم ، ولهذا فقد طلب ابن القاضى من العجوز رحمة ان تقنع مالك بالزواج بنفيسة ، كما اشاع فى القرية ان هذا الزواج قد تقرر بالفعل وذلك حتى يضع مالكا امام الامر الواقع .

اما مالك فهو رجل نزيه مثالى استبسل فى الحرب ثم عاد اليوم الى القرية لتحريرها من التخلف والفقر بعد ان تحررت من الاستعباد . انه يجرّ ماضيه الاليم ويعيش على ذكرى زليخة وعندما يرى نفيسة يتحرك حبه القديم ، ولكنه لا يتحمس لفكرة الزواج ، لان الماضى لا يمكن ان يبعث ، ولان نفيسة من جيل غير جيله . وهو يعرف كذلك أن ابن القاضى يداهنه ويريد ان يجعل منه شريكا وحليفا للاقطاع .

اما نفيسة فهى فى الثامنة عشرة من عمرها لا تحلم بالامدينة الجزائرية وبجامعة الجزائر التى تدرس فيها ، وعندما ترى مالكا لانحس نحوه باى عاطفة ، فهو يكبرها سنا ويتنمى الى عالم يختلف عن عالمها . وهى تحس باختناق منذ

ان العجوز رحمة هى التى انقذت مالك المجاهد من موت محقق اثناء حرب التحرير ونجاته فى دارها ستة اشهر حتى شفى من جراحه ومنذ ذلك الحين ومالك يعاملها كأه .

اما عابدين القاضى الثرى الذى يملك الاراضى الواسعة الخصبة والماشية الكثيرة ، فهو رجل عمل الا انه يحب المال حبا جما ويضحى بكل غال من اجل الاحتفاظ بالارض واقتناء المزيد منها . تحالف مع الاستعمار اثناء حرب الخزاير ولكنه تظاهر فى الوقت نفسه بتأييد جيش التحرير . وعندما خشى ان يفتضح امره سعى الى تزويج ابنته زليخة للمجاهد مالك . كانت زليخة تدرس بجامعة الجزائر وكانت تؤمن بمبادئ الثورة . خطبها مالك واحبها وبادله الحب . وفى يوم ماعادت من الجزائر العاصمة الى قريتها بالقطار وكان من المقرر نسف قطار حربى يعبر القرية فى اليوم نفسه . وضع مالك اللغم بيده بالسكة الحديدية ولكن القدر شاء ان يتعطل القطار الحربى وان ياتى بدله القطار الذى استقلته زليخة فينسف اللغم . وهكذا قتل مالك وهو لا يدري اعز انسان لديه ، جن جنون عابدين ابن القاضى فوشى بمالك ورفاقه وفاجأهم الجيش الفرنسى فمات معظمهم بنار الفرنسيين وجرح مالك جرحا بليغا . ومنذ ذلك الحين ومالك يعتقد ان عابدين القاضى هو الذى وشى به ورفاقه ولكنه لا يملك الدليل على ذلك ، وعندما وضعت الحرب أوزارها عاد مالك الى القرية حيث عيته

والتقاليد « هل تثور ولكن اية ثورة وفي اي اتجاه ؟ انها لاتعرف احدا في القرية . وهب انها عرفت ماذا يجدي ذلك ؟ فلافرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا غيرهما ، لكنهما مع ذلك لابدان ثور ، وان تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت . ثورتها وحدها هي التي تستطيع تحديد الاتجاه والطريق » (٧) .

قررت نفيسة ان تستغيث بخالتها التي تقيم في الجزائر العاصمة حتى تقف بجانبها في محنتها . اعطت في السر خطابا الى الراعي رايح ليرسله اليها من مكتب بريد القرية المركزية . اما رايح المسكين فقد تصور ان نفيسة اخترعت هذه الحيلة لتبوح له بحبها ، وفي ليلة سكنت فيها الريح وافرغ فيها القمر على الارض كل ما فيه من نور فاذا هي سكرى بالنور ، اخذت نفيسة تدور في غرفتها كالحيوان الحبيس ثم اتجهت الى النافذة ففتحتها واخذت تتأمل الطبيعة ثم عادت الى فراشها فخلعت بغضب قميص النوم ورمت به فوق المقعد الخشبي وارتمت في الفراش عارية .

وفي الوقت ذاته ملا هدوء الليل وسكون الريح وضوء القمر قلب رايح بالأمال العذبة وتحركت غريزته فدفعته الى ان يقتحم سور دار نفيسة ويتسلل الى غرفتها واهتز كيانه العصبى وهو يرى جسم امرأة في حياته ، ايقظ نفيسة

عادت من الجزائر العاصمة الى قريتها لتتقضى بها العطلة الصيفية . إنها تقضى سحابة يومها في سريرها الصغير بحجرتها الضيفة وعيناها تجولان في السقف تعد ألواحها . ان ام نفيسة حزينة لان ابنتها لاتصل وهي تعتقد ان « الفرنسية التي تعلمتها ابنتها ستحيد بها لا محالة عن الطريق السوى » (٦) اما نفيسة فهي مراهة تتطلع الى الحب وهي تكتشف جسدها وتحس بلذته وهي تتحسه . وعندما تسمع أنغام الناي التي يعزفها رايح الراعي تحمل بانه أمير ساحر سيأتي لياخذها بين ذراعيه وينقلها من السجن الذي تعيش فيه .

ولنفيسة اخ صغير تتحدث معه من حين لآخر اما ابوها فلهل لايوجه اليها الكلام ، ولكنه كلف زوجته بانخبار نفيسة بانها لن تعود الى الجزائر العاصمة لمواصلة دراستها اذ انه ينوى تزويجها مالمك .

تصورت نفيسة ان مالمك قد قبل بالفعل فكرة الزواج بها فجن جنونها وثارت على امها . انها تحقن على امها لانها سلبية تقبل سيطرة الرجل على المرأة . ان امها تمثل في نظرها الماضي الذي تلفظه فهي لا تقبل ان يتحكم الرجال في مصيرها وان يزوجهها رغم أنفها بشخص لا تحبه . انها لاتريد ان تعيش في قرية محبس حريتها وتفرض عليها ارتداء ثياب مخفى انوثتها وكأنها عورة وتجعلها تعيش سجنية الدار والثياب

(٦) روح الحبيب ، ص ١٢

(٧) ص ٨٧ ، ٨٨ .

النار وما في كل منها من ألوان العذاب . ولكن فلاحا طرح سؤالاً لا يتعلق بالفقه ولا بالتوحيد فقال « ما هي الاشتراكية » فرد عليه شيخ على الفور قائلا « الاشتراكية مصدر ، اشترك يشترك اشتراكية » أبدى الجميع إعجابهم بهذا العلم الا ان أحد الفلاحين طلب من الشيخ ان يشرح له « الاشتراكية الاخرى » التي تتكلم عنها الحكومة فاجابه الشيخ « سواء كانت الاشتراكية التي نتحدث عنها الحكومة او واحدة اخرى فهي مصدر والسلام »

احس مالك بالغثيان وهو يستمع الى ما يجري من حديث واخذ يقول لنفسه « ان الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الاوهام ، يجب القيام بثورة اخرى ولكن من يقوم بها ؟ المدرسة وحدها لا تكفي . . .

قرر الخروج من الحجرة والاختلاء بنفسه في مكان بعيد عن دار العجوز ، ولكن ابن القاضي لحق به ليفاتحه في مشروع الزواج وليشكو اليه من المضايقات التي يواجهها بسبب كثرة الضرائب الجديدة ومن الحكومة التي تقول ان الارض لمن يخدمها وتفكر في تطبيق اصلاح الزراعة .

وفي تلك الاثناء كانت نفيسة مع بقية نسوة القرية في دار رحمة . كان الليل في ثلثه الاخير وكان الحريرداد ويثقل ، بينما كانت ريح الجنوب تتململ وراء الجبال قبل ان تصل بزيئرها وجحيمها ، وكانت نفيسة تحس باختناق وهي تستمع الى نساء القرية وقد اخذن يصفن احوال

فطرده شرطردة وهي تقول « اخرج ايها الراعي القدر » خرج رابع حزينا ذليلا كاسف البال . تصور ان نفيسة لم تنبذ الا لانه يزاول مهنة قدرة فاقسم الا يرضى الغنم بعد ذلك ، وقرران يعمل حطابا ، وبينما كان يجمع الحطب رأى العجوز رحمة في الجبل وهي بين الحياة والموت ، كانت رحمة قد ذهبت الى الجبل لتأخذ منه ما تحتاج اليه من تراب لصنع الاوان . وكان النهار ما يزال في اوله ، ولكن الحر كان خانقا . كانت العجوز تجر خطاها وهي تحمل قفة تراب مشدودة على ظهرها بجبل وثيق وخانتها قواها فقد خرجت والتفتوى الجبل على عنقها وكادت تختنق ، حملها رابع الى كوخها ومكث بجانبها حتى افاتت .

تدهورت حالة العجوز الصحية وماتت وحيدة وهي تهذى وتحلم انها قد اصبحت آنية من الفخار . قررت القرية باكملها ان تدود رحمة وتكرم منواهاواجتمع أهلها بدار رحمة وفي المساء تحدث امام القرية عن الدنيا والآخرة وتطرق الحديث الى الملابس الحلال والملبوسات الحرام فقال احد الشيوخ انه لا يجوز للرجال لبس الذهب « الا المصحف والسيف والانف وربط سنين مطلقا » . . وجاز للمرأة اللبس مطلقا ولو نعل لا كسري . وقال سائل آخر « واذا صلى انسان وهو يحمل ساعة ذهب هل صلاته صحيحة فقال الشيخ مستشهدا بخليل بن اسحق « عصا وصحت » .

تبارى الشيوخ في وصف زبانية النار وطبقات

فانها لم على زوجته ضربا لانها لم تحسن رقابة ابنتها ، وانتشر خبر الفضيحة ، فاحس الرجل بكل آماله وقد تداعت ، فقد ثلم شرفه فلن يتزوج مالك بنفيسة وسوف تضيق الارض من عابد ابن القاضى بعد ان جلبت عليه ابنته العار والشنار ، وعندما يكشف ان نفيسة تقيم بدار رابع يضرب رابع بموساه . لم يقاومه رايح بالرغم من انه كان اقوى منه بكثير بل استسلم له وتركه يطمعنه ، ولكن ام رايح جن جنونها فهوت على ابن القاضى بفاسها اسرعت الام الى ابنها لانقاذها واسرعت الفتاة الى ابوها لتحاول تضميد جراحه وتقاطر اهل القرية الى كوخ رايح ثم عادت نفيسة الى دارها بينما « تحركت رايح الجنوب » واخذت دويها يتصارخ بين جبال القرية ورباها فاذا الارض المقمرة تتلحف بلحاف من غبار . . . غبار القبلى » . (٩)

وهكذا تنتهى رايح الجنوب التى تتركز على موضوعين رئيسيين تحرر المرأة وتحرر الارض .

ان نفيسة تتطلع الى الحرية ، وكذلك يحلم مالك المجاهد بمستقبل آمن زاهر للفلاحين ولكن القوى الرجعية تلعب دورا كبيرا فى « رايح الجنوب » وتمثل تلك القوى فى ابن القاضى الذى يريد التهرب من الاصلاح الزراعى ، كما تتمثل فى سيطرة الرجل على المرأة القروية وفى خضوعها له وفى الشموعة وفى تمسك بعض

ليلة الدخلة . تظاهرت بالنوم فاخذت النسوة يتحدثن عن زواجهما الوشيك بمالك ويغبطنها على ذلك . جن جنون نفيسة وقررت احباط ذلك المشروع بالفراور الى مدينة الجزائر . « تحركت رايح الجنوب بكل عنف وانطلق دويها بكل قوة يمز الدنيا هزا واخذت اصواتها فى فحيح وفير تتجاوب من كل جهة وجانب ، باعثة فى النفوس الهلع وفى القلوب الرعب والفرع » . (٨)

هربت نفيسة متكررة فى زى رجل ، شقت طريقها نحو السكة الحديد ولكنها تاهت وسارت فى طريق ادى بها الى الادغال حيث لدغها ثعبان راي رايح الخطاب رجلا يرقد سريعا ، وسرعان ما اكتشف ان هذا الرجل هو نفسه . لم يفكر فى الانتقام منها بل شق مكان اللدغ وامتنص الدم المسموم ووضع على الجرح عشبا يعرفه وكان يستعمله فى مداواة الغنم التى تلدغها الثعابين . استيقظت الفتاة من غيبوبتها فوجدت رايح بجانبها وشعرت باطمئنان شديد ، عرض عليها ان يعود بها الى دارها ولكنها توسلت اليه ان يأخذها الى داره حتى تشفى وتفر الى الجزائر العاصمة . خفت ام رايح لمساعدة نفيسة وتلدقت نفيسة بجانبها متعة الحياة البسيطة الهادئة .

ووقع اختفاء نفيسة على ابوها وقع الصاعقة

ليعبروا عن آرائهم وخواطهم بيننا يراقبهم
مسالك عن كتب ويقيم اعماهم ويعجب
بشهامتهم ويتألم لفقرهم وجهلهم وتفرقهم .
ومع ان ابن هدوقة يصور الحياة كما هي لا كما
يجب ان تكون الان واقعيته تغلفها مسحة من
الرومانتيكية ، ففي ربيع الجنوب شخصيات فذة
هربت من الواقع الى عالم الطبيعة والفن مثل
رابح الراعي الذي يعيش في انسجام تام مع
الطبيعة والموسيقى ، ومثل رحمة الفنانة العاملة
التي تعيش في عزلة بين احضان الطبيعة وتشد
الكمال الفني في صنع الاوان ، واذا كانت
اوانى ، رحمة العجوز سجلا فنيا لحياتا الشخصية
ولاحداث القرية ، واذا كانت انعام ناي رابح
الراعي تعبر عن حياة القرية بما يتخللها من
شعور بالوحدة والبؤس ، ومن ثورة كامنة على
اوضاع اجتماعية جائرة فان ربيع الجنوب تعتبر
شخصية رئيسية في الرواية فهي ، بمثابة مآرد
يضيق بمقمقه ويريد تحطيم اغلاله لينشر حوله
العنف ويكتسح كل مايقف في طريقه .

٢ - نهاية الأمس

نحن الآن في ١٩٦٧ ، وقد مضى على
استقلال الجزائر خمس سنوات . ان ذكرى
حرب التحرير مازالت ماثلة في الأذهان ، ولكن
بعض رجال الدين من أمثال الشيوخ الذين
سخر منهم ابن هدوقة في ربيع الجنوب قد تحالفوا
اليوم مع الاقطاعيين لمواجهة الاشتراكية التي
يرون فيها صنوا للشبيوعية وللإصلاح

شيوخ القرية بعلم عتيق لايتفق مع مقتضيات
العصر ، اما الفلاحون فهم متفرقون غير
متضامين ، كما يفتقرون الى الوعي السياسي
وهم لا يفهمون مايقوله لهم علماء القرية ولا
يدركون ماذا تعنيه أجهزة الدعاية الحكومية
عندما تحدثهم عن الاشتراكية والتسيير الذاتي
وتأسيس اللجان والمشايق . . ولكننا نحس ان
مالك وهو متعلم حصيف قد عاد الى القرية
لتوعيتهم ، كما نحس ان القوى الرجعية قد
بدأت تتصدع وتفقد نفوذها ، فقد رفض رابح
الراعي العمل بخدمة ابن القاضي ووقف الى
جانب نفيسة ضد ابها . كما لم يقبل مالك
مشروع مصاهرة ابن القاضي واخيرا فقد وجهت
نفيسة الى ابها الضربة القاضية ففقد سمعته
وهيبته قبل ان يشر صريعا تحت ضربات ام
الراعي رابح .

اننا نحس ونحن نقرأ « ربيع الجنوب » ان
الجزائر في فوران وغليان ، وانها على وشك
مشاهدة احداث سوف تهزها وتزلزل اركان
عالمها التقليدي ، ولكن ابن هدوقة يصور
احتضار الماضي ومولد المستقبل من خلال قرية
نائية فقيرة يصف حياتها اليومية في اسلوب
واقعي اصيل ، فهو لا يصور الفلاحين على نحو
رومانسي كما فعل محمد حسين هيكل في رواية
زينب ، ولا يعطى لنضالهم بعدا ايدولوجيا كما
فعل عبد الرحمن الشرقاوي في رواية الارض ،
حيث يتكئ الفلاحون ضد الاقطاع ويتصرون
عليه ، ولكن ابن هدوقة يفسح المجال لهم

الزراعي . وبينما لم يحقق التيسير الذاتي كافة النتائج المنشودة تسلب بعض الانتهازيين الى المناصب الحكومية .

ان هذا الجو المتوتر نجد صدها في نهاية الأمر التي يدور فيها نضال بلا هوادة بين المجاهد النزيه « البشير » الذي يشبه الى حد كبير « مالك » بطل ربح الجنوب وبين الاقطاعي ابن الصخري وحليفه امام المسجد . غير ان البشير يختلف عن مالك في انه لا ينتمي الى القرية التي تدور الاحداث فيها ، ومن ثم فان أهل القرية يرون فيه « أجنيا » يراقبونه بحذر مما جعل صراع البشير مع الاقطاعيين وحلفائهم صراعا مريرا تحفه المصاعب والأخطار .

ان البشير مثل مالك يجر وراءه ماضيا ثقيلا ليا ، استشهد أبوه وأمه في حرب التحرير ، وفقد هو وزوجته وابنته ، وجرح في ساحة الوغي ونقل منها الى ألمانيا الشرقية حيث تلقى العلاج اللازم ، ثم رحل الى تونس ، حاول شغل وقته بالدراسة في الجامعة التونسية ، كان يعتقد ان زوجته وابنته قد ماتتا بدورهما ، وتعرف في تونس على فتاة تونسية أحبته وأحبها وتزوجها عندما عاد الى الجزائر بعد الاستقلال ، وشغل البشير منصبا هاما وكانت زوجته تحب الحفلات والسهرة الراقصة التي ترى فيها وسيلة لتكوين علاقات اجتماعية تكفل لزوجها الترقى السريع . ولم يرتح البشير الى مسلك زوجته فانفصل عنها وأصيب بعد الطلاق بانحبس

عصبي . ومع أن شفى منه حتى قد الفاد من الجزائر العاصمة ان قرية نائية . انه يد اليوم أن يواصل جهده حتى يحرر البلاد من القذاعة ويقتلع الجهل من جذوره . لقد ضب من زملائه السابقين في الجهاد والذين يشغلون اليوم مناصب دمة بوزارة التربية ان يعمل مدرسا متنقلا بالقرى بحيث لا يمكث بقرية الا ما يكفي من الوقت لتوعية الجيل الجديد وتنظيم قوى الفلاحين وإعدادهم للمواجهة من يستغلونهم .

والواقع ان عودة البشير الى القرية هي عودة الى الأصول وفرار من الحاضر الأليم . ان البشير يريد أن يهرب من الماضي الأليم ومن الحاضر الذي لا يرضيه . انه يعتقد انه سيجد في القرية الهدوء والعزلة والبساطة التي ينشدها بعد حياة عاصفة .

وهاهو يصل اليوم الى القرية عبر طريق غير معبد مترب . « العري هو الكساء الوحيد الذي تلبسه الارض كأن ريحا ذرية نسفتها فاذا كل شيء كتيب واذا الشمس تفقد اشعتها فتضيء بلاحنان ولا جمال ، واذا الارض تعطى للنظر صورة من هرمها الفظيع » .

التف أهل القرية حول الزائر المجهول ولما علموا انه « المعلم » نظروا اليه باشفاق كانوا يتوقعون انه سيرحل بسرعة عن القرية كما رحل من قبله المعلمون الآخرون . فالمدرسة خالية من كل شيء ماء فيها ولا كهرباء وابناء القرية يذهبون الى الحقول لا الى المدرسة وامام الجامع

وأراد البشير أن يستعين بشيلة عجوز تطهى له الطعام وتنظف المدرسة وتعي بها فأشار عليه القهوجى وبوغرارة باستخدام « أم الحركى » خاصة وإن القرية نبذتها فكانت تصنع أوانى الفخار تصنع الفخار وتبيعها فى الأسواق حتى لا تموت جوعا هى وزوجة ابنها وابنتها وابنته اما حفيدها ابن الحركى فهو يسعى غنم ابن الصخرى .

ولكى يفهم القارىء مأساة تلك المرأة وأسرتها نستطيع لأنفسنا ان نوضح له ماهو الحركى . ان « الحركى » هى فرق من الجزائريين الذين استعانت بهم فرنسا فى محاربة جيش التحرير . اما حركى « نهاية الامس » فقد كان يعيش فى فرنسا عندما علم ان المجاهدين قتلوا أباه لانه استضاف بعض انصار مصالى الحاج الذى كانت جبهة التحرير تعاديه . ولم يكن ابو الحركى يفهم ماهو الفرق بين حزب مصالى الحاج وجبهة التحرير ، ولكنه كان يعرف ان من واجبه ايواء المناضلين واكرامهم . وقد قرر ابنه الانتقام له بالانضمام الى الحركة ، وذات يوم وجد فى الجبل امرأة وابنتها وهما بين الحياة والموت فأواهما بداره وتزوج بالمرأة وتبنى ابنتها ثم رزق منها بولد ، وعندما استقلت الجزائر رجم ابناء القرية الحركى وقرروا نبذ أسرته ، وكان اقسامهم عليه هم من تلقوا منه اكبر قدر من المساعدات قبل الاستقلال .

عاد البشير الى المدرسة وأشعل شمعاً واعد

يعلم بعضهم مبادئ القراء والكتابة وما تيسر من القرآن الكريم وتأثر البشير بحفاوة أهل القرية واحس بانه قد عاد الى اصوله « هاهى ذى تلك الاصوات القديمة التى الفتها نفسه فى الطفولة والشباب واجبتها اخذت تعود الى سمعه ونفسه فتملؤها حنانا وحبانا وتصل بينها وبين الطبيعة فى اجمل ملتئمة من زقزقة عصافير وثغاء خراف واصوات اخرى كثيرة يعرفها الريفى وحده ويحس بها اكثر من غيره . فهو اذن بكل هذا سعيد وهو اذن فى هذه القرية يستأنف طفولته بفكر جديد وعن تجربة طويلة يستأنف طفولته ببراعة نفس وطهارة ضمير وعمل متواصل وحب هؤلاء الناس جميعا مهما كانت الظروف لانهم فى حاجة الى الحب وفى حاجة الى من اتسعت خبرته وتعاقبت تجاربه .

ولكن البشير لم يكن يعرف ان امام الجامع يرى فيه منافسا وغريما خطرا لاحظ الامام ان البشير لا يصلى فاخذ يشهر به ويصفه بانه بانه شيوعى اراد البشير تزويد القرية والمدرسة بالماء والكهرباء فثار ذلك حقن لاقطاعى ابن الصخرى لانه كان يخشى ان تحرم مزارعة من بعض مالهيا اذا نجح البشير فى تزويد المدرسة والقرية بالماء فقرر التخلص منه .

وتعرف البشير على مجاهد مثله اسمه بوغرارة كان جاهلا ولكنه يتمتع بالشجاعة والذكاء وصفاء النفس والشهامة ونشأت بين الرجلين صداقة خالصة ووجد البشير فى زميله فى الجهاد خير معين .

القهوة وشرب جزءا منها واستلقى في سريره واستعصى عليه النوم ، وتحركت ذكريات الماضي في نفسه وكان يعيش في « مونولوح » دائم مع نفسه .

كان يدرس بمدينة الجزائر عندما خطب له ابوه أجل بنات القرية واسمها رقية . وبعد أربع سنوات من الخطوبة زف إليها وقضى معها شهر العسل بالقرية ، ثم ثارت الجزائر في نوفمبر تشرين الثاني ١٩٥٤ فكان البشير من أوائل من انضموا إلى جيش التحرير .

وكان يعود إلى زوجته خلسة بين الحين والآخر ، وفي آخر مرة وآها بكت كثيرا وأخبرته وهو يتأهب للرحيل بأنها حامل ، وأنها تحس أنها لن تراه بعد اليوم ، ولكنه هو كان يحس أنه بطل ملحمة كبرى يتصارع فيها الحب والتضحية والموت والحياة والامس والغد .

وتتعاقب الشهور وتلد رقية بنتا تسميها فريدة ، وتنتظر على أحر من الجمر عودة زوجها الرقيق الحنون ، ولكن البشير يشبك يوما مع بعض جنود الجيش الفرنسي في معركة طاحنة وينقله رفاقه وهو جريح إلى مكان آمن قبل أن يذهب إلى ألمانيا الشرقية للعلاج ، ويقرر الفرنسيون التكتل باهل القرية ليأخذون ابا البشير إلى قسم الشرطة مع غيره من رجال القرية للتحقيق معهم ، بينما تقتحم فرقة من الجنود الفرنسيين دار البشير ويعتدى بعض الجنود على عرض رقية .

كان ابو البشير يتحمل الفرنسيين منذ عشرات السنين ولكن اعتداء الجنود الفرنسيين على شرف ابنه هو الذي رفع الغشاوة نهائيا عن بصره ، فمن خلال الشرف ، بالمعنى القروي ، أدرك معنى الكرامة والسيادة والحرية ويحصل الشيخ على رشاشة من جيش التحرير ويحتجىء في زاوية الصلاة ، وعندما تقترب فرقة فرنسية من الزاوية يباغتها باطلاق النار عليها . يقتل قائد الفرقة وستة جنود قبل أن يلقي مصرعه ، وينتقم الفرنسيون من أهل القرية شرا انتقام ، ويحظرون دفن جثة الشيخ ويهددون بقتل كل من يقترب منها . تعلم زوجة الشيخ بالخبر فتجمع حليها وتخبئها بالدار في مكان لا يعرفه أحد سوى ابنها ، وتأخذ فأسا وتتوجه إلى الزاوية لتدفن زوجها ، كما دفنت انتيجون أخاها في الاساطير الاغريقية ، ولكن الفرنسيين يطلقون عليها نيرانهم فتحترق صريعة بجانب رجلها .

كان البشير يعتقد ان زوجته وابنته قد قتلا بدورهما وكانت رقية تعتقد ان البشير قد استشهد ، وعندما هدم الفرنسيون دارها هربت بابنتها إلى الجبل حيث التقت بالحركي وتزوجته بعد أن أنقذها من موت محقق .

وفي اليوم التالي توجه البشير مع صاحبه بوغزارة إلى دار أم الحركي لشراء بعض الأواني الفخارية منها ، ونادى بوغزارة على أم الحركي فخرجت من الدار فتاة ضامرة شاحبة هزيلة ترتدى الأسمال ، وقفت أمامها لاهثة ساعلة

التحرير واستشهد له ولد ، كما ان له ابناً ثانياً يعمل كاتباً في بلدية القرية الرئيسية ، أى انه أصبح جزءاً من الجهاز الحكومي ، فكاتب البلدية يبقى في منصبه لا يتبدل ، بينما كان رئيس البلدية يتغير بعد حين ، وكان هذا الكاتب يستغل منصبه لخدمة مصالح ابيه . وكان ابن الصخرى يقرض المال لابناء القرية مقابل رهنهم لاراضيهم ، ثم يشتري منهم المحصول بثمن بخس لا يمكنهم من سداد ديونهم ، وعندئذ يتركون له الأرض صاغرين ، ومع ذلك ، كانوا لا يدركون ان هذا الاقطاعى السرابى يستغلهم ويحرقهم شيئاً فشيئاً من ممتلكاتهم ، ويحتكر وحده مياه القنوات لري بساتينه ويحرم منها ابناء القرية . وكيف يرون عيوبه وهو الرجل التقى المتواضع الذى يقرأ القرآن كل عشية مع امام الجامع ؟

سافر البشير في اليوم التالى الى المدينة وقابل كبار المسؤولين وحصل منهم على امر بتوصيل المياه من القنوات التى تروى بساتين ابن الصخرى الى المدرسة والقرية . وكان احد المهندسين قد اعد من قبل مشروعاً في هذا الصدد الا ان تنفيذه كان يتأجل باستمرار لسبب خفى ، وتلقى كاتب البلدية الامر بتنفيذ المشروع فهرول الى القرية ليحيط بأباء علما بذلك . ودهش ابن الصخرى عندما علم ان البشير على صلة بكبار المسؤولين ، وقرر مداهنته ريثما يعد خطة محكمة للتخلص منه .

تكاد تخفى ، وكان اسم هذه الفتاة مثل اسم ابنته ، فريدة ، ولو كانت ابنته حية لكانت الآن في نفس سنها وما أن رآها البشير تسعل على نحو غير طبيعي حتى شعر بضيق غريب وباحساس يشبه الحزن والعطف . انه يشعر وكأنه يعرفها ويكاد يجد شبهاً بينها وبين زوجته رقية التى تلاحقه ذكراها . قرر البشير أن يستعين بأم الحركى في تنظيف المدرسة واعداد الطعام . خشيت العجوز أن يقتلها أهل القرية لو علموا انها تجاسرت فخرجت من منفاها لتعمل بالمدرسة ، ولكن البشير وعدھا بحمايتها هو وصاحبها بوغرارة .

وثار أهل القرية عندما علموا بالخبر ، وانتهز امام الجامع هذه الفرصة لتأليبهم على البشير ، ذلك « الأجنبى الذى تحدى مشاعر القرية وقرر الاستعانة بأم الخائن . حاول البشير اقناعهم بالحسنى وذكرهم بالآية الكريمة « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، ونبههم الى أن ابن الحركى يرعى غنم ابن الصخرى ، فردوا عليه بأنه طفل برىء ، ولما حان وقت الصلاة توجه أهل القرية ، وهم يستشيظون غضباً الى الجامع الذى يقرأ ابن الصخرى فيه القرآن كل مساء مع الامام ، وقرروا عرض الأمر عليه .

كان أهل القرية يكنون كل احترام لابن الصخرى ، فقد كان يملك المال الوفير وكانت بساتينه تشغل نصف مساحة اراضى القرية ، وكان يبدو عليه الورع ، وقد شارك في حرب

صوت انفجار عنيف ، لقد نسف الجامع ، انهم الامام البشير بانه هو الذى دبر هذه الجريمة فهو اششراكى لا يصلي ، كما كان قد اصيب بالجنون .

وأسرع أبناء القرية الى دار البشير ونادوا عليه ووجهوا اليه اقزع الشتائم . خرج اليهم البشير ليسألهم عن سبب غضبهم فأنبالوا عليه ضربا ورموه بالحجارة ، فجرح جرحا غائرا بجانب عينه وكاد القرويون يقتلونه لولا ان بوغرة خف الى نجلته .

واثبت التحقيق ان البشير برىء ونحامت الشبهات حول ابن الصخرى ولكن الشرطة لم تجد دليلا قاطعا يدينه . ولكى ينفى ابن الصخرى ، عن نفسه كل شبهة تطوع ببناء مسجد جديد . ونجح البشير فى تزويد القرية بالماء والمدرسة والكهرباء ، كما حصل على قرار بتزويد التلاميذ بوجبة غذائية ، وعلى قرار آخر بتوظيف ام الحركى فى المدرسة .

وأحس اهل القرية باحترام عميق نحو هذا الشاب الذى انتصر على ابن الصخرى ، وعندما اعلن البشير بدء تسجيل التلاميذ تقاطر الاهالى الى المدرسة لقيد ابنائهم ، وأرادت ام الحركى تعليم حفيدها ، وعندما قرأ البشير اسم اب الطفل واسم امه صعقته المفاجأة . هل يصدق احد ان زوجته مازالت حية ؟ هل يصدق احد ان الطفلة التى ماتت هى ابنته ؟ واستدعى البشير رقية الى المدرسة . هاهى زوجته نداء

اما البشير فقد احضر بعض الادوية لعلاج فريدة من السعال ولما توجه الى دار ام الحركى علم ان فريدة قصت نحبها واستولى عليه حزن شديد وقرر ان يتكفل بجنازة هذه الطفلة المسكينة ، فزاد ذلك من حنق اهل القرية ولم يشترك فى الجنازة سوى صديقه بوغرة . وعندما توجه البشير الى القهوة مع صاحبه كال له القرويون السباب ، واتهموه بانه من اعوان الخونة والاستعمار وكادوا يعتدون عليه لولا تدخل بوغرة .

وبينا كان البشير يشيع جنازة فريدة شاهدته رقيه فاعمى عليها من وقع المفاجأة . نعم انه هو البشير بعينه زوجها الاول الذى قيل لها انه استشهد . انه يوارى جثمان فريدة التراب وهو لا يدرى انها ابنته . لقد كانت فريدة تمثل الجانب المضيء فى حياتها ، فقد كانت هى الرابطة الوحيدة التى تربطها بزوجها المجاهد ولكنها ماتت ومات معها الماضى المشرق ، لم يبق لرقية سوى حاضرها الاليم ، فهى الآن زوجة الحركى الخائن تعيش منبوذة ذليلة . احست رقية باختناق وغضب شديد لماذا تركها البشير للذل والهوان . هل سوف يصدق انها لم تكن تعرف ان زوجها الثانى حركى ؟ هل سيصدق انها بكت زوجها الاول أثناء الليل واطراف النهار ؟ هل سوف يصدق انها فى شقتها وعذابها الطويلين لم تنقطع عن التفكير فيه لحظة واحدة ؟ استيقظت القرية فى صباح اليوم التالى على

هو الذى دفع ابن هذوقة الى اقتراح خاتمتين تشهد اولاهما فرار البشر من الماضى بينما تجمع الخاتمة الاخرى بين زوجين مزقهما الماضى .

والواقع ان « نهاية الامس » تدور احداثها فى ١٩٦٩ ، بعد ان نجحت البلاد فى التغلب على الفتن التى شارت فى منطقة القبائل وبعد ان طبقت الحكومة سياسة التسيير الذاتى واخذت تستعد لتطبيق الاصلاح الزراعى ، وكانت اتجاهاها الاشتراكية تثير حق الرأسماليين والاقطاعيين وبعض رجال الدين ، ومن جهة اخرى كان بعض المسؤولين يضيقون ذرعا ببعض العناصر الدينية التى لاتتحمس لسياستهم وفى هذا يقول البشر :

« انه بقدر ماكان هذا النمط من الناس أثناء الاحتلال عاملا من عوامل الحفاظ على الشخصية وعدم الذوبان فى المستعمر بقدر ما سيكونون فى المستقبل عرقلة فى وجه كل اصلاح وحاجزا أمام كل تقدم » (١٠)

وهكذا تصبح قرية نائية مثل القرية التى قضى فيها ابن هذوقة طفولته رمزا للجزائر بأسرها ، فهذه القرية قد شهدت ملحمة حرب التحرير ولكنها شهدت كذلك مأساة الحركيين . كما اصبحت ميدانا لصراع مرير بين القوى التقدمية والقوى الرجعية ، ويقترب ذلك الصراع الاجتماعى بصراع سيكولوجى يدور فى نفس كل شخصية من شخصيات الرواية ،

الامس البعيد . وقابلها ببرود شديد لماذا هذه القسوة ؟ ماذنبها هى ، لقد دنسها الاستعمار ولم يكن لها من خيار ، انها الماضى الذى يعيش على ذكراه ، انها الامس المشرق والحنان والحب ، ولكنها أيضا الألم والعار والماضى الرهيب .

ماذا يفعل البشر ؟ هل يترك القرية بعد ان أيقظ وعي أبنائها وانتصر على الجهل والرجعية والاقطاع ؟ ام هل يرد اليه زوجته ؟ .

إن البشر كان فى حيرة من امره وان توخينا الدقة قلنا ان مؤلف الرواية عبد الحميد بن هذوقة هو الذى وقع فى هذه الحيرة . فقد اخبرنا انه ظل فترة لا يعرف كيف يختم روايته . والواقع انه ادرك ان رقية ليست مجرد شخصية من الشخصيات بل هى رمز للجزائر ، الوطن الحبيب الذى دنسه الاستعمار ، فهل ينبذ الجزائريون هذا الماضى كما نبذ اهل القرية كلا من رقية وام الحركى ؟ ام يقبلونه بمافيه من ذل وهوان عسى ان تصبح نهاية الامس بداية للغد ؟ فى هذا يقول ابن هذوقة :

« رقية هى رمز للجزائر التى احتلها على التوالى الرومان والبيزنطيون والوندال والأتراك ، فهل نبئ الجزائر من العدم ونبذ الماضى ام نأخذ من الماضى افضل مافيه ونقبل الحياة فى سياق انساني ، اى اشتراكى » ؟ .

الواقع ان كل جزائرى يحمل فى قلبه هذا الماضى الذى لم تتدخل جروحو بعد ، ولعل ذلك

ويحدد موقفها من الماضي الذي لم تندمل جراحه بعد .

والواقع أن « نهاية الأمس » تصور هذا الصراع في واقعية لا تخلو من قسوة ساخرة على سلبية القرويين وانقيادهم لابن الصخرى الذي يسخرهم لأغراضه ويجردهم من ممتلكاته بقسوة يغلفها ستار من النفاق وكان قلبه كيا يوحى بذلك اسمه ، قد قد من صخر . أما البشير ، فهو الذي يبشر بغد جديد وهو يضطلع بدور رمزي ، دور المعلم يعيش في الوقت نفسه أسيرا للماضي ، فهو في تأمل ذاتي لا ينقطع ، وفي حوار مستمر مع نفسه ، وفي حلم داخلي لا ينتهي وكثيرا ما ينسى نفسه وهو يتحدث مع أصحابه إلى أن ينبيه رفاقه إلى أنه قد غاب عنهم بفكره . وعندما ينام البشر يستيقظ لديه اللاشعور الذي يحاول كبح جماحه في أثناء البقطة وتمزق رقية بنفس الحالة النفسية ، وتحلم بأمر تعبر عن رغابتها الدفينة وذكرياتها التي تحاول كتبها . والواقع أن معاناة رقية والبشير ، وصراع فريدة مع المرض واستشهاد الشيخ حمودة ، أبي البشير ومصرع زوجته وهي تحاول أن توارى جسمانه التراب ، بكل ذلك ، يعطى « لنهاية الأمس » شاعرية مأساوية لا تخلو من رمزية .

٣ - بان الصبح

نحن الآن في عام ١٩٧٦ وقد مضى على استقلال الجزائر أربعة عشر عاما ، وواجهت البلاد مشكلة لم تعرف لها مثيلا من قبل وهي

الطفرة السكانية ، فقد بلغ عدد الجزائريين أربعة عشر مليونا ، أي ضعف عدد السكان قبل الاستقلال وبدأت الأرض تقصر عن تلبية احتياجات أبنائها ، فبادرت الحكومة بتنفيذ الثورة الخضراء وتطوع شباب الجامعة للاسهام في تحقيق هذا الهدف .

وكان للطفرة السكانية أثرها في تزايد الصراع بين الماضي والحاضر ، فقد نشأ جيل جديد يزيد عدده عن نصف السكان ، جيل لم يشهد حرب التحرير أو لم يتأثر بها الا قليلا ، ولهذا فهو أقل اهتماما بقصص المجاهدين وببطولات الحرب ، وهو يولي اهتمامه لمشكلات لم يجرها آباؤه ، وهي مشكلات يصطدم بها شباب العالم الثالث خاصة في البلدان العربية وفي العالم الاسلامي .

وقد كانت مناقشة مشروع « الميثاق » عام ١٩٧٦ فرصة سانحة لتقييم انجازات الثورة من جهة ، ولدراسة المشكلات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها الجزائر وتتمسح حلها . من جهة أخرى ، وانهز الجيل الجديد هذه الفرصة لمحاولة فرض شخصيته والتخلص من سلطة الآباء ، وطالب بعضهم بنبد الماضي وبالتمسك من اغلال التقليد وهذا ما نجد صداه في رواية « بان الصبح » .

ففي الخمسينيات تزوجت رقية بطة « نهاية الامس » بالبشير بناء على قرار التخذ والداها ورحب العروسان بهذه الفكرة ونشأت بينهما

يتقرب اليه الشيخ علاوة ، كما كان امام الجامع يتقرب لابن الصخرى في نهاية الامس » وعندما تحمل دليلة سفاحا تقرر الاحتفاظ بالجنين حتى لا تنهرب من مسؤوليتها وحتى « تفجر » بيت أبيها .

والواقع ان هذا البيت قد أصبح رمزا للجزائر نفسها ، وليس هذا بغريب ، فقد رمز محمد ديب الى الجزائر بمنزل في رواية المنزل الكبير ، كما صور نجيب محفوظ تطور المجتمع المصري من خلال تطور اسرة واحدة في ثلاثينيات الشهيرة ولكن عبد الحميد بن هدوقة جعل الصراع يحدث في هذا المنزل بين افراد اسرة واحدة ، وهو صراع ادى عندما « بان الصبح » الى قتل الاب بالمعنى الذى يعطيه التحليل النفسى لهذا التعبير . ان ابنة الشيخ علاوة تسمى أبيها بالجنرال لانه بحكم بيته وكأنه « ثكنة » وهو يجد في ابنه « عمر » مدير المؤسسة عزاله ، وعمر هذا منافق فاسد يصل مع ابيه جهارا ويرتكب كافة الموبقات خلسة ، وللشيخ ابن آخر هو مراد الطبيب الذى درس في فرنسا وهو يضيق ذروعا بابيه ويحلم بالفرار من دار ابيه وبالحاق بصديقه التى تعيش في فرنسا وللشيخ ولد ثالث هو رضا الذى لا يكتفى مثل دليلة بمقاومة التقاليد على نحو انانى مراهن بل يؤمن بالنضال الاجتماعى والسياسى ، وهو يحاول ايقاظ وعي نعيمة ابنة عمه التى تقيم بدار ابيه حتى تنهى دراستها بالجامعة . ان نعيمة قروية بريئة تنظر الى المدينة بعينين جديدتين ، وعندما تتوثق

بداية حب عصفت به الحرب ودنسته ، وفى الستينات حاول عابد بن القاضى تزويج مالك بنفيسة ولكن نفيسة رفضت الخضوع لتقاليد الماضى ، لقد كانت نفيسة ، تبحث عن ذاتها وتحاول تكوين شخصية تختلف عن الآخرين ، فهى تقرأ في قريتها المجلات الفرنسية بينما لا يتحدث القرويون الا بالعربية ، وهى تنبذ الزى القروى الذى يخفى معالم بدننا وتحاول اكتشاف ذلك البدن الذى ترى فيه القرية « عورة » وعندما تتضاعف ضراوة الاجداد على حد تعبير كاتب ياسين نفر نفيسة فتحدث فضيحة تعصف بتقاليد الماضى .

وفى « بان الصبح » نساء يشبهن رقية وينزوجن مثلها بالطريقة التقليدية : في الرواية نفسها مرافقة هي « هالة » التى تحلم مثل نفيسة برجل يخطفها من سجن التقاليد وفتاة قروية تحضر الى الجزائر العاصمة مثل نفيسة لتدرس بالجامعة ، الا انها سرعان ماتعود لقريتها بعد ان تحطمت أحلامها على صخرة التقاليد .

الا ان « بان الصبح » تحتوى على شخصية جديدة وهى « دليلة » الفتاة المتمردة التى ضربت بالتقاليد عرض الحائط وتكررت للدين وذهب الى ابعد مما ذهبت اليه نفسه فجعلت من اشباع رغبات الجسد وسيلة لتقويض الماضى . ان دليلة بنت الشيخ علاوة رجل الدين المجاهد تعاقب الخمر وتجمعها علاقة غير شريفة بزميل لها في الدراسة ، وهو في الوقت نفسه ابن رجل ثرى

صلتها برضا ابن عمها اليسارى يزداد وعيها السياسى فتحضر اجتماعات الميثاق وتتطوع لخدمة الثورة .

وللدليلة صديقة هى نصيرة التى بلغت مثل رضا نضجا سياسيا كبيرا ، وقد ساعدها على ذلك ابوها العامل الفقير الذى رباهما فى جومن الديمقراطية والحرية . ان نصيرة تحاول على غرار رضا أن توظف الوعى السياسى لدى دليلة ، كما تنظم بالتعاون مع رضا جهود العمال الذين يعانون من ظلم وفساد عمر ابن الشيخ حمودة ، وهو نضال يؤدى الى طرد عمر من المؤسسة التى يديرها وإلى تحقيق مطالب العمال ، وبذلك بان الصبح على الصعيد الاجتماعى بعد ان بدت تبشيره فى ريح الجنوب « ونهاية الامس » .

ان الصراع الذى يدور فى المؤسسة ينظره صراع آخر بين الشيخ حمودة وزوجته وابنه عمر من جهة ، وبين دليلة ورضا ومراد من جهة اخرى ، وسنرى فيما بعد ان هذا الصراع يؤدى الى فضيحة تقوض بيت « الجنرال » والواقع ان هذا الصراع له قيمته الرمزية ، فالجزائر المستقلة قد اصبحت اليوم فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها وهذه الفتاة الشابة تتلمس طريقها ، فالقوى المحافظة تجذبها فى اتجاه ، والقوى التقدمية تدفعها فى اتجاه آخر ، ولكن هذه الفتاة الشابة قد كسرت مثل دليلة قيدها ، لقد بان الصبح ولكن النهار لم يطلع بعد ، فهل قتلت

الجزائر اباهما حقا ام ان الأجداد سوف يضاعفون ضراوتهم ؟

ان عبد الحميد بن هدوقة يقسوى سخريته من الشيخ علاوة ويرسم له صورة لاتنسى . لقد تعاون الشيخ علاوة مع جبهة التحرير وهو الان يعمل مستشار واستاذ محاضرا بمدينة الجزائر . وعلى غرار امام الجامع فى « نهاية الامس » يتقرب الشيخ علاوة الى ذوى المال واصحاب السلطة ، ويكن للاشتراكى كرها شديدا ، ويرى أن من ينادون بها كفر من احوان الشيطان ، والشيخ علاوة لا يقبل الحوار ، فقد تعود أن يستمع الناس اليه وهو يلقي درسه ومأساة الشيخ علاوة ان الجيل الجديد لا يريد الاستماع اليه . لقد ويخ احد الشبان وقال له ألا تعرفنى ، فرد عليه الشاب قائلا « ان لم اكن اعرفك فالآن عرفتك ، انت الماضى الذى لا نريده هذا انت (١١) وحاول الشيخ الاشتراك فى اجتماع للميثاق خصص لمشكلة ملكية الاراضى واراد الاستشهاد بعلماء الدين فرد عليه شاب قائلا « دع ذلك للمسجد نحن نتحدث عن الملكية المستغلة وغير المستغلة وانت نتحدث عن الزهد فى الدنيا ، الارض لله يرثها من يشاء من عباده . . . هذه الارض التى نتحدث عنها يملكها اشخاص استولوا عليها باوجه غير مشروعة وهم يستغلون الشعب . . فهمت ؟ » مع من يتحدث الشيخ اذن مادام الفقه وكل

لقد اعتقد الشيخ علاوة خطأ ان نعيمة حامل ، فقد فتح الشيخ خلسة خطابا أرسله عشيق دليلة اليها ولكنه وجهه الى نعيمة ، حتى لا يوقظ شكوك الشيخ وحاول عمر ابن الشيخ ، الا اعتداء على نعيمة فلما صرخت مستغيثة بابناء عمها لطمها واتهمها بانها حاولت اغواؤه . لقد صدق الشيخ ابنه وارسل الى اخيه خطابا يشكو اليه فيه من مسلك نعيمة « الشائن » ويؤكد له انها حاولت الايقاع بعمر حتى يتزوجها فلا يعلم احد بعارها . ويقرر « صالح » ابو نعيمة قتل ابنته اذا تاكد انها دنست شرفه وبصحها الى طبيب وهي لاتندري لذلك سببا ، وعندما يتضح انها عذراء يقبل ابنته على جبينها وقد ترغرغرت عيناه بالدمع ، ويخرج الاب رشاشته التي احتفظ بها منذ كان يحارب الفرنسيين ويستتج من شهادة الطبيب عشر نسخ ويسرع الى دار أخيه . وكانت اسرة الشيخ علاوة قد اجتمعت في الصالون وكان عمر يتقد غضبا بعد ان نجح اضراب العمال واصلر الوزير امرا باقائه من منصبه . وعندما دخل صالح الدار ومعه رشاشته ارتعدت فرائص الشيخ وتوقع ان اخاه قد قتل نعيمة وأنى ليهجز عليهم جميعا وقال له متوسلا « صالح ، انا اخوك » .

ووزع صالح نسخة من شهادة الطبيب على كل شخص واقرب من أخيه وقال له :
« لماذا كذبت ، انت وزوجتك على بنت يتيمة كادت تذهب ضحية كذبكم لو لم اعرضها على الطبيب ؟ »

ماقرأه لادخل له في النقاش ، هل يريد الجيل الجديد ان يحكم عليه بالصمت ؟ ان الشيخ علاوة ساخط على مدينة الجزائر الصاخبة وساخط على الجيل الجديد ، ولكنه حافظ بشكل خاص على نفسه لانه يشعر بانه غريب في مدينته وهو يتحول في « بان الصباح » الى ريع جنوب تعصف بأسرة باكملها وشمس مرعبة قوية تحرق كل من يقترب منها ، انه يرمز الى القوة العمياء والتقاليد التي تطمس شخصية الفرد ، انه هو صوت الاجداد ونداء الماضي ، ولكن الجيل الجديد لم تعد تسرحه اجماد الماضي بل هو يرى نواحي نقصه اكثر مما يرى مزياه . وفي هذا يقول رضا عن ابيه وهو يتحدث الى ابنة عمه نعيمة « اتريدين ان تعرفي عمك هذا الذي منه تتألمين والذي كنت به من قبل تعترزين » انه مجموعة من قطع الغيار لا تشابه الواحدة الاخرى ولا هي من مصدر واحد . انه يجيا في عدد من العصور وفي عدد من البلدان في نفس اللحظة .

دليلة : صحيح هو يجب الماضي لكن لأفهم لماذا يتشبث بعض الناس بالماضي ؟ رضا : لانهم يخافون المستقبل ، فالرجوع الى الماضي نوع من الطفولة ، لأن المستقبل ، مغامرة وابداع . الرجل العاجز لا يمكنه ان يلتفت الى المستقبل ثم ان أبى لا يفكر بعقله وانما يحفظ ذاته . . . من الصعب تحليل شخصيته بكلمات .
دليلة : انه رجل يجرى باستمرار للحاق بالقطار ، لكنه في كل مرة يصل الى القطار يجد القطار قد اقلع .

تناهب لتطبيق الاصلاحات الاجتماعية وكان التحالف بين العلمانيين ورجال الدين قويا ، فقد لعب الاسلام دورا مجيدا في الحفاظ على الشخصية الجزائرية وفي تشجيع الشعب على مقاومة عدو جبار ، كما اضفى على حرب التحرير طابعا مقدسا ، فقد كان المناضلون « مجاهدين » وكان كل من يخر منهم صريعا يعتبر « شهيدا » .

وبمرور الوقت ، أخذ التقدميون وبعض المسؤولين يضيّقون ذرعا بعض العناصر الدينية ، التي كانت تريد ، في نظرهم ، أن تحيا الجزائر كما كانت تعيش في العصور الغابرة ، وقد اتضح ذلك بشكل خاص في أثناء المناقشات التي دارت حول الميثاق وحول سياسة التعريب وموقف الجزائريين ، الذين تعلموا باللغة الفرنسية أو ينطقون باللغة البربرية ، من تلك السياسة ، وما زالت هذه المشكلة تشغل بال الجزائريين وتدل الاحداث التي شهدتها جامعة الجزائر على ان هذه المشكلة ما زالت قائمة .

وتعتبر روايات ابن هذوقة مرآة صادقة لتطور الجزائر المعاصرة ، ففي « ربيع الجنوب » يتعامل مالك بحذر شديد مع الاقطاعي عابد بن القاضي ، ويراقب رجال الدين ولكنه يبدي لهم كل احترام بالرغم من أن آراء بعضهم تثير حنقه .

وفي « نهاية الأمس » يشتد الصراع بين البشير ، المجاهد التقدمي ، وبين الاقطاعيين وحلفائهم من العناصر الرجعية ، وتقف الحكومة بجانب البشير ، بينما يجاربه الأهالي في أول الأمر بتحريض من امام الجامع والاقطاعي ابن الصخري ، وعندما تفشل خطة ابن الصخري يعجب الأهالي بان البشير ويؤيدونه من أعماقهم ، ولكن ابن الصخري يظل محتفظا بنفوذه وهيئته ، خاصة بعد أن تطوع ببناء مسجد جديد . وفي « بان الصبح » يتضاءل دور المجاهد ويضطلع بالنضال شباب الجامعة ويشنون حربهم على آبائهم ويريدون تحريرهم

واحضر الشيخ علاوة الرسالة وسلمها لصالح فرماها قائلا « لماذا اقرأ ورقتك ؟ لو كنت رجلا لعملت معها مثل . رأيت دليلا الرسالة وفكرت في ان تصارح اهلها بالحقيقة ولكنها عدلت عن الاعتراف بان الرسالة موجهة لها ولم تجد لذلك فائدة خاصة وان نعيمة لن تعود الى مدينة الجزائر ولن تدرس بالجامعة . اما عمر فقد عرف ان كذبه قد انفضحت وتوقع ان يقتله عمه فارتعدت فرائضه . خرج العم وهو ينظر الى اخيه باحتقار وتسلب كل من في الصالون خارجين ولم يبق فيه الا الشيخ وزوجته وابنه عمر . وجهت الزوجة الحديث الى الشيخ علاوة قائلة « فضحتنا انت . . . في آخر عمرك تقرأ رسائل غيرك ؟ من يفعل هذا ؟

وهكذا تنتهي القصة وقد فقد الشيخ هيئته وتداعت أركان داره ، فقد قرر مراد الرحيل واستعدت دليلا لمغادرة الدار للاحتفاظ بجنيها وهماو عمر يفقد منصبه ويبدو ان الليل الطويل الذي كان يجثم على الدار قد انجلى فبان الصبح بنجاة من موت محقق وبانصار رضا ونصيرة على عمر .

خاتمة

صور ابن هذوقة الجزائر في ثلاث مراحل من حياتها أولاها بعد الاستقلال مباشرة حينما كانت كافة العناصر تتلمس طريقها بعد ان بدأت البلاد صفحة جديدة من حياتها وحاولت التكيف مع الأوضاع الجديدة ، وكانت الحكومة

الشيخ « يلتبس الامر على الشيخ علاوة فيعتقد ان نعيمة ، ابنة اخيه ، حامل ، لانعدام الحوار بينه وبين كل من نعيمة ودليلة ، كما يسيء ابو نعيمة معاملتها ويصحبها الى قرينته ويسجنها وهي لا تعرف لكل ذلك سببا . تحاول نعيمة التحدث مع ابيها فينهرها ولا يصني اليها الا بعد ان تتضح براءتها وعندها يعدل الأب عن فكرة قتلها ولكنه يجرمها في الوقت نفسه من الدراسة بالجامعة .

كما تنتهي روايات ابن هذوقة بفضيحة ترمز الى تعفن الماضي ، وقد اشرنا الى ذلك عند الحديث عن فرار نفيسة ، بطلة « ربح الجنوب » ، والى الانضمام امر الشيخ علاوة في نهاية « بان الصبح » . كما يرمز انعدام الحب أو عدم اكتماله الى سيطرة التقاليد الخائفة والى تفسخ المجتمع وتزعزعه . نفيسة لا تعرف الحب لانها تعيش سجنية في دارها . ورقية ، بطلة « نهاية الامس » ، تعصف الحرب بحبها . ونعيمة ، في « بان الصبح » ، تحس بميل شديد نحو ابن عمها رضا ، ولكنها تعود الى قرينتها قبل ان يتطور ذلك الميل الى حب ، اما دليلة ، فهي لا تعرف الحب لانها تحتفظ للذات خطفا ، وفي هذا تقول لصديقتها نصيرة « اشرب الخمر ، واذا شربت احوال بكل الوسائل أن اسكر لاني اعرف انني لا يمكن أن أكون سكري في كل مكان ومتى شئت حياتي كلها اذن مضغوطة في لحظات .

من نفوذهم ، ويطالبون بنبد التقاليد وبلاستعاضة عنها بأيدولوجيات معاصرة . وتفرد رواية « بان الصبح » مكانة كبرى لذلك الصراع ، وتصور مناقشات الميثاق بدقة كبيرة وكأنها تحرر محضرا للاجتماعات . ويبرز الكاتب كافة الاتجاهات ، ومع ذلك نحن نشعر بتعاطفه مع الجيل الجديد ومع الطبقات الكادحة . وبالرغم من ان الجزائريين يجدون في روايات ابن هذوقة صدق لمشاغلهم ومشاكلهم ، فإن ابن هذوقة ليس مؤرخا : فالتاريخ يتوخى الدقة الموضوعية ، ويركز اهتمامه على المجتمع لا على الأفراد ، ويعطي الأولوية لدراسة الطبقات والمؤسسات والجماهير ، ويحلل عوامل قوتها ، ويصف تزايد نفوذها أو تلاشيها ، ويستند الى الإحصاءات والوثائق والسجلات ومستندات الملكية الخ .

أما روايات ابن هذوقة فهي ليست سجلا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وإنما هي صورة سوسولوجية لتطور المجتمع عبر فترة زمنية محددة . وتعتمد تلك الروايات على وسائل أدبية تركز على الإيحاء واستخدام الرموز ، كما يمتزج فيها الخيال بالحقيقة .

ففي رواياته يحدث سوء فهم بين مختلف الشخصيات ، مما يوحي بانعدام الحوار . ان ابا نفيسة ، في ربح الجنوب ، يوقن بان ابنته لا ترفض الزواج بمالك ، فهو لا يتحدث اليها مباشرة ، بل يصدر اليها اوامره عن طريق زوجته . كما يعتقد نفيسة انها ستزف الى مالك قريبا . فهي لا تستطيع مخاطبة ابيها ، او الاتصال بمالك لمعرفة نواياه ازاء مشروع الزواج . وفي « نهاية الامس » يثور القرويون على البشير لانهم لا يصغون اليه . وفي « بان

مفترق الطرق بين الامس والغد ، والماضي والمستقبل .

ولكن روايات ابن هدوقة لا تصور الجزائر فحسب ، بل يجد القاريء فيها صورة تنطبق الى حد كبير على العالم العربي والاسلامي . فكثير من المشكلات التي يواجهها الشريف الجزائري يعاني منها القرويون في البلدان العربية . ومن عاش في القاهرة وجد انها تعاني ، مثل الجزائر العاصمة ، من اكتظاظ السكان . وما زالت المرأة العربية تناضل لغرض شخصيتها على غرار نفيسة ونعيمة ودليلة . وما زال العالم العربي والعالم الاسلامي يتلمسان طريقهما بين الاصل والتكيف مع مقتضيات العصر . وكثيرا ما اصطدمت الحكومات ببعض العناصر الدينية عندما حاولت ادخال بعض الاصلاحات الاجتماعية او تغيير النظام الاقتصادي . ولهذا فان روايات ابن هدوقة ليست جزائرية صرفة ، فهي تجمع بين الخصوصية والعالمية ، مما يفسر نجاح ترجماتها الفرنسية والانجليزية والاسبانية ، ولعل البلاد العربية في الشرق الاوسط : تكتشف بدورها هذا الكاتب العملاق .

وبالرغم من ان ابن هدوقة لا يفرض آراءه على الشخصيات التي تخيلها ، بل يتيح لكل شخصية الفرصة لتعبير عن مشاعرها وافكارها ، الا ان القاريء يحس ان ابن هدوقة يتعاطف مع بعض الشخصيات . فقد جعل من العجوز رحمة ، في « ربح الجنوب » ، ومزا رائعا للمرأة العاملة والفنانة الشعبية ، كما ان تعاطفه مع رقية ، بطلة « نهاية الامس » ، اعطى لتلك الشخصية أهمية كبرى ، اذ اصبحت رمزا للجزائر ، فرقية هي الام / الارض ، والماضي بجوانبه المشرقة والمظلمة . ولعل مالكا ، والبشير ورشا يشتركون مع ابن هدوقة في بعض صفاته وتجارب ومشاعره ، ولعل كل شخصية تمثل مرحلة من مراحل حياة الكاتب .

والواقع ان الشخصيات في روايات ابن هدوقة تنبض بالحياة على نحو يشعر القاريء : شخصيات ولدت في الجزائر وترعرعت تحت شمسها . فنحن نرى في هذه الروايات « جوا » و « مناخا » لا نجدهما في كتب التاريخ . نحن نعيش معها في صراعها مع القوى المعارضة لها ، ونتابع عبرها تطور المجتمع الجزائري بما فيه من اتجاهات متباينة ، ونشاهد الجزائر وهي في



يعد جان بياجيه من أبرز وأشهر علماء النفس في القرن العشرين . فهو أحد علماء النفس القلائل ، الذين كرسوا جهودهم لدراسة النمو العقلي لدى الأطفال ، ما يربو على نصف قرن من الزمان . لقد أجرى العديد من البحوث وألف الكثير من الكتب ونشر العديد من المقالات عن نمو الذكاء عند الأطفال (مايزيد على ٣٠ كتابا ومئات المقالات) . وفي السنوات الأخيرة ، كان لدراساته ونظرياته عن النمو العقلي تأثيرها المباشر في الممارسات التربوية المختلفة ، بدرجة لم تبلغها نظرية أخرى في علم نفس النمو من قبل . وقد كتب عن بياجيه ودراساته العديد من المؤلفات ، التي اختصت بتحليل نظرياته وآرائه وتوضيح تطبيقاتها التربوية .

ولد جان بياجيه في سويسرا عام ١٨٩٦ ، وبدأ حياته العلمية في ميدان العلوم البيولوجية ، ثم تحول اهتمامه إلى دراسة الظواهر النفسية ، وبخاصة النمو العقلي . وقد اشتهر بياجيه كعالم نفسى يتم بدراسة نمو الأطفال أساسا ، ولكنه كان إلى جانب ذلك عالم رياضيات وفيلسوفاً وعالماً بيولوجياً أيضاً . وقد كان لهذه الخلفية العلمية العريضة انعكاساتها وأثارتها على نظرياته النفسية . فقد نقل معه إلى ميدان علم النفس كثيراً من المفاهيم البيولوجية ، كما كان لنظرية المعرفة والنطق الحديث دور هام في تشكيل نظرياته عن النشاط النفسي للإنسان . وقد توفي بياجيه عام ١٩٨٠ ، تاركا ذخيرة لاتنضب من البحوث والنظريات والمؤلفات ، وبصمات واضحة على مسار الفكر السيكلوجي لسنوات طويلة قادمة .

ولقد تمكن بياجيه - بحكم تكوينه العلمى

السلوك والتطور

تأليف : جان بياجيه

عرض وتعليق : سليمان الخضري

استاذ مساعد بجامعة قطر

بساط البحث بشكل صريح ، وإنما يجيبون عليها بصورة ضمنية . انهم يعتقدون أن أى سمة وراثية (بما فيها أى تغير فى السلوك الوراثي) ، إنما هى نتائج للتغيرات التى ترجع للصدفة ، ولا تظهر قدرتها على تحقيق التكيف للكائن الحى ، الا بعد أن تحدث عملية الانتخاب الطبيعى ، أما العادات السلوكية المكتسبة فليس لها أى دور على الاطلاق فى عملية التطور .

وقد وضع بياجيه أمامه هدفا أساسيا لكتابته هذا ، ألا وهو مناقشة وتحليل التصورات المختلفة التى وضعها الباحثون عن العلاقة بين السلوك ومحاولة تقديم تصوره الخاص عن الدور الذى يلعبه السلوك فى عملية تطور الكائنات الحية .



يبدأ بياجيه بعرض نظرية لامارك عن العلاقة بين السلوك والتطور ، موضحا نواحي القوة وجوانب القصور فيها . فلامارك - من وجهة نظر بياجيه - صاحب أفكار مهمة عن دور السلوك فى تطور الكائنات الحية . وترجع أهمية هذه الأفكار الى سببين رئيسين : أولهما أن لامارك هو بلا شك المؤلف الذى أقر صراحة ودون أى غموض بأهمية السلوك ودوره الرئيسى فى تكوين أعضاء معينة لدى الكائنات الحية . وثانيهما ، أنه افترض وجود تنظيم كلى داخل فى الكائنات الحية ، تعمل فى إطاره جميع الأساليب السلوكية .

يعطى لامارك للسلوك أصلا بيثيا ، بمعنى أن السلوك يتحدد بالدرجة الأولى بالظروف البيئية الخاصة التى يعيش فيها الكائن الحى والفكرة الرئيسية التى يطرحها : هى ليست أعضاء الحيوان - أى طبيعة أجزاء جسمه وشكلها - هى

والفلسفى من أن يعالج كثيرا من القضايا النظرية المعقدة فى علم النفس ، وكان له رأيه وموقفه الواضح فيها . والكتاب الذى نعرض له اليوم « السلوك والتطور » يعد من أحدث كتب بياجيه ، ويعالج قضية من هذا النوع الفلسفى . وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٧٦ ، ونشرت ترجمتها الانجليزية عام ١٩٧٨ ، وهى الترجمة التى اعتمدنا عليها فى هذا العرض .

يقع الكتاب فى ١٥٩ صفحة ، بخلاف المقدمة ، ويضم تسعة فصول . ويعالج بياجيه فى هذا المؤلف مشكلة من أصعب المشكلات النفسية والفلسفية معا . فمن المعروف ، كما أشار بياجيه فى مقدمة الكتاب ، أن معظم الباحثين يتفقون على وجود علاقة ما بين السلوك وبين تطور الكائنات الحية بصفة عامة . أما ما طبيعة هذه العلاقة ؟ فذلك نقطة الاختلاف والمشكلة الرئيسية التى تتفاوت فيها الآراء وتناقض النظريات ، فبعض الباحثين يرى أن السلوك سبب من أسباب تطور الحياة ، بينما يرى البعض الآخر أن العكس هو الصحيح ، بمعنى أن تطور الكائنات الحية هو الذى يؤدى الى ظهور الاشكال السلوكية المختلفة .

والواقع أن كل التفسيرات التى وضعت لتحديد دور السلوك فى ميكانزمات التطور تميل لأن تتخذ أحد اتجاهين متطرفين . وتمثل أفكار « لامارك Lamarck » ومن تبعه أحد هذين الاتجاهين . فهم يعتبرون أن التغيرات التى تحدثها البيئة فى سلوك الكائنات الحية هى المصدر الأساسى لما يحدث لتلك الكائنات من تطور فى أشكال أعضائها . وفى الطرف المقابل يوجد الداروينيون التقليديون . فهؤلاء لا يترحمون مشكلة دور السلوك فى التطور على

Accommodation للمواقف الخارجية ،
لأنشأ من فراغ وإنما هي تبقى على سلوك موجود
أصلاً : وعملية الملاءمة التي تحدث ، سواء كان
ذلك على مستوى الحيوانات الدنيا أو على
مستوى الأطفال الراشدين ترتبط ارتباطاً وثيقاً
بعملية أخرى ، تعرف بعملية التمثيل
Assimilation . ويقصد ببياجيه بعملية
التمثيل هذه ، تناول عناصر معينة من البيئة
الخارجية ، وتكاملها داخل بنية سلوكية موجودة
من قبل . ويعنى هذا بعبارة أخرى ، أن هناك
عوامل داخلية (أو عمليات فطرية) تدخل في
تشكيل جميع مظاهر السلوك .

كذلك يرفض بياجيه فكرة لامارك عن أن
العادات التي يكتسبها الحيوان تفرض بواسطة
التغيرات البيئية ، وليس للحيوان دور يئسى
فيها . فهناك حيوانات كثيرة تغلبت على بيئتها
الجديدة عن طريق نشاطها الأيجابي . صحيح
أن هذا النشاط لعب دوراً رئيسياً في عمليات
الملاءمة لتلك الظروف الجديدة ، ولكن هذه
الملاءمة مشروطة أيضاً بقدرات الحيوانات
وامكاناتها السلوكية ، التي يتيحها لها تنظيمها
الداخل أو بنيتها الوراثية . ان أى نظام للفعل
(للنشاط) أو المعرفة ، يفترض وجود تنظيم
داخلي لأنماط سلوكية تؤدي وظيفتها من خلال
التفاعل مع البيئة الخارجية .

ان الصعوبة الواضحة في تفسير لامارك
للتطور تنبع من أنه يجعل البيئة المحدد الوحيد
للسلوك ، ولا يعطى أى دور للعوامل الفطرية
التي يمجدها التكوين الداخلي للكائن الحي .
وبدلاً من ذلك لو عالجنا السلوك باعتباره امتداداً
للتنظيم الداخلي وان كان متخصصاً في مجال
التفاعلات الوظيفية بين الكائن الحي والبيئة ،
لأصبح ممكناً التوفيق بين هاتين المجموعتين من

التي أدت الى نشأة عاداته وتحديد إمكاناته
السلوكية وقدراته الخاصة ، وإنما العكس هو
الصحيح بمعنى ، أن عادات الكائن الحي
وطريقة حياته ، والظروف التي عاش فيها
أسلافه ، هي التي أدت مع مرور الوقت إلى
تحديد شكل جسمه ، وعدد أعضائه
وخصائصها ، ومن ثم الامكانيات السلوكية
والقدرات التي وهبها .

كذلك يفترض لامارك أن العادات
المكتسبة ، على الرغم من أنها تؤدي إلى حدوث
تغيرات في بنية الكائن الحي ، فإنها مع ذلك
تعمل في إطار تنظيم كل لا هو نتيجة للسلوك ولا
هو من انتاج البيئة : هذا التنظيم الداخلي ، هو
البنية الداخلية للكائن الحي . وعلى ذلك ،
يقدم لامارك نوعين متمايزين من أسباب
التطور : التنظيم الداخلي ، الفطري أو
الطبيعي ، للكائن الحي ، والعوامل البيئية
الخارجية التي يتعرض لتأثيرها .

يشير بياجيه إلى أن هذه الثنائية الواضحة في
تصور لامارك عن العوامل المحددة للتطور أو
الموجهة لمساره ، تحتاج إلى حل توفيق يجمع
دونها دونما تناقض . ويرى أن لامارك قد عجز
عن تحقيق هذا الحل .

يرفض بياجيه فكرة لامارك الرئيسية ، والتي
يفترض فيها أن السلوك وحده هو المسئول عن
تكوين أعضاء الكائنات الحية بمزول عن تأثير
التنظيم الداخلي لها . ان لامارك - يشير بياجيه -
قد تجاهل غرضية السلوك الحيوي . فالسلوك
الحيوي سلوك موجه نحو هدف ، أى نحو
اشباع حاجة (أو حاجات) داخلية تنبع من
الكائن الحي . والعادات الجديدة التي يكتسبها
الكائن الحي ، والتي تمثل عملية ملاءمة

من جانب الكائن الحي ذاته . وفضلا عن ذلك ، يستطيع الكائن الحي أن يحدث تغيرات في سماته أو خصائصه الولادية عن طريق « ملأمتها » للشروط البيئية الخارجية . وقد حاول بولدوين أن يوضح امكانية تثبيت والانتقال الوراثي لهذه التغيرات . ومع ذلك لم يحاول أن يتعرض بشكل مباشر لمشكلة البيئة التي تميز بها أفكار لامارك ، ولهذا طرح فكرة الانتخاب العضوي ، التي لازالت تعرف باسم « أثر بولدوين Baldwin Effect » لم ينظر بولدوين للانتخاب العضوي على أنه استبدال الخصائص المكتسبة بخصائص النوع الفطرية ، وإنما نظر اليه على أنه تثبيت تدريجي للخصائص المكتسبة .

ويتنقد بياجيه فكرة الانتخاب العضوي ، موضحا أنه لا يمكن أن يؤدي الى النتائج التي أشار اليها بولدوين ، الا اذا نظرنا اليه أولا باعتباره مرتبطا بالبيئة الداخلية (بنية الكائن الحي) ، والا اذا افترضنا أن هذه البيئة الداخلية تتغير بواسطة الانتخاب العضوي قبل أن يحدث الانتخاب فعلا . والواقع أن الاشكال السلوكية الجديدة التي تنشأ نتيجة للتغيرات البيئية - يشير بياجيه - سوف تؤدي الى تغير البيئة الداخلية بدرجات متفاوتة . ففي بعض الحالات تكون التغيرات سطحية بحيث لا يستتبعها انتقال وراثي . وفي حالات أخرى ، أن يؤدي التكيف لبيئة جديدة الى عدم اتزان كبير قادر على تغيير البيئة الداخلية للكائن الحي وفي مثل هذه الحالات ، ليست العملية مجرد تثبيت لانماط سلوكية جديدة ، وإنما هي استبدال أنماط جديدة بأخرى قديمة .

وعلى الرغم من ذلك ، يشير بياجيه الى أن الانتخاب العضوي له دور رئيسي في التطور

العوامل . العوامل الداخلية ، وعوامل البيئة الخارجية . كذلك لم يثر لامارك مشكلة على كبير من الاهمية ، وهي مشكلة التميز في السلوك بين النشاطات المكتسبة وبين الاشكال الغريزية الموروثة . والعلاقة بين هذين النوعين من السلوك تثير أصعب مشكلة علينا أن نتصدى لها عندما نعالج دور السلوك في عملية التطور ذاتها .



لقد كان هناك اسهامان رئيسيان لعبا دورا في النظرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : الاول هو تفسير دارون Darwin للتطور على أساس الانتخاب الطبيعي ، والثاني رفض ويزمان « Weismann » لافتراض انتقال الصفات المكتسبة بواسطة الوراثة . والواقع أن دارون لم ينكر اهمية العوامل البيئية في السلوك وإنما الفرق الرئيسي بين دارون ولا مارك ، أن دارون لا يعطى أى دور لاشكال السلوك الفردية في عملية التطور وهذا هو ما وجد عالم النفس بولدوين J. M. Baldwin نقطة ضعف في نظرية دارون ، وأدى به الى نشر مقالة مشهورة عام ١٨٩٦ ، يحاول فيها تطوير نظرية دارون بادخال مفهوم « الانتخاب الوظيفي Functional selection » ويعبرارة أدق مفهوم الانتخاب العضوي Organic .

يبدأ بولدوين من فكرة الانتخاب الطبيعي بالمعنى الداروني . فعمليات التكيف الاولى تتم على أساس الخصائص الفطرية للنوع . ولكن بولدوين يضيف الى ذلك ، أن الكائن الحي يكتب خصائص جديدة عن طريق مايسميه بالانتخاب الوظيفي الذي يتطلب نشاطا إيجابيا

بباجيه أن تناقض هذا التفسير واضح تماما : فالكل المنظم الذي يشكله الكائن الحي والذي يتصف باللاعشوائية ، هو مع ذلك نتاج لتغيرات جزئية مختارة ، يرجع أصلها الى الصدفة والعشوائية كلية .



يشير بباجيه في نقده لهذا الاتجاه الى أننا يجب أن نفرق بين نوعين متميزين من التغيرات : التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية أو النوعية . فالتغيرات الكمية تتمثل في صورة مبسطة في تقوية أو اضعاف خاصية معينة مثل التغيرات التي تحدث في سرعة التعلم بين أجيال من الفئران . مثل هذه التغيرات أسهل من غيرها في تفسيرها على أساس الصدفة والانتخاب بعد الحدود . ولكن المشكلة تصبح صعبة ومعقدة حينما تنتقل الى التغيرات الكيفية . فدور الانتخاب في هذه الحالة غير واضح ويصعب علينا تبينه .

ان المحاولات المستمرة لتفسيح التفسير بالانتخاب الدارويني أدت مع ذلك الى تمييز مفيد أكده (ماير ' Mayr ') مرارا بين انتخاب السلوك المشالي وهو عنصر توحيد والانتخاب الذي يساعد على التنوع وهو عنصر مرونة . وهذا يعيدنا مرة أخرى الى المشكلة الرئيسية عن أصل الأشكال الجديدة من السلوك . لقد وضع ماير هذه المشكلة في أوضح عبارات ممكنة عندما أشار الى أن هناك احتمالين لاثالث لها : الاول أن السلوك الجديد له أساسه الوراثي من البداية ، والثاني أن السلوك الجديد ينتج من تعديل غير وراثي لسلوك موجود من قبل (بواسطة التعلم والارتباط الشرطي ... الخ) ثم يحل هذا السلوك الجديد محل سلوك وراثي .



بصرف النظر عن الدور الذي يلعبه في ميكانزمات التطور ، وبصرف النظر عن استنتاجات بولدين المتسرعة نسبيا .

ثم ينتقل بباجيه الى مناقشة وجهة نظر العلماء ، الذين تخصصوا في دراسة عادات الشعوب Ethologists عن العلاقة بين السلوك والتطور ويشير الى أن كثيرا من هؤلاء العلماء يعطون للسلوك دورا تطوريا على مستوى الانتخاب فقط وليس على مستوى التكوين الفعلي للتغيرات الوراثية على الرغم مما نعرفه من صلة وثيقة بين الاعضاء المتخصصة وأدائها السلوكي الوظيفي . ويتمثل موقف هؤلاء العلماء في مقالة « لبنداري ' Pittendrigh ' . S . C » يذكر فيها بوضوح أن عملية التكيف ليست عملية عشوائية ، وانها ترجع لقدرة الكائن الحي على أن يجمع ويحتفظ بالمعلومات المتقلة اليه بالوراثه ، وكذلك بتلك التي يكتسبها ، كذلك يتصف التنظيم الذي يشكله الكائن الحي « باللاعشوائية » كنقيض لعدم النظام أو الصدفة . والمشكلة الرئيسية في نظر بتندري تتمثل في مصدر المعلومات التي تكون هذا التنظيم ويسود القارئ انطباع بأن بتندري يبني أفكاره على تصور مماثل « للتدرج الهرمي » لوس ' Weiss ' بخاصيته الرئيسية : أن الكل ذو ثبات أكبر من الأجزاء ، وأن التغيرات الجزئية محكومة بنظم كلية أكبر . ثم يتقدم بتندري خطوة أخرى ليقرر ، أن الطبيعة « اللاعشوائية » للتنظيم وللتكيف ، يمكن أن ترجع الى خاصية وراثية ، تعمل على تجميع التغيرات الصغيرة التي تحدث بواسطة الانتخاب والتي ترجع في وجودها الى الصدفة . ويرى

لا تنطبق مباشرة على الجينات ، ولكنها تعمل أولا على مستوى السمات المكتسبة ، ثم يحدث ما يسمى بالتمثيل الوراثي **Geneticassimilation** وهو العملية التي عن طريقها يمكن الاحتفاظ بصفة مكتسبة نشأت استجابة لمثير بيئي معين ، حتى في غيبة تلك الشروط الجارحية التي تعتبر شروطا مسبقة لتكوينها . وهذه الفكرة شبيهة بوجهة نظر بولدوين التي تعرضنا لها في الفقرات السابقة .

ويشير بياجيه الى أن هذا المنحنى جذاب ، وإلى أنه قد تبناه لفترة من الوقت . ومع ذلك فهو يشير بعض المشكلات . منها غموض فكرة التمثيل الوراثي ، وكيف يحدث تثبيت الصفات المكتسبة في بنية الجينات لدى الكائن الحي . ومع ذلك يتفق بياجيه مع وادنجتون في فكرة تكوين تراكيب جديدة من الجينات ناتجة عن آثار التغيرات البيئية . كذلك يتفق معه في ارجاع عملية الانتخاب الى البيئة الداخلية ، كما تعدل بالتغيرات السلوكية التي تفرضها ظروف البيئة الخارجية .

ويستطرد بياجيه في مناقشة أفكار باحثين آخرين مثل بول ويس **Paul A . Weiss** موضحا نواحي القوة والضعف فيها . ثم ينتقل بعد ذلك لمناقشة عدد من القضايا التي تعبر عن وجهة نظره في العلاقة بين السلوك والتطور وسوف نفرد القسم الباقي من هذه المقالة لعرض وجهة نظره والشواهد التي يقدمها لتدعيمها .



يحدد بياجيه بأنه يشمل جميع الأفعال الموجهة من الكائن الحي الى نحو البيئة الخارجية لكي يغير بواسطة تلك الأفعال الظروف الموجودة حوله ، أو يغير موقفه هو في علاقته بالبيئة

أما عن الاتجاه السبرناطقي في **Cybernetic** في تفسير العلاقة بين السلوك والتطور فيمثل وادنجتون **Waddington** يشير بياجيه الى أن دور السلوك في التطور قد أعيد تفسيره بطريقة أكثر شمولاً حيناً أدركنا أن العملية البيولوجية ليست ذرية أو خطية في شكلها على الإطلاق ، وإنما تتضمن باستمرار عمل نظم للتغذية المرتدة **Feed back** كما حددها أصحاب الاتجاه السبرناطقي .

لقد طرح وادنجتون قضيتين رئيسيتين ، الأولى أن الكائنات الحية « تختار بيئتها ، وأن عملية الاختيار تتضمن تفاعلاً بين الكائنات والبيئة . فمن ناحية يوجه نشاط الكائن الحي نحو تذكر ظروف خارجية معينة مناسبة له ، لأنها تغذي أنماط سلوكه المختلفة (التغذية بالمعنى الفسيولوجي أولاً ، ثم بمعاني أخرى) كذلك يستبعد الكائن الحي أو يرفض الظروف البيئية المناسبة له . ومن ناحية أخرى تباشر البيئة تأثيراً مساعداً على أحداث تغيرات في الكائن الحي تتلاءم مع الظروف البيئية المختارة ، وتأثيراً غير

مشجع للتغيرات التي لا تستطيع أن تتلاءم مع تلك الظروف . باختصار ، تتضمن عملية التفاعل مع البيئة دورة من التحولات والتغيرات ، فيها تعدل الكائنات الحية من بيئتها ، وتحدد البيئة بدورها تغيرات في الكائنات الحية . ومعنى ذلك أن وادنجتون يؤكد أهمية السلوك باعتباره أحد العوامل التي تحدد مقدار ونمط التطور الذي يخضع له الحيوان ، وهو في نفس الوقت نتاج تطوري ، طالما أن سلوك الحيوان هو الذي يحدد طبيعة البيئة التي سيخضع لها نفسه الى حد كبير . . . »

أما القضية الثانية ، فهي أن عملية الانتاج

البيئة بنقل الأشياء وغير ذلك وإنما هي بالأحرى تؤثر في ذاتها محاولة تقوية الروابط الحيوية بينها وبين البيئة .

ومن هذا المفهوم لمعنى السلوك ، يوضح بياجيه أن هدف السلوك ليس مجرد المحافظة على البقاء ، وإنما هو بالأحرى يعمل على زيادة قدرة الفرد أو النوع ، بتوفير وسائل وأساليب أعظم ، تساعد على توسيع البيئة التي يمكن التمرد عليها ، وتلك التي يمكن معرفتها .

يوضح بياجيه أن هناك أمثلة كثيرة لأساليب سلوكية ، توحى بساطتها بأنها من ابتكار الحيوان الفرد أثناء تفاعله مع البيئة الخارجية ، ولكنها يتم تثبيتها وانتقالها وراثيا . كما أن هناك حالات أخرى تصبح فيها الأساليب السلوكية المكتسبة ثابتة ومستمرة ، ولكنها لاتصبح وراثية ، وإنما لابد أن تتعلم من جديد في كل جيل ، مثل اللغة البشرية . ولما كان السلوك المعقد يتكون من أفعال موجهة نحو البيئة ، فإن التعديلات التي تحدث فيه تنتج من الآثار المتجمعة للبيئة ونشاط الكائن الحي معا . ولكن هذه التعديلات تختلف في مستواها من حالة لأخرى . فقد تقف عند مستوى وظائف الأعضاء ، دون أن تحدث صراعا مع البروجرام الوراثي للنوع . وفي هذه الحالة لا يحدث تغير في البيئة الوراثية الداخلية للكائن الحي ، ويظل السلوك الجديد يتعلم مع كل جيل . وقد تعمل التغيرات على مستوى أعمق مما يؤدي الى حدوث عدم اتزان بين التغيرات وبين البرمجة الوراثية . وفي هذه الحالات يحدث تغير في البيئة الوراثية .

ويفسر بياجيه ذلك الذي يحدث في البنية الوراثية ، بأن حالة عدم الاتزان تحس على مستوى المورثات . ولكن الرسالة المنقولة في هذه الحالة ليست مجرد إخطار بما يحدث ، أو

المحيطه . والسلوك في أدنى مستوياته لايزيد عن مجرد كونه أفعالا حسية حركية (ترابطات من المدركات والحركات) ، وفي أعلى مستوياته يتضمن العمليات العقلية العليا ، كما يحدث في النشاط العقلي للإنسان . فالسلوك بهذا المعنى ، هو فعل هادف يسعى الى الاستفادة من البيئة أو تغييرها ، ، والى المحافظة على قدرة الكائن الحي على التأثير في تلك البيئة ، والزيادة المستمرة لهذه القدرة .

ومعنى هذا أن الحركات أو الاستجابات الداخلية للكائن الحي ، مثل انقباض العضلات أو حركة الدم ، لاتدخل في مفهوم السلوك ، على الرغم من أنها شروط ضرورية لحدوث السلوك . كذلك التنفس لايعتبر سلوكا ، لأنه غير موجه لكي يؤثر في البيئة . أما الأفعال المتعكسة للحيوانات فيمكن أن توصف بأنها سلوك ، لأنها تهدف الى تغيير العلاقة بين الكائن الحي والبيئة .

ويستبعد بياجيه من مفهوم السلوك كذلك ما يحدث في النبات ، مثل استجابة الزهرة للضوء ، على الرغم من أنها موجهة نحو تغير وضع النبات بالنسبة للبيئة . ويقدم لذلك أسبابا ثلاثة : أولها أن النباتات لاتستطيع الحركة ، بمعنى الانتقال في المكان . وعلى الرغم من وجود الحركة في بعض الحالات ، إلا أنها حركة سلبية وليست تحركا إيجابيا . فهي مجرد حركة جزئية أو موضعية لأجزاء معينة من النبات ، وليست انتقالا كليا للجسم يؤدي الى تغير وضعه في المكان . وثانيها ، عدم وجود جهاز عصبي لدى النبات ، ومن المسير القول بأنه السبب في انعدام الحركة أو أنه نتيجة لها . ومن المعروف أن الجهاز العصبي هو التحقيق الملموس للروابط المطلوبة للسلوك . وثالث الأسباب . أن النباتات لاتباشر تأثيرها على

الخمول التي تؤدي اليه في البداية ، ثم يصبح بعد ذلك احتياطاً تنبؤياً ضد التعب الزائد . والعملية الثانية تنشأ من الأولى ، ويسمىها بياجيه بالتعميم ، وفيها يستخدم شكلاً معيناً من السلوك لتحقيق أغراض جديدة في مواقف جديدة . والنوم أيضاً يصلح كمثال هنا ، حيث يصبح جزءاً من غريزة البيات الشتوي ، ويحمي الحيوان من قلة التغذية وهو هدف جديد . وحينئذ يستدعي نمط ما من السلوك تأزراً وتنسيقاً بين عدة عناصر تحدث العملية الثالثة ، التي تجمع وتربط بين هذه العناصر بالطرق المختلفة الممكنة . ويعتقد بياجيه أن هذه العملية هي التي تفسر لنا الظاهرة المعروفة ، وهي ظاهرة الاختلافات السلوكية المعقدة الموجودة بين أنواع من الكائنات الحية القريبة جداً من بعضها ومع ذلك لا يمكن تفسيرها إلا على أساس الانتخاب الطبيعي ولا على أساس مطالب البيئة ، هذه العناصر « المجموعة » الخارجية ، تسع لتثير عملية رابعة داخلية أكثر تعقيداً وتتضمن حدوث تمايزات وتكاملات بين نظم جزئية . ومن الواضح في هذه العمليات الأربع أن لتعزيز السلوك أو تصحيحه دور فيها . أما العملية الخامسة ، فهي عملية تعويضية ، فهي تلغي أو تعوض اضطراباً أو عدم اتزان داخلي في البيئة الوراثية . أما العمليتان السادسة والسابعة ، فيقر بياجيه بأنهما لازالتا على درجة عالية من الغموض على الرغم من الثقة التامة في وجودهما الفعلي ، ويستخدم بياجيه مصطلح التعزيز المكمل للدلالة على العملية السادسة وهي التي تؤدي إلى تكوينات متطورة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسلوك مثل الأرجل . أما العملية السابعة فيشير إليها بمصطلح « التناسقات البنائية » (Constructive co-ordinations) وهي تؤدي إلى تطورات تتطلب

حتى بما يجب أن يحدث ، وإنما الرسالة الوحيدة هنا هي « أن شيئاً ما لا يؤدي وظيفته بطريقة سوية » . وتستجيب البنية الداخلية بتجريب تنوعات مختلفة ، نصف عشوائية في الغالب ، نتيجة لقلة المعلومات عندها ، وهنا يأتي دور الانتخاب بواسطة البيئة الداخلية ، التي تم تعديلها نسبياً بواسطة شكل جديد من أشكال السلوك ، وهو الذي يبدأ العملية كلها ، وبالتالي يتأثر بالضرورة بالبيئة الخارجية التي وجد فيها . فما يحدث إذن ، ليس تأثيراً مباشراً من النوع الذي افترضه لامارك ، وإنما عملية إبدال تتضمن إعادة تكوين داخلي .

يتطلب بياجيه لبحث مشكلات الفرائز في علاقتها بمشكلات التطور ، ويشير بياجيه منذ البداية إلى أنه من العسير أن نحدد دور العوامل الفطرية ودور التغيرات المكتسبة في السلوك الفريزي ، ولذلك فهو يصف بالفريزي كل نشاط خاص ومميز للنوع ، دون افتراضات مسبقة عن علاقة هذا النشاط بما هو فطري وما هو مكتسب .

يشير بياجيه إلى أن مشكلة أصل الفرائز لازالت دون حل حاسم منذ قرون عديدة . فعلى الرغم من أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنظيم الفسيولوجي للكائنات الحية ، فإن محاولة تفسيرها في لغة علم البيولوجي الحديث تؤدي إلى صياغات عديدة ومتناقضة .

يميز بياجيه سبع عمليات رئيسية ، تعد بمثابة الميكانيزمات لكل سلوك ، بما فيه السلوك الفريزي . أولى هذه العمليات وأبسطها هي انتقال السلوك من التابع المتنظم أ - ب - ج ، إلى تبوؤ مسوجه نحو الهدف ، حيث يعني الوصول إلى ج ، العمل على تنفيذ أ ، ب . ويضرب بياجيه مثلاً لذلك بالنوم ، حيث يكون له وظيفة التنشيط أو الانعكاش من حالة

متعددة من التمثيل ، بقدر ما يوجد من انماط السلوك (بما فيها ادراك الاخطار شأنها شأن ادراك الاشياء المفيدة) . واذا كان التمثيل الفسيولوجي يستمر في الحدوث بال تكرار البسيط فان التمثيل السلوكي ينتج ذاكرة تزيد عدد العلاقات بين الكائن الحي والبيئة ، ومن ثم تسهم في توسيع ذاتها .

اما الملائمة فيقصد بها بياحيه التغيرات التي تحدث في الكائن الحي لكي يتوافق مع بيئته ويتأثر التنظيم الفسيولوجي بعملية الملائمة تأثرا سلبيا فقط حيث ان ما يحدث هو مجرد استبدال لجوانب معينة من دورة التمثيل ، وذلك في الحدود الدنيا . وعلى العكس من ذلك فان الملاءمة في مخطط الفعل السلوكي مصدر لتغيرات لا تلغى الاشكال السلوكية الموجودة ولكنها تحدث فيها تمايزا عن طريق ايجاد نظم جزئية **Sub-systems** .

ومعنى هذا ان الميكانيزمات الوظيفية الرئيسية المشتركة بين الفسيولوجيا والسلوك تميل الى المحافظة على الوضع الراهن في مجال الفسيولوجيا ولكنها تعمل على التوسع في مجال السلوك ، فعملية التمثيل والملاءمة تعملان معا على ما يبدو انه يمثل هدفا مزدوجا للسلوك في جميع مستوياته وهو ان يوسع بيئة الكائن الحي من ناحية وان يزيد من قدرات الكائن من ناحية اخرى .

يشير بياحيه الى ان البحوث والدراسات التي اجريت على الجهاز العصبي ومرونته تكشف عن وجود تفاعل وثيق بين تطور الجهاز العصبي وتطور السلوك حتى ولو لم يكن تطور الجهاز العصبي نتاجا مباشرا لتطور السلوك . ويعتقد بياحيه ان المبادرة تأتي من السلوك على الرغم من ان الجهاز العصبي هو الذي يمد السلوك بادواته . وعلى الرغم من ان الجهاز العصبي قد

معلومات مفصلة عن البيئة ، كما في حالة انتاج اعضاء للوخز واعضاء ذات مادة سامة على سبيل المثال . وبما يؤكد وجود هذه العمليات ودورها في اعادة تكوين البنية الوراثية - من وجهة نظر بياحيه - طبيعة الجهاز العصبي ذاته . فمن المعروف ان الارتباطات العصبية تشبه الشبكة ، اي تشكل نظاما مترابلا له ميكانيزماته التعويضية الداخلية . واذا كان اهم جهاز وراثي منظما لهذه الطريقة ، فليس هناك ما يدعو الى رفض فكرة ان الجينات المسؤولة عن اعادة التكوين الوراثي للسلوك ترتبط فيها بينها وفقا للامكانيات المتاحة ، ومن ثم فهي تنتج شيئا مختلفا تماما عن طفرات الصدفة . فالمنتج الجديد تأليف منظم وليس عشوائيا .

وفي نهاية تأملات السيكولوجية عن الغرائز ، يؤكد بياحيه ان العمليات السبع السابقة يجب ان تعالج على اساس انها تعتمد على الديناميات العامة للتنظيم ، بمعنى انها تحدث داخل نظام معين هو الجهاز العصبي الذي يكامل بينها .

يحتتم بياحيه مؤلفه موضعا ان الكائن الحي نظام مفتوح ، والسلوك شرط ضروري لكي يؤدي هذا النظام وظائفه . ويحاول السلوك ان يرتقي بنفسه دائما ، ومن ثم فهو يمد التطور بحركه الاساسي .

ويفسر بياحيه هذا الدور الهام للسلوك على اساس العمليتين الرئيسيتين اللتين تمثلان محور تفسيره للنمو والعمليات النفسية بصفة عامة ، الا وهما عمليتا التمثيل **Assimilation** والملائمة **Accommodation** فالتمثيل يشير الى استيعاب الاشياء او الموضوعات وتكاملها في مخطط الافعال التي يقوم بها الكائن الحي (استيعاب جميع ما يتوسط بين الافعال والتمثيل الفسيولوجي ، على سبيل المثال ، بين البحث عن الطعام وهضمه) . وعلى ذلك فهناك انماط

ظهر متأخرا في تطور الكائنات الحية ، فمما تقدم بخطوات سريعة تقوى التطورات التي تحدث في الوظائف الأخرى . وبالإضافة الى هذا فان النشاط العصبي له وجهتان : في المقام الاول هو موجه للخارج يوسع من امكاناته الذاتية التي ترتبط بامكانات السلوك في بيئة لا تكف عن الاتساع . ثانيا ، النشاط العصبي موجه ايضا للداخل لكي يحقق تناسقا وتآزرا بين الاعضاء . هذا الشكلا من النشاط مرتبطان ببعضهما وبنفس التطورات التي تحدث فيها ، بحيث ان كلا منهما ضروري للآخر ومن هذا يجد بياحيه من المشروع ان يستنتج انه بقل ما يلعب السلوك دورا في تشكيل الجهاز العصبي فانه يساعد في خلق التنظيم الكلي للحيوان الذي هو في ذات الوقت تعبير له .

ان التطورات السلوكية تتميز بزيادة في عدد الحركات الممكنة للحيوان ، وزيادة حركته في البيئة . وهذه التطورات تقود الى مجموعة من التهذبات العصبية والمورفولوجية . وليس هناك من تفسير لتلك التطورات - من وجهة نظر بياحية - سوى أحد تفسيرين . الأول أن الاعضاء تنشأ مستقلة عن السلوك ، وأن كلا منهما نتاج لطفرات الصدفة ، بحيث يوجد لدينا مجموعتان مستقلتان من أحداث الصدفة ، تتركان للانتخاب الطبيعي وحده مهمة التوفيق بينهما ، وفي نفس الوقت تحقيق التكيف مع البيئة الخارجية . والتفسير الثاني ، أنه يوجد تنسيق منذ البداية بين تغييرات الاعضاء وتغييرات السلوك . وفي هذه الحالة فان السلوك لا بد أن يلعب الدور الرئيسي في هذه العملية لسببين : أولا لأنه الشرط المسبق للتفاعل الضروري بين الكائن الحي والبيئة ، وثانيا لأن السلوك وحده هو الذي يستطيع تحسين عمليات التكيف أو استبدالها . ويصرح بياحيه بأنه يأخذ بالتفسير الثاني . ومن هذه الزاوية فهو يعتبر السلوك القوة المحركة للتطور .

ان هذا الدور الجوهرى للسلوك باعتباره المحرك الرئيسى للتطور ، يرجع الى جوانب ثلاثة يتميز بها السلوك . أولا أن السلوك غرضي ، وهذه الغرضية ضرورية لاشباع حاجات الكائن الحي عن طريق التأثير المباشر في البيئة . ومن ثم فان ما يحدث في السلوك من تطور لا يمكن أن يقارن بالطفرات العشوائية ، التي تنشأ بشكل مستقل عن البيئة . وللسلوك أيضا طبيعة داخلية ذاتية ، فهو يرتبط بالدور الانتقالي للبيئة الداخلية ، اذ هو الوسيط الذي يربط بين البيئة الداخلية والبيئة الخارجية . والجانب الثالث يرجع الى أن السلوك يهدف دائما الى الارتقاء بذاته ، بمعنى تحسين قدرته على التعامل مع البيئة . ومعنى هذا أن التغيرات التي تحدث في السلوك ترتبط بتغييرات في البيئة الداخلية ، ثم تقوم البيئة الداخلية بعد ما يحدث فيها من تعديل بدور هام في عملية التطور ، وهو انتقاء تغيرات جينية ، تؤدي الى حدوث عملية اعادة بناء للبيئة الوراثية .

وهذا يعطي بياحيه دورا للسلوك باعتباره يمثل الميكانيزم الرئيسى لتطور الكائنات الحية ، بفضل توسطه بين الكائن والبيئة . ويعتقد بياحيه أنه هذا استطاع أن يتجنب التأثير المباشر للسلوك ، الذي افترضه لامارك .

فهل نجح بياحيه في تقديم تفسير ، متميز عما سبقه ، للعلاقة بين السلوك والتطور ؟

الواقع أن ما قدمه بياحيه من استنتاجات باعتباره المحرك الاساسى لتطور الكائنات الحية ، تظل مجرد احتمالات وافتراسات ، يمكن المجادلة فيها وتقديم حجج مضادة لها . ومهما يكن ، فسوف تظل مشكلات العلاقة بين السلوك والتطور مشكلة نظرية تحتمل تفسيرات مختلفة ومتعارضة ، حتى تتوافر لدينا معلومات تجريبية جديدة من بحوث علم الوراثة وغيره من العلوم البيولوجية .

العدد التالي من المجلة

العدد الأول - المجلد الرابع عشر
ابريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
الصّهيونية
بالإضافة إلى الأبواب الثّانية

٣ ليرات	سوريا	٥ دلائل	الخليج العربي
٢٥٠ ملين	المتاهرة	٥ دلائل	المعمودية
٢٥٠ ملين	السودان	٤٠٠ فلس	البحرين
٣٥ قرين	ليبيا	٤٠٥ دال	اليمن الشمالية
٤٠٠ بايه	منقط	٤٠٠ فلس	اليمن الجنوبية
٥ دنانير	الجزائر	٣٠٠ فلس	المغرب
٥٠٠ ملين	تونس	٢٠٥ ليرة	ليبيا
٥ درهم	المغرب	٢٥٠ فلس	الأردن

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢٥٠٠ دينار
البلاد الاجنبية ٢٠٠٠ دينار

تحويل قيمة الاشتراك بالربا الكويتي لمساب ووزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة من الحوالة مع اسم و عنوانه المشترك إلى ،

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الكويت